

اعلام العرب

١٠٥

أحمد زكي

حياته.. وفكره.. وأدبه

د. محمد محمد الجوادى



أعلام العرب

(١٠٥)

أحمد زكي

حياته وفكره وأدبه

د. محمد محمد الجوادى



المكتبة القومية المصرية المتنامية للكتاب

١٩٨٤

إهداء

إلى والديَّ الجليلين : —
الدكتور عبد الستار مصطفى
والأستاذ علي محمود البطراوي
تحية إعزاز وإجلال وتقدير •

تمتدیم

بقلم الأستاذ الدكتور

محمد عبد اللطيف ابراهيم

بقدرما أسعدنى أن يطلب منى الدكتور محمد الجوادى أن أكتب مقدمة هذا الكتاب بقدر ما تملكتنى رهبة لا أدرى كنهها ، ربما لأنى بعيد بحكم تخصصى عن الكتابة والأدب ، وأن كنت فى مقتبل عمرى من عشاقهما ، وربما لأنى أحسست أنى أحاول الغوص فى أعماق بحر حدوده بعيدة ، وأعماقه ساحقة ، يحتاج الى ملاح ماهر يستطيع بخبرته وسعة أفقه أن يلتمس من دره وصدقاته ما شاء وما شاءت له الظروف ، وربما لأن اسم أحمد زكى مرتبط فى ذهنى منذ أمد بعيد بقيمة علمية وأدبية كبيرة لا يستطيع الانسان أن يقيمها وهو راض بما قدر - وربما لأن هذه الأسباب كلها مجتمعة - جعلتنى أهرب الكتابة عن هذا العالم الجليل الذى عرفته الأجيال السابقة والأجيال الحاضرة كأحد العمالقة الذين أثروا الحياة العلمية والأدبية فى مصر والوطن العربى على مدى نصف قرن أو يقارب ذلك .

واعتقد أن ليس من الضرورى أن يكون الانسان معروفا لك معرفة شخصية حتى تتمكن من الارتواء من أفكاره والاستمتاع بتجاربه . . . وقد عرفت الدكتور أحمد زكى على صفحات المجلات والكتب - وأظن أن معظم محبيه وعشاقه عرفوه عن هذا الطريق فأمنوا به وأخذوا بكتابات وعشقوا أسلوبه ، وأشهد انه على مدى

سنوات عديدة كان العدد الشهري لمجلة العربي أمل كل قارىء ينتظره فى لهفة ويحرص على اقتنائه فور صدوره ، وكان مقال الدكتور أحمد زكى هو بيت القصيد فى كل عدد ، ففيه كنت تجد من الفكر والمعرفة وسلسلة العرض ورقة الأسلوب ما يجعلك تحرص على اقتناء هذه المجلة فى كل شهر حرصك على زادك من طعام وشراب .

وأشهد أننى سسعدت بمطالعة كتاب الدكتور محمد الجوادى الذى أتاح لى هذه الفرصة القيمة لأقرأ حياة انسان أحبه وأقدره ، وأضعه مثلاً أعلى أحتذى به فى مشوار حياته الطويل ، ولا شك فى أن هذا الجيل الذى كان منه أحمد زكى ، ذلك الجيل الذى ولد فى أواخر القرن الماضى ، ومارس الحياة فى أوائل القرن الحالى وحتى أواسطه ، هو الجيل الذى حمل مشعل العلم والثقافة الى معاصريه وإلى الأجيال اللاحقة به حتى عصرنا هذا ، ولا يستطيع أحد أن ينكر فضل هؤلاء الرواد الذين أخذوا على عاتقهم مسئولية نقل هذه الأمة الى عالم النور والحضارة والمعرفة .

تخرج الدكتور أحمد زكى فى مدرسة المعلمين العليا فى دفعة ضمت عدداً من أبرز العلماء ورجال التعليم فى مصر ، وكان من أوائل المبعوثين الى الخارج ، وكان أول مصرى يحصل على دكتوراه العلوم فى الكيمياء ، وعاد ليكون أول أستاذ مصرى فى الكيمياء فى كلية العلوم ، وقد تخرج على يديه رجيل من أساتذة العلوم والكيمياء فى الجامعات المصرية والعربية أصبحوا رواداً فى كل مكان يذهبون اليه ، وما زال هؤلاء جميعاً يكونون له التقدير والاعزاز ويفخرون بالتلمذة على يديه .

وعلى الرغم من استاذيته الفذة ، وفوزه دائماً بحب زملائه فى كلية العلوم وأحقيته فى العمداء الا أنه وجه جهوده الى تمصير

مصلحة الكيمياء ومصلحة الصناعة ، وفى هذا الزمان كم كان ذلك صعبا فى وجود الاستعمار وهيمنته على مصالح الدولة جميعا .

ولعل أبرز انجازات الدكتور احمد زكى فى المجال العلمى هو ذلك الصرح الضخم الذى هو المركز القومى للبحوث الذى كان بمثابة ابراز هام لفاعلية الجانب التطبيقى من العلوم فى حياتنا المعاصرة ، ولا شك أن المركز القومى للبحوث هو الدعامة القومية التى بنيت عليها لبنات الفكر لدى الباحث المصرى وهو أيضا التربة الخصبة التى نمت فيها هذه الأفكار فاثمرت وازدهرت ، ووضعت الباحث المصرى فى الموضع الذى يليق به على مستوى الوطن العربى والعالم الدولى ، وان من يحج الى هذا الصرح الشامخ دارسا او باحثا أو زائرا لابد أن تحدثه نفسه بأن من فكر فيه وسعى لاقامته ورعاه حتى خرج الى الوجود ، هو بلا أدنى شك ابن بار من أبناء مصر ، خرج من أرضها ، وأظلت سماءها ، ورواه نيلها ، فأراد أن يرد إليها بعضا من عطائها ، وكم كان عطاؤه أهلا بعطائها .

على أن هذا العطاء المتدفق لم يقتصر على وطنه المصرى بل امتد ليعم أمته العربية ، ولعل أبرز انجازاته فى هذا المجال : مجلة العربى ، التى يعرفها ملايين القراء العرب من المحيط الى الخليج ، وأشهد أننى عرفت الدكتور احمد زكى على صفحات هذه المجلة التى اعتبرها عملا من أعمال الريادة والسيادة فى الثقافة والأدب ، وقد خرجت هذه المجلة الى النور فى وقت تدفق فيه البترول فى صحراء العرب ، فانتقلت الأمة العربية فى طفرة الى عالم غير الذى كانت تعيشه ، فضاعت او كادت تضيع معالمها - وأخشى أن أقول انها عرفت فى العالم الخارجى بأمة اللهو والترف واللامبالاة - حتى ان شاعرا عربيا كبيرا نادى أعماق هذه الأمة فى وقت من أوقاتها الحالية ، أن تحاول أن تؤلف كتابا ، ان تقرأ كتابا ، أن تحاول

أفرادها أن يذهبوا الى بلاد الثلج والضباب لكي يتعرف عليهم الناس هناك ، ولا يحسبونهم نوعاً من الذباب .. أقول : فى هذا الوقت المظلم كانت مجلة العربى كالشمعة المضيئة لا يستطيع الظلام مهما كان كثيفاً وثقيلاً أن يحجب ضوءها . ولقد كنت دائماً ولازلت أقول انه يكفى دولة الكويت أن تتبنى هذا العمل المجيد الذى قدر له أن يستحوذ على قلوب العرب جميعاً وكان بداية طيبة لظهور العديد من أمثال هذه المجلة فى أنحاء شتى من الوطن العربى .. لكم كان أحمد زكى عظيماً عندما قام بإصدار هذه المجلة ، وتفرغ لها سنوات عدة أعطى فيها من فكره وعلمه وأدبه ما ثبت أقدامها ، وما كان كفيلاً بأن يدفعها دائماً الى الأمام حتى وقتنا هذا ، وحتى بعد رحيله ، فما زالت روحه الفياضة تستشف فى صفحاتها ، ومازال فكره يقرأ فى حروفها ، وما زالت - وأدعو الله أن تظل - بأذن الله رسول محبة فى أنحاء الوطن العربى .

لا أريد أن أطيل على القارئ ، فسوف يجد بيان انجازات هذا العالم الجليل على صفحات هذا الكتاب ، من مؤلفات تتجلى فيها قدرة العالم الأديب الذى وهب من القدرة على التعبير وفهم القدرة الالهية ما جعل كتاباته فى هذا المجال فى الدرجة الأولى بين الآثار الأدبية والعلمية معاً ، ويتجلى هذا بصفة خاصة فى مؤلفيه : « مع الله فى السماء » ، « مع الله فى الأرض » ، ناهيك عن مئات المقالات فى المجالات المختلفة وفى المجالات المتعددة من أدب وعلوم وسياسة وطلب وغير ذلك .

قد لا أعرف الكثير عن حياة الدكتور أحمد زكى الوظيفية والسياسية ، وقد لا يهمنى كثيراً أن أمس هذا الجانب ، ولكنى أود أن أشير أنه عندما كان فى مقعد مدير الجامعة كانت له قدرته الخارقة على الموازنة بين حرية الجامعة وسلطة الدولة ، وبين ارادة العقل ،

وارادات الطلبة ، وهذه ميزات لا يتمتع بها الا القليل من رجال ذلك
الزمان وكل زمان *

وان اقترب من نهاية هذه المقدمة تخالجنى مشاعر متعددة ،
يخالجنى شعور باننى قد حاولت أن أجوب آفاقا لست ربانها ، وان
كنت أشعر أن هذه المحاولة قد أرهقتنى الا اننى سعيد بها ، فالعائد
منها أكبر من المبدول فيها .. يخالجنى شعور بالغبطة يقودنى الى
شعور بالرغبة فى اتخاذ الرواد الأوائل قدوة نحتذى بها ، وهدفا
نسعى اليه .. وأخيرا يخالجنى شعور بالسعادة أن أرى هذا المؤلف
الطبيب الشاب يقدم هذا العمل الرائع عن حياة الدكتور أحمد زكى
كما قدم من قبل أعمالا ناجحة فى سلسلة متواصلة عن اعلام علماء
مصر المعاصرين ، وان كان الدكتور محمد الجوادى قد وفق كل
التوفيق فى الكتابة عن هؤلاء الاعلام فانى أشهد انه قد وفق كل
التوفيق فى دراسته الطبية ، وهو الآن يشترك معى فى تقديم دروس
ناجحة فى الجراحة باللغة العربية .. فأرجو له دوام التوفيق وأقدر
جهده الرائع وحرصه المستمر على احياء حياة البارزين من العلماء
المصريين *

دكتور محمد عبد اللطيف إبراهيم
رئيس جامعة الزقازيق

مقدمة المؤلف

ليس فى وسع المؤلف حين يباهى بكتابه وهو يقدمه الا أن يعترف فى ذات الوقت بأن كتابه كتاب بين دفتين عن كتاب مفتوح عاش تقرأه الناس ، وتقرأ له ، ثم مضى والناس لا تزال تقرأه وتقرأ له ، ويأتى هذا الكتاب فيضيف معطوفا جديدا حين يقال وتقرأ عنه !

بل ما بال المؤلف تأخذه نفسه الى جانب الزهو ، فيقول ما معناه ان الناس سوف يقرأون هذا الكتاب ، وبهذا يقرأون عن أحمد زكى ، **وانى له ذلك القبول الذى لم يصبح بعد محل بحث !** ولما يخرج كتابه الى الناس ؟ ٠٠٠ أهو التفاضل ، أم هو الأمل ؟ ٠٠ أم هو التمنى ؟ أم هو الرجاء ؟ ٠٠ كل ذلك قد يكون ، ولكن الحق الذى لا مرية فيه أن الناس تحب أن تعرف من هو أحمد زكى ٠٠ ووددت لو زاد علمها بهذا الرجل العظيم ٠٠ فإذا كانت حياتنا الثقافية والفكرية فى عقديها الأخيرين كانت تعاني مع كل العظماء أو الرواد أو العمالقة أو أدياء بعض ذلك حالا قد يستساغ التعبير عنه بقول القائل « اننا نعرف عن حياة أولئك البارزين الشخصية اضعاف ما نعرف عن آثارهم وقدرها » ٠٠ اذا كان الأمر كذلك فالحال مع أحمد زكى هو خلاف ذلك على خط مستقيم !

ولعل فى هذا ماكان باعثا حقيقيا ودافعا حثيثا للمؤلف حين يلقاه أهل الفضل من الناس ، وقد عرفوا من أمر اهتمامه بتاريخ اعلام علمائنا المعاصرين ماشرّف به ، فيسألونه عن كتابه عن الدكتور زكى ، وعن اليوم الذى يلقون فيه الكتاب ، فكان صاحبنا طيلة الف يوم

مضت يسعد بأن ينهى اليهم أنه انتهى من الكتاب ، وأنه قد دفع به
الى دار النشر الأولى فى هذا الوطن !

أما ذلك الجيل الجديد من الشباب الذين هم فى الجامعة اليوم
أو دونها ، فانهم يدهشون حين يرون الناس يسخرون من جهلهم
بالدكتور أحمد زكى صاحب العربى وبأحمد زكى باشا شيخ العروبة ،
فى الوقت الذى تتراءى فى مخيلتهم صورتان لرجلين من أهل الفن
فى القريب الحاضر فى التلفزيون والمسرح ! فإذا قدر لهذا الجيل
الجديد أن يعرف بعض قدر الدكتور أحمد زكى أو شيخ العروبة ،
فسوف يسخر من معلوماته أضعاف ماسخر منه سابقوه فى قرارة
أنفسهم ٠٠ هذا إذا نجح هذا الكتاب فى أن يصور للناس بعضا من
أحمد زكى حياته وفكره وأدبه ٠

قد يكتشف الناس بعد أربعين عاما ، أو نحو ذلك ، أن أستاذ
الجيل الذى نحن منه (إذا كان لابد أن يكون له من أستاذ ، أو إذا
قدر لهذا الجيل أن يكون له من الشأن ما يغرى بالبحث عن أستاذه ،
أو إذا بحثوا فى شأن أفراد القلة النابذة من هذا الجيل لو أتيح لها أن
تتقدم الصفوف فى العقود الأولى من القرن الحادى والعشرين) هو
الدكتور أحمد زكى ، ولعل الرجل نفسه كان يعى هذه الحقيقة ،
حين بذل - لا نقول من جهده ولكن نقول من نفسه - ما بذل طيلة
مائتى عدد من مجلة العربى التى كانت بلا شك الرحيق الأوسع
انتشارا بين طائفة محبى الثقافة الرفيعة على امتداد الوطن العربى ،
بل اللسان العربى ، ولعله ، بل أنه كان يعى تماما أن الأستاذة مع
عصره لم تعد كأستاذة لطفى السيد فحسب ، فى جريدته أو فى
جامعة المصريين الوحيدة ، أو نادى محمد على ٠٠ وإنما صارت
أستاذة الجيل مع الديمقراطية التى سودتها وسائل الاتصال (حتى
ولو قيل إن الديمقراطية كانت غائبة) ، صارت هذه الأستاذة الى

تلك الوسائل نفسها ، وأصبح هناك فى نفس كل طموح الى هذه الأستاذية تنازع قوى ، قد يكون خفيا ، وقد يكون ظاهرا بين الذئوع والخلود ، بين أستاذة المواقف وأستاذة العقليات .. ولهذا أدرك أحمد زكى ، وظهر أثر أدراكه واضحا ، ان أستاذية أجيال عصر الفضاء لا بد لها من المام واسع وعميق بثقافة رجة عريضة ، تلزم لها التقنية المتواصلة ، ولهذا كان أحمد زكى فى كل أسبوع من أسابيعه ، بل فى كل يوم ، تلميذا على دقيقة من الدقائق الجديدة ، وبهذا أصبحت معلوماته ، وأصدق وصف لها القول الانجليزى «up to minute» «حتى الدقيقة» .

ولم يكن أحمد زكى فى حملاته الفكرية ولا فى انجازاته الانشائية فى المعاهد والمصالح التى أنشأها أو ادارها ، من أولى الحنكة الحكومية الذين يحرصون على جسورهم من ورائهم ، بل انه كان من مذهب الذين يخطرون فيقولون انه يستوى عندهم ان يحرقوا تلك الجسور أو لا يحرقوها .. لأنهم لا يتقهقرون أبدا .. وهكذا كان أحمد زكى لم يتقهقر أبدا ، وانما كان يترك المجال الى المجال الآخر لينشأ (أو فينشأ) ويبدع وينجز ويتفوق ويخلد ، ولعله لو نظر وراءه فى غضب لذهبت نظرتة ببعض الآفاق التى حققها فى أى من مواقفه السبعة التى كان له فى كل منها اليد العليا . وقد كان الرجل : المعلم الناجح فى التعليم الحر ، وكان بعد ذلك طالب البعثة النابغ ، ثم كان الأستاذ المحبوب صاحب المدرسة المرموقة ، ثم قاد تصدير مصلحة الكيمياء ، وتطويرها على خير ما يكون ، ثم أنشأ المركز القومى للبحوث وشب به على نحو لم يكن لولاه ، ثم ولى الوزارة ، ثم تولى أمر الجامعة فحفظ عليها ثوبها ، ثم ذهب لينشئ للحرث من الكويت (ولا نقول فى الكويت) مجلة فيها اللسان وفيها المذاكرة وفيها العقل وفيها الروح التى هى من وراء كل ذلك ، ولو ان الشيطان كان قد تملك من نفس أحمد زكى القدر الأيسر الذى

يهيئ لها أن ترى الخير في نظرتها الى الوراء (في غضب أو في حسرة) ، أو الى المضي مع الماضي في تخيل أو في خطة ، لخسرنا من أحمد زكى الكثير ، ولكن ذلك لم يكن لأن الرجل لم يخسر من نفسه شيئا ، مع أنه كذلك ثم يخسر من دنياه الكثير (ولا حتى القليل) .

وقد يكون الفرق بين أحمد زكى وبين كثير من أنداده الذين حظوا في حياتهم العامة بكثير من هناة البال ، هو ذلك الفرق الذى عبرت عنه قصة الراهبين أحدهما من الدومنيكان ، والثانى من الجزويت ، كانا فى الدير ، وأرادا التدخين فى أثناء نزهة ، فكان عليهما أن يسالا الرئيس الاذن بذلك ، وذهبا اليه كل بمفرده وعادا ، فوجد راهب الدومنيكان زميله يدخن ، فدهش وسأله السر الذى جعل الرئيس يأذن له ، بينما رفض طلبه ، فسأل الجزويتى زميله : ماذا طلبت من الرئيس ؟ فقال الدومنيكانى : طلبت أن يؤذن لى أن ادخن وأنا اذكر الله ! هنا افتر فم الجزويتى عن ابتسامته وهو ينفخ الدخان ، وقال : أما أنا فقد طلبت أن يؤذن لى أن اذكر الله وأنا ادخن !! ٠٠ وقد كان الدكتور أحمد زكى يسأل ويسأل ولا يقم الادعاء بذكر الله ، لأنه كان فيه نزوع الحرية القوى ٠٠ ومع هذا كان فى قرارة نفسه القوية ، ومنذ مرحلة مبكرة ، من أشد الناس تحمسا للنظام ، ولو قدر له أن يلخص فلسفته فى هذا الصدد لقال قول القائل : أنه كان يهتم فى شبابه المبكر بالحرية ٠٠ ثم أصبح بعد حين يهتم بالنظام ، وقد توصل الى أعظم فلسفة ، وهى أن الحرية من منتجات النظام !

كل أولئك من خلق الرجل ، ومن فضله ، ومن قدره ، سوف يتناولوه الجزء الأول من هذا الكتاب فى شيء من التفصيل الجميل تتوالى فيه الفقرات على نحو لا يعمل منه انقارىء ، أو هكذا يود

المؤلف لو كان كذلك شعور قارئه ، فإن كان الأمر كذلك ، فهلا انتقل المؤلف وقارؤه الى الجزء الثانى من هذا الكتاب !

وقد ظل الدكتور أحمد زكى رحمه الله حتى أواخر أيامه عقلا حاضرا ، وذهنا صافيا ، ونظرا ثاقبا ، وقلبا شابيا ، وصدرا رحبا ، ونفسا وثابة ، لم يضعف منه من كل ذلك شئ ، الا القوة التى تحمل كل ذلك ، كل هاتيك السنوات ، قوة العضل ، فمات الرجل بضعف العضلات ، قوى الايمان والفكر ، والشعور ، وبقي من بعده تراث عريض ، وانتاج غزير ، وفكر واسع المدى ، وكان على المؤلف أن يبحث عن كل ذلك ، وكان عليه أن يتطرق وأن يتشعب وأن يتفرع وكان عليه بعد ذلك أن يعود الى قارئه فلا يضطره الى التطرق أو التشعب أو التفرع ، وإنما يضع بين يديه ، فكر الرجل ، مرتبا ومبوبا ، على نحو يتأتى منه تكوين الفكر عن الفكر ، وتزويد الفكر بالفكر ، وتصحيح الفكر بالفكر ، وأعمال الفكر بالفكر .. وإذا نجح المؤلف بالجزء الثانى من هذا الكتاب فى أن يحقق أيا من هذه الأمور الأربعة فقد يكفيه ذلك جزاء ما بذل من جهد .

جمع الدكتور أحمد زكى من مقومات الألمعية ما جمع ، ولكن أعظم ما فى شخصيته كان ذلك التوازن الظاهر ، والتعادل الكامن فى تلك المقومات التى يعرفها الناس فى عظمائهم يطغى بعضها على بعض ، كان فى الدكتور أحمد زكى ذلك التوازن الظاهر والتعادل الكامن بين أرهاق حاسة الفن ، ودقة نظرة العلم . بين الحرص على المنصب الرفيع والتمسك بالخلق الأرفع . بين حب الناس وتقدير النفس ، بين سهر الليالى وصحة البدن ، بين قوة العزيمة وشكيمة الزهد ، بين الحضور الجماهيرى ، والوحدة المؤنسة ، بين المعارف الواسعة ، والصدقات القوية ، بين عمل الأشياء الصغيرة باتقان ، وعمل الأشياء الصعبة بسهولة .. ولم يكن هذا شأن أحمد زكى فى نفسه فحسب . وإنما كان كذلك فى قلمه وأدبه : الفائز

من قبل الميلاد ومن قبل الهجرة ، ومعان من بعد الفضاء وبعد الذرة ،
وشى عثمانى وحشو عصري ، بديع أنيق فى بيان دقيق ، معان
أوربية فى صياغة عربية ، ومعان عربية فى صياغة أوربية ، قصص
فى مقال ، ومقال من القصص ، حبكة تنفك فتنشأ عقدة ٠٠ وكل
اولئك كان من وراء نتاج أدبى ضخم سوف يحاول الجزء الثالث
من هذا الكتاب عرض بعض معانيه بأكثر مما يعرض الفن فيه .

وسواء كان القارئ الكريم من الذين يقرأون مقدمة الكتاب
بعد الكتاب نفسه ، أو كان من الذين يقرأونها من حيث هى فى الكتاب ،
فانى أود أن أعتذر إليه أن ليس فى إمكان هذا الكتاب أن يضع
أحمد زكى بين يديه ، وقد يشفع للمؤلف أن يوافقه القارئ على
أن المثل العليا نجوم لن تستطيع أن تلمسها بيدك ، ولكنك ، تستطيع
أن تكون كالبحارة الماهرين ، تتخذها مرشدا لك وتتبعها فتبلغ
غايته .

ها وقد بلغنا غايته ، فهل للمؤلف بعد ذلك أن يفخر بأن كتابه
هذا قد جاء ثمرة من ثمرات وقت انقطع فيه بعض الشيء عن
القاهرة ، هل يريد بذلك أن يعتذر عن بعض ما قد يلحظ
قارئه الكريم من عيوب ، يخشاها دائما المؤلف أن تقف به دون
المكانة التى تحتلها القاهرة من الوطن !! ومع هذا فلو كان لهذا
الكتاب أن يتميز على كتبى السابقة بشيء فقد يكون ذلك فى خفة
حركة الأفكار فى سطره ، وبصفاء الصوت فى الكتاب للمترجم
عنه ، وبخلو فصوله الى حد كبير من تلك التقاطعات ، واستعاضته
عن ذلك بشيء من التلويل فى شيء من الدوران قد يفهم على
أنه تكرر ٠٠ ومع هذا يطمح المؤلف أن تكون تلك الخصال الثلاث
مما ينال رضا القارئ ، وتقديره للزقازيق (لا للمؤلف) فهى سر
كل تلك الانعكاسات .

أما ما ينبغي للكتاب من تزيين بشكر أصحاب الفضل وراءه ،
فينصرف اليوم الى شقيق عالمنا الكبير ، اللواء حسن عاكف ، واني
لأرجو الله أن يأتي اليوم الذي يجد فيه من تقدير وطنه ، ما هو أهل
بهذا الوطن ، وسمائه ، وينصرف كذلك الى أساتذتنا الأجلاء الدكاترة
كامل منصور ومصطفى أمين ومحمود حافظ وعبد المنعم أبو العزم
وحامد جوهر وحسين فوزي وصلاح جلال ومحمد طنطاوي ومنير
نصيف وأمیل سمعان وزميلی الدكتور سامح خميس ، فلهم جميعا
الثناء الجميل .

دكتور محمد الجوادى

الجزء الأول

حياة احمد زكى

ولد الدكتور أحمد زكى بن محمد حسين عاكف فى اليوم الخامس من شهر ابريل سنة أربع وتسعين وثمانمائة والـف (١٨٩٤) فى مدينة السويس ، وكان والده رحمه الله رجلا مثقفا جمع مكتبة كبيرة ووعاما ، وتعلم فى صغره فى مدرسة فرنسية ، وكان كعادة أغلب أهل العلم والشهادات فى ذلك الوقت من موظفى الحكومة ، وهذا هو ما ذهب بالأسرة الى السويس حيث ولد عالمنا الجليل ، ثم عادوا الى القاهرة عام (١٩٠٠) حيث ترعرع .

وكان والد أحمد زكى على صلة بالشيخ محمد عبده ، يتصل به ، ويستمع اليه ويأخذ بأرائه ، وهى ظاهرة مدهشة على الأقل فيما يتعلق بى ، فقد كان والد محمد كامل حسين كذلك ، وكان والد على مصطفى مشرفة كذلك ! وكانت لوالده ميول الى الكتابة ، وكثيرا ما كان يعلق على ما يقرأ بعبارات وجدها أبناؤه على هوامش كتبه تنم عن سعة أفق ، وسلامة عقيدة ، وقد امتد به العمر حتى رأى ابنه الدكتور أحمد زكى عالما كبيرا وأستاذًا جامعيًا ، ومديرا لمصلحة الكيمياء ، ثم توفى سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة والـف (١٩٤٢) أما والدته فقد توفيت وهو يدرس فى إنجلترا .

كان أحمد زكى أكبر أشقائه ، وكان له شقيقان ، وثلاث شقيقات ،
فاما الشقيقان فهما المرحوم الأستاذ محمد أمين عاكف ، وكان من
كبار رجال التعليم المصرى ، واللواء حسن عاكف ، اطل الله
بقائه * عضو جمعية المهندسين الجويين بلندن ، والطيار المصرى
اللامع ، وأما الشقيقات الثلاث فقد توفيت وسطاهن « حنيقة » بعد
عودتها بشهادة عليا من انجلترا ، وعملها استاذة فى معهد البنات ،
وكانت من أوليات المصريات اللاتى ابتعثن للخارج فى سبيل العلم ،
وأما الشقيقتان الأخريان فهما زوجتا الأستاذين عبد الرحمن خضير
وكيل وزارة الشؤون القروية السابق ، والأستاذ جنيد رئيس تحرير
البلاغ عليهم رحمة الله جميعا *

ولما شب الدكتور أحمد زكى عن الطوق بعث به الى الكتاب ،
فلم يطقه ، وتركه بعد أيام معدودات الى المدارس الحكومية ، وقد
تحدث عالمنا عن تجربته فى الكتاب فى أكثر من موضع ، ودرس
الدكتور أحمد زكى سنوات من المرحلة الابتدائية فى السويس ثم
فى القاهرة فى مدرسة عباس الابتدائية فالتفوقية الثانوية وعرف
رحمه الله بالجد فى التحصيل وبروز الشخصية فى هاتين المرحلتين ،
وبالإضافة الى هذا كان لأحمد زكى الجناح الأيسر لفريق كرة القدم
فى التوفيقية الثانوية ، وحصل عالمنا الجليل على البكالوريا سنة
١٩١١ ، وكان ترتيبه الثالث عشر على القطر المصرى *

أثر أحمد زكى أن يلتحق بمدرسة المعلمين العليا ، فالتحق بها ،
وزامل فيها مجموعة من العظماء ، قلما اجتمع عدد كبير منهم فى
نفس الدفعة ، قاد هؤلاء حركة الثقافة وهم طلبة وهم شباب ، ثم
تسلموا مقاليد التعليم المصرى لفترة طويلة من الزمان فارتقوا به
وحافظوا له على مستوى دولى مرموق *

زامل الدكتور أحمد زكى الأستاذ محمد فريد أبو حديد الأديب

والكاتب وعضو مجمع اللغة العربية وأحد كبار رجال وزارة المعارف ،
والدكتور محمد عوض محمد الجغرافى والأديب والوزير النابه وعضو
مجمع اللغة العربية وأحد رواد الإصلاح ، والدكتور احمد
عبد السلام الكردانى - أطل الله بقاءه - أمين جامعة القاهرة ووكيل
وزارة المعارف وأول من درس الطيران وهندسته ، وعبد الحميد
العبادى المؤرخ والأستاذ الجامعى الكبير وعضو مجمع اللغة العربية ،
والأستاذ محمد بدران شيخ المترجمين العرب فى العصر الحديث ،
وأحد كبار رجال التعليم والثقافة ، والأستاذ محمد شفيق غريال
الأستاذ الجامعى ، والمؤرخ الكبير ، والمشرف على إصدار الموسوعة
العربية الميسرة ، وعضو مجمع اللغة العربية والأستاذ محمد أحمد
الغمرأوى أحد رجال التعليم والعلم البارزين ، والأستاذان محمد
عبد المنعم أبو زهرة ومحمد عبد الوهاب خلاف من كبار رجال
وزارة المعارف والجامعة ، والأستاذ محمد كامل سليم الذى اختاره
سعد زغلول سكرتيراً خاصاً له ، ثم تدرج فى مناصب الحكومة
حتى كان سكرتيراً عاماً لمجلس الوزراء المصرى ، وغير هؤلاء من
الدفعات السابقة واللاحقة •

كانت مجموعة متميزة باتساع الأفق ، وعلو الهمة ، وسمو
الغاية ، انظر إليها وقد الفت من بينها وهى على وشك التخرج من
مدرسة المعلمين « لجنة التأليف والترجمة والنشر » أعظم مؤسسة
وطنية قامت للنشر فى مصر ، واختارت اللجنة ضمنا للنجاح أن
تبدأ بالكتب المدرسية ، فعهدت بكتاب « مبادئ الكيمياء » الى
أحمد زكى وأحمد الكردانى ليترجماه ، ثم أخرجت اللجنة الكتاب
بالعربية ، ليكون المرجع الأول لطلابها ، وبقي هذا الكتاب كذلك
لفترة طويلة •

وتخرج أحمد زكى وزملاؤه ، فلم يجدوا أبواب الرزق مغلقة ،
ولكنهم وجدوها لا تتسع لهم ، كانت الحرب العالمية الأولى قد دقت

الأبواب ، وانتشروا فى الأرض يبحثون عن عمل يكفل لهم لقمة العيش ، وترددوا فى وظائف التدريس بين القاهرة والأقاليم ، وعمل أحمد زكى بالتدريس فى بعض المدارس ثم ناظرا لمدرسة وادى النيل الثانوية بباب اللوق بالقاهرة ، وكانت على مقربة من الجامعة المصرية القديمة ، وكان صاحبها هو والد الفنان يوسف وهبى . وتقوم مكانها اليوم المدرسة الألمانية بباب اللوق .

وقد وصف أحمد زكى حاله وهو ناظر ، وتلاميذه يكبرونه فى السن ، وطولهم أكبر فقال فى طرافة : « ولكن شاربى يفوق شواربهم لأنه يبرم الى أعلى ، وكانت مودة العصر » فاتخذ أحمد زكى منها ضرورة أدبية .

وكانت النفوس فى نهايات الحرب العالمية الأولى مشتتة بالغضب على الانجليز ، تبغى الخلاص منهم ، وقد اتخذ هذا الغضب بعد مرحلة قصيرة صفة الثورة العامة ، فكانت ثورة ١٩١٩ ، ولكن بدايات هذا العنف كانت عند الشباب من أمثال أحمد زكى وانداده وطلبته ، ويعبر أحمد زكى عن ذلك بقوله انه كان هو ومصطفى عبد الرازق ، ومنصور فهمى وأحمد أمين زملاء فى مدرسة الثورة ، وكانت مهمة الناظر وقتها تنظيم الاضرابات ، وقد خرج طلبة أحمد زكى ذات يوم فى مظاهرة تحدى الانجليز الذين اصطفوا فى انتظار مقدم السلطان فؤاد لافتتاح الهلال الأحمر ، وخرجوا فى يوم آخر ثم عادوا الى المدرسة وجاء الانجليز يلاحقونهم ليحرقوا بهم الأذى ، فلم يجدوا فى الفصول الا الطلبة الصغار وضعاف البنية ، وكان أحمد زكى الناظر قد أخفى الطلبة فى البدروم وهكذا .

وشارك أحمد زكى فى حركة المعلمين لتكوين نقابتهم ، وانتخب سكرتيرا عاما لنقابتهم الأولى .

كانت نفس احمد زكى مشغولة بالثورة ، ولكنها كانت تواقه كذلك الى العلم ، وقد رشح احمد زكى بحكم اوليته لبعثة الى انجلترا ، ولكنه حرم منها بسبب رسوبه فى الكشف الطبى ، ولكن نفسه ظلت تواقه الى العلم ، وذهب يدبر أمر السفر على نفقته الخاصة ، حتى اذا توفر له من ماله ذلك القدر الذى يمكنه من البداية قرر السفر ، واخذ طريقه الى انجلترا ، والتحق بجامعة ليفربول فى كلية العلوم ، واختار التخصص فى الكيمياء ، هكذا : دون أن يخطط له أحد أو يوجهه .

وقد قال فى ذلك : « ولم يكن للمصريين فى نهضتهم الحديثة ، الى ذلك اليوم علم بهذه الكيمياء » كانت الكيمياء شيئا مجهولا ، أقسامها وحروفها ، وسألت فما شغفانى « عجيب » وليس فى هذا مبالغة اذا ما تذكرنا قصة ترجمة كتاب « مبادئ الكيمياء » التى قام بها عالماها والكردافى .

سافر الدكتور احمد زكى فالتحق بجامعة نوتنجهام ، والسر فى هذا أن جامعة نوتنجهام كانت الجامعة الوحيدة التى استجابت لطلبه بعدما كتب الى الجامعات البريطانية يبتغى الالتحاق بها ، وحين ذهب الدكتور احمد زكى الى نوتنجهام ، لم يكن فيها من المصريين الا اثنان : على مصطفى مشرفة ، ومحمد احمد الغمراوى . ولم يكن سبقهم الى الدراسة فيها على ما يرجح الدكتور زكى إلا النقراشى باشا رحمهم الله جميعا .

ويصف الدكتور احمد زكى أيامه الأولى فى الجامعة وبين الانجليز فيقول : « كنت فى أول أمرى بادئ الحس مرهف ، ثم تعلمت من القوم انثلامه ، وتعودت أن أسير فى طرقات الحياة هادئا باردا لا ابالى ، وان تاججت فى قلبى مما القى وممن القى جمرات ،

والأدب شاع في القوم فلكل عطاء شكر ، ولكل أخذ استئذان ،
والصف ، والطاير ، ولم تكن تعودناه في مصر طماننا انفسنا على
الوقوف فيه . ان القادم الأول له الخدمة الأولى واذن لابد من
ترتيب » .

ثم حانت للدكتور فرصة للانتقال الى جامعة ليفربول « وهي
جامعة أكبر ، والمدينة مدينة أفسح ، والمصريون كانوا فيها كثرة
وكان فيهم انبساط ، وعندى انطواء فقل بهم لقائى ، وتنقلت بين
الأسر أنزل بها ، فتارة أحمد ، وتارة آدم » .

« وألفت رجال هذه الجامعة ، وألقونى ، وحمدت لهم ، وحمدوا
لى ، وكان أساتذتى بها قى العلم أساطين ، رأيت الأستاذ الكبير
بالى مرة يسير من معمل فى الجامعة الى معمل ، وبين الاثنين
شارع ، وفى يمينه أجهزة ، وفى يسراه ، وهو مثقل بها ، فأسرعت
اليه أحمل عنه ، فدفعنى فى لطف ، فلما ألححت قال لى : « ان
كنت مغرما بحمل الهموم فاحمل هذه عنى ، وكان ذاعين واحدة ،
والأخرى من زجاج ، فقد كان ذهب بها فى شبابه فرقة جاعته فى
تجربة كيمائية لم يحسب لها حسابا » .

« ورأيت ضحى يوم رجلا طويلا مهيبا على رأسه شعر طويل
منتفش ، وهو يسير فى رحاب الجامعة فى هالة من الناس ، فسرت
نحوهم ، فوجدت بينهم أساتذة عرفت ، وأساتذة لم أعرف ، وهم
يدورون فى الجامعة بصاحبهم ، وسألت من الزائر قيل أينشتين
فتبعت مع التابعين ، ولم يرتفع من حوله صراخ ، كان الوقار السائد ،
وكان السكون فكانما كنا نسير معه فى ماتم » .

قضى أحمد زكى عاما وعامين يحاول أن تلحقه الحكومة
المصرية ببعثتها حتى أفلح فى النهاية أن يضم الى البعثة الرسمية ،

ومن ملف الدكتور احمد زكى فى وزارة المعارف ننقل نص هذا الخطاب المؤرخ ١٩٢٢/٢/٩ :

« حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة المعارف

السلام على سعادتكم ورحمة الله

قدمت العام الفائت طلبا الى صاحب المعالى وزير المعارف السابق اطلب فيه الى الوزارة أن تدمجنى ضمن طلبة ارساليتهما بانجلترا ، وقد تسلمت الوزارة طلبى هذا فى يونيو الفائت ، وقد وعدتنى بلسان الوزير عن طريق قلم الارسالية على اثر ذلك بالنظر فى طلبى هذا العام لأن وقت النظر فى ارسالية العام الفائت كان قد تم .

وليس لدى الآن من جديد أزيد على ما طلبته فى العام الفائت سوى لفت نظر سعادتكم الى تقرير قراء على منذ لأسبوعين المستر اليوت رئيس قسم الارسالية بلندن ، وهو تقرير عنى كتبه رئيس مدرسة الكيمياء بجامعة ليفربول البروفسور بالى الى وزارة المعارف ، وفيه انه لا شك فى نيلى درجة الشرف فى الكيمياء ومن المصنف الأول فى يونيو القادم ، وانه ينصح لى بالبقاء عامين آخرين فى الجامعة لنيل الدكتوراه D. Sc فرجائى من سعادتكم عند النظر فى طلبى أن تلحقوا هذا التقرير به ولكم منى الشكر المضاعف ٠٠٠٠ » .

والحق الدكتور احمد زكى بالبعثة المصرية ، وحصل على بكالوريوس العلوم من ليفربول عام (١٩٢٣) وعلى دكتوراه الفلسفة (Ph. D.) عام (١٩٢٤) ثم واصل دراسته فى جامعة مانشستر حيث القطن ، وعمل مع الأستاذ الكبير روبرت روبنسون ،

وجد الدكتور زكى فى عمله ، حتى ان الجامعة اعطته مفتاحا من مفاتيح أبوابها الرئيسية ، ليخرج ويدخل وقتما شاء .

ويحدثنا الدكتور زكى عن موقف الطلبة والجامعات البريطانية من السياسة ، وهو موقف نال إعجابه : « أحسست انه كان فى الجامعة ، من طلبة وأساتذة ، للسياسة والساسة احتقار ، وعنها وعنهم ترفع ، والسياسة عندهم عمل فردى ، وهى واجب ، ولكنها واجب شخصى كـ بعض الواجبات والضرورات التى يقوم به الشخص منا فى خلواته » .

لهذا لم يكن عجا ا لا يجد الدكتور زكى فى يوم من الأيام فى تلك الجامعة مظاهرة أو اضرابا أو تجمعاً أو مناقشات سياسية .. الخ .

وبعثت به جامعة (مانشستر) الى النمسا ، الى جامعة جراتس حيث الأستاذ بريجل مبتدع التحليل الميكرونى للمواد ، وقضى الدكتور زكى أياماً ممتعة فى صحبة العالم الكبير ، وتلاميذه الأفاضل ، وطلبة الجامعة الذين يشتغلون بالسياسة على خلاف الانجليز .

ويعود الدكتور زكى الى انجلترا ، والى جامعة لندن فى عاصمة الانجليز ، ويتقدم لنيل درجة الدكتوراه فى العلوم ، أعلى الدرجات العلمية « D.Sc » فيحصل عليها سنة (١٩٢٨) ويصف نقاشهم له عند نيل الدرجة فيقول : « كان نقاشاً طويلاً ، ذكرنى بنقاش الأزهر عند العالمية ، وخلصت منهم خلوص الشعرة والسر أنى كنت أعلم بالذى أنا فيه » .

ويحتفظ الدكتور زكى للندن فى ذاكرته بالذكرى الطيبة ، وقد

كان سعيدا ان يدرس فيها ، وان يقضى وقتا فى العاصمة ، « كنا فى محاضرة ، وبعد الفراغ منها علمنا أن الملكة كانت بيننا تسمع ، جاءت من الباب الخلفى الأعلى للمدرج ، وخرجت السيدة الشيخة الوقور تتوكأ على عكازها ، والكل وقوف فى احترام شديد ، ولم ينبس أحد منهم . كان حتما أبلغ من الكلام » .

وبحصول الدكتور زكى على درجة الدكتوراه فى العلوم ، أصبح ثالث ثلاثة يحصلون على هذه الدرجة فى مصر بعد المغفور لهما على مصطفى مشرفة وعبد العزيز احمد .

وعاد أحمد زكى الى وطنه عام (١٩٢٨) ليجد فيه جامعة ناشئة ترحب به أستاذًا مساعدا للكيمياء العضوية فى كلية العلوم ، وليكون من أوائل المصريين الذين يحظون بهذا الشرف العظيم ، وسرعان ما يحصل احمد زكى على الأستاذية عام (١٩٣٠) ليكون أول أستاذ مصرى فى الكيمياء .

وسوف نتحدث عن احمد زكى الأستاذ ، ورائد الطلبة ، والباحث ، عندما نفرغ من سرد تاريخ حياته الى التأمل فى نواحي شخصيته بعد حوالى ساعة أو أكثر من الآن .

ثم تجيء انتخابات العمادة عام (١٩٣٦) لانتخاب أول عميد مصرى فيفوز الدكتور احمد زكى بأغلبية الأصوات يليه الأستاذ افلاطون ويليهما الدكتور مشرفة ، ولكن حكومة الوفد الحاكمة فى ذلك الوقت تعين مشرفة عميدا ، والاثنان بل الثلاثة خيار من خيار ، ولكن احمد زكى يغضب ، ويتكلم نائب فى البرلمان ، ويرد الوزير الكبير فى البرلمان ليقول ان القانون يعطينا هذا الحق (حق اختيار العميد من بين أكثر ثلاثة أصواتا) ، وهو قانون العمادة الذى كان ولا يزال ، ويتكلم طه حسين مع مكرم عبید على نحو ما روى

محمود عوض على لسان الدكتور زكى ، وتخلو مصلحة الكيمياء من مديرها الأجنبى ، فيذهب إليها احمد زكى مديرا لا بحكم القرصية فحسب ، ولكن لأن منصب مدير مصلحة الكيمياء لا يجد بين المصريين من هو اصلح له ولا أجدر به منه .

ويبقى احمد زكى على صلة بالجامعة ، وتكرر مسألة العمادة فى عام (١٩٣٩) ، ويلحون على احمد زكى فى البقاء بالجامعة ، ولكنه يصمم على التحول من الجامعة ، ويقول انه جاز له الا يتحول عند الفشل الأول ، أما عند الثانى فقد وجب التحول « ومنونى ، فقلت لا اقيم بأرض تزرع الفشل » .

ويبقى احمد زكى مديرا لمصلحة الكيمياء أحد عشر عاما ينهض فيها بالمصلحة الى المصاف الأول من معاهد الكيمياء فى العالم ، ويجعلها قادرة على الوفاء بحاجة المجتمع المصرى وصناعاته ، وما الى ذلك من المهام العلمية والتحكيمية التى تقوم بها مصلحة الكيمياء .

ويأخذ الدكتور احمد زكى يلعب دوره المرموق فى المجتمع المصرى ، فيكتب فى الاصلاح الاجتماعى ، ويكتب أكثر فى الثقافة العلمية ، وتفسح له المجالات الكبرى المجال ، فكان من اعمدة مجلتى الرسالة والثقافة ، ومن محررى الصفحات العلمية الكبرى فى الصحف اليومية واسعة الانتشار .

ولا يفتأ احمد زكى يكتب مطالبا بإنشاء معهد قومى للبحوث العلمية ، يتولى أمرها فى مصر ، فى سبيل العمل من أجل قيام النهضة المصرية على الأسس العلمية الثابتة ، وتتجاوب دعوة د. زكى مع دعوات زملائه من العلماء والفكرين ، حتى تنتهى الحرب العالمية

الثانية بالانفجار المروع للمقنبلتين الذريتين ، اللتين أبانتا عن خطورة دور العلم . وينشر الدكتور احمد زكى على ما يروى استاذنا الدكتور أبو العزم « كلمة في اطار أسود ينفى فيها مشروع المجلس الأملى للبحوث الذى لم ير النور بعد » ، وكانت كلمة لها صداها . ولم تمض الا فترة وجيزة حتى خرج قانون مجلس قواد الأول الأملى للبحوث الى حيز التنفيذ عام (١٩٤٥) ويختار الدكتور زكى سكرتيرا عاما للمجلس بالاضافة الى منصبه مديرا لمصلحة الكيمياء .

وفى العام التالى (١٩٤٦) تضاف الى الدكتور احمد زكى اعباء ادارة « مصلحة الصناعة » فتجتمع في يد الرجل مفاتيح ادارة العلم التطبيقي فى مصر .

وفى سنة ١٩٤٧ يبلغ مجلس قواد الأول الأملى للبحوث مرحلة متقدمة من التنظيم ، وينشأ له جهاز تنفيذى ، ويختار الدكتور زكى ليكون أول مدير للمجلس (بدرجة وكيل وزارة تتبع رئاسة الوزراء مباشرة) ويبقى عالما على هذا الوضع خمس سنوات (١٩٤٧ - ١٩٥٢) ليؤسس المركز القومى للبحوث على خير وجه ، على نحو ما يرويه لنا استاذنا الدكتور حامد جوهر فيقول : « كما أن له الفضل الأكبر فى نفخ الروح فيه ، فقد دأب على حفز أولى الأمر فى ذلك الوقت على الاهتمام به ، واخراج مراكز البحوث الى الوجود ، وقد شاعت له دقته العلمية وسمو مهمته أن تكون هذه المراكز على أحدث ما وصلت اليه العلوم والفنون ، فرأى بثاقب فكره وقوة ارادته وحسن ادارته أن يبدأ من حيث انتهى من سبقونا ، ولهذا الغرض كانت رحلاته فى أنحاء الدنيا القديمة والحديثة يزور كل المعاهد والمؤسسات العلمية والصناعية والجامعات وكل مكان يكون للبحث العلمى والتطبيقي فيه شأن حتى جاء مجمع المراكز

القومية للبحوث آية في الابداع والكمال ، وظل دليلا عمليا ساطعا على ما اتصف به فى جميع أعماله من دقة علمية متناهية فلم يدع صغيرة ولا كبيرة الا أولاها ما تستحقه من العناية والاهتمام » .

« وانى لأستعمل هنا اسم مجمع مراكز البحوث لأنه فى الواقع عدد من مراكز البحوث اجتمعت فى موقع واحد ، وهكذا قصد فقيدنا الكبير عندما فكر فى انشائها » .

« ولقد توخى قبل أن يتم وضع برنامج المجمع ورسومه ومواصفاته أن يتم ذلك عن طريق مسابقة دولية عالمية ، اشتركت فيها البيوتات الدولية المشهود لها بالخبرة والكفاءة والامتيان ، ثم جاء دور الاختيار من بينها فوكل أمر ذلك الى هيئة عالمية ممتازة من العلماء اختارها لهذا الغرض بخاصة ، فاذا جاء دور التنفيذ كان سبيله الى ذلك مناقصات دولية عالمية اختيرت من بينها الهيئة الأصلح والأقدر على ذلك وأشرفت على التنفيذ هيئات خاصة أيضا لم يكن اختيارها يتم بدون الدقة نفسها التى نالتها عمليات أخرى . وعلى الوتيرة نفسها تم تجهيز هذه المراكز » .

« وكان هو فى هذه الأعمال العقل المفكر المدير المنسق المؤقت ، وقد راعى فى كل ذلك حركة التطور السريع التى يشهدها العلم فى هذا العصر ، وأهمية نماء العلم والبحوث العلمية والتكنولوجية للجيل الذى كان يعيش فيه والأجيال التى تليه » .

ولا غرو اذن اذا جاء (مجمع البحوث) آية فى الاعجاز ومثلا أعلى لما تكون عليه المشروعات العلمية فى عصر الفضاء قبل أن يأتى هذا العصر » .

وكان احمد زكى ابان رئاسته لمجلس البحوث وتعامله المباشر

مع رئيس الوزراء والوزراء يعانون اشد المعاناة من عقليات السياسة الذين يتعامل معهم في الوزارات المتعاقبة . فقد كان هؤلاء مشغولين بل مأخوذون بالأمور العاجلة من مسائل السياسة والجلالة والمفاوضات وأزمة فلسطين وما بعد الحرب العالمية الثانية ، ومن مسائل الانتخابات وتقسيم الدوائر ، وتوزيع الكراسى ، ويذكر عالمنا أنه جاءه ذات مرة مهندس يوناني قدير يعرض عليه فكرة انشاء السد العالى واقنعه بها ، وذهب به الدكتور زكى الى الوزير المختص فرد عليه هذا الوزير مستنكرا : « احنا فى ايه ولا فى ايه ؟ » لهذا يجد قارئنا فى فلسفة الدكتور زكى حملة شديدة على مثل هذه السياسة قصيرة النظر ، ولقد كان احمد زكى لهذا يعارض فى شدة وفى استمرار الشعار الذى رفعناه بعد ٥ يونيو قائلين « لا صوت يعلو على صوت المعركة » .

ويشكل حسين سرى باشا وزارته الخامسة والأخيرة فى الثانى من يوليو عام (١٩٥٢) فيختار احمد زكى وزيرا للشئون الاجتماعية ، وكان بين الرجلين صداقة وتقدير ، واذ تم تشكيل الوزارة على عجل ، فقد كلف البوليس باحضار احمد زكى ، فذهبوا اليه كأنهم يقبضون عليه ، ويستحثونه الاسراع ، لمقابلة الملك ، فى الريدنجوت الأسود ، ولم يكن لديه هذا الريدنجوت الاسود ، فاستعاره من صديقه الدكتور السنهورى ، وجاء مناسباً الا فى الأكمام التى اظهرت - لقصرها - من تحتها ياقات القميص الابيض ناصعة جميلة . وقد صورت الصحافة ذلك الموقف يومها فى صورة طريفة حيث قالت انهم قبضوا عليه « بالبيجامة » ليكون وزيرا .

ودخل احمد زكى الوزارة ، فحلف اليمين ، ومضى بعد لقاء الوزراء ، فاجتمع بوكلائها وبالمديرين فلما انقضى الاجتماع أسرع اليه الصحفيون يسألونه ماذا هو قاعل ؟ وقد كان لسؤالهم معنى

فقد كان احمد زكى من اقطاب المنادين بالاصلاح الاجتماعى ، وها هو قد ولى الأمور ، وقال لهم احمد زكى انه اقتنع الآن أن هذه هي وزارة الانتاج فعلا ٠٠ يقصد انتاج المادة الانسانية وعبر لهم عن انه شعر بأنه ليس غريبا عن أهل هذه الصناعة لاتصالها بكل ذى فكر ٠٠ وانتقل الى الخطوات التنفيذية التى يزمع القيام بها فقال « انه لا اعتراض فى الاحسان الى المعاجز المطلق ٠٠ أما انصاف العجزة والأرامل فيمكن ابتداء وسائل لتحويلهم من رجال ونساء يحسن اليهم الى رجال ونساء يستطيعون بمال الضمان أن يقفوا على أرجلهم فينتجوا » أما كيف الوسيلة الى ذلك ؟ فقد قال احمد زكى انه يرى أن يعطى الراتب الذى يصرفه الضمان لهؤلاء أول السنة دفعة واحدة (بدلا من أن يعطى شهريا على ١٢ دفعة) وعندئذ يستطيع الواحد من هؤلاء أن يبدأ به مشروعا نافعا ترتفع به نفسه من مذلة الاحسان الى عزة الاستقلال فهذه فائدة ، ثم الفائدة الأخرى باخلاء مكانه لآخر من المستحقين الذين يقفون فى طابور الانتظار ، هنا قال له الصحفيون : ولكنك يا سيدى الوزير بهذا لا تعتبر الاحسان الى الفقراء حقا على الدولة ، كما ينص القانون ، فأجابهم احمد زكى فى بديهة حاضرة قائلا انه حق لا شك فى ذلك ولكن الكرامة الانسانية فوق الحقوق القانونية ٠

وقد اثار الدكتور احمد زكى أثناء توليه الوزارة مسألة تحديد النسل وكان يدعو الى التفكير فى الموضوع بجدية وموضوعية ، وكان يقول انها مشكلة عالمية ولا يكون حلها الا بزيادة الانتاج ، وزيادة الأرض ، والتركيز ، واتباع الطرق العلمية التى تضمن وفرة الانتاج ، واصلاح الصناعة والنهوض بها حتى تشكل مصدرا من مصادر الدخل التى ينبغى لها ان تسد حاجة الناس ٠

وكان احمد زكى يدعو الى الهجرة ٠٠ وكان يحدد اماكنها

فيجعل على رأسها السودان الذي هو أحوج ما يكون الى الخبرة المصرية ٠٠ ثم البلاد العربية التي تعاني من قلة السكان حتى انها مهددة بالغزو لهذه القلة ، ومضت الايام وأثبتت الظروف عملية أفكار احمد زكى ٠

وكان الدكتور احمد زكى يؤكد أن برامج تحديد النسل يدعو اليها الوعي ، ولا تحكمها القوانين ، ولهذا فانه لا يريد تحديد النسل عند الأغنياء والقادرين ولكنه يريده عند أولئك الذين يعانون الفقر والتعاسة ولعمري انه أصوب الآراء التي ينبغي أن تبني عليها البرامج الاعلامية والدعائية لمشروعات تنظيم الأسرة

ولم تنتج الأيام العشرون التي قضاها الدكتور زكى فى الوزارة أن ينج ثمرات برامجه الاصلاحية ، واستقالت وزارة سرى باشا فى الثانى والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ لتتبعها وزارة نجيب الهلالي باشا التي لم تمكث أكثر من أربع وعشرين ساعة قامت فيها ثورة يوليو ١٩٥٢ ٠

ولم يكن أحمد زكى سعيدا بالفترة التي قضاها وزيرا ، وقد عبر - عرضا - بصراحة عن مشاعره تجاه هذه الفترة فقال : « وكانت تجربتي فى الوزارة تجربة مرة ، عرفت منها أن للحكم ظاهرا يعرفه الناس ، وأن للحكم باطنا لا يعرفونه ، وليس هذا كذلك ، « رجل مثلى تعود أن يقيس الأطوال بالتر ، فإذا وجد شيئا طوله عشرة سنتيمترات لم يستطع أن يقول انها عشر بوصات ، ولو قرأها عشرون رجلا من حوله من أهل الحكم وقالوا انها البوصات لا السنتيمترات ٠

« انها عادة لأهل العلم يضيق بها أهل السياسة » ٠

وخرج الدكتور احمد زكى من الوزارة فعاد الى مجلس البحوث فى نفس موقعه ، موقع الراس من المركز ، واستمر فى تنفيذ برنامجه الانشائى والتنظيمى حتى قيام الثورة حتى زاره أحد كبار رجال الحكم ، فلم يبد الفهم أو الاحترام اللائق بالمركز ، فرد الدكتور زكى عليه مباشرة - على ما يروى أستاذنا الدكتور أبو العزم - فى كتاب عنوانه المجلس الأعلى للبحوث ماضيه القصير، وحاضره ، ومستقبله ، •

ويبدو أن الأمر فى مجلس البحوث لم يعد يلقى القبول فى نفس عالمنا ، فذهب الرجل فقدم استقالته الى اللواء نجيب ونشرت الصحف اليومية ذلك يوم الثانى عشر من أغسطس عام ١٩٥٣ •

بعدها بخمسة أيام خرجت الصحف تعلن للناس نبأ اختيار الدكتور احمد زكى مديرا للجامعة الاولى فى البلاد ، جامعة القاهرة ، وهكذا أتيح للجامعة الاولى أن يكون مديرها فى فترة الاضطرابات هو ذلك الرجل الذى جمع العلم والمنطق والخلق والشخصية وكأنما أراد الله للجامعة الحفظ من العاصفة السياسية التى كانت فى مارس (١٩٥٤) وقد تولى احمد زكى منصبه فى السابع عشر من أغسطس (١٩٥٣) ، والبلد بعد الثورة على شفا جرف هار من أزمات سياسية ، يتصيد لها أصحاب الهوى ، الفرصة بين كل حين وآخر ، وضباط الثورة منقسمون على أنفسهم أو على خلاف فى بعض الأحيان مع محمد نجيب أو مع بعض المدنيين الذين قبلوا معاونتهم فى تولى أمور الحكم •

وأشيع أن الجامعة ستبدأ سنتها متأخرة ، فخرج احمد زكى ليطمئن الناس أنها ستبدأ فى موعدها ، ثم بدأت القلاقل داخل الجامعة فلم يتوان احمد زكى عن أن ينشر رأيه يوما بعد يوم على

الناس من خلال الصحافة - أكثر وسائل الاعلام فعالية يومها - اما بقلمه ، واما على صورة الاستجابة لسؤال الصحفيين الذين يتوافدون عليه ، ولا بد من الاشارة الى أنهم كانوا يحبون الرجل ويقدرونه ٠٠ وكان منطلق احمد زكى فى كل ذلك هادئا حريصا ، حريصا على العلم وعلى كعبة العلم وعلى طلاب العلم من ابنائه ٠

ثم حدث ما لم يكن من حدوثه بد ، ودخلت قوات البوليس الجامعة فى أزمة مارس على الرغم من ممانعة احمد زكى لموزير الداخلية فى ذلك ، واعتدى على بعض الطلاب فى الحرم ، وذهبوا بهم الى مستشفى قصر العينى للعلاج ، وذهب احمد زكى من فوره فزارهم ، فلما كان على باب القصر قابله الطلاب وصاح به أحدهم أن يستقيل ، وصاح به آخر أن يبقى ويدافع عما يطالب به الطلاب ، وزادت حيرة أحمد زكى بين الرايين أو الموقفين اللذين تنازعا قبل مجيئه من الجامعة الى قصر العينى ، وفكر المفكر ثم استقر على الرأى الذى صرح به بعد ذلك لسامى جوهر ونشره فى الجيل الجديد : « ان مدير الجامعة يجب ألا تستخفه الحوادث هكذا سريعا ، وانه قيل أن يستقيل هكذا غضبا لابد أن يتصل بالمسؤولين ليعرف الحقيقة فيما جرى ويطلب القصاص ممن أذنب ، وعلى كل حال يزن الموقف الذى كان ويقدر الى أى شىء هو سائر ثم هو من بعد ذلك يستقيل نزولا على رأى الطلاب » ٠

وقال الدكتور احمد زكى انه اختار هذا الموقف بعد أن عرف « أن نجيبا (الرئيس محمد نجيب) وصاحبه زارا الجرحى مواسين أسفين » ، « وأخبرته بعد أن اتصلت بوزير المعارف وهو الصنة بين الجامعة والمسئولين » ، « وأخبرته بعد أن وافق وزير المعارف وهو الرئيس الأعلى على ألا يكون اعتقال إلا أن يعقبه اتهام صريح على الناس أو أمر افراج ٠٠٠ » ٠

« وفرحت عندما برت الحكومة بوعدھا وأردت أن أعلن ما صنع الوزير فنشرت كتابا أرسلته اليه شكرا للذى صنع وطلبا للمزيد وتشجيعا لأهل الخير وتقوية لهم » .. هكذا كان عالمنا يفهم الديمقراطية في ذلك الوقت ولو فهمها المسئولون يومها كما فهمها ما انسأقت البلاد الى ما انسأقت اليه .

واستطرد احمد زكى يقول لمجلة الجبل الجديد : اليوم افنا ومسئولية الحكم على عاتقنا لابد أن نقدرها ، ولو استقلت فى مثل هذه الظروف فان « الاستقالة عندئذ تكون من تلك الاستقالات الرخيصة التى تهدف الى كسب هتاف صارخ عاجل .. وحسبت أن عهد المحبة الزائفة الرخيصة قد ذهب الى غير رجعة .. وحسبت أن مصر اليوم فى دور يجب أن تتحمل فيه المسئوليات ولو مرة كالعالم » ثم شرح كيف أن المسئولية عن الجامعة بطلابها الثلاثة وعشرين الفا وأساتذتها ومدرسيها وفيها ما فيها من التيارات المتلاطمة مرة كالعالم .. وقال : ان أشد الأمور ايلاما هو ما يجرح الضمير ، وختم كلمته فى تحذير ذكى واع ، وفطنة زائدة ، ولباقة شديدة فقال : « وقد يأتى وقت ينقل الضمير حتى ينوء فيقدم استقالته » ، ولكن احمد زكى لم يقدم استقالته ، وانما حفظ له الذين لا يريدون استقلال الجامعة ما حفظوا فى صدورهم حتى أتيح لهم أن يتخلصوا منه فتخلصوا ، وترك احمد زكى منصبه يوم الثامن من سبتمبر سنة (١٩٥٤) فكانت مدة رئاسته أقصر مدة قضاها رئيس لجامعة القاهرة منذ لطفى السيد باشا وحتى اليوم .

وخرج احمد زكى من الجامعة بعدما حافظ على استقلالها بكل ما وسعته طاقته ، وطاقه مدير الجامعة ، وعلى نكر استقلال الجامعة فان احمد زكى كان يصرح فى فترة مبكرة من رئاسته للصحافة قائلا : « ان هناك زعماء كانوا اذا ما جاءوا الحكم أصدروا

القرارات بفصل كل طالب يشترك فى أى اضراب أو مظاهرة بالهتاف أو بالإشارة أو حتى بالإيماء حتى إذا ما أصبحوا فى المعارضة أنفقوا الأموال ، وأشرفوا بأنفسهم على تنظيم الاضرابات فى الجامعة !! » •

وتعود الصحافة لتسأل أحمد زكى فى مسألة « الطلبة والسياسة » بعد أن ترك الجامعة بفترة طويلة فيقول لهم : ان جرائيم هذا الداء لا تزال الى اليوم فى الدماء ، وهى لا يقتلها الا الجرعة القوية تدفع فى « الشرايين » دفعا ولكنها جرعة قاتلة فلا بد من الاستعاضة عنها بجرعات خفاف توزع على الأيام » •

وكان يسأل كثيرا عن استقلال الجامعة فيلخص الرأى فى قوله ، أنه قرأ تاريخ الجامعات من القرن الرابع عشر حتى الآن « فدلتنى قراءتى وتجاربى أن الاستقلال لا يصنع بالقوانين ولا باللوائح ولا بالبوليس ولكنه يكتسب ويغتصب » ، « والذى أعلمه أن هذا العهد - يقصد عهد الثورة - هو أقمن العهود بأن يعطى الجامعة كل استقلالها على شرط أن تعطى الجامعة أغراض الجامعة وأهدافها كل جد .. وهذا ثمن هذا » •

وكان يدافع عن الطلاب فيقول : « اختلطت بالطلاب حتى فى الهياج فوجدت الطلاب فرادى من خير ما يمكن أن نجد عليه الطلاب أدبا وذكاء وصفاء قلب ولكنى لم أجدهم كذلك فى مجموعة » ولهذا كانت دعوته الدائبة الى تربية الروح الأسرية بين الطلبة وأساتذتهم « بهذا يثمر النصح ويجدى التوجيه » •

وكان إذا سمع آراء القائلين بمنع الطلبة من الاشتغال بالسياسة قال بالبنت العريض انه لا يمكن منع الطلبة من الاشتغال بالسياسة

لأن السياسة الآن ممتزجة بالحياة فلم تعد سياسة ملوك ولا سياسة أباطرة ولكنها سياسة شعوب ، والسياسة تؤثر فى حياة الكبير كما تؤثر فى حياة الصغير وتؤثر فى الافطار والغداء والعشاء ، والسياسة بمعنى الحكم دخلت فى كل مرافق الدولة وبدون تحرر لا يمكن أن تعيش أمة ، والطلبة هم رجال المستقبل فلا بد أن يفكروا فى كل شيء وفى السياسة هذا فى التفكير ٠٠ ويستطرد احمد زكى ليقرر قرارا غير واضح الهوية : « اما فى العمل ، اما فيما يصنعون من بعد تفكير وكيف يصنعون فأمر لا شك فيه خلاف كبير ! » ولعل الظروف الصعبة التى كان الوطن يجتازها لم تكن تتيح له أن يجهر بأكثر من هذا فرأى أن حسبه أن يتقدم بالفكر فى هذه النقطة الى هذه المرحلة ٠ على أن الباب الثانى من هذا الكتاب سيذكر لك عزيزى القارئ رأى الرجل فى هذا الموضوع بالتفصيل وهو الرأى الذى أبداه فيما بعد فى أحاديثه الشهرية .

وكانت الجامعة على عهد أحمد زكى ، قد بدأت تشهد التحولات التى لابد لها مع العهد الجديد ، عهد الثورة ، ولعل أبرز هذه التحولات هو الاتجاه الى زيادة أعداد الطلاب الأمر الذى حدا بالدكتور زكى ورئيسى جامعتى عين شمس والإسكندرية الى الاجتماع بالمسؤولين ليقرروا وضع حد أدنى لدرجات القبول فى الجامعة ، وهى أولى الخطوات التى خطتها الجامعة نحو ما يعرف اليوم بمكتب التنسيق من أجل تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص ، وخرج الدكتور زكى بعد الاجتماع وقبل بداية العام الدراسى ١٩٥٣/١٩٥٤ ليعلن أن الجامعة قد حددت القبول بنسبة خاصة فقبلت ثمانية آلاف وأربعة آلاف على سبيل الانتساب ، وعقب مصرحا لمحرر مجلة الجيل فى ١٩٥٣/١١/٢٣ « بأن الذين تركوا التعليم الجامعى مفتوحا على محصرا فيه للآلاف الجارفة كانوا يقومون فى نفس الوقت بخدعة غير نظيفة لا يرضاها ضمير أى انسان » .

وعلى الرغم من هذا الموقف القوى الذى اتخذه احمد زكى لتحديد أعداد المقبولين فى الجامعة الا أنه كان يدفع الرأى القائل يومها بانحدار أخلاق الطلبة ، وكانت وجهة نظره فى هذا « ان الزيادة فى الكم تكون على حساب الكيف ، والكم دائما يخرج منه كيف أكبر ولا شك عندنا الآن كفايات أكبر وأقدر ولسنا فى حاجة الا الى جو اطمئنان » ويردف موضحا أهمية هذا الاطمئنان فى تحقيق الروح المطلوبة للجامعة والبحث العلمى فيقول انه قبل لذة البحث لابد من تأمين العيش وتأمين العدالة « (الجيل الجديد : ١٩٥٣/٩/٢١) »

ومن التحولات الاجتماعية الهامة التى بدأت الجامعة تواجهها فى عهد احمد زكى مسألة الاتجاه الى المجانية ، وقد أخذ هذا الاتجاه خطواته تدريجيا الى الوجود ، فى ظل قواعد متدرجة صاغها الجامعيون وشارك الدكتور احمد زكى فى وضع خطوطها العامة ولساتها الأخيرة ، وكان يرى أن الغرض من المجانية هو محاربة الحرمان من مواصلة الدراسة • ولهذا فإنه كان ينادى من ربع قرن بألا تعطى المجانية للطلاب الذى يتكرر رسوبه « فرحة الطالب الذى يتكرر رسوبه أن نخلى الطريق لغيره من الذين عندهم الاستعداد » •

وفيما يتعلق بالزى الجامعى ، فقد فرض زى جامعى فى عهد احمد زكى ، ولكنه كان على سبيل الاختيار ، ومع ذلك لقى الدكتور زكى بعض الهجوم ، فقال انه لا يعتقد أنه يمكن أن نجبر طلبة الجامعة على ارتداء زى واحد لأن طلبة الجامعة غير طلبة المدارس • وفسر ذلك بأن طلبة الجامعة هم فى حكم المواطنين المسئولين لهم رأيهم وظروفهم وأمزجتهم •• ولا ينبغي أن يفرض عليهم زى معين ، وانما كان الزى الذى تقرر تعبيراً عن ارادته

فى أن « يلتفت نظر الشباب الى أن هذا الكرنفال المتناقض من الأزياء لا يجب أن يظل معروضا فى كعبة عالية » .

ثم تحدث مستعينا بأفقه الواسع ، وعقله الكبير ، فقال انه لو قرر الزى اجباريا فانه يخشى أن تكون استجابة البنات مسبق لاستجابة الأولاد ، ومرجع ذلك عنده الى شىء هام هو أن المرأة تفوق الرجل فى احساسها بشىء هام هو الأناقة .. والأناقة أوضح ما تكون فى الزى الواحد .

وتصادف أن جاءت نهاية العام الدراسى (١٩٥٤/٥٢) مع شهر رمضان ، واختلفت الآراء فى مسألة توقيت الامتحانات . هنا ظهرت الروح الجامعية عند أحمد زكى فترك الأمر فى جداول الامتحانات للكليات ، وقال : انها أعرف بظروفها ، وبما أتمت من مقررات .. فلما حاول البعض الاصطياد فى الماء العكر والاشارة الى أن الحوادث التى وقعت فى الجامعة هى التى أدت الى هذا ، قال احمد زكى انه لا يظن أن فى هذا مشكلة ، فانه يعرف تاريخ الجامعة منذ نشأت ، وقد جاءت عليها بعض السنوات التى لم تستقم فيها الدراسة أكثر من ثلاثة شهور أو أربعة .. وعن مشكلة مجيء رمضان مع موسم الامتحانات استفتى الطلبة مفتى الديار فى الافطار وجوازه ، فأفتاهم بجوازه ، وعقب احمد زكى - عندما سئل عن رأيه - فقال ان كثيرا من المسلمين يتخرجون بضميرهم من الأخذ بهذا الرأى .

ومع ظهور النتائج بانث فى الأفق مشكلة تعطل الخريجين الذين زادت أعدادهم عن كل حاجة .. وسئل احمد زكى عن رأيه فقال : « ان التعطل أصبح مشكلة مزمنة ، وانه يوجد عند غيرنا من الأمم ، وانه لا يزول الا بالحروب » .. ولكنه لا ينادى بمثل هذا فى مصر ولا يعطل الأمور بوجوده فى الخارج ، وانما يدعو الى انشاء « مراكز

للتوظيف « لأن العمل في مصر موجود والقادرين عليه موجودون
وأكن المسألة في إيجاد الصلة المنظمة بين الاثنين .. وهى الفكرة
التي اتخذت بعد ذلك اسم « القوى العاملة » .

ولكن أحمد زكى كان ينبه بشدة الى خطورة التعطل ويقولها
فى صورة حكمة « ليس أخطر من عامل متعطل » .

ورغم كل هذه الأمواج العاتية ، والظروف المتعاقبة ، والأمور
التي تستنفذ الجهد والوقت ، كان أحمد زكى حريصا على توجيه
طلابه ، وإسداء النصيح اليهم ، فى كل مناسبة يتحيزها للحديث
اليهم ، وكان يدعوهم الى التمسك بالأخلاق وتقوية الشخصية ،
وكان يقول لهم : « ان الرجل لا يكون بكثرة معارفه ، ولكن بصحة
أخلاقه وصلابة نفسه » وكان يحثهم على استقلال الرأى : « من
أكبر مميزات العقل الناضج الاستقلال ، ومن أسوأ صفاته التبعد
لكل مستعبد فالتبعية عبودية ، وشر ما ينال الناس العبودية لا سيما
عبودية الرأى » .

لا شك كان أحمد زكى يقصد بعبودية الرأى انسياق الطلاب
الى تأييد القوى العاملة خارج الجامعة من دون تمحيص لأرائهم
التي لن تحتل أمام عقل الطالب النبىه دقائق حتى يتبين زيفها .

وكان أحمد زكى يمتد بنصائحه لطلابه الى فترات الاجازة
فيقول لهم انها جعلت للاستجمام والاستجمام يكون بتغيير النشاط
لا بالنوم .

وكان يدعوهم الى القيام بواجبهم نحو ذويهم فى قراهم
بتتقيف الريف وكان يرى أن خير وسيلة لتحقيق هذا الهدف هى
المصاطب !! (١٩٥٤/٥/١) .

وكان احمد زكى قبل هذا كله وبعد هذا كله حريصا على توفير احتياجات الجامعة من المعامل والكتب والأدوات ، ولم يكن يتوانى عن اعداد مطالبه وترتيبها ، والذهاب بها فى قوة وفى مرحلة مبكرة الى اولى الأمر يطالبهم بها . وقد نشرت صحف الصباح فى ١٦/٩/١٩٥٣ انه « توجه بالأمس لرياسة مجلس الوزراء وتقديم بطلبات الجامعة للرئيس محمد نجيب حتى تبدأ الجامعة عامها بالعمل فلا ينساق الطلبة وراء فورات الغضب أو التسرب الى العمل فى الميادين المتطرفة ٠٠٠ » ، وسئل عن المبالغ التى طلبها والى يحتاجها فقال انه يتعشم ألا يقل المبلغ المعتمد عن ٦٠ ألف جنيه !!

ولعلنا بعد هذا العرض الطويل لمواقف احمد زكى مدير الجامعة نستطيع أن نتبين العوامل التى ساعدته على اتخاذ هذه المواقف المشرفة، وليس من شك أن على رأس هذه العوامل ، علمه ، وخلقه وإيمانه بالجامعة ، وخروجه من بين صفوف طلابها وأساتذتها، وفكره النير ، وشخصيته القوية ، وتاريخه الطويل ، ودراسته لماضيها وماضى الجامعات ٠٠ على ان هناك عاملا هو عندى أهم من هذه العوامل الثمانية آنفة الذكر - رغم انها هى التى كونته - هذا العامل هو الذى جعل لأراء أحمد زكى قيمة ، ولصوته مدى يسمع ، ولتحرركاته أثرا عند الناس ، أثر العلم بها عند العامة ، وأثر الاستجابة لها أو تقديرها عند اولى الأمر ، ولم يكن هذا العامل الا أن احمد زكى كان « شخصية عامة » بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معان ، فم يكن احمد زكى عالما يعيش فى برج عال ، ولا استأذا تحده الجامعة ، ولا صاحب خلق يناهى عن المشاركة ليناى عن الخطأ ، ولا مؤمنا بالجامعة فى الجانب النظرى حائرا فى البحث عن أى الطرق يؤدى به الى تطبيق فهمه لها ، ولم يكن احمد زكى غريبا عن الجامعة ، ولا كان فكره غريبا عن فكر الجامعة والفكر

الجامع ، ولا كانت شخصيته بالتى تلين أمام الباطل القوى أو التى تبعد عن الحق الضعيف ، ولا كان جاهلا بماضى جامعة القاهرة ولا الجامعات فى الدنيا القديمة والحديثة . كل أولئك ساعد على تكوين « شخصية عامة » اسمها احمد زكى وهو رجل عنده - بما آتاه الله من موهبة - الاستعداد لأن يكون « شخصية عامة » لها وزنها الذى يظهر أثره فى مثل هذه الأحداث .

كان احمد زكى يتمنى أن يكون عميدا لكلية العلوم يسوس أمرها ويربى أجيالها . ولكن الله لم يشأ له هذا لأنه شاء لمشرفة ، ولأنه شاء لاحمد زكى أن يدخر طاقاته الجامعية جميعا ربيع قرن من الزمان لتظهر فى أخرج الأوقات التى مرت بها الجامعة حين جاءت تيارات التحول السياسى والاجتماعى دفعة واحدة ، وهى الجامعة الهادئة القائمة على الثبات والاستقرار منذ تولاهما لطفى السيد ولخمس عشرة عاما رسم فيها سياستها الثابتة ، ثم تلاه على باشا ابراهيم لينهض بها النهوض المحسوب والمطلوب . رزقها الله فى مرحلة التحول باحمد زكى وهو الذى وسع العلم والفكر والأدب والصحافة وأجاد التعبير والتحليل والفهم والتأويل ليوجه دفقتها وسط هذه الأمواج العاصفة . ولهذا فلسنت ميالفا اذا قلت انها ارادة الله أن تحفظ الجامعة المصرية فى هذا الوقت بهؤلاء الثلاثة الذين رأسوا الجامعات الثلاث : احمد زكى وكامس حسين ومحمد عوض محمد . على أن أكثرهم بلاء وابتلاء كان احمد زكى ، وقد كان أكثرهم قدرة على التصدى لهذا الابتلاء الذى أصاب أكثر ما أصاب الجامعة الأولى التى ولى احمد زكى أمرها .

خرج الدكتور احمد زكى من الجامعة الى مكتبة بيته يقضى وقته فيها ، يقرأ ويدرس ويراجع ما يكتب وكان قد بلغ الستين قبل خروجه من الجامعة بقليل ، وكان احمد زكى مشتاقا الى الهدوء

وراحة النفس والبال ، فجاءه ما اشتهى ، فسعد به ، ولكنه مع ذلك كان يشارك برأيه وفكره فى كثير من الأمور ، وبخاصة أن الصحافة كانت تذهب اليه كثيرا تطلب منه الرأى ، وتشره على الناس •

ثم فكرت الكويت فى اصدار مجلة العربى لتكون للعرب أجمعين ، وكان صاحب الفكرة هو المغفور له الأمير صباح الاحمد الصباح وكان وقتها رئيسا لدائرة الاعلام ، ووقع الاختيار على الدكتور احمد زكى ، وذهب الدكتور زكى الى الكويت ، واختار فريق عمل يساعده على اصدار مجلة العربى ، وصدر عددها الأول فى ديسمبر عام ١٩٥٨ ، وجهد احمد زكى فى كل صفحة بل فى كل ركن من المجلة واضح ، اثره وفكره وقلمه ونظام عقله •

ونجحت العربى نجاحا كبيرا بدأت بأربعين ألف نسخة وسرعان ما أصبحت تطبع أكثر من مائة ألف نسخة ، فلا تغطى السوق ، ولكنها لا تستطيع ، لأن طاقة المطابع المختصة لها لا تسمح لها بذلك الا مرة واحدة فى العام حين تصدر العدد الممتاز مع مطلع العام والذى بلغ توزيعه ربع مليون نسخة •

وتمضى مجلة العربى من نجاح الى نجاح ، ومن تطوير الى تطوير ، وتهتم بأمر البند العربية والمدن العربية ، والأحوال العربية ، والتاريخ العربى ، وتسجل كل ذلك فى استطلاعات مصورة شاملة مستقصية ، أرادها الدكتور زكى على نمط المجلة الجغرافية الأمريكية فجاءت لا تقل عنها دقة وروعة وجمالا •

وتهتم مجلة العربى بالقضايا الفكرية فتناقشها على مستوى عال رفيع وتتيح الفرصة للرأى والرأى الآخر دون سلطة • لا بيزنالية ، وتفتح بابها لرسائل قرائها وتقديماتهم وتعليقاتهم

وتصويباتهم ، وتطلب رأيهم في كل مرحلة تقدم فيها على تطوير نفسها .

وتولى مجلة العربى قضية الأسرة والمرأة اهتماما متزايدا فتبسط المسائل الطبية ، وتكرر النصائح لربة البيت ولرب البيت لا فيما يتعلق بنظم التغذية والصحة فحسب ، ولكن فى طرق التربية والتوجيه ورعاية الأبناء فى جميع مراحلهم .

وتستكتب مجلة العربى اعلام القلم العربى فى كل المجالات ، كل فى مجاله الذى برز فيه ، وتكثر فيها نسبة أساتذة الجامعة والتكنوقراطيين لأن احمد زكى كان حريصا على المستوى الرفيع للمادة التى تقدمها المجلة .

ويستطيع احمد زكى بحكمته أن يبتعد بالمجلة عن النزاعات والمعارك العربية الجانبية ، فيجنب مجلته الخوض فى هذه المجالات على ما نحو ما فصل القول فيه فى افتتاحية العدد الممتاز (يناير ١٩٦٦) .

ولم يكن على العربى رقيب واحد ، وانما كان عليها عدد كبير من الرقباء بقدر ما تدخل من بلاد ، ولكن احمد زكى كان قادرا على أن يحافظ لمجلته على حرية القول وحرية الدخول الى كل هذه البلدان ، ويكفى للتدليل على ذلك أن مجلة العربى لم تمنع من دخول مصر فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر الا مرة واحدة .

وكان احمد زكى يناهز بالعربى عن أن تكون موضعا لأحقاد أو تصفية حسابات ، كانت العربى للعروبة تعبر عن انتصاراتها وانتكاساتها ، وواقعها والأمل الذى تؤمله لها ، وقد خرج عدد مجلة العربى الثالى لنكسة ٥ يونيو (يوليو ١٩٦٧) أسود الغلاف

ضاماً بين دفتيه تحقيقاً مؤثراً عن الحرب وقد سماها أحمد زكي
بالنكسة لا بالنكبة (ليكون منها شفاء) •

وحين انتقل عبد الناصر الى رحمة الله ، وضعت العربى صورته
فى افتتاحيتها ووضع احمد زكى تحت صورة عبد الناصر قول
الشاعر :

« ولقد نظرتك والردى بك محقق والداء ملء معالم الجثمان »

على الرغم من أن احمد زكى لم يكن رجل عبد الناصر ، بل
وقد عانى منه ، ولكنها العروبة والوطنية والتعبير الصادق •

وحين كان الرئيس السادات يعانى فى أول عهده - فى كثير
من الأحيان - من الصحافة العربية غير الناضجة - كانت العربى
فى حديث الشهر لرئيس تحريرها تزن الأمور بالميزان العلمى الدقيق
محكمة العقل والمنطق ، منطلقة من عقلية تقدمية راقية •

وحين استرد العرب كرامتهم فى حرب أكتوبر خصصت العربى
أعداداً ثلاثة متوالية وأكبت بها بالصورة والقلم أعظم نصر حققه
العرب ونتائجه وآثاره ورؤية العالم له •

وأفسحت مجلة العربى مع ذلك مساحات كبيرة للمشكلة
الفلسطينية ، والأوضاع المترتبة عليها •

وأتاح المجلة لقارئها العربى أن يتابع التطورات العالمية
والتغيرات الدولية والمسائل التى أثارت العالم لفترات طويلة كحرب
فيتنام فى متابعة دقيقة ، ومعالجة وافية مع العناية باستخلاص
العبرة بطريقة فنية تبعد عن الأسلوب المباشر القبح •

ومن خلال باب أنباء الطب والعلم والاختراع استطاع الدكتور أحمد زكى أن يجعل القارئ العربى قادرا على متابعة وملاحقة التطورات العلمية فى العالم كله شهرا بشهر فى هذه المجالات الثلاثة من الطب استكشافا وعلاجا وعقاقير جديدة، والعلم ونظرياته وحلول مسائله ، ٠٠ والاختراعات العلمية الجديدة فى الصناعة والزراعة والحياة اليومية وشتى النواحي التى غزتها التكنولوجيا .

وأراد الدكتور أحمد زكى أن يجعل فى متناول كل أسرة موسوعة طبية شاملة تسد حاجتهم فى الاسعافات والتصرفات الأولى تجاه المرض ، فكان الباب الرائع الذى يجيب فيه الدكتور زكى بنفسه ثم (نخبة من الأطباء بعد ذلك) على أسئلة القراء .

ولم يكتف الدكتور زكى بذلك وإنما وضع خطة يستطيع من خلالها تعريف القراء بالأمراض الشائعة جميعا ، مرضا مرضا فى كل عدد من ٩ أعداد المجلة ، واستكتب الدكتور زكى مجموعة من الأطباء الكبار للحديث عن هذه الأمراض على نحو منهجى معين وكتب الدكتور أحمد زكى نفسه بعض هذه الفصول .

وكانت مجلة العربى تحرص على أن تكون مجلة جامعة تتيح للمستويات الثقافية العالية أن تقرأ فى غير تخصصها ، وكانت نظرية أحمد زكى فى ذلك - كما عبر فى يناير ١٩٦٨ - أن « استاذ الطب تلميذ غالبا عندما يتصفح مقالا فى فلسفة الأديان ، واستاذ الفقه الإسلامى تلميذ غالبا عندما يتصفح مقالا فى نفسية المراهقين والمراهقات ، واستاذ التاريخ تلميذ غالبا عندما يقرأ مقالا فى انتاج الكهرباء من الذرة ٠٠ وهكذا » .

وفى عبارة أخرى عبر الدكتور أحمد زكى عن هذا المعنى فى العدد التاسع (أغسطس ١٩٥٩) فقال أن العربى « للطائفة المثقفة

هى للطبيب فى غير طب ، وللعالم فى غير علم ، وللنفسانى فى غير نفس ، وللجغرافى فى غير جغرافيا ، وللاديب فى غير أدب » .

ومع هذا فالرجل المتخصص قد يقرأ فى علمه أو أدبه فيلذ له طريقة عرضه .

ومع هذا أيضا فقد استطاعت المجلة أن تتجنب « الأكاديمية المفرقة » ، جاء ذلك من ايمان أحمد زكى بأل المجلة العامة لها مستوى تقف عنده لا تتعدها ، فإذا هى تعدته ، وطرقت مواضيعها تخصصا ، وبلغت التخصص ، ويولوع فى التخصص ، لم يفهمها الا المتخصص ، واذن تنقلب المجلة الى مجموعة مقالات عالية التخصص ، لا يفهم منها القارئ المتخصص الا موضوعا واحدا ، ولن نجد فى الدنيا هذا الحال .

وكان احمد زكى يعطى عناية خاصة للناحية الفنية فى المجلة ، وكانت هذه الناحية بالذات فى مجلة العربى من المزايا الظاهرة والواضحة التى تمتاز بها المجلة (لأول نظرة) على المجلات العربية المعاصرة .

وبالإضافة الى التنسيق والتبويب الرائعين اللذين كانت المجلة تمتاز بهما ، فقد كانت صورها معبرة ، واضحة التعبير ، وان كل صورة من هاتيك تصلح للحصول على جائزة صحفية بالمعنى المقصود ، وبالإضافة الى الصور كانت هناك الرسوم البيانية عند الحاجة اليها تنطق بالمعنى المقصود ، وكانت هناك أيضا الرسوم التوضيحية التى كان الدكتور زكى يكلف بها الفنان حاكم لتحل أماكن معينة من حديث الشهر .

وكانت مجلة العربى على عهد الدكتور احمد زكى تولى غلافها

أهمية خاصة ، وكثيرا ماكانت تضع عليه ، على حد تعبير الدكتور احمد زكى « زهرات من نباتنا حية ، ناطقة ، محتشمة » ولكن هذا لم يرق للبعض فكتبوا يطلبون أن تختار المجلة لغلافها صوراً من الحجر الأصم تخرج بها من المتاحف « أثراً من الآثار المحفوظة لترى النور » ، ونشرت المجلة رأى المعارضين ، وردت عليهم بوجهة نظرهما ، وسارت على نهجها الذى سارت عليه وبخاصة أنها كانت تختار هذه الصورة من واقع المادة التى يحتويها العدد .

أما الصور الفنية التاريخية ، فقد أقسحت لها العربى الغلاف الداخلى (ص ٢) حيث كانت تعرض أبرز اللوحات العالمية وما اليها من الآثار والتحف الفنية من شتى العصور ، كانت المجلة تعنى بالتثقيف الفنى من خلال هذه القناة فكانت تفرد من صفحاتها مواضع للحديث عن النواحي الفنية والجمالية والتاريخية للأثر الفنى الذى صورته فى صفحة من صفحاتها .

وكان الدكتور احمد زكى يحرص على تحقيق النسب العادلة بين البلاد العربية فى اهتمام العربى ، سواء فى الاستطلاعات المصورة أو الموضوعات الصحفية الأخرى .

وكانت العربى على صلة دائمة بقرائها فى أكثر من بريد ، فهناك بريد القراء التقليدى يحمل الرغبات والآراء ، والتعليقات ، وما يعتقد أنه التصويبات ، والتعليقات . وبالإضافة الى ذلك هناك باب « أنت تسأل ونحن نجيب » فيه الاجابات الشافية الوافية على أسئلة القراء فى المعلومات العامة . أما أسئلتهم فى الطب فكان لها بابها الذى تحدثنا عنه .

وحتى مقال رئيس التحرير نفسه كان يتفاعل فى أحيان كثيرة مع رغبات وتعليقات قرائه ، وأشهر مثل لذلك هو مقال الدكتور زكى

عن الجدل وآدابه (فبراير ١٩٧٣) الذى كان صدى لما وقع في نفسه من استياء أو دهمشة لمواقف وقفها بعض القراء من مقال للاستاذ الشيخ احمد حسن الباقورى .

ومن الطريف أن نذكر أن اعلام الفكر الاسلامى فى شئون الدين الذين كتبوا للعربى قد تولوا وزارة الأوقاف المصرية على التعاقب سواء قبل نشأة العربى أو بعد كتابتهم فى العربى .

وقد كان كتاب العربى - كقرائها - منتشرين في بلاد العروبة جميعا .

وقد كسبت العربى كثيرا - لا كسبا ماديا - وانما قراء جبل بأكمله ، ولم تكسب المجلة رواجها هذا بإثارة الغرائز الجنسية ، ولا باستغلال بساتط المفاهيم الشعبية ، ولا العواطف الجماهيرية .. كسبت العربى بالحقيقة ، وبطرح اللغو جانباً ، وبالجواب بعد الدرس لا بالخطف .

ولابد من أن نشير هنا بالتقدير لفريق العمل الذى عاون الدكتور زكى فى المجلة : الأستاذ يوسف زعبلوى والأستاذ منير نصيف والأستاذ محمد طنطاوى والأستاذ اوسكار مرقى والأستاذ سليم زبال .

وقد كان ثلثا العربى تقريبا يكتب فى دار الدكتور زكى ، على حين كان الثلث الثالث بأقلام الكتاب غير المتفرغين ، وهنا لابد أن نذكر أن عالمنا الجليل لم يكن يشترط لنشر المقال أسم صاحبه ، وانما كان يهمه فى المقال المقال نفسه موضوعا ، وطريقة معالجة .

بذل الدكتور احمد زكى طيلة سبعة عشر عاما قضاها مع

« العربي » فى الكويت جهدا ضخما حتى أخرج هذا العدد الضخم من أعدادها « قرابة مائتين » وكان أحمد زكى يعتبر أنه يعد كتابا شهريا لا مجلة ٠٠ ولم يكن مدده فى هذه الجهود (كما عبر الفريق الذى عمل معه فيها) قوة بدن ، إذ كان يمعن فى الشيوخوخة ومتاعبها ، وإنما كان مدده من حماسة نفسه ، وشعوره العميق بالمسؤولية والأمانة ، وغيرته على عمله كأشد ما تكون غيرة الكريم على عرضه ، وقد أعانه على ذلك تيقظ ذهنه ، كأنه فى معركة حاسمة يتعرض فيها المحارب لأوخم العواقب عند أدنى هفوة .

« وكم من كلمة واحدة ، وقف عندها طويلا ليفتح المعاجم والمراجع ، أو يسأل الخبيرين بها ، حتى يستوثق من صوابها ودقتها ومعناها المقصود ، وإذا كانت أعجمية حرص على أن تكتب بحروف لاتينية ، وإذا كانت مشكلة النطق ضبط منها ما يزيل اشكالها ، حتى يسهل النطق بها صحيحة ، وقد بذل هذا الجهد شهرا فشهرًا ، بل يوما فيوما ، وساعة بعد ساعة » .

بقيت نقطة جديرة بالبحث ، هل كان الدكتور زكى صحفيا ؟ الأمر فى هذا ليس بحثا عن إضافة تضاف الى شخصية العالم ذى الأفق الواسع ، ولكننا إذا قلنا أن الدكتور زكى كان صحفيا فإنما نهدف فى المقام الأول الى تقدير الصحافة ، والبعد عنها عن مظنة أن يبرع فيها من هو غريب عليها والى هذا الحد .

كتب الدكتور زكى فى البلاغ والثقافة والرسالة والهلل وفى غيرها من الصحف ، وليس فى الكتابة للصحف ما يجعل المرء صحفيا ، إنما هو مهما كان ولو كان صحفيا فهو من هذه الناحية كاتب ، ورأس الدكتور زكى تحرير الهلال وتحرير العربى ، والصحافة العربية تعرف أن رئاسة التحرير لا تعنى بالضرورة أن يكون المرء

صحفيا ، ولكننا اذا وجدنا رجلا وقد أسس مجلة على النحو الذي فصلنا القول فيه عن قرب لم يكن في وسعنا الا أن نضعه - بعدما وضع نفسه - بين اعلام الصحافة وأعمدتها .

لا أريد أن أحدثك عن حس الدكتور زكي الصحفى فى عبارات نظرية ، فقد أوردنا أمثلة تطبيقية رائعة على دقة هذا الحس ورقية فى فقرات سابقة ، نضيف اليها هنا أن نطلب من قارئنا أن يرجع الى عدد مجلة الاثنين (١٨/١٠/١٩٥٤) لينظر فى صفحتين جعلتهما المجلة كمجلة مستقلة وتركنا للدكتور زكى مهمة تحريرها . . . هنالك تظهر لك كفاءة صحفية على نطاق ضيق - كما ظهرت على النطاق الواسع - وتجد الدكتور زكى وقد جعل فى مجلة ذات صفحتين ثمانية أبواب متكاملة وشاملة : كلمة العدد ، رسالة الى الشباب ، حكمة العدد ، نكتة الأسبوع ، تعاريف ، قصة ، الصيدلانى الذى قال بانتهاء العالم ، من ألبوم الطفولة .

وطوال المدة التى قضاها الدكتور احمد زكى فى الكويت كان يحظى بالاحترام والتقدير الزائد من أهل الكويت حكومة وشعبا ، لا لعلمه وقلمه ومكانته فحسب ، ولكن لأن الرجل كان قادرا على أن يبقى دائما كتنوما للسمر ، محترما لأهل البلد وتصرفاتهم فى بلدهم ، ولسياستهم ، لا يتدخل فى شىء من ذلك كله ، وهو الذى يعيشه كل يوم . كان احمد زكى يعرف ويدرك تمام الادراك الخطوط الفاصلة بين الأخلاق المتشابهة ، حين تتعدى الخط فتخرج من خلق يحمد الى خلق يذم .

أعطت الكويت للدكتور احمد زكى الحرية الكاملة فى المجلة ، وسجلت المجلة ذلك على غلافها الداخلى « تصدرها وزارة الاعلام . . . ووزارة الاعلام غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء » ومع هذا أعطى الدكتور احمد زكى المثل الأعلى فى الحرية المسئولة وتقدير شرف الكلمة .

وكان أحمد زكى طوال هذه المدة يبقى في الكويت معظم وقته ،
ويزور القاهرة على فترات متقطعة طوال العام ، يحضر جلسات
مجمع اللغة العربية في مؤتمره السنوى ، ويزور أصدقائه وتلامذته
فى الجامعة ومراكز البحوث .

ونعود الآن لنتتبع نشاط أحمد زكى فى شتى الميادين بعدما
تتبعناه فى الوظائف الرئيسية التى شغلها فى مراحل حياته
المختلفة .

وأول هذه النشاط كان فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ،
كان أحمد زكى من أعضائها البارزين ، وقد طبع كتابه الذى ترجمه
بالاشتراك مع الدكتور الكردانى أربع مرات ، اثنتان منهما وأحمد
زكى فى لندن .

وكان أحمد زكى بلا شك من العلماء الرواد الأوائل الذين
بنوا نهضة مصر العلمية فى عصرها الحديث ، وقد ساهم أحمد زكى
مع نخبة من اعلام الفكر والثقافة فى تأسيس المجمع المصرى للثقافة
العلمية سنة (١٩٢٩) ليكون منارة لنشر الثقافة العلمية بين طوائف
الشعب المختلفة ، وكان الدكتور زكى من أبرز أعضاء هذا المجمع ،
وقد تولى رئاسته فى أوائل الاربعينيات ، وألقى فى مواسمه الثقافية
عددا من المحاضرات يطالع القارئ بيانها فى الببليوجرافيا .

واذ بدأت فى مصر سنة انشاء الجمعيات العلمية فى القرو
المتخصصة من العلم على غرار الجمعيات البريطانية المتخصصة ،
كان للدكتور زكى الفضل الأكبر فى تأسيس الجمعية الكيميائية
المصرية سنة (١٩٣٨) ، وقد انتخب رئيسا للجمعية وظل رئيسا
ربع قرن من الزمان حتى شغلته الحياة فأثر الاستقالة من الرئاسة .

وساهم الدكتور احمد زكى بجهد وافر فى تشجيع انشاء جمعية خريجي كليات العلوم ، وكان لابد للشباب الداعين الى الفكرة - كاجراء رسمى - من احد الاساتذة يرود حركتهم هذه فاختاروا الأستاذ الحبيب الى قلوبهم احمد زكى ، فكان يوجههم ولا يفرض عليهم رأيه فى مجلتهم « رسالة العلم » التى أصدروها مسجلين فيها شكرهم له وتقديرهم لموقفه منهم .

وانتهز الدكتور احمد زكى الفرصة ليستقل أبناؤه بأنفسهم ، فلما حانت صمم على أن يقوموا بأمر جمعيتهم ومجلتها التى لا تزال تصدر الى اليوم .

وكان الدكتور زكى بك واحدا من علمائنا العشرة الذين أسسوا الأكاديمية المصرية للعلوم فى أكتوبر سنة (١٩٤٤) والتسعة الآخرون هم الاساتذة والدكاترة : على مصطفى مشرفة ومحمد خليل عبد الخالق وحسن صادق وإبراهيم رجب فهمى وكامل منصور وعلى حسن ومحمد رضا مدور ويونس سالم ثابت وسعد الله مدور . وقد تولى الدكتور احمد زكى رئاسة هذه الأكاديمية حين كان اكبر الأعضاء سنا حسب ما يقضى به نظام الأكاديمية .

والحق أن هذه الأكاديمية قد استطاعت - على الرغم من بقائها أهلية الى الآن - أن تنهض بالواجب الذى تنهض به الأكاديميات العلمية الوطنية ، وقد مضت فى سبيل تحقيق أهدافها بخطوات كبيرة ، وواظبت على اصدار مجلتها العلمية رفيعة المستوى بأبحاثها العلمية الدقيقة . وقد تطورت الأكاديمية مع الزمن بحيث صارت تضم اليوم أربعين عالما فى أربع شعب .

كذلك هيات شخصية احمد زكى الفذة للدولة ان تستعين به فى كثير من المواقع ، فكان رحمه الله عضوا فى المجلس الأعلى

لدار الكتب المصرية ، وعضوا فى مجلس ادارة البنك الصناعى ، وعضوا فى مجلس معهد فؤاد الأول للصحراء ٠٠ ولا شك استفادت كل هذه المواقع من وجود احمد زكى فيها يشارك فى توجيه دفة الأمور نحو ما يراه صوابا وملئها بفكره وثقافته وخبرته فى الحياة ممارسة وقراءة ٠

ودخل الدكتور احمد زكى مجمع الخالدين ، كان واحدا من العشرة الذين ضمهم الفوج الثالث من أعضاء مجمع اللغة العربية سنة (١٩٤٦) ، وقد دخل معه كل من الأساتذة والدكاترة : عبد الرزاق السنهورى و ابراهيم بيومى مذكور وعبد الوهاب عزام وزكى المهندس ومحمود شلتوت و د* محمد شرف ومصطفى نظيف ومحمد فريد أبو حديد وعبد الوهاب خلاف ، واستقبلهم الدكتور أحمد أمين مجموعة ، وقال فى شأن الدكتور أحمد زكى : « انه كيميائى عظيم ، وأديب كبير مزج العلم والأدب ، كما يمزج بين السكر والماء ، فبينما نراه فى معمله بين الأنبابيب والمحاليل ، نراه فى مكتبه يحلل الكلمات ويستخرج المعانى ويصوغ الأفكار » ٠

وقد علق أستاذنا الدكتور ابراهيم بيومى مذكور على هذا القول حين رواه فى تأبين الدكتور زكى قائلا : « وقد دلت الأيام على صدق هذه الصورة ودقتها ، فقد رأيناه نحن فى مجمع الخالدين يحلل الكلمة العلمية تحليلا أمينا ، كما يحلل الكلمة الأدبية تحليلا بليغا » ٠

وبقى الدكتور احمد زكى عضوا فى مجمع اللغة العربية حتى وفاته ، ولم يكن يحتاج له حضور جلسات مجلس المجمع الأسبوعية فى القاهرة حين كان يقيم فى الكويت ، كما ذكرنا ، فكان يحرص على حضور المؤتمرات السنوية واللقاء بحوث قيمة فيها ، وكانت

له تعليقات كثيرة على بحوث زملائه انخالدين تتم عن سعة الثقافة ودقة الفهم ، كما كانت له كثير من الآراء فى مجال اللغة واللغة العلمية سنعرض لها بشئ من التفصيل فى باب خاص .

وقد اشترك الدكتور احمد زكى فى كثير من لجان المجمع ، كما يقول أستاذنا الدكتور مهدى علام ، ولا سيما لجان المصطلحات العلمية كلجنة الكيمياء والطبيعة ولجنة الجيولوجيا ولجنة علوم الأحياء والزراعة . كما أسهم فى اللجان الادارية فشارك فى أكثر من دورة فى لجنة تحديد موعد انعقاد المؤتمر وتعيين أعماله ، وكان عضوا فى اللجنة التى تكونت فى الدورة الرابعة عشرة لاختيار زكى وشارة لأعضاء المجمع . كما اختير الدكتور احمد زكى عضوا بمجلس ادارة المجمع فى دورته الثانية والعشرين وليمثل المجمع فى عدة مؤتمرات منها المؤتمر الصيدلى الثالث (فى الدورة الثالثة) والمؤتمر الصيدلى السابع (فى الدورة السادسة والعشرين) ، وفى الاحتفال بمرور ٧٥ عاما على المجمع البولونى للعلوم والآداب (فى الدورة الرابعة عشرة) . وكان دائما يحث المجمع على اصدار توصياته من أجل الالتزام بالفصحى فى وسائل الاعلام (الدورة الثالثة والعشرين) .

وفى سنة (١٩٤٧) وفى السنة التى كثرت فيها أعباء الدكتور احمد زكى الحكومية (مصلحة الكيمياء ، ومصلحة الصناعة ، ومجلس البحوث) عهد اليه آل زيدان ، أصحاب دار الهلال ، برئاسة تحرير الهلال فى عهدها الجديد ، وقد دام هذا العهد أربع سنوات (١٩٤٧ - ١٩٥٠) استبטاع الدكتور زكى خلالها أن ينهض بمجلة الهلال نهوضا وثابا ، وأضاف اليها كثيرا من الملامح البارزة فى تاريخ حياتها الطويل (أقدم المجلات العربية) .

وإذا أراد القارئ أن يدرك أنباء التجديدات والاضافات التى قدمها الدكتور زكى ابان رئاسته لتحرير الهلال ، فليعلم انها كانت

أرهاصات ومبادئ ما فعله أحمد زكى بعد ذلك من خلال مجلة العربى ٠٠ اهتمام بالعلم والطب وصحة الأسرة والمجتمع وفئاته المختلفة ، وتنويع فى الأسلوب الصحفى ، وتوظيف للصورة والكاريكاتير ، وتخصيص أعداد لموضوعات معينة تحيط بها من جوانبها المختلفة ، وتنويع الفنون الأدبية الإبداعية فى المجلة ، وإتاحة الفرصة للأقلام الجديدة ، وفتح الصدر لتعليقات القراء وأسئلتهم وآرائهم فى المجلة وتطويرها والاهتمام بتطوير بنط المجلة وحجمها ، وتنسيقها وتبويبها ٠

وفى عهد أحمد زكى كانت مجموعة كتاب الهلال تضم من فحول الكتاب : طه حسين والعقاد وتوفيق دياب والمازنى وفكرى أبازة وأمينة السعيد وبنيت الشاطيء ومى زيادة وعلى محمود طه ، ومن كبار رجال الحكم : عبد الرحمن الرافعى ومحمسد على علوبة ٠ هذا بالإضافة الى كبار الأطباء من أمثال : الدكتور سليمان عزمى وكامل يعقوب ، وكبار علماء التربية وعلم النفس والاجتماع وكانت الهلال مع ذلك لا تخلو من الوراثة والابداع ومواكبة الأحداث فى صورة صحفية بارعة ٠

وقد عبر أحمد زكى فى عدد يونيو (١٩٤٧) عن ايمانه بأن الهلال يجب ألا يقتصر على ما يكتبه أصحاب المكانة المعروفة والصيت الواسع بل يجب أن يساعد على إبراز النبوغ الكامن وتشجيع الكفاءات الجديدة ، ولذلك قال : « سنبدل عناية خاصة بفحص ما يرد إلينا من الكتاب الناشئين ٠ ولعلنا بذلك نخدم مصادر هؤلاء الأدباء وجمهور القراء » ٠

ودعا أحمد زكى كتاب الأقطار العربية الشقيقة للكتابة فى الهلال من خلال الخطة العامة للمجلة ٠

وكانت الهلال تقدم كثيرا من المواد المترجمة ، وكان مذهب احمد زكى تجنب الترجمة الحرفية ، اذ ان ما ينشر فى الخارج قد كتب لجمهور غير جمهورنا ، فلا بد من التصرف والاقتباس والسبك من جديد ، « ونحن ننقل عن صحف العالم اجمع ومجلاته وكتبه دون تفضيل جهة على جهة » .

وكان الدكتور احمد زكى كثير السفر والتجوال فى بلاد العالم ، وقد مثل مصر فى معظم المؤتمرات العلمية التى شاركنا فيها فى الأربعينات ، وزار الباكستان والهند ووثق الصلات العلمية بينها وبين مصر ، كما زار البلاد العربية وحرص على وضع برامج للتبادل العلمى معها .

وقام الدكتور احمد زكى بزيارة طويلة للولايات المتحدة الامريكية سنة ١٩٤٦ م تفقد خلالها كثيرا من مراكز البحوث العلمية المنتشرة فى ولاياتها وجامعاتها ، وكان فى سبيله الى انشاء مركز البحوث (المركز القومى للبحوث الآن) ورافقه فى هذه الزيارة عدد كبير من علمائنا ومبعوثينا الذين كانوا يدرسون وقتها فى الولايات المتحدة ، وكان احمد زكى حريصا فى هذه الزيارة وفى غيرها من زيارته للبلاد المتقدمة على ادراك المسائل الكفيلة بربط العلم النظرى بالجوانب التطبيقية بالحياة من خلال مراكز البحوث . وقد استوعب احمد زكى بلا شك تجارب العالم المتقدم وقارن بينها واستخلص المنهج العظيم الذى وضعه للمركز القومى للبحوث فى مصر .

وزار الدكتور زكى الكويت فى ربيع عام ١٩٥٥ مدعوا للمشاركة فى الموسم الثقافى ، وكان ذلك عقب تركه رئاسة جامعة القاهرة ، فكان لهذه الدعوة اثر طيب فى نفسه ، كما زار بيت الله فى مكة المكرمة غير مرة ، وكتب لنا عن كل هذه الزيارات فى مواضع متفرقة من المجلات التى كان ينشر فيها .

وزار الدكتور احمد زكى المغرب العربى فى أوائل الستينات
وأوائل السبعينات وكتب لنا فى العربى عن هذه الزيارات •

وكان الدكتور احمد زكى كثير الزيارات لانجلترا بحكم دراسته
السابقة فيها ، وبحكم النسب ، وكان من عادته زيارة انجلترا
كل صيف •

هذا وقد حظى الدكتور احمد زكى بكثير من التكريم فى حياته ،
وكان أكثره من طلابه الذين كانوا يحتفلون به عند كل خطوة كبيرة
يخطوها ، ولم يكن هذا الا تعبيراً عن متانة الروابط التى ربطت
احمد زكى بكل من عرفوه ، واتصلوا به • وكان العلماء المصريون
طوال الخمسينات والستينات والسبعينات يعتبرون احمد زكى « أباً
العلماء » وقد كان كذلك بحق •

وعلى الصعيد الرسمى منح عالمنا الجليل البكوية من الدرجة
الأولى عام (١٩٢٧) ونيشان اسماعيل من الدرجة الثالثة عام
(١٩٤٦) •

وقد عاش الدكتور احمد زكى حياته ممتعة بصحة جيدة ،
وعلى الرغم من أنه توفى عن واحد وثمانين عاماً الا أنه كان يتمتع
الى ما قبل وفاته بأربعة شهور بصحة كاملة ، وعلى حد تعبير مجلة
العربى ، وظنى أنه تعبيره شخصياً « قوى البنية ، مشحوذ الراى ،
يجد الراحة أطيب الراحة بين القلة القليلة من الأصدقاء ، والكثرة
الكاثرة من الكتب » ، وكان يبدو وهو فى الستين أقرب منه الى
الشباب • وقد سئل غير مرة عن سر احتفاظه بشبابه فقال : « ان
ذلك راجع الى الأرومة التى أنا منها • أعنى الشجرة التى أنجبتنى،
فأنا من أرومة عمرت طويلاً • فوالدى مات بعد الثمانين وكذلك
أمى ، فالعنصر السليم والدم النقى له فضل كبير فيما أتمتع به من

شباب وصحة ، وأما السبب الثانى فهو « الرياضة » وكانت رياضة احمد زكى فى سنواته المتأخرة هى المشى ، وروى عن نفسه أنه كان يمشى أحيانا ٨ ساعات فى باريس ، أما فى شبابه فقد فاز بجائزة « القبط المسعبد » وهو فى السادسة عشرة من عمره ، وكانت الجائزة آلة تصوير أهدها بعدها بنصف قرن من الزمان الى حفيده رشاد ، هذا بالاضافة الى ما ذكرنا من أنه كان الجناح الأيسر لفريق كرة القدم فى مدرسة التوفيقية الثانوية .

وفيما يتعلق بالأرومة التى كان الدكتور احمد زكى منها ، روى عالمنا الجليل أنه فى احدى جلسات مجلس جامعة القاهرة عام (١٩٣٣) كان يجلس الى جوار الأستاذ درى أستاذ علم التشريح فى طب قصر العينى ، فلاحظ عالمنا أن الدكتور درى يطيل التأمل فى رأس احمد زكى .. ويطيل حتى لم يعد بدا أمام احمد زكى من أن يسأل .. فقال له الأستاذ درى : هل أنت مصرى ؟ قال الدكتور زكى : « ورحت الى أبى رحمه الله استفتى فعلمت أمرا لم أكن أعرفه .. أن جده النقى بمكة - على الحج - بامرأة من القوقاز من أصل شركسى فتزوجها وعادا الى مصر .. فكان منها جدى .. ثم أبى وأخيرا أنا » .

وكان احمد زكى يهدف لمن يسأله عن سر احتفاظه بالصحة والعافية بقوله : « انه أراد أن يثبت اهتمام العلماء بأجسامهم » .

وكان رحمه الله من انصار الزواج ، وكان يقول « انه لا تطيب له صورة عالم بلا زوج يسكن اليه ، فالعالم يشبع بعلمه جانبا من جوانب الانسان ، وهو ذلك العقل ، ويبقى القلب وسائر الجوانب ، وكل هذه لا يشبعها الا أن يكون الانسان انسانا يجرى على أساليب الناس فى العيش » .

ويروى انه كان يفكر قبل سفره الى انجلترا فى واحد من
أمرين : الزواج أو مواصلة الدراسة ، ثم قال لنفسه : ان الزواج
استقرار حاضر يعقبه قلق مستمر ، وفضل السفر على نفقته
لاستكمال دراسته ، ثم تزوج فى ليفربول سنة (١٩٢٣) وعاشا معا
فى بريطانيا ومصر والكويت سنوات طويلة ينعمان بالحب والتفاهم
والاستقرار ، ويقشاركان البأساء والضراء ، وتوفى أحمد زكى عن
زوجته التى لحقت به بعد عامين *

وفى تحقيق صحفى أجرته آخر ساعة (١٠/٨/١٩٥٥) تحت
عنوان : « الرجال الذين لم تعجبهم المصريات وتزوجوا أجنبيات
والنقت فيه بالدكتور طه حسين (وزوجته فرنسية) والدكتور أحمد
فخرى عالم الآثار (وزوجته المانية) والدكتور أحمد زكى (وزوجته
انجليزية) سئل الدكتور زكى عن وجهة نظره فى زواجه ، فشرح
بفكره بعيدا ٠٠ وهو يتذكر ذلك الماضى البعيد ثم قال : « ان الزواج
حظ ٠٠ لا يرتبط كثيرا بوطن الزوج أو وطن الزوجة ٠٠ والمسألة
هى مسألة مزاج وأخلاق ٠٠ ولم أجد فيما سمعت من الزوجات
صبرا ولا كرما ولا تضحية ولا فهما ، كتلك التى اخترتها من تحت
تلك السماء القاتمة الماطرة ، والتى لا تكاد تكف عن المطر صيفا
أو شتاء ، وقد حضرت هى الى حيث لا مطر ولا سحب وانما
الشمس الساطعة المحرقة ، فاحتملتها ، وصبرت عليها حتى أصبحت
لا تطيق مطرا أو سحبا ، واستطرد يقول : « حقا ان بين المصريات
من يمتزن بالصبر الطويل المرير ٠٠ ولكن الصبر وثقيضه النزق
موزعان فى الأمم توزيعا عادلا ٠٠ فالى جانب الصابرة نجد المتهوره ،
والى جانب الحليمة نجد سريعة الغضب » *

وقد رزق الدكتور أحمد زكى وزوجته بابنتهما السيدة (ليبيبة) ،
ورزقت هذه بابن كان الدكتور أحمد زكى يسعد به كثيرا ولا يفتر

يداعبه ويهتم به ، وهو الدكتور رشاد مصطفى المهندس فى
كاليفورنيا .

وقد سئل الدكتور احمد زكى عن سر اكتفائه هو وزوجته بابنة
واحدة فقال : « انها ترى ان الحياة مقامرة ، وان انجاب الأطفال
أقسى المغامرات ، فنحن ننجب الأطفال للشقاء أحيانا وللسعادة
أحيانا ، وان يكن هذا أو هذه فنحن على كل حال ننجبهم للجهاد
العنيف ، والحياة الحديثة جهاد عنيف .. وقد رأيت ما رأت ، ،
وأضاف عالما قائلا : « ان الناس تنجب ان لم يكن للشقاء فهم ينجبون
للموت .. وكلانا - يقصد هو وزوجته - من رأى أبى العلاء :

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

ومع هذا فلنا ثمرة ، وثمره واحدة ، وكان لنا منها صبي ، .

وكانت للدكتور احمد زكى فيلا بالقاهرة هى الدار رقم ١٦
بشارع ٤ بالمعادي ، وكانت من دورين ابتناها بعد عودته واحتفظ
بها حتى توفى ، وقد جعل مكتبه فى الدور الثانى منها مع حجرات
النوم ، وكان بين مكتبه وحجرة نومه باب صغير ، فاذا أرق بعد
ثلثى الليل ، وكثيرا ما كان يأرق ، دلف من حجرة نومه الى حجرة
مكتبه وأضاء النور وأخذ يقرأ ويقرأ ، وقد يكتب ويكتب ، ومن
هنا جاء اسم واحد من كتبه « ساعات السحر » وهى فصول متفرقة
الموضوعات لا يجمعها الا انها كتبت فى ساعات السحر ، ولهذا رأى
أن يسميها بالوقت الذى كتبت فيه جميعا بعدما تعذر أن يجد لها
موضوعا يضمها جميعا .

ومن هذا المعنى كان الكاريكاتير الذى نشرته مجلة الهلال
(مارس ١٩٥١) للدكتور احمد زكى مصورة له على أنه « ديك » ،

وذلك فى الحلقة الأولى من باب جديد اسمه « حديقة الأدباء » اتخذته « الهلال » موضعاً لبدء الرأى فى الكتاب ، وأردف كاتبها طاهر الطناحى على ذلك الكاريكاتير بأبيات من الشعر تقول .

متسوج بعقيق	مفـسـرط بلجـسـسـين
عليه قرطـق وشـى	مـشـمـر الكـمـسـين
قد زين النحر منه	ثنتـان كالوردتـين
حتى اذا الصبح يبدو	مطـسـرر الطرـسـين
دعنا فاسمع منا	مـن كان ذا أذنـين

ثم علق على ذلك بقوله : « ذلك هو الديك أو ذلك هو مؤلف (ساعات السحر) » . وقد أحسن الرسام فى اختيار الديك له . فمن ذا الذى يستيقظ فى هذه الساعات أو قبيل هذه الساعات الا أن يكون ديكاً ، أو يكون الدكتور أحمد زكى ، غير أن الديك يستيقظ ويوقظ النائمين بصياحه ، وزكى يستيقظ ويصيح بصريـر قلمه ، ولا يقلق النائمين بهذا الصريـر الموسيقى الجميل ، ومعنى طاهر الطناحى مركب من العبارات وأسماء كتب أحمد زكى جملاً طريفة المعنى والأسلوب .

كان الدكتور أحمد زكى من العلماء المؤمنين ، وكان إيمانه بالله وقدرته عميقاً الى أبعد الحدود ، بل لعله أبعد علمائنا المعاصرين فى هذا شأوا ، ان كان فى الايمان مفاضلة .

وكانت عقليته الدينية على شىء كبير من التفتح والتحرر ، وكان يجاهر بلا خوف أن حديثاً فى البخارى لا يمكن أن يكون

صحيحاً اذا خالف العقل والدين ، والنبي صلى الله عليه وسلم
لا يمكن أن يقول ما هو مخالف للوحي والدين .

وخاض الدكتور احمد زكى سنة ١٩٥٢ معركة اجتماعية مع
فضيلة الشيخ حسنين مخلوف ، على صفحات الجرائد ، وكان
وقتها مفتى الديار المصرية ، حول المرأة وعمل المرأة ، وطبيعة عمل
المرأة ، وانتصر الدكتور زكى فى النهاية .

وقد انتدب الدكتور احمد زكى لتدريس التاريخ الطبيعى فى
الأزهر فى أول عمله بالتدريس بعد تخرجه من مدرسة المعلمين ،
فدرس عامى (١٩٢٨ ، ١٩٢٩) وذكر ذات درس لطلبته أن ضلوع
الانسان متساوية العدد فى اليمين واليسار ، فهاج عليه الطلبة
يريدونه أن يوافقهم على اعتقادهم أن الضلوع فى الجانب الأيسر
تنقص واحدا ، هو الذى خلقت منه حواء ، فأخذهم عالمنا بالليلين
والمنطق والعلم حتى أقنعهم بصواب ما قال ، واقتنع الطلاب ،
وأحبوا أستاذهم ، وأخذوا يستمعون الى نصحه ويأخذون بآرائه ،
ومضى يعمل على توجيههم فى تكوين شخصياتهم ، ونصحهم
بممارسة الرياضة البدنية لفوائدها الجمة ، وذهب الطلبة يلعبون
كرة القدم ، ولبسوا الشورت ، وجمعوا بينه وبين « العمة » فوق
رعوسهم ، وهاج ولاية الأمر فى الأزهر ، وكان الشيخ مصطفى
عبد الرازق - وهو صديق احمد زكى - سكرتيراً للمجلس الأعلى
للأزهر ، وذهب الشيخ مصطفى (الذى تولى مشيخة الأزهر فيما
بعد) الى احمد زكى فرجاه أن يجعل الأزهريين الشبان يقلعون
عن هذه الرياضة التى نصحهم بها ، واستجاب عالمنا لرجاء شيخنا ،
واستجاب الطلبة لرجاء أستاذهم .

وكان الدكتور احمد زكى يؤمن بأن العلم وتقدمه سواء فى

مجال البحوث أو المجال التطبيقى عامل مؤثر فى الرقى بالإنسان وأخلاقه ، ولم يكن من أنصار الرأى القائل بغلبة الماديات على هذا العصر ، وعنده أن الشر لا يكون الا والعقول مظلمة ولا يمكن أن ينتج عن تقدم العقول الا الخير (الاثنين ٢١/٢/١٩٥٥) . وهو يلفت النظر الى أن الناس لم تأمن على سلامتها وأموالها وأرزاقها وبيوتها ورعوسها كما أمنت هذه الأيام ، وأبعد من هذا يتنبأ الدكتور زكى بأن نواحي التقدم العلمى والتكنولوجى سوف تكون أكبر العون على تماسك العقائد عند الناس .

وأصل المسألة عنده أن العلم والتكنولوجيا ، كلاهما ليس فيه خير أصلا ، وليس فيه الشر ، انما هو كمشط الجراح يستطيع أن يفتك به ، أو أن يجرح ليشفى ، أو هما كالماء ، تستطيع أن تبل به الظمأ ، وتستطيع أن تسد به الأنفاس وتغرق (من حديثه لمحمود عوض فى آخر ساعة ٧١/٤) .

ويلخص أستاذنا الدكتور زكى الرأى فى الرد على من يقولون أن المجتمع العلمى هو مجتمع مادى ، فيقول : « هؤلاء القوم من أهل المشرق * * قوم من بيننا يفكرون مثل الثعلب الذى نظر الى العنب ، فوجده عاليا لا ينال ، فقال انه الحصرم المر ، وذهب راغبا عنه * انهم اذن يقولون ذلك عجزا وقصر ذيل . فلنصحب أولا مجتمعا علميا قبل أن نلن غيرنا » .

وسوف نولى هذه النقطة كثيرا من التفصيل فى الباب الخاص بالفكر الفلسفى عند احمد زكى .

عاش الدكتور زكى حياته وقد سيطرت على عقله فكرة وحدة الخلق والخالق ، وأن وحدة هذا الخالق تتراءى فى وحدة خلقه ،

وكان يعبر عن هذا فى الخمسينات وهو فى مواقع السلطة فيقول :
 ان أمنيته أن يخلص من المناصب ليتفرغ لكتابة كتاب بعنوان
 « وحدة الكون » ، وفى موضع آخر يقول أحمد زكى ملخصا هذه
 الفكرة « وخرجت على ما أحسب انه حقيقة الحياة الكبرى : تلك
 وحدة شاملة تجرى فى هذه الخلائق جميعا ، على اختلاف صور
 واختلاف أخلاق ، وهى تجرى فى أرض وسماء أو من بها كإيمانى
 بوجودى وإيمانى بوجودك وإيمان بالوجود أول الأيمان .. وتسالنى
 عن هذه الوحدة ما اسمها ، وأقول : سم ما بدا لك . أما هى
 عندى : فوحدة من وحدة الله » ، قال الدكتور أحمد زكى هذا فى
 مقدمة كتابه « مع الله فى السماء » ، ثم قال : « وهذا الكتاب ليس
 بكتاب فى الفلك ولا فى علم الأرض ، ولا فى الفيزياء ، ولا فى
 الكيمياء .. وما كان له أن يكون ، انه كتاب إيمان وأرجو أن اتبعه
 بالكتاب الثانى « مع الله فى الأرض » اكمالا لمعنى الوحدة ، وعلى
 الله أن أنجزه ، وعلى الله أن أوفق فيه .

ومضت الأيام ونشر الدكتور أحمد زكى سلسلة مقالات ممتعة
 فى مجلة العربى وجعل عنوانها « وحدة الله تتراءى فى وحدة
 خلقه .. وقدرة الله تتجلى فى بديع صنعه » ، وكان يعتزم أن يجمع
 بين هذه المقالات التى نشرها فيما بين يناير ١٩٧٠ وديسمبر ١٩٧٤
 فى كتاب ، وقد جهز هذا الكتاب بالفعل قبل وفاته وأضاف الى المقالات
 عددا آخر من الموضوعات استقام بها نظام الكتاب كموسوعة علمية
 فى فلسفة وحدة الكون ، وجعل عنوانها « مع الله فى الأرض » وقد
 نشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب بعد وفاة عالمنا الجليل .

ولم تكن هذه او تلك هى الموسوعة الوحيدة لأحمد زكى فى
 المجال العلمى ، وانما كانت هناك موسوعة أخرى نشرها الدكتور
 أحمد زكى بداية على صفحات العربى فى المواضيع العلمية الرئيسية

ثم جمعت تحت إشرافه وأخرجت أخراجاً رائعاً وصدرت عن دار المشرق ، تحمل نفس الاسم الذى كان أحمد زكى يكتبها تحت عنوانه وهو « فى سبيل موسوعة علمية » وتعد موسوعة الدكتور أحمد زكى هذه خير ما صدر فى العربية فى هذا المجال .

وقبل هذين الكتابين « مع الله فى الأرض » ، « مع الله فى السماء » أخرج الدكتور أحمد زكى فى سنة (١٩٣٨) كتابه « قصة الميكروب » ، كيف كشفه رجاله » وهذا الكتاب فى الأصل من تأليف الدكتور بول دى كريف « Dr. Paul de Kruif » وقد نشر الدكتور زكى ترجمة لهذا الكتاب فى مجلة الرسالة ، التى كان الأستاذ أحمد حسن الزيات يصدرها ، وبدأ عالمنا فى نشر الفصول المترجمة منذ فبراير (١٩٣٥) وعلى مدى ثلاث سنوات . وما أن انتهى نشر فصول الكتاب حتى نشرته مجلة الرسالة سنة (١٩٣٨) .

كذلك ترجم الدكتور زكى كتاب « Lady with a spear » الذى ألفته أوجيني كلارك « Eugenie, Clark » وهى باحثة شابة حكمت فى كتابها عن تجربتها العلمية فى عالم البحار ، وقد اختار الدكتور زكى أن يترجمه تحت عنوان « فى أعماق المحيطات » وقد نشرته دار الهلال .

وفى الستينيات عاون الدكتور أحمد زكى مؤسسة فرانكلين على نشر اثنين من أبرز الكتب العالمية التى أخرجتها المؤسسة فى مصر . وأول هذين الكتابين هو كتاب ألفه الدكتور جيمس كونانت James B. Conant رئيس جامعة هارفارد الأسبق ، وقد ترجمه الدكتور أحمد زكى تحت عنوان « مواقف حاسمة فى تاريخ العلم » ونشرت دار المعارف الكتاب سنة (١٩٦٣) .

وأما الكتاب الثانى الذى يحمل اسم « بواتق وأتابيب » قصة الكيمياء » فهو ترجمة الدكتور زكى لكتاب العلامة برنارد جافى

«Bernard Jaffe» الذى ألفه باسم «Crucibles the stroy of chemistry» وهو كتاب كبير الحجم والقيمة كسابقه . هذا بالإضافة الى جهده فى كتب دراسية أخرى .

وكان الدكتور زكى يذهب فى ترجمته للكتب العلمية مذهب الدقة الزائدة ، ولكنه كان يجمع اليه مذهب التحرر ، وهو يقول فى هذا المعنى فى تقديمه لكتاب مواقف حاسمة فى تاريخ العلم « وجنحت فى الترجمة الى النفع اذا هو عارض التقليد ، وكان لابد فى كاتب يحكى عن العلم كهذا من ابتداع كلمات فابتدعتها ، فوجدت من الفائدة ان أنكر الى جانبها لفظها الانجليزى لفائدة من عرف وألف اللفظ الانجليزى . كذلك اسماء الاعلام وضعت الى جانبها نافع لمن يريد الرجوع الى المراجع الأعجمية ليزداد منها علما » هذه لمحة من أسلوب أحمد زكى فى الترجمة ، الذى سأتحدث عنه بالتفصيل فى باب خاص .

ويلاحظ القارئ من طبيعة هذه الكتب انها تعنى عناية خاصة بتاريخ العلم ، أو بعبارة أخرى تعرض العلم من خلال تاريخه ، وقد جاء هذا نتيجة ايمان أحمد زكى بفعالية هذا الاسلوب فى توصيل حقائق العلم وروحه الى الجمهور المثقف ، وقد عبر رحمه الله عن هذا المعنى فى تقديمه لكتاب قصة الكيمياء فقال انه « ليس الذ فى أحاديث الناس من قصة ، وليس أمتع فيما يقرأ الناس من قصة والعقول قد تخمد من تعب ، ويكاد يغلبها النوم ، حتى اذا قلت قصة ذهب النوم واستيقظت العقول ، وارهفت الأذان » ، « وتسال عن سبب ذلك فتعلم ان العقل الواعى من بعض أعماله المتعقل ، ومن بعض أعماله التخيل ، والمتعقل يطول فيجهد ، والتخيل مركب وطىء ، يركبه الانسان بايسر جهد ، ويطير فيخلق به فى أجواء اكثر انعاشا من جو هو فيه ، وليس أحب للنفس وليس أشهى لها ، من فرس ذى جناحين فى السماء رامح » .

وكان أحمد زكي في كل ما بذل من جهد في هذه الناحية ، يعبر عن ايمانه بأن من مسئولية رجل العلم أن يعرف الناس بالقيم العلمية * ويحيى فيهم سعيهم نحو القيم العلمية ، وهكذا عبر للأستاذ محمود عوض في لقائه معه الذي نشر في مجلة آخر ساعة (٧١/٤) وقال : ان الناس دائما تهاب العلم ، لأن هناك اشاعة منتشرة تقول ان العلم صعب ، وان للعلم موهبة توجد عند بعض الناس ولا توجد عند البعض الآخر ، هذا غير صحيح ، اننا جميعا نبدأ حياتنا من نقطة متساوية ولكن اتجاهاتنا تتحدد على الطريق وليس من نقطة البداية نفسها ، ولأن الناس تتصور ان العلم صعب ، فانك تجد ان الذين يقبلون على كتابة الشعر أو القصة مثلاً هم أضعاف من يقبلون على التخصص العلمي * ان الطريقة المثلى لتقريب العلم للجمهور هي ان يتحدث الناس علمياً في الأمور التي تتصل بحياتنا اليومية * فكلما قرأ الشخص العادي عن الدور الذي يؤديه له العلم داخل منزله ، وفي مكتبه ، وفي حياته عموماً ، فان اهتمامه بالعلم وقراءاته سوف تترادف قطعاً *

على أن هناك مجموعات أخرى من مقالات استاذنا الدكتور زكي في مجلة العربي تصلح لأن تقوم كتباً مستقلة بذاتها على غرار هذه الكتب ، ومن أمثلة هذه المجموعة أحاديثه في « الطب المصور » ومقالاته الأخرى في « الامراض الشائعة » وسلسلة أحاديثه عن « الذرة » وعن « الفضاء » *

وانى لأرجو الله سبحانه وتعالى أن يهيئ لها من يقوم بهذا الجهد *

وبالإضافة الى هذه الكتب العلمية الأربعة التي نقلها عالمنا الجليل الى العربية ، فقد استغل قلمه في ترجمة عينيين من عيون

الأدب العالمى لاثنتين من كبار الأدباء وأبرزهم فى تاريخ الأدب إذ ترجم الدكتور زكى « غادة الكاميليا » و « جان دارك »

وتبرز القدرة الأدبية واللغوية والتعبيرية الهائلة لاستاذنا الدكتور أحمد زكى فى ترجمته لهذين الأثرين العظيمين ، وعلى الرغم من أنهما قد ترجما عدة ترجمات أخرى الى العربية الا أن ترجمة الدكتور زكى لكل من الأثرين تبقى على قمة الترجمات .

أما عن أعمال الدكتور زكى التى ألّفها فى اللغة العربية ، فبالإضافة الى كتابيه مع الله ، وبالإضافة الى الموسوعة العلمية ، فقد أخرج للقارئ العربى خمسة كتب ضمت المجموعات الأولى من مقالاته ، جمع الدكتور زكى أحاديثه الإذاعية فى كتابين متعاقبين أولهما « سلطة علمية » وثانيهما « سلطة علمية أخرى » وسيجد القارئ بيانا بفصول الكتابين فى باب « الببليوجرافيا » .

وقد عثرت فى تراث استاذنا الدكتور أحمد زكى على كشف بقلمه حصر فيه (٦١) واحدا وستين حديثا إذاعيا لم تنشر فى سلطة علمية ، وبين يدي القارئ أيضا بيان بهذه الأحاديث فى القسم الخاص بالببليوجرافيا .

أما كتاب « بين المسموع والمقروء » فقد جمع فيه استاذنا الدكتور ثلاثين قصة صغيرة وأقصوصة بعضها وصله عن طريق السماع وبعضها عن طريق القراءة أو هكذا قال هو فى التقديم ، وسنتناول هذه القصص بشيء من التلخيص والعرض والنقد فى الباب الخاص بالناحية الأدبية من شخصية أحمد زكى .

بقى ان نذكر ان الكتاب الرابع « ساعات السحر » بفصوله الاثنتين والعشرين كان مختارات من مقالات الدكتور زكى فى الهلال

الجديد الذي رأس تحريره ، وفي مجلة الاثنين ، وقد تحدثنا منذ صفحات قليلة عن السر في تسميته بهذا الاسم ؟ وان الكتاب الخامس « مع الناس » يحوى ثلاثة وعشرين فصلا تتناول كل العلاقات والنواحي التي تكون بين الناس على النحو الذي ستعرضه الببليوجرافيا .

كان الدكتور أحمد زكي أديبا بالسليقة ، وقد حدث عن نفسه فقال أنه نظم الشعر في شبابه حين كان في العشرين من عمره ، ويذكر عالنا أن أول بيتين قالهما هما هذان البيتان اللذان سجلهما على ظهر صورة شمسية أخذت له .

طيف شمس قد ازدهى بشباب ونضرة
يملا النفس وسعها من سرور وبهجة

ولاشك تعبر لنا هذه الابيات عن اعتداد أحمد زكي بنفسه منذ الشباب ، وهى صفة لازمته من دون افراط فيها ولا تفرط (في نفسه أيضا) .

ويروى الدكتور زكي أن أول مقالاته كانت في مجلة « السفور » وكان المنفلوطى رحمه الله قد نشر مقالا جرح فيه الشباب ونعى عليهم ، فرد عليه أحمد زكي بمقال جرح فيه الشيوخ ورامهم بجمود العروق وبرود الدم . والطريف أن أحمد زكي قد روى هذه الواقعة حين كان على مشارف الستين ، وقال لحرر المصور الذى أجرى معه تحقيقا صحفيا في سلسلة عن أهل الفكر في صوامعهم (١٩٥٣/١١/٢٧) أنه ألف وهو في مدرسة المعلمين كتابا سماه « عبث الشباب » جمع فيه كل ما قال من نثر وشعر .

ثم أنه لما تعلم الفرنسية على يد معلمة سويسرية بدأ يطبق العلم على العمل فترجم « غادة الكاميليا » التى نشرها أول ما نشر من مؤلفاته بعد عودته .

ولما سافر أحمد زكى الى انجلترا حمل معه كثيرا من كتب الأدب العربى ، وكان قليل الاختلاط بالمصريين والعرب ، ولكنه كان كثير الاختلاط بالأدب العربى المكتوب ، ولعل فى هذا سرا من أسرار تميز أسلوب أحمد زكى فى بعض العبارات بالتركيبات على نحو لا نجده فى أسلوب معاصريه ، وان لم يكن غريبا على الأسلوب العربى .

وكان عالما اثناء دراسته فى انجلترا يحرص فى رسائله الى اصدقائه وأهله فى القاهرة أن تكون قطعا أدبية ، وهى طريقة لها أثرها بلاشك على تدريب القلم والرقى بالأسلوب والقدرة على التعبير ، والمثل على نجاحها واضح فى أحمد زكى ، ومن طريف ما يروى فى هذا الصدد أنه عندما عرف الدكتور أحمد زكى العالم الجليل الشيخ أبى زهرة ، سألته الشيخ « هل لك قرابة بأحمد أمين ؟ » فقال : أحمد زكى : لا ، ولكن نسب ، ولكن لماذا هذا السؤال ؟ فقال أبو زهرة : لقد أرسلت اليه رسالة من انجلترا تصف فيه واقعة موت صديق لك فقرأها لنا أحمد أمين فى درس الأدب على أنها نموذج حى للأدب الرفيع . وكان أحمد أمين أستاذا للشيخ أبى زهرة فى مدرسة القضاء الشرعى .

ولم يكن أحمد زكى يحتذى فى كتاباته أدبيا بالذات ، ولكنه كان متأثرا فيها بخليط من الأدباء ، وبخاصة الشعراء ، المتنبى والبحتري وأبى تمام ومهيار ، وكان المتنبى أكثرهم تأثيرا فيه ، وهذا واضح أيضا فى نسبة الأبيات التى يقتبسها أحمد زكى من المتنبى ، وقد عبر عن حبه للمتنبى عندما سئل عن أقرب الشعراء اليه فقال : المتنبى وليده ماتنبنى .

وسألت الأهرام عالماً فى أوائل الستينات عن قراءاته فقال : ان أكثر مطالعته فى الكتب العلمية لكنه يلتبس ما استطاع كتباً سواها ، لكى يستكمل جوانب المعرفة ، ويحاول بهذا الاستكمال ادراك الحكمة التى لا يمكن ادراكها الا بتجميع اجزاء المعرفة وربطها . واستطرد فقال ان التخصص لا يجوز ان يصرفنا عن الاتصال بمقدار ما – بجوانب المعرفة الأخرى ، بل ان هذا التخصص نفسه يحتاج الى النظرة الشاملة التى تدنيه من الحكمة فليس من الجدى أن تعرف متراً واحداً من الكرة الأرضية الى أعماق أعماق التخصص ثم تظل جاهلاً ببقية الكرة الضخمة فلا تدري أين موقع قدمك .

وكان عالماً يصرح بان قراءاته فى النثر العربى قليلة ، وان أكثر ما يقرأه نثراً هو فى الآداب الأجنبية ، ولك ان تتخيل مقدار ما كان يقرأه الرجل الذى يزعم أنه لم يقرأ فى العربية الا القليل .
رحم الله التواضع .

ولم يكن أحمد زكى يرى غرابة فى جمعه بين الأدب والعلم الذى تمثل عنده ، وكانت نظريته فى ذلك ان «الفارق بين العلم والأدب مفتعل ! وهو أكثر افتعالا فى الشرق .. فكل كاتب فى الشرق مقروض أن يكون أديباً ولو كان عالماً .. ومن غرائب الشرق ان يستغرب أن يكون العالم أديباً ، »

كان رحمه الله من طراز العلماء الموسوعيين ، وعندى أن أعظم أديباء العربية لم يكونوا الا من العلماء الموسوعيين ، وهذه حقيقة لن يتأتى فهمها على الوجه الحق الا للموسوعيين أو الذين يريدون ان يكونوا كذلك ، أو الذين يدرسون حياة هؤلاء ، وقد يتأتى لأولئك الذين يقرأون عن هؤلاء وعن غير هؤلاء .

ونعزده فننقل عن الاستاذ طاهر الطناحى قوله « ان لديك كما

قال الجاحظ فيه الشجاعة والصبر والجولان والثقافة ، وله خبرة بساعات الليل ومقادير الزمان ، وكذلك زكى بك يكاد يكون فوق الأسطرلاب وفوق مقادير المد والجزر ، فعلى الرغم من تعدد مشاغله وكثرة « سلطاته العلمية » فهو يقسط جهوده وزمنه على واجباته تقسيما موزونا ، وكانما الحياة عنده « معمل » تخضع للتحليل والتدقيق والتقسيم » .

نعم كان الدكتور أحمد زكى مثالا في التنظيم ، والضبط ، والربط ، ولم يكن هذا الا صورة من عقلية المنظمة ، التى نظمها العلم فأتسعت للكثير من العلم ، وأعطت الكثير من العلم والعمل .

كان أحمد زكى كثير القراءة ، كما قدمنا ، وقد أتاحت له فرصة الفراغ لها بعد فراغه من الوظائف فى مرحلة مبكرة من عمره (لا من حياته) ، وكانت له مكتبة ضخمة قيمة فى بيته بالمعادى ، فلما ذهب الى الكويت وأسس العربى كانت له هناك مكتبة أخرى ضخمة فخمة كان لا يفتأ يزودها بالجديد ، ولما توفى رحمه الله اشترتها وزارة الاعلام الكويتية ، وخصصت لها موقعا ممتازا .

وكان الدكتور يقضى ليل رمضان كله فى القراءة ، ويظل يقرأ من بعد صلاة العشاء والافطار حتى السحر ثم يواصل القراءة مرة أخرى حتى يداعب النوم جفونه .

أما عن أسلوب عالمنا الجليل فيحدثنا واحد من العلماء الكبار التالين له وهو أستاذنا الدكتور عبد الحليم منتصر مثالا للكاتب العلمى الذى لا يزال بالفكرة حتى يفرسها فى نفس قارئه غرسا ، وله طريقته الخاصة فى العرض والتحليل فى جميع الموضوعات العلمية التى يتناولها وهو مع أنه يكتب لقطاع عريض جدا من قرائه فى الوطن العربى ، فما أشك فى أن كل قرائه يفهمونه فى سهولة ويسر ، ولا

يجدون أدنى مشقة في فهم ما يريد أن يعرض من مسائل علمية مهما تكن صعوبتها ودقتها .

وسئل الدكتور زكى عن غرابة أسلوبه ، هل يحسها ، كما يحسها غيره ، فقال « أقنعنى بأن أسلوبى لابد فيه شىء غريب كلمة كتبها العقاد في المصور ، وصف بها أسلوبى فقال « انى لا اقرأ للدكتور أحمد زكى شيئاً الا وأتصوره قد جلس الى مكتبه ويده قلم ، ويده الأخرى مسطرة ، وبرجل » .

وكان العقاد رحمه الله من المعجبين بأحمد زكى وبجمعه الفريد بين العلم والأدب ، وكان يقدر أسلوبه ، وآراءه فى مجمع اللغة ، وهكذا كان الدكتور زكى على رأس العلماء الذين سلموا من لسان العقاد ، بل وحظوا بتقديره .

وكان عالمنا حفياً ببلورة العلاقة بين الصحافة والأدب ، وبين الصحافة والعلم ، وبين الصحافة والثقافة على وجه العموم وقد قال فى حديثه للاستاذ سامح كريم « ان الصحفى اليوم لن يكون صحفياً بالفهولة أو بالخطف ، وإنما بالثقافة والمعاناة ، صحيح ان الموهبة موهبة واستعداد ، ولكن هذه الموهبة ، وذلك الاستعداد ينبغي أن يكون فى خدمة الثقافة والاطلاع ، ومضى الدكتور زكى يجيب على سؤاله عن العلاقة بين الصحافة والأدب فقال : « اذا كان الأدب هو الكاتب والقلم الثرى بلفظه ، الثرى بمعانيه ، القوى بأسلوبه ، الواصل فى يسر الى ما يؤديه فقد أفادت الصحافة الكثير منه ومن أصحابه . ومن أهل الصحافة أهل أدب بهذا المعنى . ولكن من أهل الصحافة من اساء الى الأدب . هؤلاء هم الكتاب الذين يخطفون هؤلاء هم الذين درسوا جانباً من اللغة ولكن لم يتموها ، درسوا صنوفاً من الأدب فبهرتهم فراخوا يقلدونها قبل وفرة واجبة من

التحصيل ومنهم من لا يهتم اللفظ يستعملونه مادام يؤدي الى الغرض سريعا ، *

هذا المعنى كان أحمد زكى مهتما بالتأكيد عليه فيما يتعلق بالشباب ومحاولاتهم الشعرية ومسألة الشعر الحر .. كان عالمنا يريد أن يقول ان الضوابط والقيود والاشكال الأدبية ليست عبثا وانما هي مقدرة ، وان الحياة الحديثة ليست بالشئ السهل وان بدت كذلك الا أنها لم تجيء الا بعد معاناة وعناء طويلين ، واقرأ معنى عباراته في مقاله (يوليو ١٩٦٦) بالعربي حين يقول : « انه جيل جاء من بعدنا ، دهمته سرعة الحياة ، وغمرته المدنية غمرا حتى ما تكاد تستقر في فيضها المتدفق قدماه ، وراح يحسب أنها مدنية في أدب وفي غير أدب ، دانية الثمار ، وليس عليه الا ان يمد يده اليها ويقطف ، والذين خبروا هذه المدنية يخبرونك أن وراءها التحصيل الكثير والسهر الطويل والحفظ المتصل المستنير ، انها مدنية شاقة ، يبذل الانسان فيها مثل ما يجنى منها وأكبر ، ولكم شقى الانسان فيها بالعمل ، ولكم شقى ببعض ما جناه منها من ثمار » *

ويروى عالمنا انه حدث شابا مغرما بالشعر في هذا فقال له الشاب : انا شاعر ، فمالى والعلم ، « قلت له ان جسمك اقرب اليك من شعرك ، وشعرك في حاجة الى هذا العلم وان لم يظهر فيه » *

وفي موضع آخر (اغسطس ١٩٧٥) يتحدث الدكتور زكى عن هذه الظاهرة فيقول « انه الحب يريد الشباب ان يتروخوا منه فيصبوبونه شعرا قبل نضوج ، ان قول الشعر فيه شقاء لقائله ، وهو بذلك يؤدي في الشباب غاية » ثم يردف بقوله « والظاهر ان مدرسى اللغة العربية كثرة كاثرة هبطت بشغفهم بالأدب عامة ، فكان من ذلك الشعر الضعيف الذى ينتجه شبابه اليوم ، بعد انتهاء من دراسة » *

والحق ان الدكتور زكى قد افاض في دراسته لهذه الظاهرة وحديثه عنها ، مما تظن أن سيكون له موقع آخر في كتابنا هذا ان شاء الله .

اما لغة الدكتور زكى العربية فقد كانت على خير ما تكون هذه اللغة عند العلماء والمثقفين وعند أهل اللغة أنفسهم ، والأمر في هذا لا يحتاج الى بيان أو توضيح .

وكان الدكتور زكى يجيد الانجليزية اجادة تامة قبل البعثة وبعدها ، وفي الكيمياء وفي غير الكيمياء .

وكان الدكتور زكى كما ذكرنا قد تعلم الفرنسية على يد سيدة سويسرية ، وسرعان ما طبق العلم في العمل وترجم عادة الكاميليا .

ودرس الدكتور زكى الالمانية ، لأنه كان في حاجة الى هذه اللغة في دراسته لدرجة الدكتوراه في العلوم ، وقد أجرى بعض بحوثه بها في النمسا .

ونحن هنا نقتطف لك طرفة من طرف الدكتور زكى حين يتحدث عن قلمه في مقال له بمجلة الاثنين فيقول في فقرة من الفقرات « عرفت اقلامي أول ما عرفت العربية ، ثم هي تتدرج فتعرف الانجليزية ، ثم اذا هي بالفرنسية تلوذ ، ثم هي من الالمانية تعوذ حتى التركية كان لها من محابري سقيا ، وكان لها نصيب » ، انظر الى حبه للفرنسية ، وقبوله الالمانية على مضض ، معنى كرهه الدكتور زكى في غير موضع ، مع أن في قلمه تأثرا كبيرا بطريقة تركيب الجملة في اللغة الالمانية على نحو سنتحدث عنه في موضع آخر ان شاء الله بالتفصيل .

ويروى لنا عالمنا الجليل نفسه بعض الطرائف عن تعلمه اللغات في مقاله « حاولت ان اتعلم الصينية » الذي نشره في جريدة الشعب

(١٩٥٧/١/١٢) قيقول انه حاول ان يتعلم التركية على اسماعيل حقي ، وهو شاب تركي جاء مصر مع الحرب العالمية الأولى واشتهر أمره فيها ثم عاد الى تركيا حيث اعدم لمعارضته نظام الحكم ٠٠٠ ولكن أحمد زكي لم يواصل تعلم التركية .

وحاول الدكتور زكي ان يتعلم الروسية مع اثنين من المسلمين الروس المجاورين في الأزهر الشريف ، وكانا من مدينة كييف باوكرانيا ، ولكنه لم يمض الى النهاية .

وحاول ان يتعلم الصينية مع بعض مجاوري الأزهر كذلك فلاقى في تعلمها صعوبة شديدة ، وكان مرد هذه الصعوبة عنده الى انك قد تجد في الصينية ٥٠٠ كلمة ذات معنى واحد ، ويعلق على هذه الخاصية من خواص الصينية فيقول انك قد تجد في العربية كلمة ذات عشر معان ، وهذا قليل جدا ، ولكن ما بالك بالكلمة الصينية يكون لها خمسون معنى ، وما بالك بها ولها خمسمائة !! وهكذا فان أحمد زكي اجاد ثلاث لغات حية بعد ما لم يحالفه الحظ في ثلاث لغات أقل حياة .

وعلى حين تعلم الدكتور زكي في بريطانيا ، وعلى حين تزوج منها ، وعلى حين كان دائم الزيارة لها الا أن هذا لم يمنع أحمد زكي من أن يبدي الآراء الصريحة - التي تغضب الانجليز على الأقل - من السياسة البريطانية والعقلية البريطانية .

من البديهي ان موقفه من المسألة المصرية البريطانية كان في الجانب المصرى مائة في المائة ، ووطنية الرجل ليست محل تشكيك ، انما أردنا بتبصيرنا في المفقرة السابقة مواقفه العامة خارج هذا النطاق الذي لا يحتمل التفاضل في خلق أحمد زكي .

كان عالمنا الجليل يصرح في الاربعينات وفي السبعينات ان بريطانيا هي عقادة العقد (الهلال : ١٩٤٧/٤ ، العربي : ١٩٧٣/٥)

« هو يؤكد انها ما تبقى في بلد زمانا ، وتخرج منه ، الا بعد أن تكون قد عقدت فيه عقدة يصعب على أهل البلاد حلها بعد خروجها ، ويفيض في ضرب الأمثلة على ذلك بما حدث في فلسطين وجنوب السودان وايران والعراق » .

ولكن احمد زكي لا يترك هذا الامر شماعه للبعض « وتذكر انها عقدت هذه العقد ، ولكن العقدة لاتعدها الكف الواحدة ، انهما كفان ، كف المستعمر القوى الغازي وكف بل اكف من أهل البلاد ، انى لا أبرء بلدا ينزل به الشر ، استعمارا كان أو غير استعمار ابدا ، انهما جرمان متكافئان ، جرم غاصب ، وجرم مغصوب ونذم الزمان لنوفر على أهل البلاد المذمة ، ونذم التخلف والتخلف نفسه انما هو جرم جناه الأجداد على الآباء ، ويجنيه ، اليوم الآباء على الابناء » .

ويتحدث الدكتور زكي عن بعض المواقف التى واجهته وهو يدرس في بريطانيا ، ومن هذه المواقف انه هاجم الانجليز وبالع في هجومه ، وسكتوا ، حتى اذا انتهى من كلامه وهذا ، وكان العشاء سألهم احدهم : « ان كان هذا مبلغ كراهتكم لهذه البلاد فلماذا تأتونها ؟ » ويروى الدكتور زكي فيقول : « وكان جوابى العاجل : انما نحن نأتيها مشترين ، فلكل شىء نأخذه منكم ثمن ونحن ندفع لكم عن تعليمنا قطنا .. ولم يعجبني جوابى ، كان الواجب أن أقول : اننا آسف انى أملك كل هذا الألم » .

على ان الأروع من هذه ما قصه الدكتور زكي من أمر زميل « مصرى كان دائم الاحتداد على الانجليز ، وكان اذا داس قدم احدهم خطأ لم يعتذر ، امعانا في التحدى ، وكان قوى الجسم مفتول العضل ، وحدث أنه احتك يوما بانجليزى ، ضعيف الجسم ، قليل الحجم ،

وامتد الخلف الى الايدى ، وتلاكما ووقف الطلبة الانجليز والمصريون الذين يدرسون حتى انتهت الملائكة بانتصار الانجليزى على ضعفه ، لانه لاكم بصنعة لا بقوة ، يعلق أحمد زكى على هذه القصة حين يرويها فيقول « لطالما ذكرت هذا الصراع كلما قام بين البلدين صراع ان هذا من هذا ، الصنعة دائما لا العضل هي الغالبة فكيف اذا اجتمعنا » .

ونعود بعد هذه الدقائق الست من الاستطرادات التى ذكرنا فيها موقف أحمد زكى من الانجليز ، نعود الى ما كنا فيه من البحث فى اصول ثقافة أحمد زكى .

ولم يكن عالمنا يقتصر فى ثقافته على القراءة ، وان كانت هذه تمثل النسبة العظمى من وسائل الثقافة عنده ، وكان يحب السينما ، ولكنه كان حزينا على مستوى السينما المصرية ، ولا يخفى احساسه ان المخرجين لا يخرجون أفلامهم لطبقة المثقفين .

ولم يكن له بعدما تقدمت به الحياة هواية غير القراءة ، الا انبات الزهر والفاكهة فى حديقة بيته ، وكان يتخذ من هذه الهواية مادة لدراسة علم النبات دراسة هواية - على حد تعبيره - وتجربة بعد ما درسه دراسة منهجية .

وكان الدكتور أحمد زكى يحب المشى كما قدمنا ، ان كان يتخذه رياضة الشيخوخة ، وكان فى شبابه أيضا يحب التجوال والطواف فى شوارع القاهرة القديمة وقد عبر عن هذا فى مقال أغسطس ١٩٤٧ بالهلال ، فقال : « انى لم أجد أشقى لنفسى فى يوم أجازه ، وأنا البعيد عن الأحياء التى نسميها تعسفا بالوطنية من دورة ، أدورها فى الحسينية الى الجمالية الى النحاسين فالصاغة فالسكركية فالعقادين فالخيامية .. وهلم جرا .. الى أن انتهى بالسيدة زينب

وما وراءها ، وعلى القدم أدورها ، وتطول فأجعل فيها محطات
أحط بها استجماما وفيها أنظر روائع للفن فيشبع حسى بالفن ،
وأنظر معالم التاريخ فأحيا التاريخ البعيد والقريب وأرى صناعات
تغيرت عليها القرون ولم تتغير ، فأحس للعهد القديم وآسى له على
السراء » .

هكذا كانت حياة عالمنا الجليل تسير على نحو مرسوم مخطط ،
أخلاق مصطفاة متوازنة ، وشخصية متكاملة أو هى تحرص على
هذا التكمال ، ولم يكن للصدفة أثر فى حياة أحمد زكى ، ولا جاءه
شء من غير أن يتمناه ويسعى اليه ، وقد سئل السؤال التقليدى ،
ماذا يتمنى لو بدأت الدورة من جديد ، فقال : « لو أن الحياة عادت
بى من جديد ، وأذن لى أن أتمنى ما تمنيت شيئا من هذه المناصب .
أتمنى تمنيتها قبل أن أكونها ، فلما كنتها تعلمت منها ما رغبنى عنها » .

والحق أن الدكتور زكى قد تفرغت به مسالك الحياة كثيرا ،
ولو تأملت لتختار له المسلك الذى يسلك من بين هذه المسالك المتشعبة
ما وجدت أنسب لشخصه وشخصيته مما كان ، وأن وجدت ما هو
أكسب .

وكان الدكتور زكى قمة فى التواضع - مع عرفانه لقدره
واعترازه بشخصه - ولابد أن كل من لقى هذا العالم الجليل شخصيا
وجد فيه تواضع العلماء وأناقة الأدباء . .

فتراه يصغى للحديث بسمعه وبقلبه ولعله أدرى به

كان الدكتور زكى يؤمن بأن المجد الحقيقى ليس هو ذلك المجد
الصاخب وإنما هو المجد العامل فى هدوء وأناة على نحو ما كانت
حياته ، وهو يصرح بهذا المعنى فى مقال له فى الهلال (مارس

١٩٤٦) فيقول : « لقد آن للناس أن يكفروا بالمجد الذي يحوطه الضجيح ، لأن أكثره مجد زائف ٠٠ انه كالطبل ، أعلاه صوتا أفرغه ٠٠ ان الأمم وان الانسانية قد تقدمت ، وسوف تتقدم الى غايتها المأمولة لا بالصراخ وراء رجل أو بضعة رجال ولكن بأبطال الوف يعملون عمل الحياة على الصمت ٠٠ وفي ضياء غير باهر لا يبالون زخرف الحياة ، ولا يجزعون من الموت ، ويؤمنون بالله وبأن المجد كله لله » .

نفس هذا المنطق كان يحكم نظرة أحمد زكى الى الأنشطة الاجتماعية فيبدي عدم الرضا عن هذه الضجة التي تحيط بها الجمعيات الخيرية أعمالها ، ويتحدث عن هذا المعنى في مقال له عنوانه « النسبة والتناسب » نشره في جريدة الاثنين ، فيقول : « ولو أن الناس اعتادوا النسبة ، لسالوا هذه الجماعات كم من هؤلاء الأطفال آوت ، وكم من المسلولين والمسلولات ابرأت ، ولعلموا اذا هم نسبوا هذه الأرقام ، الى عدد ما في هذا البلد وسكانه عشرون مليوناً ، من أطفال مشردين والى عدد ما في هذا البلد من مسلولات ومسلولين ، لعلموا أن هذه الجماعات انما تحاول أن تنزع بحراً بكوز ، أو تروى حقلاً بفنجان ، ولأدركوا أن هذه الأعمال لاتساعها ولكثرة ما تحتاج من نفقات ، ليست مما تطيقه هذه الجماعات ، ولكنها بحكم الزمن الحديث وماتنشا فيه من آراء ، من عمل الحكومات ومن فروض الدول ، وان الأمر ليس احساناً ولا مبرة ، ولكنها حقوق المرضى العاجزين على الأصحاء والقادرين ، تؤخذ بالضرائب يدفعها دافعها راضياً أو يدفعها غصبا » .

وكانت فلسفة أحمد زكى هي الاعتدال ، وكذلك كان طبعه ولكن أى اعتدال ، انه الاعتدال الذي لا يتهاون في الأصول ، واقرأ في هذا المعنى عبارات أحمد زكى في وصف الشباب الذي يعجبه ،

أو ما يوده في الشباب حين يقول : « فيعجبني منه - أى الشباب - الوجه الطليق النظيف الذى يعمل فيه الموسيقى كل يوم أو لا يعمل أبدا ، والشعر القلم المشوط ، والثوب البسيط الأنيق . فتلك زينة خليفة بآبن آدم ، وهى أخلق ما تكون بشباهه ، وهى ضربية المنظر الطيب الذى لا بد أن يشيع فى دنيا يخفف من عنتها أن تقع العين فيها على الحسن الجميل ، ومع هذا فهو عند العمل يخلع التأنيق ، وينبوعن الترقق ، فإن كان العمل فحما وزيتا انغمس فى الفحم والزيت ، وإن كان انبطاحا على الأرض تمرغ فى تراب الأرض ، وإن كان بخارا وعفارا ، نشق الأبخرة ، ولم يشج بوجهه عن الأعفرة ، فإذا انتهى النهار دخل الحمام : وخرج منه فعاد الى التأنيق على الصحة التى اكسبها العمل ، والى الترقق على القوة التى أكسبها مران العضل » .

وكان عالمنا معتدلا فى مأكله وملبسه ، وإن لم يخل من أناقة زادت أناقة قوامه ، ووسامة وجهه المعبر عن حيويته ورفعته ، وكان قد تعود التدخين ثم أخذ يكثر منه حتى لم يكن يكتب الا وهو يدخن ، الى أن كان ذات يوم سنة (١٩٣٦) ، « ورأى المنفضة مترعة فتقرزت نفسه ، وأقلع عن التدخين من يومها » ، وهذه الحادثة بالذات تعبر لنا عن مذهب الحساسية والشفافية وحب الكمال الذى ملأ على أحمد زكى نفسه وعقله وقلبه .

هكذا كان الاعتدال طبع أحمد زكى ، وكذلك كانت فلسفته على الرغم مما قد يبدو من شخصيته وهو العالم الحاسم الحازم القاطع فى كثير من الأمور بحقيقة الصواب . ولكن الحق أن الرجل كان من المؤمنين بالتطور فى الإصلاح . وقد لخص لنا فكرته فى هذا خير تلخيص فى عبارته التى جاءت ضمن مقاله « خواطر عند الحلاق » والذى جعله فصلا فى كتابه « ساعات السحر » عين يقول : « القليل

القليل ثم أنظر ما فعلت يدك ٠٠ أما الكثير الذى تتخطى به الحدود فقد يكون منه فساد ليس الى اصلاحه سبيل ، وليست هذه هى عبارته الوحيدة فى هذا المعنى ، وانما هى العبارة التى رايناها تبلور للفكرة فى أبسط صورة ، أما تفصيل القول فى هذه الفلسفة فسيأتى بلا شك فى موضعه ان شاء الله .

وكان الدكتور احمد زكى أنيقا بالطبع وان ظن البعض انه متأنق ، وقد أجرت مجلة الاثنين سنة (١٩٥٥) استفتاء لاختيار ملك للجمال من بين الرجال وملكة للجمال من بين الفتيات ، وجاء ترتيب الدكتور احمد زكى الثالث بين ملوك الجمال بعد الأستاذين عبد المجيد عبد الحق وفكرى أباطة ، واختيرت له جائزة ذلك انسانا ميكانيكيا ذهبت به اليه ملكة الجمال الثالثة وهى فتاة الجامعات (عزيزة عبد الحميد) وذهب مندوب مجلة الاثنين يسجل رأى احمد زكى فى الجائزة التى أهديت اليه (لجماله) فانتقل الرجل الى الحديث عن العصر الميكانيكى ومزاياه وشروبه على النحو الذى ستطالعنا به آراؤه فى غير موضع من هذا الكتاب .

وكان للدكتور احمد زكى اذا وقف فى الناس خطيبا او محدثا أسلوب خاص ولصوته رنة خاصة ، ولألفاظه نبرات أخص ، ولوجهه تعبيرات خاصة أيضا ، وقال أستاذنا الدكتور حامد جوهر فى وصف هذا الخلق من أخلاق الدكتور احمد زكى : « كان فنانا ، وكان مرهف الحس فى اللغة ، فكان لكلامه موسيقية متنوعة الأدوات من الفاظ الى مصطلحات الى أساليب » .

كانت أخلاق الدكتور زكى على مستوى رفيع من الرقى ، ويصف أستاذنا الدكتور عبد المنعم أبو العزم أخلاق عالما الجليل فيقول : « انها كانت السياج الذى يحمى فكر العالم ، وقلم الأديب ، ويضرب

على ذلك المثل بأن الدكتور زكى لم يبعد خصومه عند تشكيل مجلس
فؤاد الأول الأهلئ للبحوث ، وكان قادرا على ابعادهم .

ويمضى الدكتور أبو العزم ليقول : « ان الدكتور زكى كان
ظاهرة نادرة من ظواهر العصر ، والظواهر خوارق والخوارق
معجزات وقلتات لا تتكرر » ، وهكذا كان الدكتور فعلا ، والله وحده
يعلم كم من الزمن ينقضى حتى يكون فى الأمة العربية « احمد
زكى » آخر .

وكانت فى أخلاق الدكتور احمد زكى سماعة ظاهرة ، وكان
يتسامح فى أخطاء الناس واساءتهم اليه خاصة ما كان منها عن
فقر أو جهل أو بلايا ، وسألته مجلة الاثنين ذات مرة عن أحب
الفضائل اليه ، فقال : اما اليوم فالترفع عن الصغائر . . . واما عن
أحب المهن ، فقال : الكتابة ، وعن أحب الأصدقاء ، فقال : من يجازى
الحب بالحب والوفاء بالوفاء ، وعن أحب البطلات اليه ، فقال :
أين هى ؟ وهل ترك الرجل لهن بابا للبطولة الظاهرة مفتوحا ؟ فقل
له : قايهن من عالم الروايات ، فأجاب باسمى كتابيه اللذين ترجمهما
الى العربية ، وقال : جان دارك القديسة وغادة الكاميليا غير
القديسة .

وسئل عن أبغض الأشياء اليه ، فقال : النفاق ، وهذه حقيقة
مائة فى المائة ، فقد كان الدكتور زكى صريحا واضحا يحب الصراحة
والوضوح ويكره نقائضهما ، والذين يتخلقون بنقائضها . . . وكانت
أبرز النواحي الخلقية فى شخصيته هى الصراحة فى الحق ، وكان
يعرف انها تغضب الناس ، ولكنه كان يقول : انها تغضب الناس
نوى المصالح !! وكانت هذه الصراحة هى مصدر الخشية التى
تنتاب الناس من احمد زكى وبخاصة فى عصر لم تكن الصراحة

ولن تكون من أخلاقه المفضلة بعد أن قامت سياسته على إبعاد الصراحة جانباً وإلى أجل غير مسمى .

وانظر الى صراحة احمد زكى حين تشتد الحملة الكاذبة على مجمع اللغة العربية وجهوده فى تعريف المصطلحات ذات مرة ، فيجاهر عالمنا الجليل بالسبب الحقيقى وراء تلك الحملة ويقول فى مقاله (فى مجلة العربى : يونيو ١٩٦٠) بكل الوضوح وعلى الملأ : « ثم ان قوما خانهم شرف العضوية فى هذه المجمع هزئوا بها ، وتفاكهوا عليها اشتفاء وانتقاما ، والفكاهة ، ولو كاذبة ، ما أسرع ما تسرى فى الناس » .

وكان احمد زكى يهش بالنقد ويبش له ، وله فى ذلك عبارة فى حديثه عن تجربة الشهور الأولى من العربى حيث يقول فى مقاله (أغسطس ١٩٥٩) : « واغتبطننا بالنقد أكثر مما اغتبطنا بالحمد ، لأنك بالحمد تقف عندما صنعت ، ولكنك بالنقد تعيد النظر فيه ، فتقوم اعوجاجاً أو تسد خلا ، وليس حسن الا من وراءه أحسن ، والكمال بعيد المنال » .

ابتعد عالمنا عن الحزبية على الرغم من انها كانت فى حاجة اليه وهو العالم العامل ، وهو الكاتب الأديب ، ولكنه نجح فى أن يبعد عنها ، وأن يبعد نفسه عن التفكير فيها ، ويروى عن فترة ما قبل الثورة فيقول « انه لم يكتب فى حياته من المقالات السياسية الا اثنين شطبهما الرقيب ، واحد فى عهد الوفد ، وآخر فى غير عهد الوفد » .

وكان احمد زكى يؤمن بالديمقراطية ، مهما كانت عيوبها ، صحيح أنه كان يدرك انها لا تصلح فى بلادنا بالقدر الذى صلحت فيه فى البلاد المتقدمة ، ولكنه كان يؤمن بأنها أسلم الطرق ، وستتناول

هذه النقطة بشيء من التفصيل كبند من البنود فى باب « الفكر السياسى عند احمد زكى » ، وفى تحقيق صحفى عنوانه « الحكم الديمقراطى كما يجب أن نفهمه » سألت مجلة الجيل ثلاثة من الوزراء (عباس - ا.ار. وحلمى بهجت بدوى واحمد زكى) عن آرائهم ونشرتها فى (١٩٥٢/١٢/٢١) وقد قال لها احمد زكى : « انه لى نفهم الديمقراطية يجب أوة ان نفهم ما هى الدكتاتورية لأن أحسن طريق لفهم الخير هو أن نفهم الشر » . وبمثلا بالأسرة السعيدة والأسرة الشقية ، وكأنه كان يحذر ، فقد فهم الناس - بعد ما عانوا - الدكتاتورية ، وفهموا بعدها قيمة الديمقراطية .

لم يكن احمد زكى راضيا عن بعض الانحرافات التى أصابت ثورتنا المباركة التى قامت فى يوليو ١٩٥٢ ، فاستعانت فى أول أمرها بصفوة أهل الفكر فى البلد ، وسرعان ما نحتهم لينفرد البعض بالسلطة ، فكان ما كان ، وكان احمد زكى يتحدث فى أمر الثورات على العموم (فى مقال سبتمبر ١٩٦٩ بمجلة العربى) فمس هذه النقطة فى شيء من الصراحة والوضوح حين عقب بقوله « ولكن من الثورات التى أعرفها وتلك التى قرأت عنها ، ثورات نحت من رجال الفكر رجالا لهم كفايات ترجح بهم فى الموازين ، لو أذن لهم فى البقاء حيث هم ، فى العهود الجديدة لسهلوا الطريق وكشفوا عن الأخطار ، ونفعوا نفعا عظيما » . ولكن بدلا من هذا ركنت هذه الثورات فى كثير من الأحيان الى أصناف من الرجال لم يكن فيهم النضج الكافى ، ولا حتى الايمان بالجديد الذى خشت الثورة أن يكون قليلا فيمن أبعادوا ، ولم يكن فى الكثير ممن أبعادوا عن مشاركة ، نقص فى ايمان ، ولا عزوف عن جديد ، وكانت لهم قلوب مليئة بالنقمة على القديم ، ولكنها عادة فكر كان من شأنها النظر قبل القطع والاستماع الى الرأى الحر قبل ابداء المشورة » . هل رأيت أصدق من هذه العبارات تعبيراً عما حدث

عندنا بالضبط ، ثم انظر الى العلاج في عبارات الدكتور زكى حين يقول ، ولعله وجد سنتها آذانا صاغية « فلنفتح الأبواب على مصاريعها ليدخلها الأهل جميعا ، خدمة طائعين ، يطلبون العيش كذا ، ويطلبون اللقمة عرقا ، ويطلبون الخير لكل من أظلمت السماء ، وللوطن يطلبون المجد أرفع الأمجاد » .

حقيقة ان الدكتور زكى عندما ترك مصر واقام في الكويت فعل هذا باختياره الكامل . وحقيقة انه طوال الفترة التي عاشها خارج مصر كان يحظى عند مقدمه الى وطنه وعند خروجه منه بحسن استماع من الجميع ، ولكن هذا لم يمنع من أن يتعرض عالما الجليل (للروتين الأمنى) الذى حكم مصر فى فترة من الفترات ، وقد تكون هذه هى الحادثة الفريدة ، التى رواها الدكتور زكى فى مقال (أغسطس ١٩٧١) عن تجربة له مع الشرطة المصرية ، ان ظل واحد من ضباطها يتعقبه لمدة طويلة أثناء احدى الأجازات التى قضاهما فى مصر ، وفى النهاية استطاع عالما أن يواجه الضابط فيسأله عن سبب المتابعة ، ثم يستطرد احمد زكى محدثا الضابط - دون أن يسأله - عن كل ما قد يتعلق به من شكوك قد تكون ثابتة فى نفوس رجال الشرطة ، والضابط يقول له : ان أيا من هذه الأفكار لم يرد بباليه ، ومضت الأيام ثم علم احمد زكى أن الأمر لم يكن الا خوفهم من أن يهرب العملة الصعبة الى داخل البلاد ، وأنهم كانوا يفعلون هذا مع الذين يحضرون للبلاد فى تلك الأيام . . روى الدكتور زكى هذه القصة فى سطور طويلة ثم قال : « هل تخفى الريبة هكذا بسهولة برجال الشرطة وبهذا الاتساع وبغير تقدير الرجال ، الا أن تكون الثقة ضائعة بين حاكم ومحكوم أم لعلها المعاملة من مراكز القوى الى مراكز الضعف من مراكز الشرطة الى مراكز الشعب هى التى أوجت وتوحى الى رجال الشرطة بما توحى » .

وصورة أعمق من صورة رفض أستاذنا الدكتور أحمد زكى للدكتاتورية نجدها فى فهمه « للمثل الأعلى » فقد كان رحمه الله لا يحبذ الفكرة من أساسها ، كان يؤمن - كما آمن مؤلف الكتاب ولكن من قبله - ان الانسان لا ينبغي أن يبقى على مثل أعلى واحد يحتذيه ، فذلك فى رأى أستاذنا الدكتور زكى نوع من العبودية ، ولكنه كان يرى حل هذه المسألة فى أن تكون « الشخصية التى يعبدونها شخصية خيالية مقتبسة أجزاءها من شخصيات عظيمة يوفق بين العناصر التى يحبها فى كل منها ، ويكون منها زعيمه التصورى » .

ونستعرض آراء احمد زكى فى عظماء التاريخ فنجد مشغول الفكر عاما بعد عام وحقبة بعد حقبة بالطريقة التى مات بها سقراط ويكتب فى هذه الواقعة غير مرة ، فى أكثر من موضع ، بل انه يجعل لها ذات مرة عنوان المقال (مايو ١٩٥٩) ، وحين يتحدث عن الولاء فى مقالته (فبراير ١٩٧٠) يعرض للقصة فيقول : « وسقراط فيلسوف الاغريق ، اتهمته اثينا بالمروق ، وحكمت عليه بأن يشرب السم ليموت ، واجتمع عليه تلاميذه ومريدوه ، وهياؤا له سبيل النجاة والهرب فأبى عليهم ، بسبب ولائه لوطنه ، ولأنه لأثينا ولأه سياسيا ، ولم يمنعه من ولائه لوطنه ، والرضا بالموت واطاعة لحكمه ، انه كان حكما لا يرضاه ، وهو الذى مشى فى الشباب يؤلبه عليه » .

وكان الدكتور زكى معنيا بتحليل فلسفة ابن سينا وابن زهر والرازى من حكماء العرب على نحو ما سنفصل القول فيه فى موضع آخر .

ومن الزعماء كان احمد زكى يقدر غاندى تقديرا شديدا ، وهو يعبر عن هذا المعنى فى مقاله (الهلال : ٤٨/٧) فيقول : « ان اقرب

رجل استحق عندي زعامة الدنيا ، زعيم الهند الراحل غاندى ، ذلك الذى صلى صلاته البوذية فضمنها آيات قرآنية ، وكان جائزا فى حكمه أن يمزج بين دعوات القسيسين والأخبار » ، ثم يعقب الدكتور زكى فى أسى فيقول : « ولكن غاندى كان رجلا أسود ، والحضارة الرشيقة تكره السواد ، وكان روحانيا ، والحضارة العارفة تتجافى عن الروحانيات ، وكان قليلا عنيفا ، والحضارة الثرية ترجح عندها الفخامة ويرجح السمن » .

وعلى نفس الخط كان الدكتور زكى يقدر نهرو ، وقد كتب بعد وفاته مقالا جعل عنوانه « نهرو ٠٠ كان اذا تكلم أنصتت الدنيا » (العربى : أغسطس ١٩٦٤) ، وكان يقدر لنكولن ، أما ميكافيلى فكان يحظى بالقدر الأكبر من كره وهجوم احمد زكى ، فى مقالات خاصة ، وفى مواضع خاصة من مقالاته السياسية .

تلقى الدكتور احمد زكى تربيته السياسية فى مطلع حياته فى مدرسة الحزب الوطنى ، وكان أول يوم له فى هذه المدرسة هو يوم مشى فى جنازة مصطفى كامل ، يومها بدأ عالمنا الجليل يعرف معنى الوطنية ، ومعنى مصر ، والمعنى الذى مات مصطفى كامل فى سبيله (لاحظ أن عمر احمد زكى وقتها كان أربعة عشر عاما) ، ولا يفتأ احمد زكى يتحدث عن هذا اليوم فى كثير من المواضع ، بل ويخصص له مقالا عنوانه « مصطفى كامل ٠٠ يوم وفاته » نشره فى العربى فى (فبراير ١٩٦٢) .

وفى مقال للدكتور زكى فى مجلة الرسالة (١٩٣٤/١٠/٢٩) يصف احمد زكى شعورهم بعد ما مشوا فى جنازة مصطفى كامل فيقول : « ذلك هو الحدث الأول الذى فتح للعيون الصغيرة أول كوة تطل منها على كل شيء يسمى وطننا ، وعلى ناس فيه بأئسين

يسمون أهلا ، أو هو أول صدع فى القلوب الصغيرة فتح فيها مدخلا
لحب الخير ، ورعاية الغير ، وقد كنا ربينا قربية من لون العصر
الذى نعيش فيه ، لا تعين على الأكثر الا على حب الذات ، والاستعداد
للرزق عن طريق المرنثيات » .

لكن أحمد زكى مبادئ الحزب الوطنى منذ ذاك الحين ، ومن
يومها توطدت علاقته هو وأصدقائه بالحزب الوطنى ، وبخاصة
بالشيخ عبد العزيز جاويش .

حتى اذا كانت ارهاصات ثورة ١٩١٩ التى بدأها الشباب ،
كان أحمد زكى ومنصور فهمى ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين
من تلاميذ فصل واحد فيها ، كما رويانا عن أحمد زكى نفسه فى أول
هذا الباب ، فانظر الى الفصل الذى خرج شيخ الأزهر ووزير
الأوقاف ، ومديرى الجامعتين الكبيرتين والأولين ، وعميد الآداب .

كافح أحمد زكى وزملاؤه بالسلاح ثم أدركوا ان الكفاح الأصعب
ليس بالسلاح ولكنه بشيء آخر . انظر الى أحمد زكى يصف جهادهم
فيقول (مقال يناير ١٩٧٢ بمجلة العربى) « كنا ونحن طلبة نجهز
للوطن ، وكنا ونحن طلبة نتجهز لأسوأ حال يكون عليها الوطن ،
وجمعنا الى الجد فى العمل بقاعات المحاضرات الجد فى العمل
لتحمل المصادمات خارج قاعات المحاضرات ، وكان الغاصب اجنبيا ،
وتعلمنا كيف نفك السلاح ونركبه فى مراحيض المساجد وفى
الصحارى .. اطلقنا الرصاص ولم يعلم بما نصنع رجال ذلك
العصر ولا قاداته » .

ثم حدث التحول « أدركنا بعد مؤتمر الصلح ان السلاح .. كل
السلاح على المدى الطويل ، انما هو العلم والعرفان .. فالتقينا
نحن الشباب سلاحنا ، هكذا اعلنا ، واستبدلنا بالسلاح القلم ،

والفنا في عام ١٩١٤ لجنة للوفاء بهذا الأمل البعيد سمينها لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وهى اللجنة التى لم يكد يظهر اسم نى عالم الأدب والعرفان فى النصف الأول من هذا القرن الا كان من بين أعضائها ٠٠ وهى تحتضر اليوم فى شارع الكرداسى فى بيت من بيوت القاهرة عتيق ، وهى تحتضر مع احتضار الكتاب العربى فى منشئه فى القاهرة » .

وإذا استطرطنا هكذا الى الحديث عن لجنة التأليف فمن الطريف أن نذكر ما كان يرويه الدكتور زكى عن أيامهم الأولى فيها حين كانوا يستعينون على تحقيق أهدافهم الثقافية بالتجارة ، ويروى الدكتور زكى ما كان يدور بينهم من محاورات : كم من الجلد هذا العام يا فريد (الأستاذ محمد فريد أبو حديد) ، وكم خسرنا فى الفول يا يوسف (يوسف بك الجندي) .

وكان احمد زكى يرى ان ثورة ١٩١٩ لم تفشل ، ويكفيها انها قفزت بالوعى السياسى للشعب المصرى خمسين سنة الى الامام .

ولكن عالمنا لم يمارس نشاط الأحزاب بعد ثورة ١٩١٩ ، ترفع بعد عودته بشهاداته العليا وعقليته الجديدة أن يخوض فى مجالات يغلب عليها الكلام ، ولا يغلب عليها العمل ، وظل احمد زكى على حاله من البعد عن السياسة مع انه صار يوما بعد يوم يلعب ككاتب فحل ، وعالم رائد ، وموظف كبير .

حتى الوزارة التى دخلها احمد زكى كانت وزارة مستقلين رأسها صديقه حسين سرى باشا .

أما وظائف أستاذنا الكبير بدءا بالأسنادية (فى المدرسة او فى الجامعة) وانتهاء بمدير الجامعة ومرورا بالمدير ووكيل الوزارة

والوزارة فانه كان يعتبرها « رسالة » لا « وظيفة » وكان سلوكه فيها جميعا على هذا الأساس .

لهذا فان الحديث عن روح الأستاذية فيه شيء لا تيسر له الفقرات الطويلة ، ولكننا سننقل هنا عن اثنين ممن تحدثوا عن هذا الخلق في الدكتور زكي ، فهذا الدكتور حامد جوهر يروى أنهم كانوا وهم في أول حياتهم العلمية معيدين في كلية العلوم « يأنسون الى المصريين القلائل من كبار هيئة التدريس نبثهم آمالنا ونسألهم النصح والارشاد ، وكان في مقدمة هؤلاء احمد زكي ، وهنا ازدادت معرفة به ، وقد وجدت دائما عنده الرأي الصائب والرؤية الصافية ، والنصح المخلص الأمين ، والصراحة التامة والبعد عن تزيين الحقائق المرة وتزييفها ، وكان يواجهنا بمواضع الخطأ في تفكيرنا اذا رأى شيئا من ذلك ولا يابه لما يترك ذلك من أثر غير محمود عند من يفضل أن يزين له القبيح ويشجع على المضي في الخطأ . وفي الواقع كان من أكثر ما أحببت في فقيدنا الكبير تلك الصراحة التي كان يقابلنا بها ، وبخاصة أنه لم يكن ليعوزه الأسلوب المنسق المذهب للتعبير عن رأيه » .

وهذا هو أستاذنا الدكتور عبد المنعم أبو العزم يروى فيقول : ذهبت اليه وأنا على أهبة السفر الى البعثة التي اختارني لها . . . فيأذرنى بقوله « أظنك قد أتيت الى لسماع نصيحة مني ، ونصيحتي لك : ألا تسمع نصيحة من أحد عما ينبغي أن تفعله بالخارج . عليك أن تختار لنفسك الأسلوب الذي يوائم طبيعتك ، ويلأئم ظروفك وأن ترى بنفسك وبعينك ما في هذا المجتمع الجديد من جديد ، وما يمكنك أن تتعلمه من هناك دون أن تحاول معرفته من هنا . . . » ثم يروى الدكتور أبو العزم أنه لما عاد من بعثته قدمه الدكتور احمد زكي في محاضرة قائلا : « من شبابنا المعاندين أقدم (فلانا) وحكمي

عليه لن يكون بما حققه فى الخارج من نجاح أو تفوق .. فان غيره قد أصابوا مثل هذا النجاح ، ولكنى احتفظ بحكمى عليه حتى يحقق فى بلده وفى ميدان تخصصه شيئاً نذكره له ، ونحدث به عنه . *

وعلى الرغم من أن الدكتور زكى كان أستاذاً متفرداً إلا أنه كان يؤمن فى كل مناسبة بأهمية العمل الجماعى ، ودور الفريق فى حل المشكلات المعقدة ، لا يقصد بالفريق فريقاً من الأفراد وحسب ، ولكن فريق المؤسسات والمعاهد ومراكز البحوث . ومن هنا جاء إيمانه بضرورة اشتراك الجامعة والجامعيين فى البحوث التطبيقية التى تقوم بها مراكز البحوث ، ويرى أستاذنا الدكتور حامد جوهر أن هذا كان هو السبب وراء اهتمام الدكتور زكى بإنشاء مراكز البحوث بالقرب من جامعة القاهرة ، وأنه بذل جهداً كبيراً حتى استطاع الحصول على هذا الموقع ليحقق به هذا الغرض . *

لم يكن طموح الدكتور زكى فى أى من المجالات أو الميادين التى اقتحمها يقف عند حد ، أو قل كان طموحه علوياً ، وقد سئل ذات مرة فى تحقيق صحفى عن الحلم الذى يعاوده وهو نائم ، فقال أنه كان يرى نفسه « قادراً على الطيران بأجنحة من نور ، وأتحرك فى الهواء خفيفاً رشيقاً كالملائكة ثم أصبحوا فاعجب كيف كنت انساناً طائراً ، » *

وكان للدكتور زكى ذكاء حاد ، وحاد جداً ، وأذكر أن أستاذنا الدكتور حسين فوزى كان يقرأ تجارب المطبعة لكتابى الأول عن الدكتور كامل حسين رحمه الله ، فأتى ضمن ما قرأ على تعليق للدكتور أحمد زكى قاله فى جلسة من جلسات مجمع اللغة العربية ، وكان التعليق ينم بوضوح شديد عن ذكاء الرجل الشديد ، ولم

يتمالك الدكتور فوزى قلمه وأمسك بالقلم وكتب على الهامش
« زكى زكى » .

وليس ذكاء الدكتور أحمد زكى فى حاجة الى الابانة عنه ،
فهو ظاهر فى عقليته وكتابه وأسلوبه واجاباته على السؤال ،
وسرعة بديهته ، وقوة ذاكرته . وفى عبارة موجزة « كان حظه
من مكونات الذكاء وافرا » .

وكانت عقليته رياضية قبل أن تكون علمية ، ولعل دراسته
للكيمياء أضافت الى الجانب الرياضى البارز فى عقليته ما جعل
فيها تكاملا مطلوبا فى عقليات الذين يتناولون قضايا المجتمع فيكونون
أقرب الى الصواب فى حكمهم ، وأدنى الى القبول فى آرائهم .

كان الدكتور زكى فى شبابه متفوقا فى الرياضيات ، وقد حصل
فى البكالوريوس المتوسطة فى إنجلترا على ٩٧.٥٪ ، وهى درجة
ندر من يحصل عليها وقتها .

وبالإضافة الى العنصرين الرياضى والعلمى فى عقلية أحمد زكى
كان هناك عنصران آخران : عنصر الخيال ، والعقلية الطبية .

فأما الخيال فلم يجاوز الحد ، ولو جاوزه لاستفدنا بلا شك
من أحمد زكى فى مجالات أخرى ، ولكن من يدرى ، لو كان هذا
على حساب ما كسبنا منه .

وأما العقلية الطبية ، فانى أستطيع الجزم أن أستاذنا الدكتور
أحمد زكى كان دائم الحنان اليها ، هل جاءه هذا من الجمع بين
الليل العلمى والعطف الانسانى ؟ أم جاءه من اهتمامه واهتمام
فلسفته بأمر الانسان ؟ . أن كنا لا ندرى على وجه التحديد فأننا

لا نخطئ الظواهر بدءاً بسلسلة « قصة الميكروب » فى مجلة الرسالة ، وبهذا الجانب الطبى الذى اضافه احمد زكى الى « الهلال » عند رئاسته لتحريرها ولهذه الأبواب الطبية الكاملة التى حررها احمد زكى لوقت طويل فى مجلة العربى ٠٠ بل ولهذه الظاهرة الطبية فى مجموعة قصصه « بين المسموع والمقروء » والتى سنشير إليها فى موضعها ٠٠ وغير ذلك كثير .

ونعود الى امر الذكاء فنستعرض بعض محاوراته ، التى نستغلها من الناحية الأخرى فى بيان آراء احمد زكى فى الحياة والمجتمع والاعلام من معاصريه ، فعندما بدأت الأنباء تتواتر عن صعود الانسان الى القمر نشرت جريدة اخبار اليوم (٢٦/١٠/١٩٥٧) تحقيقاً كبيراً بعنوان « ١١ تذكرة للقمر » طلبت فيه من الاعلام الذين سألتهم أن يختار كل منهم عشرة يصحبونه فى مركبة الفضاء التى تتسع لعشرين شخصاً منهم تسعة علماء ، قد احتلوا أماكنهم بالفعل ، على أن يأخذ فى اعتباره أن المركبة ستبقى فى الفضاء أربع سنوات ٠٠ وتوجهت أخبار اليوم الى ام كلثوم ففكرت فى توفيق الحكيم ثم استبعدته لأنه سيمضى الوقت فى التشكيك أهو القمر ام لا ٠٠ الخ ، ثم تخلصت ام كلثوم بذكائها الشديد الذى يتميز (فى رأى) بالتركيز وقالت : اختار الأستاذ الجليل احمد لطفى السيد فهو يساوى عشرة رجال ! .

أما فضيلة الشيخ شلتوت فانه رأى أن يبعث بعشرة من الأشرار حتى يستريح العالم من شرهم ! على حين أن أستاذنا الكبير توفيق الحكيم مضى يشكك على نحو ما صورت ام كلثوم من أمره ! .

وأما الدكتور احمد زكى فقال انه يأخذ خمسة يسميهم ، وخمسة يصفهم ولا يسميهم ، فأما الخمسة الذين يسميهم فهم

« الأستاذ أحمد حسن الزيات فهو رفيق أنيس يحيى فينا الأمل حيث لا أمل ، والأستاذ أحمد لطفى السيد ليروح عنا بروح أرسطو ، وفضيلة الشيخ شلتوت ليمهد لنا لقاء الله سبحانه وتعالى ، والأستاذ منصور فهمى ليريح حنجرته فيهنأ بالصحة ، والأستاذ كامل الكيلانى ليقول لنا ماقاله المعرى فى خراب الدنيا » ، وأما الخمسة الذين بصفتهم فهم « مجنون كبير ، ومغرور كبير ، ومنافق معروف ، ورجعى مشهور ، وأى حانوتى » . انظر معى الى هذا التحقيق الذى هدف الى الامتاع كيف أبان لنا عن ذكاء أحمد زكى التكاملى ، وتفكيره المنسق .

وفى معرض آخر تساله مجلة الاذاعة المصرية هو وأربعة من النجوم (العقاد ، ومحمد عبد الوهاب ، وعبد الحميد الحديدي ، وزكى طليمات) عن نصائحهم لجيل الشباب الصاعدين ، فيركز أحمد زكى وصاياه للمبتدئين فى عالم العلوم فى خمس وصايا ، لابد من ذكرها ما دمنا نهدف بهذا الكتاب ضمن ما نهدف الى ضرب المثل ، ولابد من تخطيها اذا كان القارئ قد مل هذه الاستطرادات التى ما فتئ المؤلف يلجئ اليها ، ولهذا فقد وضعت النصائح مرقمة حتى يسهل تخطيها على من يريد :

١ - ألا يقرب العلم كمهنة يكسب منها حتى لا يتحول العلم فى آخر أمره فيفقد الكثير مما به من كسب نفسانى لقاء ما يجنى من بعد ذلك من كسب مادى .

٢ - ألا يقربوه حتى تكون فيهم ميول العلماء ، ولو هى بادئة براعمها ، وأن تكون أنفسهم من الأنفس السائلة عن كل ما غمض ، الطلابة لاستجلاء كل ما بهم أمامها .

٣ - ألا تقرب العلم الا اذا كانت نفسك تستطيع أن تبحث عن الحقائق فى حيرة .

٤ - الصبر على الخيبة ، فإن التجارب تذيب ثم تذيب ثم آخر الأمر تنجح .

٥ - الا تضيق بجدل ، فالعالم الناجح لابد له من جدل ، بل هو يدعو الناس الى جداله ، وهذه منزلة العلماء .

وحين خصصت مجلة « الاثنين » عددا من أعدادها للاذاعة ، ذهبت الى كبار الشخصيات تسألهم عن التسجيلات التي يحبون سماعها ، فرتب الدكتور زكي رغباته العشر على النحو التالي : تسجيلات الشيخ محمد رفعت في قراءة القرآن الكريم ، ثم كل ما غنته أم كلثوم من شعر شوقي ، ثم مجنون ليلي لعبد الوهاب وأسمهان ثم المواويل البلدية ، ثم أغاني سلامة حجازي وعبد الحامولي ، ثم برنامج ربع ساعة مع أهل الفن ، ثم الرماد المتخلف عن حرق ورق الأحزاب .. ففيها معاني انعدام الشقاق والخصام والفرقة بين أبناء الوطن الواحد .

كان احمد زكي صديقا لكثير من اعلام البلد ، كان صديقا لكثير من اقطاب السياسة الوفديين من الجيل الثاني ، وكان على رأسهم محمود سليمان غنام الذي كان من تلاميذ احمد زكي الأوائل ، وكان صديقا لزعماء الأحرار الدستوريين الذين كانوا زملاءه في « مدرسة الثورة » وفي « الحزب الديمقراطي » (حزب الشباب أثناء ثورة ١٩١٩) ، وكان على علاقة طيبة بالسعديين وزعمائهم ، وكان الاخوان بالذات كثيرا ما يترددون عليه لاستشارته في كثير من المسائل .. كانوا يجدون فيه الصدق وكان يجد فيهم الشباب الذي يحبه ، وكان صديقا لشباب الحزب الوطني ومن هم من جيله .

وكان احمد زكي صديقا لأهل الأدب واللغة ممن شاركوه العمل

فى الصحافة ، وفى لجنة التأليف وزاملوه فى مجمع اللغة العربية
والمجلس الأعلى لدار الكتب .

وكان كبار رجال التعليم الذين ضمتهم مدرسة المعلمين العليا
من قبل يفخرون بزميلهم العلامة احمد زكى ، وكان الدكتور زكى
حريصا على علاقاته معهم ، التى كانت اكثر من صداقة .

وكان الدكتور زكى صديقا لرجال الصحافة الكبار الذين
يقدرونه ، والصغار الذين يحبونه ويحبون حديثه وحواره ولقاءه
ونصحه .

وكان صديقا للذين يقرأون له فيبدون الاعجاب ، وكان اكثر
صداقة للناس الذين يقرأون فيظهرون النقد .

وكان معجبا بأهم كلثوم وعبد الوهاب محبا للاستماع اليهما
فى الشعر القصيح .

وكان قبل هذا وذاك صديقا للمرأة ، والملاحظة الاولى التى ترد
الى ذهن من يستعرض أسماء مؤلفات عالمتا تأتى من كتابين من كتبه
يحملان اسم امرأتين ، على حين أن الباقي كله متصل بالعلم على
نحو أو آخر ، احدهما قديسة هى جان دارك والاخرى غير قديسة
هى غادة الكاميليا .

وكان عالمتا يقرر أن البنات اكثر اجتهدا فى الجامعة من الولد ،
وكان لا يخفى سروره بدخولها كلية دار العلوم على عهده وهو مدير
للجامعة حريصا على أن تملك زوجة المستقبل أمر استقلالها فى
يدها ، وكان يقول « أن أهم أسس السعادة الزوجية هو أن الزوج
الذى يجد أمامه زوجة عرفت ما عرف واستطاعت أن تكسب ما
يكسب يكون أهدأ طبعاً » .

ليس غريبا إذن أن يكون الدكتور زكى أول من وظف المرأة في مصلحة الكيمياء ، وليس غريبا ما كان من دفاعه عنها ، خصوصا في مسألة المساواة ، وسوف نفرد ان شاء الله بابا كاملا لهذه الناحية من خلق الدكتور زكى وآرائه في المرأة .

سئل الدكتور زكى عن أخطر امرأة في حياته فقال انها أمه ، وقال لمجلة الاثنين (١٩٥٦/٢/٦) « ان الرجل الذى لا تكون أمه أول امرأة دخلت في حياته وأخطر امرأة فهو رجل فقد كثيرا من مشاعر الفطرة » .

يأتى هذا الحب نتيجة لتلك العاطفة القوية الرشيدة التى كانت والدته تشملها بها فى صغره وصباه وشبابه ، دون تدليل أو اقساد ، وقد توفيت وهو فى الغربة فحزن عليها حزنا مضاعفا ، ووصفها فى عبارة موجزة فقال « انه كان لها قلب دائم التحنان وعين دائمة اليقظة ترعانى عن قرب وترعانى عن بعد » .

هذا عن والدته ، وقد قدمنا بعض الحديث عن زوجه التى لحقت به بعد وفاته بعامين ، وما كان بينهما من وفاق ووئام ، أما ابنة الدكتور زكى السيدة لبيبة فقد درست اللغة الفرنسية وأدابها ، وتخرجت بدرجة عالية فيها ، وعملت فى الصحافة الفرنسية فى مصر بعض الوقت ، ثم اختيرت مترجمة للامم المتحدة فى المؤتمرات الدولية ، واتخذت من باريس مقرا ومستقرا .

وبعد : فلها نحن الآن فى صيف عام ١٩٧٥ وقد تعدى الدكتور احمد زكى الثمانين - وبلغتها - وأدركه مرض ضعف العضلات فسافر للعلاج ، وحضر القاهرة ، ودخل مستشفى المعادى ، فبقى بين أبنائه وتلاميذه وأصدقائه ومحبيه مدة من الزمن ، ولكن الله سبحانه وتعالى اختاره الى جواره بعد أسبوع من الاحتفال بمرور

عامين على انتصار أكتوبر . فذهب احمد زكى الى ربه سعيد النفس
بما تحقق من النصر ، وان كان قلقا بسبب الخلافات التى دبت بين
العرب فى موضوع المفاوضات .

على أن قلقه الأكبر وهمه الأكبر كان على الفواحي الداخلية
التي لا بد منها للانطلاق الى التقدم . وأنظر الى آخر عباراته اذ
يقول « أما الدواء ، فالانتهاى من المشاغل الخارجية ، والتركيز على
الأمور الداخلية ، وتغيير القوانين بقسوة شرقية رادعة لا فلسفة
للغرب فقهية فيها ، مع الدعاية الواسعة » .

وشيعت جنازة احمد زكى فى القاهرة ، ودفن بها ، مدعوا له
بالرحمة والمغفرة ، وأقام مجمع اللغة العربية حفلا لتأبين الدكتور
احمد زكى ألقى الدكتور حامد جوهر فيه كلمة التأبين الجمعية ،
وأبى فضل الدكتور أبو العزم ، الا أن يشارك بكلمة وهو رئيس
أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا .

ثم أخذت الأقلام من حين لآخر تتناول حياة الدكتور زكى من
بعض زواياها المضيئة ، وكلها زوايا مضيئة ، وتفضلت هيئة الكتاب
بالتعاقد على إصدار مؤلفات الدكتور زكى فى سلسلة الأعمال
الكاملة ، وقد أصدرت من هذه المؤلفات حتى الآن عملا واحدا ، هو
« مع الله فى الأرض » ، وأظنها بصدد إصدار المكتب الأخرى ،
ما نشر من قبل ، وما لم ينشر .

الجزء الثانى

فلسفة احمد زكى

الفكر السياسى عند أحمد زكى

ان الديمقراطية جميلة ، ولكن غير الجميل ان يكون
الناس غير ديمقراطيين يدخلون الديمقراطية بمفاهيم غير
ديمقراطية ، ومع هذا فدخلوهم الديمقراطية حتى بهذه
المفاهيم خير من الا يدخلوا ، انها الديمقراطية المريضة ،
ولكن الامراض لا تدوم ، وما خلقت العقاقير الا للدواء
والشفاء *

احمد زكى

قدمنا فى الجزء الاول ان أحمد زكى لم يكن من الذين مارسوا اللعبة
السياسية قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ومن الواجب هنا أن نقيد ذلك
القول بأنه لم يكن من المتحزبين لحزب معين ، فقد أبعد نفسه عن
الحزبية ، ولكن لم يبعد نفسه عن السياسة ، فقد كان واحدا من
صناع الأحداث فى مصر ، ولكنه لم يكن من صناع الأحداث البارقة
سريعة الظهور سريعة الأثر ، وانما كان من الذين يصنعون السياسة
طويلة المدى فى مجال الفكر والعلم *

وقد استوزر الرجل فى وزارة من الوزارات الأربع التى كانت
بين حريق القاهرة ، وقيام الثورة ، واستوزر لوزارة الشئون
الاجتماعية ، وهو لم يكن من رجالها الفنيين ، اذن يمكن القول
بان اختياره للوزارة التى فى غير تخصصه كان من ذلك النوع الذى
يسمونه « بالوزير السياسى » واذن كيف كان كذلك ، ولم يكن الرجل

من السياسة الذين يغلب على عملهم تولى الوزارات أيا كانت عندما
تصل مجموعاتهم الى الحكم !

والأمر فى هذا بسيط غاية البساطة ، فقد كان الدكتور احمد زكى
هو استاذ الجامعة الكبير ، والموظف الكبير الناجح ، والعالم اللامع ،
والكاتب المؤثر ، والمفكر صاحب الكلمة المقدرة دائما ، والمسموعة
فى بعض الأحيان ، كان الدكتور احمد زكى بكل ذلك شخصية عامة •

والشخصيات العامة تتفاوت ، أهمية وقدرها واحتراما ، وكان
احمد زكى بعقله وعمله وفكره ونفسه ولسانه وقلمه وعلمه من أرفع
هذه الشخصيات مستوى •

لم يكن احمد زكى نائباً ، و لارجل سياسة شعبية ، ولكنه كان
يلقى الاحترام من طوائف الشعب المتعلمة ، ويلقاه أكثر من أكثرها
علما •

وكان لأحمد زكى رأى فى كل صغيرة وكبيرة من أمور السياسة
ما توافرت له مكونات الرأى ، ولم يكن يحتفظ لنفسه برأيه ، ولا كان
يحافظ على نفسه من رأيه أن يبديه ، وإنما كان لا يفتأ يبديه ويهديه ،
ويهدى به ، فى صراحة لا تموزها لباقة السياسة أبدا وان خالفت
السياسة التى تقوم على اللباقة فحسب •

وكان قلم احمد زكى يتناول الموضوعات السياسية حين أتيح
للهلal أن يرأس تحريره عالمنا الجليل ، فيتناول أمور السياسة
الدولية ، والسياسة العربية ، والسياسة الداخلية ، فى صراحة
ووضوح ، وبصر بالأمور ، وحكمة الحياة ، وصدق فى الحكم على
الأشياء ، وسلامة فى القصد ، ونزاهة فى الغرض وكيف لا وهو
السلام العالمى ، والوحدة العربية والتقدم الوطنى •• وتلك كانت

الأغراض الثلاثة التي يسعى إليها أحمد زكى بقلمه ، بعدما تمنّاها
فى قلبه ، وصاغ مفاهيمها ووسائل تحقيقها بعقله .

ثم كان ما كان من تولى أحمد زكى أمر الرجل الأول فى
الجامعة الأولى بعد قيام الثورة ، وكيف واجه أعتى عواصف
السياسة فى السنة الدراسية التى قضّاها فى هذا الموقع ، عندئذ
أتيح لمصاحبنا أن يختلط بالأمواج المتلاطمة ، والتيارات العاتية ،
والأغراض العابثة ، والألسنة العابثة ، والأسلحة المتحضرة ،
والعقول التى أربها الفكر ، والفكر الذى أرهفته الأحاسيس .

وخرج الدكتور أحمد زكى من هذه التجربة بخبرة الذين
يمارسون الأحداث ويدركون خطورة الأمر ، ويلتبس عليهم فى لحظة
من اللحظات الحق الحق والباطل الباطل لا يدرون أى الطرق
يسلكون ، وتعتر بهم الرهبة من كل طريق ففى كل توضحية وتوضحية
جسيمة ، ويسابقهم الزمان بدقائقه لا بساعاته ليقول لهم إن اتخاذ
القرار مهما كان ضلّاله أهون على كل الأحوال من البقاء بلا قرار .

عرف أحمد زكى فى سنة الجامعة طبيعة الثورات الدافعة ،
كما عرف من قبل على مدى سنوات طبيعة الديمقراطية الهادئة . .
وأدرك أحمد زكى كيف يكون صاحب القرار محل اتهام بما هو أبرأ
الناس منه ، وكيف تسير الجماعات ، وكيف تتصرف الحكومات ،
وكيف تلعب الخلفيات أدوارها فى تقرير الواقع الذى ينبئ عليه
أخطر الأمور .

ذاق أحمد زكى النار ، ولفحته العواصف ، ولكنه تحمل وخرج
وقد صارت له من الحصانة والمناعة قوة لم تكن لتأتى له .

وخرج وقد عرف أن ليس كل ما يقال صدقا ، وأن ليس كل

ما يستكت عنه لم يحدث عنه ، وإن للمواقف خلفيات غير معلنة ،
ولافتات معلنة ، وما أبعد ما بين الاثنين •

وخرج وقد عرف أن المعطيات التي تكون عند الكاتب السياسى
قليلة ، وهذا لا يطعن فيه على أى حال من الأحوال •

على أنه لا يعنينا هنا من أمرا الخبرة ، وهاتيك الممارسة الا انهما
كانا من العوامل التي جعلت كاتبنا ومفكرنا قادرًا على القول
فى السياسة •

وليس من شك أنه من دون هذا العامل فقد توافرت لعالمنا من
قبل العوامل الأساسية فى تكوين الكاتب السياسى ، ولكن اضافة
هذا العامل اليها قد أتاح لنا من احمد زكى كاتبًا سياسيًا من
نوع خاص •

أى نوع خاص من الكتاب السياسيين كان احمد زكى ؟ هذا
هو السؤال ، وهذه هى الاجابة على طريقة الوصف بالخصائص :

١ - بلا هوأى : لا هو الى اليمين ولا الى الشمال ، ولا الى
القديم ولا الى الجديد ، ولا الى الملكية ولا الى الجمهورية ، ولا الى
الديمقراطية ولا الى الدكتاتورية •

٢ - النظرة طويلة المدى : التى لا تعنى بتحقيق المنفعة العاجلة
أو الضجيج الصاخب مع تقديرها لفوائدهما ، بقدر ما تعنى بوضع
الأساس الصحيح ، وانضاج البيئة الخيرة ، والعمل للمدى البعيد ،
والتخطيط للمستقبل الأفضل •

٣ - التعقل : بحيث لا تدفعه العواطف نحو موقف معين ،
مهما كان سمو هذه العواطف •

٤ - الأخلاق السياسية : وقد كان صاحبنا من أشد المؤمنين بأن السياسة أخلاق قبل كل شيء ، كان أكثر الناس كرها للميكافيلية ، وله في هذه المقالات لا الفقرات فحسب .

٥ - الفصل والتفريق : بين وصف الواقع وتقرير ما هو حادث ، وبين الأمنى والمبادئ والأهداف المبتغاة .

٦ - النظرة الكلية : الى الحقيقة من جوانبها المختلفة .

٧ - الاستفادة من التاريخ أقصى استفادة ممكنة : والتاريخ هنا لا يقتصر على الماضى ، ولكنه يبحث فى تاريخ التجارب الانسانية المعاصرة تحت نفس الظروف .

٨ - وضوح الرؤية : ولا اظن أحدا قرأ لعالمنا الجليل مقالا سياسيا ثم سال عن الغاية التى يقصدها ، فهو لا يترك الأمور والنوايا الا بعد التوضيح التام .

٩ - احترام الشئون الداخلية : اذا ما تناول امرا من الأمور يخص دولة معينة .

١٠ - النظرة الى السياسة على انها عنصر من عناصر الحياة : فى كافة صورها الاقتصادية والاجتماعية و . . . الخ ، تتأثر بكافة جوانب هذه الحياة ، وتؤثر فى كافة جوانبها .

١١ - الكلمة المناسبة فى وقتها المناسب : والنصيحة الغالية قبل وقت الاحتياج اليها لأن التذكير بالنصيحة هو وقتها المناسب .

بعد ذلك ننقل الى سؤال آخر حول طبيعة المقال السياسى عند أحمد زكى هل كان قلمه قادرا على متابعة الأحداث فى مقال يومى ؟

أو في مقال اسبوعي ؟ أم أنه كان انسب ما يكون لما كان له من مقال شهري ؟

وهو سؤال افتراضى ، ولكن لا بأس ، لأنه يعطينا مؤشرا هاما عن نوعية مقال أحمد زكى ، وكتاباته السياسية ، وليس من باب المجاملة للرجل أن نقول أنه كان قادرا على الكتابة في السياسة كل يوم ، ولكن من الحق الذى لا مرية فيه أن أحمد زكى كان كذلك لا يريد الكتابة في السياسة اليومية ، وأن استطاع أن يكتب فيها كل يوم .

بعبارة أخرى كان أحمد زكى قادرا على أن يكون له مقال يومي في السياسة أو في غير السياسة ولكنه لم يكن يفعل ذلك لأن طبيعة كتابته في السياسة لم تكن كذلك ، فهو لم يكن صاحب حزب أو دعوة يحمل الناس عليها كل يوم ، ويفسر تصرفاتها يوما بعد يوم ، ولكنه كان صاحب الدعوات التى تعيش على الزمان ، وتبقى على الأيام .

على اليد الأخرى ، لابد أن نشير الى ما أشار اليه أحمد زكى في عبارة عارضة في مقال (٥٩/٨) بالعربى وقد مضى على صدور عددها الأول تسعة أشهر من قوله أن من سوء حظنا نحن الشهرين أننا نكتب في الاحداث بعدما وقفت ، لم يكن سوء حظ يا أستاذنا الجليل ولكنه كان حسن حظ للقراء .

قلنا في ثلاث جمل معطوفات على بعضها أن أحمد زكى كان يدعو أو يكتب في الدعوة الى السلام العالمى والوحدة العربية الاسلامية والتقدم الوطنى وليس هناك في كتاباته هدف أعظم قدرا من هذه الاهداف الثلاثة في تلك المجالات الثلاثة .

ولكن هذا لا يمنع من أن الرجل كانت له افكاره السياسية النيرة التى لا تمثل مواقفه السياسية بقدر ما تمثل مواقفه الفكرية ، والتى

لا تمثل امنياته بقدر ما تمثل عقليته وخلفياته ، هذه هي آراؤه في الحرية وفي المساواة • في الديمقراطية والزعامة ، في الحروب والقوة ، في الوطنية والقوميات ، وفي الملوثين ، وفي السياسة الدولية ، والسياسة الامريكية ، في هيئة الأمم ، وفي الثورات والتغيرات السياسية •

هذه الآراء متناثرة في السطور التي تركها لنا أحمد زكي في عدد كبير من اعداد المجلات المختلفة التي تعاقب قلم الرجل عليها • ولكنها لم تكن متناثرة في عقل المفكر الكبير ، انما جاءت الى الحياة كما يجيء كل شيء الى الحياة الدنيا بلا نظام ظاهر ، وبنظام أدق وأخفى حكم به الناموس في اللوح المحفوظ •

وهذا الباب يعرض لنا بطريقة منظمة (نظاما ظاهرا) الافكار السياسية للرجل بعدما استخلصها المؤلف من قرابة مائتي مقال للقلم الكبير ، وهو حين يقول « مائتي مقال » يأخذ بالاحوط ، وهو الأقل •

على أنه لابد من باب الامتاع ان نرحم القارئ - مدة فقرة - من قلم المؤلف - ليقرا لأحمد زكي نفسه قوله في تبرير كثرة كتاباته في السياسة وهو القول الذي ذكره في مطلع حديثه « اختلاف الرأي في سبيل الخير غير اختلاف الرأي عن خبث وغدر » العربي مايو ١٩٧٤ حين يقول : « اعود الى الكتابة فلا أجد بابا كالسياسة يفرى الكاتب بالدخول فيه ، ذلك لأن السياسة هي اليوم أمس شيء بحياة العرب وأكثر الأمور ارتباطا بمصائرهم وكثيرا ما هبت رياحها عاصفة تنثر باقتلاعهم من الأرض اقتلاعا ثم هبات ثورة الريح فأفسحت الأمل ببقاء ليس هو خير بقاء » •

١

ونتطرق بعد ذلك مباشرة الى عرض آراء الرجل في السياسة

العملية فنذكر الى اى حد كان نفاذه الى اعماق الأمور عندما يقرر في صراحة ووضوح ان القوة هي الحكم والفيصل في علاقات الدول بعضها وبعض ، وهو لا يكتب في هذا من باب تقرير الواقع ، وانما حثا للعرب على الاجتهاد في هذا المضمار بتقوية النفس بدلا من الاعتماد على العواطف والكلمات المعسولة والوعوه ١١

ويكتب احمد زكى مقالا مطولا في هذا المعنى في مجلة العربى « ٦٩/٧ » ويجعل عنوانه « القوة .. القوة » سياسة الأمم لا تعرف غير القوة » ويأخذ في الاسهاب والحث على المعانى التى يلخصها قوله : « سياسة الأمم لا تعرف غير القوة ، والقوة عندهم فوق القانون والذين يحتمون بالمعانى الانسانية ، قوم مستضعفون وانسان هذه الأرض اما اكل ، واما ماكول » .

« والعرب تساورهم الذئاب من كل جانب فهل هم مستيقظون ؟ فلينجح العرب بانفسهم بطلب القوة لا لياكلوا الناس ، ولكن لكيلا ياكلهم الناس ، فحيثما نظرت الآن وجدت حول العرب تحفزا وتوثبا » .

ويفرق احمد زكى بين طبيعة السياسات التى تكون بين الافراد ، وبين تلك التى بين الدول بعضها وبعض ، ويسهب في تفصيل هذا الفرق في اكثر من موضع ، ولكننا نقتبس هنا قوله في مقاله « من اين والى اين يارجال العرب » الذى نشره في العربى (ابريل ١٩٧٢) حين بلغت الامور حالة من الياس عبر عنها قولهم حالة اللاحرب واللاسلم : « ان معانى الحضارة ، وكل تلك القيم التى تضم مفاهيم العدالة والمساواة والحق والديمقراطية واشباهها يجدها الانسان بين الافراد وبين الطبقات فى الامة المتحضرة الواحدة ، اما بين الأمم فليس هناك الا قانون الغاب : اكل وماكول ، والغلبة للاقوى ، ومن شك في هذا فليقرأ ماوقع في فيتنام ، تصف ضحيته الملايين دام سنين وخراب ذهب بالزرع والضرع الى حين طويل » .

حتى اذا كانت حرب اكتوبر ، وكان النصر الرائع وبان للناس صدق كلام العالم والمفكر ، خاف صاحبنا ان يستكين العرب الى ما أحرزوه من نصر ، فأخذ يكتب داعيا الى مواصلة السعى في تقوية النفس يوما بعد يوم بكافة الوسائل ، ويقض احمد زكى في هذا المعنى في حديث شهر اغسطس ١٩٧٤ مجلة العربى الذى جعل عنوانه « هيئة الامم المتحدة • تركت الكرة في الميدان وجلست تشهد اللعب مع اللاعبين » ويروى احمد زكى في هذا المقال ماحدث من فض الاشتباك ، وكيف سارت الامور ، وماذا يتوقع من امور ، ويخلص من هذا الى القول : « ويجرى كل هذا مصداقا لأن الذى يجرى سياسة هذا العالم ، ويحرك سياسته ليس هو العقل ، وليس هو العدل ، وليس هو الايمان بالمساواة ، ولكنها السيادة في ميدان الحرب ، والسيادة في ميدان الاقتصاد ، ومايتبعها من ميادين للعلم والتقنية » .

ومن هنا كان فهم احمد زكى لطبيعة الحروب ، بل ولضرورتها وهو يتحدث عن هذه العلاقة بين الحرب والقوة في لغة العالم المدقق الذى يسجل الظواهر الطبيعية ويرصدها فيقول في حديث الشعر بالعربى (٧٣/٦) وعنوانه « منطق الحوار ومنطق القوة » فيقول : « فالقوة والحرب يكملان المنطق ، في سنن هذا الكون ، وكثيرا ماتكون القوة وتكون الحرب اقوى حجة من المنطق ، ولا يحتقرن احد القوة ، فهى بعض سنن هذا الكون ، ان المنطق اذا لم يحل مشاكل الناس فلا بد من شيء يحله ، ولهذا دخلت القوة نظاما من نظم الحياة » .

« ما القوة الا وسيلة وهى تكون وسيلة للخير ، كما تكون وسيلة للشر وهى على كل حال فوق الضعف وفوق المذلة مكانا والله مؤسوم بالقوة وبالخير وبالجبروت »

« انه المنطق اولا فلما لم ينفع ، اكملته القوة ، والقوة منطق

افضل ، وسمى الانسان هذه القوة التي تأتي بعد المنطق ، منطق القوة سخرية بها ، ولم تؤثر هذه التسمية الساخرة في القوة فهي قد ظلت الوسيلة الفعالة التي تحسم الخصومات في عالم الانسان وكذلك في عالم الحيوان » .

ومن الطريف ان احمد زكى كان يؤمن ان الصروب ستبقى مابقيت البشرية ، هكذا كان اعتقاده ، او قريبا من هذا الا ترى الى قوله في حديث الشهر « حرب ام سلام » (العربى : ١٠ / ١٩٦٦) : « والعقيدة بان الحرب لاتكون لانه لن يكون هناك مجنون يبدأها ، سلبية لانرضائها ، والاحتفاء باليأس لان ازمة الامور فى ايد غير ايدينا سلبية كذلك لانرضائها » .

مع هذا ينبه الدكتور زكى الى خطورة الحرب واستنزافاتها ، ومع هذا وهذا يلقي الضوء على ناحية الضرورة والتورط في الحروب وفي مقاله (العربى : مارس ١٩٦٦) يشير الى ماحدث في فيتنام من التورط الامريكى ثم يقرر درسا هاما فيقول ان « داخل الصروب يدخلها في الوقت الذى يشاؤه هو ، اما خروجه منها فامر لا يتعلق بمشيئته هو وحده ابدا » . انما يتعلق بالاحداث التى تتمخض عنها الايام ، وبالعقد التى تعقدها ، فالحرب ان حلت عقدة ، ربطت لكل عقدة عقدتين وثلاثا .

ويركز احمد زكى رايه هذا في قوله « ان الحروب ورطة ، وقد لا تكون ورطة الضعيف ، قد تكون ورطة القوى كما حدث من امريكا في فيتنام » .

من نفس المنطق منطق تقدير قيمة القوة ، وقوة القوة ، كان الموقف الذى اتخذه احمد زكى حين قال ان اوراق اللعبة كلها في يد الولايات المتحدة الامريكية ، وسوف نتناول هذا الموقف في الباب

الخاص بمعالجة الدكتور زكي لازمة الشرق الأوسط ، من زاوية معالجة الازمة ، ولكننا نتناوله هنا ايضا من باب الفهم السياسى والفلسفة السياسية عند عالنا الجليل .

كان احمد زكى فى رايه هذا اصدق الكتاب العرب مع انفسهم على الرغم من انه كانت فى نفسه مرارات - لا مرارة - من الولايات المتحدة ، واقرا له معنى من مقاله « لا صلح بين الزعماء اذا لم يتبعه صلح بين الشعوب وصلح الشعوب اعصى » (العربى يونيو ١٩٧٥) ان يقول : ان زمام الامر كله فى يد دولة واحدة ، هى الولايات المتحدة كرمناها دولة او احببناها ، والسياسة ليس فيها ما نحب وما نكره .

« ان القوة فى الدنيا هى الشئ الذى له فى هذه الايام السيادة ، فلا العلم ، ولا الدين ولا الفلسفة ، ولا محاسن الاخلاق لها عند أمم الارض الآن وزن . والقوة لها عجرفة تخفى عند الامم ما قد يكون بها من مكارم الاخلاق » .

« والولايات المتحدة ، بقوتها الحاضرة ، هى سيدة الارض . روسيا لاتطاولها ولا تجرؤ أن تخاصمها فى شئ الى النهاية لان فى ذلك هلاك الجميع واوروبا لم تنزل الى الآن فى تخبط . وقد غزاها الاقتصاد الأمريكى والدولار بما غزا . فهى ستظل الى حين بعيد تتبع . »

« والخصومة بين العرب والصهيانية لا يحلها الا الولايات المتحدة ، اذا هى شاعت ، وتعينها روسيا على ذلك بالكثير من الترفق على ان يكون لها على مسرح الاحداث نصيب بارز » .

ولم يكن الدكتور زكى رحمه الله من انصار الراى القائل بانتظار

دور الأمم المتحدة ، لأنه كان يدرك تمام الإدراك أن الأمم المتحدة ليس لها من القوة ما يمكنها من تنفيذ قراراتها ، وهي الحقيقة الناصعة التي أدركها رجل الشارع بفطرته ، ولكنها استعصت على كثير من المشتغلين بالسياسة الذين كانت المعاصرة لهم بمثابة الحجاب الكثيف .

يتحدث الدكتور زكي في مقال (سبتمبر ١٩٧٢) عن النظام الحزبي في الولايات تحت عنوان « حزبان ولكن » ثم يستطرد إلى المعنى الذي نتحدث فيه هنا بعبارات رائعة البيان والتعبير فيقول : « إن هيئة الأمم المتحدة كالرجل الناسك التقى العابد ، عليه الدعاء الكثير ، أما استجابة الدعاء فتأتي من خلفاء الله في الأرض ، وهم خلفاء الله بمالهم من قوة ، وهم خلفاؤه بما لهم من علم ، وبما أقاموا من حضارة ذات وجوه شتى ، وفيها الوجه القبيح » يقصد الدكتور زكي بهؤلاء الخلفاء الولايات المتحدة الأمريكية .

ويقرر الدكتور زكي في وضوح أن هيئة الأمم هي اليوم الولايات المتحدة الأمريكية ويضرب على رأيه مثلاً بما حدث في امر عضوية الصين الشعبية في الأمم المتحدة ، وكان المثل يومها حاضراً في أذهان القراء جميعاً .

ومع أن أحمد زكي يفصل القول في طبيعة النظم الديمقراطية في الولايات المتحدة في أكثر من حديث ، وخاصة مقالته (العربي : سبتمبر ١٩٧٢) إلا أنه يصارح العرب بأن الأمر في السياسة الأمريكية لا يتوقف أبداً على تغيير الرئيس ، وانتخاب آخر محله ، وإنما هي سياسة ثابتة ، وقد عبر عن هذا حين تفاعل البعض بمجيء نكسون بعد جونسون ، فقال أحمد زكي في مقاله (أبريل ١٩٦٩) : « لا هذا ولا ذلك أراد أو يريد ، وإنما هي الإدارات التي وراء رئيس الدولة والمصالح العملاقة التي إليها يستند هذا الكيان الجبار الذي

اسميناها الولايات المتحدة هي التي ارأيت « ويستطرد على نفس الخط ليقول : « فالامل الذى يربطه العرب برئيس الولايات الجديد يجب ان يصحبه ادراك لمقدار الحركة التى يستطيع ان يتحركها هذا الرئيس فى مقعده ، وهو يدير آلة الولايات المتحدة العارمة » .

وهى عبارات مائرجى العرب بل والعالم ان ينظر فيها عند كل تغيير فى رئاسة الولايات المتحدة . هكذا كان فهم احمد زكى للعامل الاول الذى يحكم السياسة الدولية ، فماذا عن العوامل الاخرى التى تحكم هذه السياسة ، هذا هو مايتبين لنا فى رأى احمد زكى فى مسألة العلاقات الصينية الامريكية (وهو الرأى الذى سيقودنا الى الموضوع الثانى فى هذا الباب (وهو القوميات والوطنيات) .

هذا وقد كان الدكتور زكى يعتقد ويجاهر ان اكثر شيء عكر صفو الامريكان هو دخول الصينى نادى الذرة ، وكان يقول : « ان امريكا تتخيل الصين اخطر عليها من الروس مرات كثيرة ، وذلك لأن امريكا والروس تربط بينهما ثقافة الغرب المدنية وثقافته الدينية ، ودعك من القول ان البلشفة ذهبت بالدين ، فللدين فى الأنفس حتى وهى لا تعيها ، اثار لا تمحوها السنون هكذا سريعا ، والروس بيض، والامريكان بيض، والصين صفور، وفلسفة هؤلاء فى الحياة نقيض فلسفة اولئك ، ودع ما جاءت به الشيوعية من فلسفة لاتتعمق فى النفس الى اكثر مما يتعمق اليه الطعام والشراب » واذا اردت ان تستزيد من آرائه فى هذا الموضوع فارجع اليها فى موضعها من مقاله « الحرب الفيتنامية توشك ان تتحول الى حرب ذرية » (العربى : مارس ١٩٦٦) .

على انه لاينبغى لنا ان نترك هذه النقاط من دون ان نشير الى ناحية « القوة » التى كان احمد زكى يجدها فى « الامم المتحدة » . وهى انها لاتفتقد القوة الاعلامية الهائلة التى لها (العربى :

أغسطس ١٩٧٤) • ويضرب استاذنا الدكتور زكى على ذلك مثلا بما حدث في مسألة البرتغال ، وحرب ١٩٥٦ ، ومؤتمر الشمال والجنوب الذى دعا اليه الرئيس بومدين ١٩٧٤ •• كما يشير احمد زكى بالغفر الى نشاط المؤسسات الدولية التابعة للأمم المتحدة ويقرر ان الذى حمى هذه المؤسسات من سوء المصير اشياء كثيرة ، من أهمها خلوها من السياسة المحترفين وان الكثرة التى هيمنت على مناشطها من رجال اتصلوا بالعلم نشأة ومهنة وطيب مزاج •

٢

ان لنا بعد هذا ان ننقل الى البند الثانى من هذا الباب ، وهو مسألة القوميات ، والالوان والثقافات ••• الخ) التى بدت في فقرة احمد زكى التى قرأناها منذ ثلاث دقائق عن الصين وامريكا غريبة بعض الشيء على المفاهيم الحاضرة في اذهان الناس •• ولهذا فسوف نمضى الآن على نسق معين من الترتيب يتيح لنا فهم رأى الدكتور زكى في هذه المسألة على النحو الاقرب الى فهمه •

كان احمد زكى يعتقد ان للقومية ركائز خمس ، وقد فصل القول في هذه المسألة في حديث شهر نوفمبر ١٩٦٦ فى مجلة العربى « دنيا البيض ودنيا الصفر والسمر والسود » فقال في وضوح شديد انه يرى ان للقوميات ركائز خمس :

« الركيزة العنصرية

« والركيزة اللغوية

« والركيزة الثقافية

« والركيزة التاريخية

« والركيزة المصلحية

ثم يضيف اليها الركيزة الجلدية ، « قومية اللون الذى شاء ربك
ان يصبغ بها وجوه الناس »

اما الركيزة العنصرية فهى التى اساسها وشائج القربى ، وتمثل
اكثر ماتتمثل فى القبائل ، ولكنها كذلك تتمثل فى القبيل من الناس ،
يسكنون البقعة الواحدة من الارض ، ويجرون فى الحياة على اسلوب
واحد ، وعلى الرغم من انهم من اعراق بدأت فى الزمن مختلفة الا
انهم بتزاوجهم مزجوا بين الدماء المختلفة .

ثم الركيزة اللغوية ، تسندها الركيزة الثقافية ، ولكن اللغة قد
تتوحد ، وتتفارق الثقافات ، واذن يمتنع العيش الواحد ، ويصعب
التقارب ، ويظهر هذا باختلاف احقاب الزمان ، وكذا فى الدولة
الواحدة قد نجد دولة ذات قومية واحدة ، على الاقل لان لها لغة
واحدة وتبحث فى شئونها فتجد انها تتألف من طبقات ذات ثقافات
مختلفة متفاوتات ، بعضها فى الحضيض وبعضها فى السماء
العلى ، دولة كهذه كيف يمكن ان تؤلف فى حسابان علماء الاجتماع
قومية واحدة مهما اكد القانون والساسة ذلك . ان قالوا دولة
واحدة فنعم ، وان قالوا امة واحدة فلا .

ويعرف احمد زكى الركيزة التاريخية بانها الركيزة التى تجمع
بين قبيلتين من الناس كان لهما فى التاريخ تناصر وتآخ ، ومن أمثلتها
الركيزة الدينية ان جاز هذا التعبير .

اما الركيزة المصلحية فيعنى بها احمد زكى ما هو حاصل فعلا
فى سويسرا وبلجيكا وكندا وواضح ان هذه الركيزة جاءت توفيقا
من احمد زكى للحياة مع القواعد النظرية التى شرح بها مسألة
القوميات .

والمسألة في ذلك ليست ان المصلحة ركيزة تقوم عليها قومية ، وهذا ما لا اظن احدا يخالف فيه ولكن الذى حدث ان تقسيما معيناً هو في الغالب خاضع للظروف الجغرافية وسياسة ما بعد الحرب ، قد اقتضى نشأة قوميات جديدة ، ستدعم لها من الركائز التى ذكرها احمد زكى ما يجعلها مع الزمن في مصاف القوميات القديمة .

وقد كانت كثير من القوميات التى نعدّها اليوم قديمة على هذا النحو على انى لا اود ان استرسل في هذا الامر اكثر من ذلك حتى لا يكون بابنا تعبيراً عن فكر ، ونحن نريده تعبيراً عن فكر الدكتور احمد زكى .

اما الركيزة الجبلية فهى عند احمد زكى قد قسمت الدنيا الى اربعة الوان : الأبيض والأسمر والأسود والأصفر ، « ولئن تجد شيئاً فرق بين اهل الارض كلون جلود » .

وينتقل احمد زكى ليبنى على نظريته في القوميات فيقول : « بعد تصنيف ركائز القومية الى اصناف خمسة يصبح مقدار ما بامة بالمعنى السياسى من قومية تدعم الوحدة امرا ايسر تقديراً » (أنه مجموع ما بها من هذه الركائز الخمس ، هو ليس مجموعها بل هو حاصلها ، والمحصلة على ما يدرس طلاب الثانوى هى قوة واحدة تلخص عمل قوى كثيرة تعمل في جسم واحد ، وقد اختلفت مقداراً ، واختلفت اتجاهها ، وحاصل هذه القوى قوة واحدة ذات مقدار واحد ، وذات اتجاه واحد وتعرف بالمحصلة .

ويخلص احمد زكى الى القول بان القومية اليوم هى « حاصل صنوف الركائز التى توجد في بلد ما أو بلدان ، وهى التى تقضى بالوحدة تكون أو لا تكون . وعلى أى درجة من القوة هى كائنة وفي أى اتجاه تتجه » .

ويستعرض أحمد زكى الجانب الآخر من مسألة القوميات ، وهو المتعلق بالصراع بينهما ، أو التكامل ، أو التوافق أو التنافر فيقول في موضع آخر مناديا بتقارب الثقافات بالنبهوض بالثقافات المختلفة الى المستوى الأرفع : « هذه هي الدنيا اليوم وقد تلتصقت وسوف تزيدها الأيام تقسما » .

« ولا ينبغي من وبال ذلك إلا أن تتقارب الثقافات ، وتشكل المدنيات ، فالفرقة القائمة اليوم ، أن يكن ظاهرها اختلاف لون ، فهي في الصميم اختلاف علم وفهم ، واختلاف غنى وفقر ، واختلاف قوة وضعف ودرجات على سلم المدنية خطت بعض الأمم منها درجات كثيرا ، وخطت الأخرى درجات قليلا » .

« وسوف يظل سلام أهل هذا الكوكب محفوفًا بالمخاطر حتى تتقارب حظوظ الناس من إنسانية ، وتهدف الى غايات أراها الهية سجلتها الطبيعة تسجيلا في خلايا تتوارثها ، بخيرها وشرها ، على الأزمان ، والأرحام » .

ومن الطبيعى أن يتعرض قلم أحمد زكى لمسألة أزمة الملونين التى اجتاحت العالم المتحضر فى الفترة الزمنية التى كان أحمد زكى يمارس فيها الكتابة السياسية وقد رأينا أن نضع رأيه فى هذه المسألة فى هذا الموضوع خاصة بعدما رأينا من تقسيمه للقوميات ، وادخاله للمركيزة الجسدية فى عداد الركائز التى أقام عليها القوميات .

وأحمد زكى ينظر أيضا الى هذه المسألة نظرة العالم الطبيعى الى الظواهر الكونية فيقول فى صراحة : أن المسألة فى الملونين والقوميات ليست مسألة أخلاقية أو إنسانية أو غير ذلك . انه حكم الطبع وكفى .

ونحن ننقل هنا عن مقاله « أزمة الملونين ، العربي : يونيو ١٩٦٨ رايه في تشخيص الأزمة حيث يقول : « ان أزمة اللون يردها الناس في امريكا وغيرها الى اللون لأنه الشيء الحاضر الذي يملأ المعين ، ولكن عندى ، وأكرر هذا وأؤكد ان مردها الأكبر والأكثر والأفضل الى اللغة والى التعليم والى مستوى المعيشة (وعلاج هذا تيسر الرزق للبيض والسود على السواء) والى التقليد الذى لا يكون واحدا ، والى العادة التى لا تكون واحدة فى طعام أو شراب أو سير أو حب أو كراهية ، أو اتصال بحوادث الأيام ، وما يصيب الوطن الواحد من خير ومن شر ، عندئذ ، وعندئذ فقط ، أى عندما يستوى الناس فى هذه الأمور ، يصبح اللون قليل الخطر موضوعا »

ويمضى الأستاذان الدكتور فى وصف العلاج فيقول « والحل الوحيد لإصلاح الحال لابد أن ينبع من النازحين أنفسهم ، يكون منهم الإصلاح والنصح والهداية ، والقسر والقسوة ان كان فيما تعمل القلة ما يسىء الى سائر النازحين ، تلك الكثرة الكبرى التى انما طلبت الرزق الحلال فى غير اوطانها لما ضاقت بها الأوطان »

٣

هذا عن القوميات فماذا عن الوطنية • وهى الموضوع الثالث فى آراء أحمد زكى فى هذا الباب • لم يكن أحمد زكى من المتشككين بمسألة الوطنية لأنه كان يؤمن ان الوطنية الحققة لا تأتى بالشعارات ولا الهتاف ولا السوق سوق الاغنام ، وفى هذا المعنى يقول عالما فى المقال الذى نشر بعد وفاته « أمنية » العربى ١٩٧٦/٢ :

« انه لا يريطك بأرضك ، ويحب بلدك ، وبالسهر عليه ، وبالدفع عنه ، كان يكون لك فيه نصيب ، وإن تساوت الأنصبة كان هذا كل المنى » •

« ويكتب أحمد زكي في «حب الاوطان» مقالا ممتعا في «الهلل ، فبراير ١٩٤٨» ، ويعيد نشره في ساعات السحر يقرر فيه ان : « حب الوطن ككل حب ، لا يحس به صاحبه حتى يمتنع ، وتمتنع أسبابه ، وتجف منابعه وتنحبس أفوايقه ، كالشذى لا يفتقده الطفل كافتقاده عن قظام » ويدعم هذا القول بما يروى من قصة الاعرابى الذى سئل : « أى بشيك أحب اليك ؟ » فقال : « الصغير حتى يكبر والمريض حتى يبرأ ، والغائب حتى يؤوب ، والوطن أحب ما يكون عند الغائب حتى يعود » .

وفي حديث الشهر « اشتمدى أزمة تنفرجى » فبراير ١٩٦٩ يزيد الأمر تفصيلا فيقول ان حب الوطن عاطفة تنشأ مع تنشؤ الفتى والفتاة في مدارج الحياة ، في قرية أو مدينة أو عاصمة ، ويستعين على توضيح طبيعة حب الوطن بالاستشهاد بقول الشاعر :

لا يسألون اخاهم حين يندبهم

في النائبات على ما قال برهانا

ويرد بالقول : ان الوطن الجدير بالدفاع هو ذلك الوطن الذى تتوزع فيه النكبة بين ابنائه بالتساوى ان تكن نكبة ، او تتوزع النعمة ان تكن نعمة ، نصيب كل من خسارة وكسب سواء .

وحين يتحدث استاذنا الدكتور زكى عن الحرب الفيتنامية في مقاله (مايو ١٩٦٨) ويشيد بروح الفيتنسميين في القتال فانه لا يفوته ان يشير الى التفاهم حول زعيمهم الشيوعى هو شىء منه على الرغم من شيوعيته ، ويعلل الدكتور زكى هذا بانهم رأوا فيه زعيمين ، زعيما عقائديا ، وزعيما محررا للاوطان من الاستعمار ولم يرحبوا كثيرا بزعامته الاولى ، ورحبوا كل الترحيب بزعامته الثانية

كأنما أركل الدكتور زكي بهذا أحدا من العرب (في ١٩٦٨) من باب
« واسمعي يا جارة » أظن والله أعلم .

٤

وقد أن لنا أن ننقل من الأمور التي تتعلق بالسياسات الدولية
الى الأمور التي تتعلق بالسياسات الداخلية ، وستكون حلقة الانتقال
هي الحديث عن آراء الرجل في الزعامة والزعماء ، وهو موضوع
حظى باهتمامه غير مرة ، فأفرد له موضوعا في الهلال « ٤٨/٧ »
تحت عنوان « الدنيا في حاجة الى زعيم » . كما كتب في الاثنين
« للزعامات عودات فاستروها » وهو فصل من فصول كتابه « ساعات
السمر » . وأفرد لذات الموضوع حديث الشهر (٦٩/٩) في مجلة
العربي وجعل عنوانه « الزعامة والزعماء : الزعامة بعض طبائع
الاشياء » .

هذا عدا ما جمعناه من آرائه في هذا الموضوع في مقالته
العديدة التي مس فيها موضوع الزعامة .

ونبدأ فنقرر أن أحمد زكي كان يؤمن بضرورة الزعامة أو كما
عبر هو في عنوان مقاله : وفي مقاله من بعد عنوانه ، فهي عنده
« بعض طبائع الاشياء » أو هي « شيء لا بد كائن ما اجتمع معا
نفر من الناس » .

ويفرق أحمد زكي في مقال الهلال (٤٨/٧) بين نوعين من
الزعامة ، زعامة اهل الفكر وزعامة رجال الحكم ، ويعبر عن حاجة
الدنيا الى زعيم من النوع الثاني « لأن الأزمة التي نحن فيها لا تمحل
وهي تتطلب الحل الحاضر العاجل » ويستعرض أحمد زكي زعماء
العالم الوجوديين يومها فيقرر أن ليس فيهم طلبه .

ولكن ما هي المواصفات التي يطلبها دكتورنا في الزعيم ، نقرأ له في حديث الشهر (٦٤/٢) قوله « أن الزعيم النابه ، الجدير بالزعامة ، هو هذا الذي يترك أنه افترق التوفيق في أول لحظة يخفى التوفيق فيها ، ولا يكبر عليه أن يمسك بلجام جواده ، ويعود ادراجه في وضح النهار ، يبحث عن التوفيق أين ذهب » .

« انها المرونة السياسية التي افترقها زعماء أمم فتأودت بها وبهم » .

« وانها المرونة السياسية التي فطن لها زعماء أمم ، وارتفعوا بشجاعتهم الى مستوى التبعات العليا ، فنجوا بأنفسهم ، وبأمتهم ، وكسبوا مرضاة رب عظيم » .

بعدها بخمس سنوات يخرج لنا أحمد زكي بدراسته عن رايه في شخصية الزعامة فيكتب في (٦٩/٩) ليقول « إن شخصية الزعامة ليس فيها ما يوزن ، ولا ما يقاس ، وقد تقول من شروط الزعامة معرفة الرجال ، ومن شروطها درس ما يحيط بالرجال من احوال ، ومن شروطها قلة الثقة بما تسمع وترى ، ومن شروطها القسوة ترافقها للرحمة .. الخ » . ويترك الدكتور زكي التحديد في هذه المسألة التي لا تحتل التحديد أو لا تحتاجه .

قبل هذا وذاك يفرق الدكتور زكي بين الرئاسة والزعامة فيقول : (الهلال : ١٩٤٨/٧) « الفرق بين الرئاسة والزعامة كبير فكل رجل ذي كفاية معقولة يستطيع ان يترأس ، ولكن ليس كل رجل يستطيع أن يترزع ، ان الزعامة ارادة قوية مفروضة بقوتها ، وهي في قوتها لا تأتلف مع ضعف المشاورة القانونية ، وهي سريعة ، وهي في سرعتها لا تأتلف مع بطء التروى » .

« والزعيم الديمقراطي يضيق بالديمقراطية اذا هو نشب
اظفاره فيها ونشبت اخطارها فيه » .

ويحدثنا أحمد زكي عن العلاقة الغربية بين الزعامة والقانون
والديمقراطية وكيف تنمو هذه العلاقة وتدرج من رعاية الديمقراطية
للزعامة الى ذهاب الزعامة بالديمقراطية وهي ظاهرة واقعة لأحمد
زكي فضل تنبيهنا اليها على حقيقتها حين يقول : « ان الزعامة
مبناهما الثقة مع القانون ، أو الثقة على الرغم من القانون ، والناس
لا تعطى ثقتها للزعيم القوى فحسب ، ولكن للزعيم ذى الفكرة
القوية التى تخلق أفئدة الناس ، بما تتضمنه من رفع سوء قائم ،
أو جلب نفع شامل ، ولاسيما من تخليص أمة من نكبة وقعت فيها ،
وهذه الزعامة تبهأ عامة في الأمم الديمقراطية على الديمقراطية ثم
لا تلبث بطبعها ان تتجافى مع ما في الديمقراطية من ميوعة ومع ما
في الرأسمالية من انانية ، ومع ما في نظم زعموها للحرية من بطلان
وخداع فإذا بها دكتاتوريات يباركها الشعب » .

وكانت لأحمد زكي نظرية في الزعامة وتدرجها على المستوى
الشعبى من قاعدته الى قمته ، اذ كان يعتقد أنه لا بد أن تقوم زعامة
الأمم على زعامات عديدة في كل مجال من مجالات الحياة زعامة
البائعين .. والصانعين .. الخ) وهو يعبر عن هذا بقوله « زعامات
في الناس ألف من وضعية ورفيعة وأرفع » ويمضى الدكتور زكي
في تفصيل القول في نظريته هذه على نحو ممتع لا تستطيع عباراتنا
ان توجزه ، ولكنها تستطيع ان ترشد القارئ الى موضعه في مقال
الزعامة .

وننتقل مع الدكتور زكي من الجانب النظرى للزعامة الى الجانب
التطبيقي فتواجهنا مشكلة « عبادة الفرد » وقد حدثنا استاذنا في
هذه المسألة حديثا تحليليا رائعا في الجزء الثانى من حديث الشهر

« العربي : ابريل ١٩٦٧ » متخذا من ماوتسى تونج في الصين
مثلا .

واقرا اليوم في (١٩٨١) مقالات تناقش ظاهرة ماوتسى تونج
بعد رحيله بسنوات فلا أجدها تصل الى المستوى الرفيع الذى وصل
اليه مقال أحمد زكى فأترحم على الرجل .

وينبه أحمد زكى أن الروس ليس لهم (اليوم) مع التبعية
الجماعية ما كان لهم يوم تمثلت قواها في فرد نحوه اتجه حبها ،
وفيه انعقدت آمالها ، واليه ارتفعت أيديها تطلب اليه من طيبات
العيش والتقدم والتفوق على السلام أو على الحرب .

ويؤكد أحمد زكى أنه في هذه المسألة « لا يهزل ولا يناصر ،
ولكنه يسجل حالا شهدنا من صنوف البشر » .

ويرجع أحمد زكى السبب في ظاهرة عبادة الفرد الى حقيقة
هامة هى ميل الناس الى الشيء المجد دون الشيء المجرى ، ويزيد
توضيحا فيقول : « انك تحدثنى عن العدل وقيمة العدل ونفع العدل ،
والضرورة الاخلاقية للعدل ، والضرورة الاجتماعية له ، ولكن
افعل فى نفسى وابلغ أثره من ذلك ان تحدثنى عن رجل عادل ما صنع
وكيف صنع ، وكيف صرف أموره ، وحل عقدا عقدها الظلم بين
الناس ، وعقدتها الشراة ، وعقدها حب السيطرة والظلمة » .

« وانك تحدثنى عن الزهد والقنوت ، وافعل من هذا فى نفسى
ان تحدثنى عن حياة رجل زاهد قانت » .

« والفلسفة أسهل فهما عندما يتحدث بها أرسطو وأفلاطون ،
ولقد قال أرسطو نحو ألف قرن يسمى المعلم الاول ، حتى طرحته
أوروبا آخر الأمر وحرقت كتبه ، ومعها كتب ابن سينا وابن رشد -
والعرب اعرف بابن سينا وابن رشد - والفارابي من عرفائهم
بفلسفته » .

« والسيد البدوي احظى من الهيبة ، واكثر حظا من دعاء
الناس ، ودعاء الجماهير ممن هم فوقه علما وفوقه منزلة في طبقات
أهل الورع والتقوى من القديسين والصديقين والجماهير هناك
تتشفع به الى الله ، وكان أولى بالتشفع عند الله من قد رقد تحت
العتبة الخضراء في مدينة النور ، والسبب في ذلك ان السيد البدوي
واقع تحت انظارهم ولو رفات في مشهد به مسجد فهو شيء متجسد
ملسوس محسوس وهو غير بعيد . ووقع في روعهم ان الله عنهم
بعيد وغفلوا عن ان الله اقرب اليهم عن حبل الوريد ونسوا قوله
« والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » .

وينهى أحمد زكي حديثه هذا بقوله : « فهل أنا اشجب عبادة
الغرد ، بالطبع لا ، وكيف اشجب ماظلت الإنسانية تعبد منذ كانت
الإنسانية » .

لا ترى معنى انه ختام لبق يتفق مع رأى العالم الذى لم يفعل
شيئا الا أن وصف الظاهرة واصلا علميا !! ولكن اى وصف وى
تأصيل .

٥

ولكن ماذا كان موقف أحمد زكي من الديمقراطية . في اختصار
شديد كان أحمد زكي يراها أقل الوسائل ضررا .

فأحمد زكى ينظر الى الديمقراطية على انها وسيلة ، وعلى انها شكل وعنده أن العبرة ليست بالشكل ، ولكن بالجوهر ، وان الناس كثيراً ما تتخذ الاشكال لتهتدى ، وقد تهتدى بالاشكال حيناً ، ثم تتغير الظروف فيصبح الشكل قيداً تنقيد به العقول والافهام « من مقاله » « الحكم الصالح » الهلال : ٤٩/٦٦ ، ٠

ونستسمح القارئ في دقيقة من وقته نقرأ له فيها نظرية الدكتور زكى فى الحكم الصالح حين يقول انه يكون « برجال له صالحين ، يؤمنون بالله ويخافونه ، ويؤمنون بالناس ولا يخافونهم ، يصدعون بالحق في غير جفوة ، ويبثون الحب والطمأنينة ويفتحون في قلوبهم للخير باباً يدخل منه كل راغب في الخير ، والناس عندهم سواسية قرييهم والبعيد ، غريبهم والنسيب ، يبذلون من أنفسهم أكثر مما يبذلون لها ، وتلك صفات الاشياء ، وعز حاكم ان يكون نبياً » « ان الحكم الصالح هو الذى يرضى الناس به بدءاً وانتهاءً » ٠

انتهت الدقيقة ونعود بالقارئ الى قضية الديمقراطية فنجد الدكتور زكى في (العربى : ٧٠/١٢) يجعل عنوان مقاله « ديمقراطية مريضة » وهو مقال قيم من الناحية السياسية والاجتماعية هذا في جانبه النظرى ، اما في جانبه العملى فهو أنسب ما يكون قراءة لكثير من شباب العرب والمسلمين اليوم وغداً ٠٠ ولهذا فنحن نلخص محتواه الفكرى في النقاط التالية :

١ - « ان الديمقراطية لا تزيد رزقاً ، وانما عمل الفرد هو الذى يزيد رزق الفرد ، وعمل الجماعات يزيد رزق الجماعات . ولا عمل الا من بعد ثقافة ، ولا ثقافة الا من بعد تدريب والثقافة مشقة والتدريب أشق » ٠

هكذا يجزم الدكتور أحمد زكى في وجه الذين ينتقلون من عهد

استبدادية الى عهود ديمقراطية فيوحى لهم هذا الانتقال بان الحياة ستكون أيسر ، وان الرزق سيكون أوفر ، وأن مشقات العيش سوف تزول من الطريق . ويقول الدكتور أحمد زكى معلقا ان يكن في فهم الديمقراطية اخطاء ، فهذا الفهم من أكبر أخطائها .

١
فالديمقراطية انما هى جو ، وهى انما تهيء للعامل الجور الصالح ، ولكنها لاتنقص مما يجب العامل ان يبذل لبلوغ غاية .

٢ - ويبدى الدكتور زكى ضيقه مما تفعله بعض الحكومات الديمقراطية من تثبيت هذا الرأى عند الشباب ، عندما يعثرها العطف عليهم ، فلا يكادون يشكون ثقل مواد الدراسة حتى تعد الى تخفيفها .^{١٠} والهدف سياسى الا يتسم العهد الديمقراطى بكرامة الشباب ولكن النتيجة تكون في هبوط مستوى التعليم ، فيهبط مستوى العلم والفن والتكنية في البلاد ، وتنزل البلاد دون مرتبتها ، ولا تجد الأمة بعد ذلك بين العلماء والفنيين من أهلها الا العلم المستجدى والفن الضئيل .

ويضرب الدكتور زكى المثل على هذه النقطة بما يحدث في الآداب « فلا يكاد الشاب يفرغ من دراسة الثانوية حتى تراه يأخذ ينظم الشعر ويحاول ان ينظم قصائده قصارها والطوال فاذا هى لم تنشر عد ذلك تثبيطا لهم الشباب ، وهو لم يبلغ محصوله في الشعر أكثر مما حصل من دراسته ، وقد كان الشاعر القديم وغير القديم يخشى الشعر ان يقوله حتى يكون حفظ فيه الآلاف من الابيات واطلع على التواريخ والاحداث التى تفجرت بالشعر الرصين الخالد على السنين . »

ويمضى الدكتور زكى ليقول « وفي سبيل الخطف والتسهيل بتدعوا نوعا من الشعر سموه بالجديد » ويرى الدكتور أحمد زكى

أنه أحق بأن يسمى الديمقراطي ويصفه فيقول « لا تكاد تكون فيه قافية أو وزن ، وليس فيه طعم إلا ما ندر ، وطعمه إنما يكون لا بأنه شعر ، ولكن بأنه نثر » ويقولون لك أن الوزن قيد ، والقافية قيد ، والديمقراطية تأبى القيود ٠٠ وهكذا كما في الأدب في غير الأدب وفي سائر احتراف للحياة ٠

ويختم الدكتور زكي الحديث في هذه النقطة بقوله : « وهذا الذي يخطف ، اعتقاداً منه بأن الديمقراطية جاءت للتيسير لا للتعسير ، إنما يجنى على قومه ، فقيرهم وغنيهم ، وعلى فقيرهم قبل غنيهم ، يفتح باباً للمرض إذا هو استشرى لا تسده العقاقير ٠ »

٣ - ويتساءل الدكتور زكي « من قال أن حياة ما ، تكون بلا قيد على ظهر هذه الأرض » « أن جاذبية الأرض ضربت مثلاً للإنسان أن من القيود ما هو ضرورة لازمة للحياة » « وأنت تستطيع أن تكون حراً في حركتك أقصى الحرية وأنت على الأرض البسيطة ، ولكن مارس نفس هذه الحرية وأنت على حافة جبل ، وانظر ما يكون منها ٠ أنه الهالك المحقق » « أنها القيود وكدت أن أقول : » ولكم في القيود حياة يا أولى الألباب ٠

ويشرح الدكتور زكي طبيعة قيود الديمقراطية بقوله « والفرد حر أن يفعل بنفسه ما يشاء ، عن علم أو عن جهل ، وقد يكون في بعض حريته هذه الدمار » وتزيد القيود إذا اجتمع فرد بفرد وتزيده إذا اجتمع فرد بالفرد أنه المجتمع ، ينزل فيه كل عن قسم من حريته حتى لا تضيق بصاحبه ساحة هي أيضاً نصيبه من الحرية ، وهذه كلها معان ليس فيها جديد ٠

٤ - والدكتور أحمد زكي مع القول بأن الديمقراطية لا تجوز ولا تصح ولا تنجح إلا في المجتمع الواعي المتربى المثقف ذلك لأن

علاقة الفرد بالمجتمع وعلاقة المجتمع بالفرد وعلاقتها جميعا من حيث قيام الدولة ، قوية ذات نظام ، علاقات تجل عن فهم السواد في الأمم التي لاتزال على فطرتها الوحشية الاولى .

٥ - ومن عيوب الديمقراطية الناشئة الفهم الخاطئ لفكرة المساواة ، وسنفصل القول في هذه المسألة بعد حوالى ربع ساعة في بند خاص من بنود هذا الباب .

ونعود مع استاذنا الدكتور زكى الى عدد (فبراير ٤٧ - من « مجلة الهلال » لنقرأ له تحت عنوان « عندنا دكتاتوريات مقنعة » عبارات صريحة في مسألة الديمقراطية والطبيعة البشرية اذ يقول : « ان الديمقراطية ليست من طبيعة البشر ، لأنها تتعارض وما في الناس من غرائز اقتضاها طلب الحياة على أرض فيها النجاح كفاح فالكفاح يتطلب القوة ، والقوة تدعو الى الأثرة ، والى الغلبة ، ومادام هناك غالب فلا بد من مغلوب ، ومادام هناك سيد فلا بد من مسود ، ومن أضحك الديمقراطية التي تسرى بين الناس ، ان نداء الخطاب لايزال يحمل معنى السيادة : فالانجليزى يقول مسستر ، والفرنسى يقول ميسيو ، والالمانى هر ، والتليانى ستيور ومعناها كلها سيد والشرقى عند الخطاب لا يتجه به الى من يخاطب ، ولكن الى المكان الذى حل فيه ترفعا عن ان يمس الذات الكريمة بلفظة من لسانه فهو لا يقول : أنت ولكن : حضرتك ، ومن الحضرة ينتقل للكلام الى الذات فرضا ، » .

وينبه احمد زكى في هذا المقال الى ان الديمقراطية ليست بالأمر الهين يكتسب بسهولة ، وانما هى جهاد طويل ، تعليم وتدريب وتمرين ، ولعله حين ينبه الى هذا يجيب في فترة مبكرة على المحاذير والتوقعات التى يتوقعها المفكرون من الأمة التى تجرب الديمقراطية فتفشل معها في المرة الاولى فتتركها بلا عودة ، وهذا ما حدث في كثير

من الفترات في الأمة العربية • انظر الى أحمد زكي ينظر بمنظار يخلق حجب الزمن ويقول : « ان الديمقراطية كالمدينة تكتسب اصطناعا ، وهي تكتسب بالتعليم والتدريب والuran الطويل ، وهي لا تخلق في يوم وليلة ، أنها تاج تتوج به المدينة في أرقى مدارجها ، والديمقراطية عمادها المساواة ، فان لم تكن مساواة ، فتقارب كالمساواة ، والمساواة مساواة علم ، تنتهي غصبا بمساواة مال • ومصر والشرق أبعد ما يكونان عن مساواة في علم أو مال ، فالديمقراطية الصحيحة فيها لا يمكن أن تكون حقا وصدقا ، ستظل ديمقراطيات الشرق ديكتاتوريات مقنعة حيناً طويلاً ، يقود فيها صحيح البصيرة أعورها ، ويقود أعور البصيرة أعماها ، والأعمى والأعور لا يستطيعان في الحياة الا انقيادا » •

والسألة إذن تكمن في الوعي السياسي وهذا هو ما يؤكد عليه أحمد زكي في مقالين كبيرين « نكروى الخامس من حزيران وما بعد الخامس من حزيران » (يونيو ١٩٦٧) ، و « الصفقات السياسية (أغسطس ١٩٧٠) بكل ما أمكنه من وسائل التعبير »

ونكرر هنا قول الدكتور زكي في (الهلال : ٤٩/١١) « ان العبرة ليست بالشكل ولكن بالجوهر ، فمن الدكتاتوريات دكتاتوريات حبشية صالحة •• ومن اليمقراطيات ديمقراطيات كربية ظالمة ، ووجدت دكتاتورية هي أقرب الى الديمقراطية بمعنى تلك الأصلية » •

ولكن ما هو الوعي السياسي « انه شيء عظيم ، ولا يمكن أن تقوم ديمقراطية أو يقوم حكم سليم والناس لا وعى لهم ولا ثقافة فيهم • ان شكوا الظلم ، وشكوا الاجحاف فالظلم أسبابه فيهم •• والاجحاف يبدأ حيث يبدأ الجهل ومع الجهل قلة الدراية والفتنة » •

ويزيد الدكتور زكي هذه النقطة ايضاحا في مقال يونيو ١٩٦٧
فيقول - مشيرا من بعيد او من قريب الى احوال بلاد عربية : « فمن
ضياح الوعي في الأمة :

- ١ - ألا تعي أنها أمة واحدة .
- ٢ - الجهل في شأن الدنيا والدين .
- ٣ - خشية الرأي الحر يخشاه الكاتب والحاكم .
- ٤ - استمرارها في تخلفها .
- ٥ - ميلها الى الخرافة وتصديق الخوازيق من الاحداث .
- ٦ - نجاح قوم في السعي بالريية حتى يصبحوا يرتابون في كل
ما يكسبهم القوة والعزة بين الأمم .

ويلخص أحمد زكي فكرته في هذا المقال فيقول قرب نهايته «ومن
المشاكل التي تواجه الأمة العربية بعد حزيران الحكم للشعب هو أم
لغير شعب ؟ وكم لشعب ؟ وكم لغير شعب ؟ أم هو كله للشعب ؟ .
ونعلم ان الحكم كمحرك السيارة يتجه بها ألف اتجاه ، وقد يتجه
بها الى العطب عن عجز أو سوء قيادة » .

من ناحية أخرى ينتهز الدكتور زكي حديثه عن رحلته في لندن
في صيف ١٩٧١ ويأخذ يعال سيادة الديمقراطية عند هؤلاء القوم
فيقول : ويرجع هذا لاشك الى أن هؤلاء الناس من خطيب في الجمع
وسامع أو كاتب نشأوا على معان للديمقراطية ألفوها كما ألفوا
الهواء والماء ولكنه يرجع على الأكثر الى الوعي السائد في هذه
الشعوب الذي كان من حصيلته الحرية وهو يرجع الى اللاتورية
التي اختفت منذ زمان ، والى ممارسة أحداث من الزمان كثيرة كان
فيها الحل وفيها المر والى الفوائد المكتسبة من خيرها الأيام سودها
والبيض ، فما جاءت الديمقراطية مهداة فوق طبق من ذهب » .

بقيت نقطتان في موضوع الديمقراطية •• النقطة قبل الأخيرة هي اعتزازه بالصورة الديمقراطية التي في ديمقراطية البادية العربية وهي ما عبر عنه في حديث الشهر (إبريل ١٩٦٧) حين كتب عما رآه من مشاركة أمير الكويت للشعب في « رقصة العرصة » في عيد الاستقلال إذ قال « والديمقراطية قد يدعيها من الأمم من يدعى ، ولست أجد ديمقراطية فيها أصالة الطبع كديمقراطية العرب ، تلك التي يحلو لى أن أنسبها الى أصولها الأولى ، فأسميها ديمقراطية البادية ، ان الذين يدعون الديمقراطية كثيرون ولكن ليس كديمقراطية نزل فيها النازل مع الناس ، يمتزج بهم في أسواقهم ، ويشاركهم في مفارحهم ومحازنهم ، وإذا حان وقت الطعام جلس معهم الى قصاعتهم » •

أما النقطة الثانية فهي أروع ختام لموضوع الديمقراطية « ان الديمقراطية جميلة ، ولكن غير الجميل ان يكون الناس غير ديمقراطيين يدخلون الديمقراطية بمفاهيم غير ديمقراطية ، ومع هذا فدخولهم الديمقراطية حتى بهذه المفاهيم خير من ألا يدخلوا • أنها الديمقراطية المريضة ، ولكن الامراض لا تدوم وما خلقت العقاقير الا للدواء والشفاء » •

٦

لعل في أفكار الدكتور أحمد زكي عن المساواة أكبر متعة فكرية للذين يريدون الاستمتاع ببنات أفكار هذا العالم الكاتب المفكر الأديب •

على أن وضعنا للمساواة في هذا الموضع بعد الحديث عن الديمقراطية في البند السابق وقبل الباب الثاني الذي يتناول ان شاء

الله مفهوم الحرية في فكر أحمد زكي ليس وضعا عشوائيا وإنما هو
متعلق أشد التعلق بطبيعة أفكار أحمد زكي في مسألة المساواة .

فأحمد زكي عدو للمحسوبية ، ويطالب بالاستحقاقية بدلا
طبيعيا عنها ، وهو يؤمن بالمساواة ولكنه يحدد ، فهو يؤمن بالمساواة
في الغرض ، لا في توزيع النتائج .

ودعنا من الفاظنا لننقل أفكار وفقرا ت أحمد زكي في هذا الشأن
وقد خصص حديث الشهر « نوفمبر ١٩٦٧ » لهذا الموضوع وجعل
عنوانه عنوانا على الأفكار التي ناقشها فيه . « المساواة ؟ نعم ..
ولكن في أي شيء » ، وقد أسهب ، في المقدمات التاريخية التي قدم
بها للموضوع ، مناقشا قضية المساواة على امتداد التاريخ وأكد
على الحقيقة التي قد تغيب عن الأذهان « أن الناس ولدوا مختلفين
لا متساوين » ويتحدث عن المساواة في القانون فيقول أنها يجب أن
تكون في القانون وأمام القانون « والعدالة لا تكون في الاجراء وحده ،
ولكن على الأخص فيما تقضى به القوانين ، فالعدالة لا تبدأ عند
القضاة في المحاكم ، ولكن عند واضعي القوانين ، وما على القاضي
الا صحة التطبيق » .

ويتعرض للمساواة السياسية فيسخر من أن تكون عند الانتخاب
نقط ، ويؤكد أن العنصر الأول في المساواة الاجتماعية هو المساواة
في الكرامة الإنسانية ، فكل ما خلق الله كريم ، ومنها أن لا يكون
قوم يقال لهم أنهم السادة وذلك لأن أباءهم كانوا سادة .. ويشير
الى أن الطبقية جاءتنا من الغرب بينما العرف العربي والدين العربي
أعطيا للناس في ميزان الكرامة الإنسانية اقساما متساوية « فعمر
ظل عمر ، وأبو بكر ظل أبا بكر ، ولم نسمع برفاعة بك وعلى باشا
مبارك الا في القرون الحديثة القريية ، ومع هذا ظلوا فلاحين

يفترشون الأرض ويحصون أعواد القصب في الحقل مع الاعيان من أهل القرية والاصحاب » .

أما عن مبدأ « الاستحقاقية تهزم المحسوبية » فيحدثنا أحمد زكي فيقول : « انهزام المحسوبية معناه انهزام الطبقة بمعناها القديم لا بمعناها الحديث ، اعنى بمعنى الاستقلال . ان مصالح الدولة الحديثة تعددت ، وواجباتها تكاثرت واختلفت رجوه الانتاج التى اتولاها ، والخدمات وعن احصاؤها » .

« والمحسوبية تصنع الرجل غير الصالح حيث يفسد العمل به انتاجا كان أو خدمة عامة ، والرجل الصالح يؤخذ من القصر كما يؤخذ من الكوخ . من بيت الوزير ومن بيت الخفير » .

ويضرب لنا الدكتور أحمد زكى مثلا يقرب به الى الاذهان فهم رؤيته للمساواة فيقول « اننا لا نستطيع اذا جمعنا بين الماء والزيت ان نمنع الزيت من ان يرتفع فوق الماء » .

وجوهر فلسفته في المساواة ان الناس تبدأ عند خط سباق واحد ، ولكن لا ينتهى السباق الطويل على السنين الا وقد اختلفت النتائج ، ومع هذا تقارب بين الخطوط يكون بالمنح التى تزيد فى التأخى ، وهى نوع من الشكر لله يبذله من ميزه على ما خصه به وحياه ، ولأن ننسى ابدا ان نصيب الفرد منا من نكاء وغباء هو أيضا بعض حظوظ ميلاد .

ومن هذا المنطلق يعارض أحمد زكى « المساواة المطلقة » . خلاصة رايه فى هذا سجلته كلماته الاخيرة فى مقاله « أمانة » الذى نشر بعد وفاته (فبراير ١٩٧٦) حين يقول « المساواة المطلقة اذا ، أو بدأناها ، مادامت » .

وحقوق الناس الظاهرة في المساواة المطلقة ، سوف يعارضها حقوق أخرى ليست أقل ظهوراً ، تلك هي حقوق العمل ، والقدرة على العمل ، والذكاء في العمل ، والعرق الصبيب الذي يتصبب من جبهته ومن ابطنه عند العمل » .

« وهذا أمر لا خلاف فيه وإن اختلفت المذاهب » .

أما تفصيل هذه النظرة فتجده في فقراته التي كونت الحقيقة التاسعة من الحقائق العشر التي اعتبرها أحمد زكي سبب تخلف الشرق في مقاله « حقائق عشر عن تخلف الشرق » حديث الشهر العربي (١٩٧٣ / ١) حيث يقول أحمد زكي :

« وأكثر الناس ، وأعنى المحرومين خاصة ، يطلب المساواة في ثمرات الحياة ، وهو لا يحدد ، أو لا يتحدد في ذهنه الحدود التي إليها يصل . أنه فقير ، فهو في حاجة إلى مال ، وجاره غنى ، فعنده فضل من مال . أو هكذا هو يخال . وأذن فليقتسم » ويعلق أحمد زكي على هذه الوجهة بقوله « هذا كلام قد يؤذن به أن يأتي من فرد في ضيق ، وقد يكون قولاً مرتضى في حالة ما ، ولكنه كلام لا يؤذن به أن يأتي من رجل من رجال دولة مستول ، والسبب في ذلك عنده يوضح لنا نظرته العلمية الدقيقة والعميقة إلى المساواة : « فليس بهذه السهولة تعالج العلاقة ما بين الفقر والغنى ، فلو أن قوماً فعلوا هذا يوماً ، في حى ، لتحول القوم وشيكا إلى قوم جياع عراة ، أن المجتمع الانساني أعمق من هذا وعلاقته الف ، أن اتضح لنا بعضها فحقى علينا منها الأكثر ، وثروة الناس ليس ما يملكون ، وإنما ثروتهم ، ثروة الغد ، هي ما اختزنوا في عقولهم من فن ، وفي أدمغتهم من مران ، وما هم قادرون على إنتاجه لو أن ثروة اليوم

اطاح بها كلها حريق ماحق شامل والى جانب القدرة والموهبة العقلية الحوافز القلبية » .

« فالمجتمع الانساني لا يعالج هكذا بالسكين ، بهذه البساطة . ان الفقير العاجز له حق على الغنى القادر لا شك في هذا ، ومن اول حقوقه ان يقيمه الغنى على رجليه فيعطيه القدرة على الكسب . الصحة عند الولادة ، والطعام والكساء حتى يكبر وحق التعليم ، وحق الاحتراف او الامتھان ليعمل ، وكل هذا بالمجان في المجتمع القادر ، ثم ينزل في المعترك يجاهد ويصارع . المساواة بين الفقير وغير الفقير فنعم ، ولكنها مساواة في فرص الحياة . ويدخل الكل ميدان العمل فيحتلون فيه بحكم الطبع وبحكم الذكاء والموهبة مراتب شتى ! ولن يكونوا ابداء كاسنان المشط ، كلها سواء » .

وهذا هو معنى المساواة عند أحمد زكي . مساواة في الفرص . وبعد هذا فالموهبة تعمل عملها في وضع الناس في مراتبهم ودرجاتهم ، ولكنه لا يقف عند هذا الحد من هذه المساواة ولكنه يفهم عاملاً ثانياً يأتي بعد هذا : « ومع هذا فالمجتمع الكريم ينظر الى حظوظ العاملين ، ويعلم أنه الى جانب المزايا الطيبة تعمل الاقدار فهو بالغرائب يقارن بين هذه الحظوظ » .

هذا هو جوهر الحقيقة التاسعة من الحقائق التي تحدث عنها أحمد زكي . في حديث الشهر (١٩٧٣/١) والتي خصصها الدكتور مناقشة معنى المساواة . ثم أردفها بالحقيقة العاشرة التي حذر في نهايتها من اللعب على اوتار التفرقة بين طبقات الشعب المختلفة تحت أي دعوى ، « ان الدولة هي العاملون فيها ، وان يكن للدولة معنى روحى فكل العاملين فيها هم ابناؤها . وانباء الدولة الواحدة أخوة . لبسوا الاقمصة الزرقاء او الاقمصة البيضاء . وكلهم لهم

على الدولة السعة والرخاء ، توزعها بينهم سوية من فضل ما يعملون ، والذي يرفع من مرتبة أزرق فوق أبيض ، أو أبيض فوق أزرق إنما يدق في كيان الدولة لاسيما المتخلفة الأسافين » *

ويؤكد الدكتور أحمد زكي بهذه المعانى ما سبق ان تحدث عنه في حديث الشهر (٧٠/١٢) بعنوان « ديمقراطية مريضة » حين هاجم مبدأ المساواة يطالب به بعض الذين يفهمون الديمقراطية فهما خاطئا فقال « ان المساواة في الفرص لابد ان تفتح الابواب لكل دارس، وكل طالب ، وكل مجتهد ، لا يعوق أحدا عن ذلك فقر أو وضاعة نسب أو فقدان جاه » * وعبر في عبارة أوضح فهما فقال : « الناس في الداخل سواسية ، ولكنهم غير سواسية عند الخروج لا فيما حصلوا ، ولا فيما يجب ان يرتزقوا * نعم تتقارب الارزاق ، ولكن لا تتساوى » *

ويضرب مثلا « بروسيا حين بدأت بالمساواة في الأجر رغم اختلاف المحاصيل التي حصلها العمال من دراسة ومن تدريب ثم تبين لها الخطأ الأكبر في ذلك ، فما أسرع ما قضت بغير ذلك ، لا يأخذ أحد ما دون الكفاية ، وهو الأجر الأدنى للمعامل ، كأننا من كان * أما فوق ذلك فيكون بمقدار الكفاية الفنية والتحصيل » *

وكذلك المراتب لابد فيها من التمييز (ولكن هذا الفهم يعوز أهل الديمقراطيات الناشئة ، وهو قه يعوز العامل الصغير والعامل الكبير على السواء ، فتكون الطامة أكبر » *

- ١ - « عندنا دكتاتوريات مقنعة » .. الهلال : فبراير ١٩٤٧ .
- ٢ - « حب الاوطان » .. الهلال : فبراير ١٩٤٨ .
(الفصل السابع عشر من ساعات السمر)
- ٣ - « الدنيا في حاجة الى زعيم » .. الهلال : يوليو ١٩٤٨ .
- ٤ - « الحكم الصالح » .. الهلال : نوفمبر ١٩٤٩ .
- ٥ - « حاجة الناس الى الزعامة » .. الهلال : ديسمبر ١٩٥١ .
- ٦ - « رابطة الثقافة أقوى من رابطة السياسة » .. الهلال : ديسمبر ١٩٥٣ .
- ٧ - « المسخف السياسى فى السياسة الدولية » العربى : مارس ١٩٥٩ .
- ٨ - « التقى العاملين » « وتنفس العالم الصعداء » العربى : نوفمبر ١٩٥٩ .
- ٩ - « حرب أم سلام » العربى : اكتوبر ١٩٦١ .
- ١٠ - « الديمقراطية حكم الناس بالناس » العربى : فبراير ١٩٦٢ .
- ١١ - « كادت الحرب أن تندلع ولكن الله سلم » العربى : فبراير ١٩٦٢ .
- ١٢ - « الحقوق انما تؤخذ فى هذه الدنيا غلابا » العربى : يناير ١٩٦٤ .
- ١٣ - « الديمقراطية اتخذت منها دول الارض ، زورا ، اقبا محببا الى الناس » العربى : يوليو ١٩٥٦ .

- ١٤ - « الوحدة العربية ليست شعارا يصرخ به الصارخون ليحجب الحقائق المرة حتى تفضحها الايام » العربي : مارس ١٩٦٦
- ١٥ - « اصداء واجواء .. الاحداث العربية اصداء لاحداث الدنيا » العربي : مايو ١٩٦٦ .
- ١٦ - « دنيا البيض ودنيا الصفر والسمر والاسود » العربي نوفمبر ١٩٦٦ .
- ١٧ - « ديمقراطية البادية اسدق الديمقراطيات » العربي : ابريل ١٩٦٧ .
- ١٨ - « عبادة الفرد » العربي : ابريل ١٩٦٧ .
- ١٩ - « عقل الانسان ميزان غير ثابت على الزمان » العربي : يونيو ١٩٦٧ .
- ٢٠ - « المساواة ؟ نعم .. ولكن في أى شىء » العربي : نوفمبر ١٩٦٧ .
- ٢١ - « قصة فيتنام ، مأساة من مآسى الحياة الدولية اذنت باختتام » العربي : مايو ١٩٦٨ .
- ٢٢ - « أزمة الملونين » العربي : يونيو ١٩٦٨ .
- ٢٣ - « اشتد أزمة تنفجى » العربي : فبراير ١٩٦٩ .
- ٢٤ - « القبعة تغيرت وظل الرأس واحدا لم يتغير » العربي : ابريل ١٩٦٩ .
- ٢٥ - « القوة القوة .. سياسة الأمم لا تعرف غير القوة » العربي : يوليو ١٩٦٩ .
- ٢٦ - « الزعامة والزعماء : الزعامة بعض طبائع الاشياء » العربي : سبتمبر ١٩٦٩ .

- ٢٧ - « الصفقات السياسية » العربى : أغسطس ١٩٧٠ .
- ٢٨ - « ديمقراطية مريضة » العربى : ديسمبر ١٩٧٠ .
- ٢٩ - « لندن في صيف ١٩٧١ » العربى سبتمبر ١٩٧١ .
- ٣٠ - « الزعامة والزعماء » العربى : أغسطس ١٩٧٢ .
- ٣١ - « حزبان ولكن » العربى : سبتمبر ١٩٧٢ .
- ٣٢ - « حقائق عشر عن تخلف الشرق » العربى : يناير ١٩٧٣ .
- ٣٣ - « من أين وإلى أين يارجال العرب » العربى : أبريل ١٩٧٣ .
- ٣٤ - « منطق الحوار ومنطق القوة » العربى : يوليو ١٩٧٣ .
- ٣٥ - « اختلاف الراى في سبيل الخير غير اختلاف الراى عن خبث ومكر » العربى : مايو ١٩٧٤ .
- ٣٦ - « هيئة الأمم المتحدة تركت الكرة في الميدان ، وجنست تشهد اللعب مع المشاهدين » العربى : أغسطس ١٩٧٤ .
- ٣٧ - « ميكافيلى السياسى الذى لعنه السامة » العربى : فبراير ١٩٧٥ .
- ٣٨ - « الحرب والسلم بينهما فرق شعرة ، هى الموت والحياة لآلاف من البشر » العربى : أبريل ١٩٧٥ .
- ٣٩ - « لا صلح بين الزعماء اذا لم يتبعه صلح بين الشعوب و صلح الشعوب اعصى » العربى : يونيو ١٩٧٥ .
- ٤٠ - « قالوا المصلحة أولا ، وقالوا أما العواطف من تراحم ووه ، ومن صداقات وحب فأشياء عفى عليها الزمان ، وبئس ما قالوا » ، العربى : نوفمبر ١٩٧٥ .
- ٤١ - « أمنية » العربى : فبراير ١٩٧٦ .

الباب الثانى

الحرية فى تفكير احمد زكى

يطلبون الحرية والأصل فى الحياة القيود

كان احمد زكى رحمه الله يولى قضية الحرية ومعناها النظرى والتطبيقى أهمية خاصة ، وكان يركز على حسرية الراى ، متى تباح ؟ ، ومتى تحظر ؟ ، ولماذا ؟ وكان يحلل علاقة حرية الفكر بحرية لقمة العيش ، ويفيض فى تحليل هذه العلاقة ، وكان يتحدث عن دور الحرية فى العلاقات الدولية ، فيضع المفاهيم العلمية والواقعية من أذهان الناس موضعها الصحيح ، وكان يتناول بالشرح والتحليل حريات الانسان فى العصر الحديث والتطور التاريخى لتحقيقها على النحو الذى أتت به الثورات مستخلصا بهذا العبرة فى بناء كيان الدولة الحديثة .

وعن هذه الأمور الخمسة التى تتعلق بمعنى الحرية ، وبحرية الراى ، وعلاقة حرية الفكر بلقمة العيش ، ودور الحرية فى العلاقات الدولية ، وتاريخ حريات الانسان سيكون هذا الباب من هذا الكتاب .

١

منذ الأربعينات يؤمن احمد زكى ايمانا راسخا بأن الانسان اذا ولد بدت مع مولده القيود ، قيود البيئة درى بها أو لم يدرك .

وفي مقاله «سلاسل وأغلال» (الهلال ١٢/٤٨) يستنكر الدكتور أحمد زكي قول القائلين « أن الناس يولدون احرارا ، وان الشقى يجنى على نفسه الشقاء حرا طليقا ، وأن السعيد يكسب لنفسه السعادة حرا طليقا » ، ولكنه يرى رأى روسو فيلسوف فرنسا الشهير ان الرجل يولد حرا فاذا مشى في الأرض أثقلته الاغلال : « ودرت أمشى في الارض ابحت عن اغلالها ، فوجدت فى كل طريق قيда ، ان الرجل منا حر له ان يأكل أو لا يأكل ، ولكن هذا لايتأتى الا أن يكون طعام . وهو حر له أن يشرب على أن يكون شراب ، وهو حر أن يزرع ليأكل ، على أن تكون أرضه ، وهو حر أن يعمل ويكتسب قوت يومه ، على أن يكون عمل ، وهو حر أن يتعلم ، على أن تكون في جيبه نفقة ذلك » .

واختصارا سنخلص الى النتيجة التى خلص اليها أحمد زكى في مقاله « بين الحرية والكسب » حديث الشهر ، العربى ، يوليو ١٩٧٢ حين يقول : « أن الذين قالوا : ان الناس ولدتهم امهاتهم احرارا ، انما عنوا أنهم ولدوا متاهلين للحرية ، يكتسبونها ، أول مايكتسبون بالكسب » .

وبين الرايين سنفرد دعوس أفكار أحمد زكى في مفهوم الحرية ومعناها ، ملخصين ماأفاض فيه أحمد زكى الحديث فى عدد من المقالات والاحاديث وبخاصة مقاله « يطلبون الحريات والاصل في الحياة القيود » حديث الشهر ، العربى ، أبريل ١٩٧١ :

١ - فالاصل فى الحياة القيود . وهذا يجب ان يكون واضحا فى اذهان الذين يطلبون الحرية .

٢ - والانسان مقيد قبل ان يولد (لاحظ ان القيد هنا امتد الى ما قبل الميلاد ، ماعلاقة ذلك بتطور تفكير احمد زكى فى هذه

المسألة ؟) وبعد أن يولد والى أن يموت ويضيق بالقيد ، فيطلب الحرية مع القيد .

٢ - وما التقاليد الا قيود تعين الناس على حمل اثقال الحياة .

٤ - والانسان مجبور مختار ، كالسجين فى رجليه القيد ، وفى رجليه مع القيد الحركة المحدودة .

٥ - الجاذبية أول القيود التى تمنع الحرية .

٦ - واللغة بعدها قيد ، فالانسان اذا عرف لغته هذه فانما انتمى ، وقد كان قبل اللغة انسانا مطلقا ، قصار انسانا عربيا أو هنديا أو روسيا ... صار صنفا من الناس والتصنيف قيد .

٧ - والاسرة بتعليمها اللغة للطفل انما تبدأ بتشكيل شخصيته والتشكيل قيود .

٨ - والتقاليد قيود لانك لاتستطيع ان تخرج عليها ، ولست حرا فى أن تسلك فيها أى مسلك تشاء ، هى راحة وهى قيد فى آن واحد .

٩ - حل مشكلة الجبر والاختيار : ان الجبر يكون بالدخول غصبا فى زنزانة الحياة ولكن فى الزنزانة حركة تجريها إرادة حرة ، فهذا مانريده عندما نقول ان الحياة اختيار .

١٠ - النظام لا يكون الا بقواعد ترسم وقوانين . وكل قاعدة قيد وكل قانون كذلك .

١١ - وإن تكن القيود طبعاً ، فالتحرر من القيد كذلك طبع في الإنسان فهما طبعان يتزاحمان ، كما يتزاحم الحلم والغضب والحب والكرد والشجاعة والجبن في قلوب الإنسان .

١٢ - ومن الناس من يطلب التحرر من الحكومات جميعاً وتلك هي الفوضى ، ولها مذهب معروف ويعرف أصحابه بالفوضويين ولنا منهم .

وفي الشهر التالي (مايو ١٩٧١) يحدثنا الدكتور زكي ، في حديث الشهر ، مجلة العربي ، في ذات الموضوع ، ويجعل عنوانه « ما وجدت الحكومات إلا لتحصى الحريات » ، وهو هنا يحلل التعارض من الظاهر عند الناس بين الحريات المطلقة ، والحريات عندما تقيدها الحكومات ، ويتحدث عالمنا عن النوازع الانسانية ، وضرورات الحياة ، وطبيعة مناشطها ، ورغبات الناس ، وأهدافهم المتعارضة ، يقدم بذلك كله للقول بحاجة الناس الى حكومات لتحصى الحريات ، وحاجة الحكومات الى قانون ينظم لها هذا الدور ، أو بوجوب وجود القانون ، ووجود قوامين على هذا القانون ، وفي الفقرة الثانية ذات المعنى سالكاً مسلك القانون هاتحكومات ، ولا بأس عليك ولا على المعنى .

« ان الذي دعا الى وجود شرطة أو حكومة ، انما هو حاجة المجتمع الى تنظيم وهو تنظيم يفرض على الناس الفروض فهو بذلك يزيد في القيود . ولكنها قيود تقيد سلوك الفرد حتى لا يعتدى على حرية الغير . انى لو اطلقت لنفسى حريتى ، وكنت انا القوى وأنت الضعيف لمددت سلطانى فى هذه الارض حتى لا يكون لك رقعة تعيش فيها ، فالقانون يتدخل ليحد من حريتى ، لاشك فى هذا ، أو بعبارة أخرى هو يقيدنى . ولكن فى حدود نصيبى من الحرية . حتى يحفظ لك أنت الضعيف نصيبك منها » .

« اذن وجب ان يكون قانون - وأن يكون لكل مسسلك من مسالك العيش قانون . ووجب ان يكون على القوانين قوامون ، فتلك هي الحكومات من شرطة وادارات . ونجمع كل هذه المسالك وكل هذه القوانين والقوانين عليها وأشستاتا أخرى من مرافق الحياة في المجتمع ورجالا ذوى مناصب صغيرة وكبيرة عديدة ، فذلك هو الكيان الضخم الذى نسميه بالدولة » .

ويستطرد الدكتور أحمد زكى استطرادا مطلوبيا ، يحدد فيه ضرورة الشرطة ، ضرورة القوة لقيام الحكومات .

« ولكن الحكومة صاحبة القانون لاتقوم بغير قوة . ولهذا كان لابد لها من قوة شرطة ، وقوة جيش والجيش اصلا ليحمى الحدود ولكنه كذلك ليدعم الشرطة اذا عجزت عن حماية القانون والقائمين على حماية القانون . وتسال ممن يحمون القانون ؟ ونجيب : من تلك الطوائف من الشعب التى لاترضى من الحرية الا بالقسمة الجائرة ، الكثير لهم ، والقليل لغيرهم والذين يعبر عنهم المتنبى بقوله :

« والظلم من شيم النفوس »

فان تجد ذاعفة قلعه لا يظلم »

ويعالج الدكتور أحمد زكى مسألة التوازن بين حرية الفرد وأمن الجماعة بشيء كبير من تأييد الموازنة بينهما ، فان يكن من تفضيل فلأمن الجماعة ، ولكن فى حدود ، هذا هو لب رأى أحمد زكى فى المسألة ، وعبارته فى مقالة (اغسطس ١٩٦٩) تقول : « فالإنسان فى الجماعة لابد أن يأخذ لأنانيته وأن يعطى منها واذن وجب ان يكون لهذا الإخذ والعطاء تنظيم ، يدرك منه الإخذ والمعطى من قبل أخذ وعطاء ، ما يأخذ وما يعطى ، وكم يأخذ وكم يعطى » .

ويحظى موضوع الشرطة من الدكتور / احمد زكى باهتمام خاص ، فيخصص له مقالا تحت عنوان « رجال الشرطة بين حرية الفرد وسلطة الجماعة » (العربى : ١٩٧١/٨) ، والشرط الاكبر من « الافتتاحية الاخيرة العربى ١٩٥٨/١٢ ، ونراه يكتب فيعمل طبيعة العاطفة السائدة بين الجسور والشرطة عاطفة قلة المحبة والود ، فيرجع ذلك الى ان « الشرطة كابحة والحرية ترفض الكبح ، ويمضى في تفصيل ذلك فيقول : « وحتى لو رجع الانسان الى حقيقة عمل الشرطى ، وادرك انه يحمى المنزل من السرقة ، ويحمى النساء من الاعتداء ، ويمنع الحى من اضطراب يقوم فيه ، لكانت حصيلة هذا التفكير احتراماً يكتسبه رجل الشرطة بين مواطنيه ، ولكنه قلما يبلغ فى المحبة ، لاسيما عند العامة ، الدرجة الواجبة ، وهو قد يبلغ هذه الدرجة عند الفلاسفة ويبلغها اصطناعا بحكم الفكر لايحكم العاطفة المرسلة » .

وعلى لسان احد محدثيه يكتب الدكتور زكى فى آخر مقالاته منبها الى أهمية « الأمن » فى المجتمعات ، والدور الذى لابد للشرطة من القيام به فيقول : « ان هذه المدنية الحاضرة ، بل أى مدنية أئمن ما فيها الأمن بين الناس ، الأمن من غوائل الأقوياء والقوانين التى تخطط لذلك لاقبلة لها الا أن يقوم الى جانبها شرطة تهابها الناس ، وقضاء له النزاهة ، وله من الناس الاحترام ومع الاحترام الخضوع » . على لسان صالح بن عبد القدوس .

ويمضى فيقول : « ان الجرائم الانسانية تكاد ترد جميعا الى الاعتداء بالقوة ، والشرطة هى مانعة الاعتداء فى الامم ، والقضاء من ورائها يؤكد عدل الشرطة بين الناس ، وفساد الدول يبدأ عادة بفساد شرطتها وذهاب حيطة القضاء ، والحاكم الفرد المستبد يطلب من أول وسائل حكمه السيطرة على الشرطة والقضاء » .

وان يدرك الدكتور زكى هذه الاهمية المتزايدة للشرطة فانه ينادى بضرورة تهيتها لقيامها بهذا الواجب ، ويتفرع الدكتور زكى - وتتفرع معه - من مناقشة الجانب النظرى فى مسألة الشرطة على المستوى الانسانى لننقل عنه فقراته التى يدعو فيها الى الاهتمام بتنفيذ الشرطة ، وبترقية الشرطة : « ان الشرطة أداة للتنفيذ ، وهى أوامر مجملة ، يظهر اجمالها عند التطبيق فى المواقف الحاسمة مهما احتوت تلك الاوامر من تفصيل وتفصيل ، فكثيرا ماتكتشف المواقف عن تفاصيل لم ينتبه لها عند الصياغة حتى صانعوها . ويكون المعول بعد ذلك على رجال الشرطة أنفسهم . يترجمون ما غمض هدفا ويقدرّون . وهنا لابد لرجال الشرطة من ثقافة كافية . لايكفى أن نأتى بالرجل من الحقل أو من الصحراء لنصنع منه رجل شرطة فى يوم وليلة » .

« والشرطى هو وجه الدولة الذى يراء الناس فان كان مؤدبا فالدولة مؤدبة وان كان شرسا فالدولة شرسة ، وان كان هوانا فالدولة هوانة ، لاسيما فى عين الغرباء » .

« والشرطى ان كان حسن الهندام . فالدولة حسن هندامها وان كان مبتذل الثياب فالدولة على شاكلته . لهذا فان كان السخاء يعطى فى شىء فهو أطيب مايطيب عند البذل للشرطى واعطائه الراتب الجدير بمظهر الدولة » .

ويردف الدكتور زكى بالحديث عن الشرطة الراقية فى البلاد الراقية فيقول :

« يحترمونهم لأن فيهم ثقافة كتقافتهم ، ولابد بهم وطنية كوطنيتهم ، وان رجل البوليس يجلس الى رجل الشعب ويتحدث اليه ، فلا يدرك انه انما يتحدث مع مخلوق لايعرفه جاء من جزيرة

سومطرة ، ذلك ان التعليم واحد والفكر واحد ومراتب العيش
ومشاكله بينهم جميعا متقاربة » .

« ان رجل الشرطة فى انجلترا ليس حصيلة نفسه وحده ،
وثقافته وحدها ، أنه حصيلة بلده ، وهو حصيلة تاريخ » .

على أنه مراعاة للنسب التى جعلناها للأفكار فى كتابنا ، لابد
لنا من الخروج من الحديث عن الشرطة ، أداة لتنظيم الحرية ، الى
البند التالى ، ومراعاة للنسب أخرى فلابد أن يكون مخرجنا مخرج
صدق يصدق فى تعبيره عن جوهر الرأى فى المسألة لهذا نضع أمام
القارئ فقرتين من أحمد زكى : « حرية الفرد وأمن الجماعة
موازنة صعبة . وحرية الفرد اذا اطلق لها الضمان ذهبت بأمن
الجماعة ، وأمن الجماعة اذا بولغ فيه ، ذهب بحرية الفرد ، ورجى
البوايس عليه حراسة الممتلكات من السرقات ، وعليه ان يسود
السلام فى الطرقات فلا يكون فيها الهرج والمرج ، وعليه تدبير المرور
لسلامة المارة . . » .

والفقرة الثانية قوله « ففى الدفاع عن الحريات ترجى
الحكومات ، والحكومة تحمى الشعب ، وتحمى حرياته فى الحياة ،
والشعب يحمى الحكومة بجيش منها حتى لا تأخذ بها فتتزل بها عن
منصة الحكم يد فحل من فحول بنى الناس طامع جبار » .

واهذا يعلل لنا الدكتور أحمد زكى السر وراء العلاقة الغريبة
التي يجدها بين الحكم ورجال الشرطة فى دول الدكتاتوريات فيقول :
« والمستبد لا يجد من الشرطة التى تعودت النظام والحكم الديمقراطي
العون الكافى ، ولا الغلظة المطلوبة ، لهذا هو يلجأ دائما الى
استحداث شرطة له خاصة ، تقوم بأغراضه الخاصة ، وتعرف عادة
بالمخابرات ، وما من بلد الا وبه مخابرات ، ولكنها مخابرات تكشف

من خطط تتصل بنظام الحكم يخطط لها اعداء الدولة ، فهي ليست
مخابرات تستخبر امور الشعب ، وقد يستفحل امر المخابرات لتكون
نقمة اخر الامر على منشئها المستبد » *

٢

ننتقل بعد ذلك الى البند الثانى من هذا الباب ، وهو حرية
الرأى متى تباح ؟ ومتى تحظر ؟ فالدكتور احمد زكى يؤمن ايمانا
يقينيا بأنه لا بد أن يكون مع الحرية احساس بالتبعة أولا ، وهو
ثانيا يفرق بين حرية الفكر فى سلام ، وحرية الفكر فى حالة الحرب ،
وهو ثالثا يقيد حرية الرأى لا بالحالة الحربية فحسب ولكن بحال
الجماهير من حيث النضج * واليك تفصيل القول فى هذه
النقاط ففيها يتعلق بالحرية والتبعة ، فيقول الدكتور احمد زكى
فى حديث الشهر ، العربى ، مايو ١٩٧٣ :

« لابد أن يكون مع الحرية احساس بالتبعة »

« ليس لأحد باسم الحرية أن يدعو الى الاجرام ، أو الفوضى
واذا هو سئل فى ذلك يقول : دعونى فأنا حر * أنه حر فى نفسه *
يفعل بها وهو فى حجرة ذات حوائط اربع ما يشاء ، اما اذا هو خرج
الى الناس ، الى المجتمع فقد اختلفت بالنسبة له معانى الحريات ،
ومعانى الحقوق » *

« ونقول اختلفت ، ولا نقول امتنعت ، فالمجتمع شىء مشاع *
هو ملك للجميع » *

« ووجه الاختلاف الواحد ، عندما يخرج من حرية الحجرة الى
حرية الطريق هو أن الحرية عندئذ يجب أن يصحبها شىء ، هو

التبعية - فالدعوة الى الاجرام لاتبعة فيها ، والدعوة الى الفوضى لاتبعة فيها » .

« واذا جاز أن نتجاوز في السلم عن النظر في أمر التبعية ، فإن هذا لا يجوز والحرب قائمة ، والحرب حرب مصير ، فالتبعية تسبق الحرية وتعلو » ونحن في ذلك انما نفعل ما فعلته الأمم الديمقراطية من قبلنا « وضرب مثلا بما حدث للفيلسوف البريطاني برتراند رسل في اثناء الحرب العالمية الثانية من قبل السلطات البريطانية » .

ومكنا يجعل الدكتور أحمد زكي من أمر التبعية مدخلا الى التفريق بين حرية الفكر في السلم وحرية الفكر والحرب على الابواب ، لاحظ تقديره لخطورة الحرب فهو لا يقابل بجمل متوازنة ويقول حرية الفكر في السلم وحرية الفكر في الحرب وانما يتنازل عامدا عن هذا التوازن البلاغى ليعبر عن المعنى الخطير !

« اما والحرب قائمة ، فحرية القول ، وحرية النقاش ، لابد أن تتأثر بكل موضوع يثار ويتصل بالحرب ، من قريب أو بعيد ، ولكن لابد من أن نطلق النقاش ، ونطلق حرية الكلمة فيما لايتصل بحرب والا خيم الظلام ، وفي الليالي اذا اتصل اظلامها ستر لكثير من صنوف الاجرام ؟ من سرقة اعراض ، وأموال ، وضياع أمن ، واهدار ارواح » .

« ويعود أحمد زكي ليلبور اوجه الاختلاف بين الحالين وليؤصل طبيعة هذا الخلاف فيقول : « في السلم الحريات تطلق في صدور عامة الشعوب ، ووعيتها ويقظتها أولا ، ومن بعدها القانون » اما الحرب فالمسألة حلها في أمرين : أن تحدد الحكومات بأقصى ماتحدد من حريات لاسيما فيما لايمس الحرب وجهودها في سبيل دفع غائلة الاعداء ، وأن يتولى الكتاب أقصى مايكون لديهم من

حذر ، مع احساس عميق بالتبعة ، فلا يتخذ الكاتب منهم موضوعا
ظاهرة تتصل بحرية فى القول معترف بها . ولكن بباطنه هدف
آخر . كاثارة الجمهور لحاجة خاصة فى نفسه .

وننتقل الى الجانب التطبيقي من الموضوع فيما يتعلق بالقضية
العربية ، وأرجو ان يلاحظ القارئ ان المقال نشر فى مايو ١٩٧٣
(أى أن أحمد زكى كتبه قبل المعركة الفاصلة فى أكتوبر ١٩٧٣
بحوالى ستة اشهر والتمزق العربى قد بلغ مداه فى نفوس الصحفيين
والاعلاميين ، وكان أحمد زكى كما سنفصل القول فى موضع آخر
مستاء أشد الاستياء من هذا التمزق الذى اصاب هذه النفوس ففعل
بها ما فعل فتراه هنا يتكلم من واقع الحرية المسئولة ويقول :
« وانى لأقرأ اليوم فى صحف بعض الدول العربية ، الموسوم النشر
فيها بالحرية ، أقوالا كثيرة لاتبعة فيها . فكاتب يكتب باسم الحرية
عن جهل . وكاتب يكتب باسم الحرية عن حقد . وكاتب يكتب باسم
الحرية عن عنصرية غير خافية ، وأخرى عارية . وكاتب ... عن
اقليمية جارفة . . . وكاتب يكتب باسم الحرية واكاد استشف فى
أسطره دوافع صهيونية ويمنعنى من الجزم ان حروف المقال حروف
عربية . وكاتب يكتب باسم الحرية وهو انما يهدف الى خلق
الحرية »

ويعدد الدكتور أحمد زكى صنوفا من هؤلاء . . ثم يقول قولة
مدام رولان الفرنسية المشهورة « أيتها الحرية كم باسمك تقترف
الآثام » !

على انى أحب ان أنبه الى نقطة جديدة بالتنبيه وهى ان هذه
الآراء لأحمد زكى فى مسألة الحرية ، والحرية المسئولة ، والحربة
بين الحرب والسلم لم تكن وليدة هذه الظروف الصعبة التى عاشتها

أمتنا في هذه الرحلة بين الحربين (٦٧ - ٧٣) وإنما كانت أصيلة
فى نفس الرجل الذى تحدث من قبل بأفأضة فى هذا الموضوع فى أكثر
من موضع كمقال : ومقاله « مؤتمر القمة العربى الاول » ، العربى
١٩٦٤/٣ ، وهو المقال الذى قال فيه بصراحة « ان الرأى يجب
أن لا يترك طليقا لاسيما فى جماهير لم تبلغ بعد حد الكفاية من وعى
ان الرأى الحر ليس من حقه الهدم والتخريب » وهذا هو جوهر
النقطة الثالثة من البند الثانى فى هذا الباب .

« ان لك من الحرية بمقدار ما فى جيبك من مال » هكذا يقرر
الدكتور أحمد زكى فى مقاله « بين الحرية والكسب » ، حديث الشهر
العربى ، يوليو ١٩٧٢ ، وهو يردف العنوان الرئيسى بقوله : سألوه
كم لك من الحرية فى هذا العيش ؟ فأجاب : أكسب فى الشهر عشرين
دينارا ، ، وحديث الدكتور أحمد زكى فى هذه النقطة ممتع الى حد
كبير ، ولا اظننى أوفيه حقه أو أوفيك حقه من الامتاع اذا نقلته
لك هنا سببا ونتيجة على نحو مباشر ، انما تتأتى لك المتعة به اذا
قراته جملة ، فى موضعه ، فالأمر فى نظرية أحمد زكى ظاهر الصواب ،
غير انى اثبت هنا ما قاله الرجل استطرادا الى موضوع حرية المرأة
وعلاقتها بكسبها حيث يقول : « لا ضمان الى اليوم لحرية المرأة الا
بأن تكسب هى حريتها بالعمل المناسب لأنوثتها ، فاذا سئلت كم
لها من حرية قالت : أكسب عشرين دينارا أو مائة ، وفى هذا
بلاغ » .

« من أجل هذا كانت حظوظ النساء من الحرية فى القرون القلة
دون حظوظ الرجال ، وحتى اليوم فحظ الكاسب ليس كحظ المشارك
فى كسب » .

« ولابد هنا من الاشارة الى رأى لأحمد زكى قد لا يكون ذ
ظاهره متصلا كل الاتصال بهذه النقطة من معانى الحرية ، ولكن

ليس الا صدق او ارهاصا لهذه الآراء . فأحمد زكى حين يناقش قضية فقر الفقير وشقاء الشقى لا يحملهما تبعة ما هم فيه من فقر او شقاء ، وإنما يحمل هذا للمجتمع ، فالمسألة ليست في حريتهم في بقائهم على ما هم عليه ، لأن هذا ليس بيدهم ، ولا هو مسئوليتهم واقرأ معي لأحمد زكى في مقاله « سلاسل وأغلال » ، الهلال ، ديسمبر ١٩٤٨ ، والذي نشره مرة في كتابه « ساعات السحر » حيث يقول في وضوح وصراحة :

« يخيل الى أن المسألة ليست رضا الفقير بما هو فيه ، ولكن رضانا نحن أنا وأنت ، بالذى هو فيه ، أنا لا أكلف الفقير شططا فأطلب اليه أن يدرك ولا أكلف الجاهل شططا ، فأطلب اليه أن يفهم ولا أكلفه حتى أن يرضى أو لا يرضى ، ذلك انى اذا كلفته أن يرضى قام علمى يكذبنى وضميمى يؤنبنى ، وأنا اذا كلفته أن لا يرضى ، وهو غير قادر على أن يتحول ، فانما أزيد طينته بلة ، أزيد حسه بالمصوء ليزيد حسه سوءا ، أوقفه لما هو فيه ليتالم على اليقظة ، وأنت تريد أن يهنا نفسا ، وهذا نوع من أنواع الرحمة الخفية الذى لا يدرك كنهه الا الفطناء ! »

ويزيد أحمد زكى هذه الفكرة توضيحيا وتعميقا فيقول « أقول ان المسألة ، ليست ان الفلاح ، وأشباه الفلاح ، يرضون عن حالهم أو لا يرضون ، ولكن المسألة أن نرضى نحن ، أنا وأنت ، عن حالهم أو لا نرضى ، نحن لنا القدرة على الرضا ، أو غير الرضا ولنا الحق فى الرضا وغير الرضا ، وعندنا الاداة التى تؤهلنا لنرضى أو لا نرضى ، ولا أحسبنى ولا أحسبك نرضى أن هذا الرجل الجاهل الفقير ، واسمح لى أن أقول - النعس - ولو مرة في غير مناقضة لفكرتك - هذا الرجل ينعتونه بأنه ابن جلدتك ، وهو كأنفك منك وان كان أجعد ، فأنت إذن لا ترضى عن أنجداع

أنفك ، وأذن غانت والله لا ترضى عن فقر رجلك وتعاسته ، هذا حسن جميل ، وأذن لابد من تغيير ، والتغيير يجب أن يبدأ من أعلى ، حيث أنت قاعد يا عزيزى • أن الماء الذى يسيل من المكان العالى بهبط فى سهولة ، ويسر فيكون فيه السقى والرى • وغير ذلك الماء الذى يتفجر من المكان الخفيض » •

٤

« أما عن الحريات فى العلاقات الدولية فيتبلور لنا رأى أحمد زكى فى مقاله حرية الصحافة ، حديث الشهر ، العربى ، مارس ١٩٧٢ ، اذ يقول فى معرض الحديث عن الصريات قبل التمهيص بالحديث عن حرية الصحافة :

« ان الحريات فى هذه الدنيا التى نعرف ، كالبضائع ، تشتري بالمال ، وما اكثر ما تدفعه الأمم ثمنا لحرياتها • السلاح وحده ، كم ثمنه ، وهو سلاح أرض ، وسلاح ماء ، وسلاح هواء ، وكم الوفاء مؤلفة من الناس تقوم فى صناعته ، وكم الوفاء مؤلفة من الناس فى اليوم قائمة فى الجيوش حاضرة لدفع غائلة ، الحرية اذن فى السلم ليست من طبيعة الاشياء ، حتى والحضارة حاضرة ، والثقافة بيئة ، وذكاء بنى الناس غير منقوص ، الحرية لابد ان تشتري فى هذا العالم البشرى بالعرق الصبيب ، كالطعام والشراب سواء بصواء » •

وقبل هذا المثال بحوالى ربع قرن كتب أحمد زكى يتحدث فى شجن وأسى عن مصرع الحرية فى القرن العشرين بمقال حمل هذا العنوان فى الهلال ، يونيو ١٩٤٩ ، ومازال بمصرع الحرية يتحدث عنه حتى وصل الى القول بأن « الصراع القائم اليوم بين شرق الأرض وغربها ، ليس صراعا على الحرية ، فالكل مجمعون على

ضرورة وضعها وراء قضبان من حديد ، ولكن الخلاف على مصيرها من بعد ذلك ، فاهل اليسار يريدون ان يقتلوا بالسم قتلة عاجلة واهل اليمين يريدون ان يقتلوا ولكن مصابرة ومطاوله » .

وأدمى من ذلك يقرر أحمد زكى فى مقاله هذا أن الحرية ليست من قانون الوجود ، وأنها ما كانت ولا سوف تكون « وأنه لا وجود للحرية فى قانون الوجود الا بالقدر الذى يؤهلك لائراك ما أنت عليه من قيد ، كالأشياء الحلو تعطاه لتتذوقه ليندلك على ما كنت فيه من طعوم مألحة » .

ولعل هذا يدفعنا الى التساؤل اذا كان هذا هو حق جوهر الحق فى أمر الحرية فى قانون الوجود ، فأى ذنب جناه القرن العشرون على الحرية حتى يقول أحمد زكى بمصرع الحرية فيه ، أم أن المسألة أن أحمد زكى ذكر ذلك ليبرر ما حدث فى القرن العشرين ، وليقول أنه ليس بالأشياء الجديد ، وبخاصة أنه استعرض أحوال الحرية فى مصر القديمة ، وروما ، والنصرانية ، ودول الاسلام استعراضا معتمدا لأبد لك من أن ترجع اليه ، هذا بالإضافة الى أحوال الحرية فى الجامعة وبين الناس وفى الطبيعة ٠٠٠ الخ » .

ونعود مرة ثانية للتأمل مع أحمد زكى تأثير المال على الحريات حتى فى السياسة الدولية ، ونقتطف هنا من مقاله « سلاسل وأغلال » ومن المثل الذى ضربه بقطة كانت لجارهم ، وكانت أقوى القواطع ، فكانت تحظى من الطعام بأكثره لهذا السبب واقرأ لأحمد زكى :

« والمسألة ان المال يحمل معه دائما طابع السلطان ، ويحمل الغلبة ، ويحمل القوة وحيثما هبط تنفرج له الصفوف ، وتتخاذل دونه العزائم ، والمسألة فى ذلك مثل مسألة القطط تجتمع على الطعام ، فلا يكون الطعام الا من نصيب قطة لها جسم ملء ورأس

ضخم ، واكتاف سمان ، وسواعد شداد ، ومخالب حداد ، ونفثة
عن الشر مخيفة ، فهذه تدور تلم من النفايا الساقطة في فمها هذه
القطعة ثم هذه ثم هذه ، وسائر القطط واقفة ، واسعة العين ،
تتنظر ولا تجرؤ ، للذى بها من ضعف وهزال ، كل أملها أن تضل
هذه القطعة الكبرى عن قطعة فلا تراها ، .

« هذه القطعة فازت بالأنصبة جميعا أو بأكثرها ، لأنها أشبع ،
ومن الشبع قوة ، وسائر القطط فازت بالنصيب القليل ، أو بلا نصيب
لأنها أجوع ، ومن الجوع ضعف ، في طبيعة الشبع سر زيادة الشبع .
وفي طبيعة الجوع سر زيادة الجوع . »

ويعقب أحمد زكى على هذه الفكرة بسؤال تقريرى من نوع
خاص فيقول :

« أفلا ترى معنى أن هذه الصورة ، التى تجدهما في حديقتى ،
هى صورة صادقة مما يجرى في حدائق العيش بين الناس ؟ »

بقى الأمر الخامس من أمور الحرية في تفكير أحمد زكى ، وهو
نظرته الى التطور التاريخى للحرىات في القرون الثلاثة الاخيرة ،
وقد أفاض استاذنا الدكتور زكى الحديث في هذا التطور في أكثر من
مقال ، ولكنه زاد الأمر تركيزا أو بلورة وأفسحا للتفاصيل في
مقالات ثلاث متتالية :

- « يطلبون الحرية والأصل في الحياة القيود » حديث الشهر
العربى ٧١/٤

- « ما وجدت الحكومات الا لتحمى الحرىات » حديث الشهر
العربى ٧١/٥

- « حرىات الإنسان » حديث الشهر العربى ٧١/٦

(ومن الطريف أن تجيء هذه المقالات في توقيتها مع ما أعلنته مصر في ٧١/٥ من بدء عصر الحريات) .

على أننا سنجتزئ هنا في هذا المقام بذكر ودرس أفكار أحمد زكي في هذا الموضوع وهي العبارات التي تحمل في طياتها المعاني التي نود أن نشير إلى وجودها في فكر الرجل :

١ - « حريات الانسان : فاز القرن الثامن عشر بالحريات السياسية وفاز القرن التاسع عشر بالحريات الاجتماعية » .

٢ - « الثورة الفرنسية أيقظت أمم الأرض بما يجب أن تكون عليه كرامة الانسان » .

٣ - « الثورة الصناعية كانت ثورة حضارية اجتماعية سياسية في آن » .

٤ - « الحرية إذا زادت على حدها انقلبت إلى ضدها ، وهكذا فعل انطلاق رأس المال في العمال »

٥ - « ان اليوم له وجهان وجه أبيض مشرق اسميناه بالنهار ووجه آخر مظلم أسميناه بالليل » .

وكذا الثورة الصناعية كانت وجهاً من وجوه الانسانية المتوثبة الطامحة مشرقاً . ولكن إلى جانب وجه اسود مظلم يتمثل فيما عاناه العمال في هذه الفترة من بؤس وشقاء » .

٦ - ان رفع الحكومات يدها عن البرلمانات كان أول الخطوات لاستقرار الحكم في البلاد ، وهنا يجب ان نلخص رأى أحمد زكي في هذا الموضوع على أكثر درجات الاختصار ، فإن الفيلسوف الانجليزي هيز «Thomas Hebbes» (١٥٨٨ - ١٦٧٩) أخاف الحكومة كل الخوف ، فقام الفيلسوف الانجليزي لك «John Locke»

(١٦٣٢ - ١٧٠٤) ففصل الحكومة عن البرلمان ، وجاء الفيلسوف السياسي منتسكيو «Montesquieu» (١٦٦٩ - ١٧٥٥) فاستقل بالقضاء ، ووضعت (١٧٠١) في انجلترا وثيقة القضاء الشهيرة «Act of settement» ، وبذا تم في الدولة الديمقراطية فصل السلطات .

وليس من شأني هنا أن أحلل للمقارئ نظرة أحمد زكي في هذا الشأن وموقعها من الصواب والآراء الأخرى ، وليس هذا عجزا ولا تواضعا ولا اختصارا وإنما هو مراعاة للمقام وبخاصة ونحن نتكلم عن الحرية المسئولة .

ولكن من شأني ان أختم هذا الفصل بعبارات لأحمد زكي في شأن الحرية أبلغ ما فيها هو هي نفسها : « نشأنا جميعا ونشأ العالم على تمجيد الحرية ، ولكن الحرية كالسيف ، تحمله في يمينك ، فتعلم حين تقطع به أين تقطع ، وكذلك تحمله في يسارك فتضرب به فقد يصيب رقبة ابنك » .

« وهكذا فعلت الحرية في طبيعة الثورة الصناعية ، ومعنى استعمال كلمة «Laisser Faire» ومعناها دعوا الأمور وحدها تجرى في أعنتها ، أو اتركوا الصناعة وحبلها على غاربها تجرى ما شاء لها الجرى وإلى أي ناحية تجرى .. صار لأصحاب المصانع أن ينظموا مصانعهم على هواهم .. »

كان من الطبيعي ان رجلا مثل كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣)

ما كان ليولد فيعلن اعلانه الشيوعي «Manifesto Communist» (١٨٤٧) ولا ليكتب كتابه «رأس المال» الا في قرن مثل هذا القرن .
التاسع عشر ، وفي أحوال ما كانت لتتمخض الا عن مثله ومثل مذهبه » .

المصادر :

- ١ - « سلاسل وأغلال » الهلال : ديسمبر ١٩٤٨ .
- (الفصل الحادى عشر من ساعات السحر)
- ٢ - « مصرع الحرية فى القرن العشرين » الهلال : يونيو ١٩٤٩ .
- ٣ - « أيتها الحرية كم بأسمك تقترف الآثام » الهلال : سبتمبر ١٩٥٠ .
- ٤ - « المدرسة والحرية والحياة » الهلال : أكتوبر ١٩٥٥ .
- ٥ - « لابد للناس فى حياتهم من قواعد ومبادئ » العربى : يناير ١٩٦٣ .
- ٦ - « مؤتمر القمة العربى الاول » العربى : مارس ١٩٦٤ .
- ٧ - « الحرية فى ظل العادات وفى ظل القانون » العربى : أغسطس ١٩٦٩ .
- ٨ - « يطلبون الحرية والأصل فى الحياة القيود » العربى إبريل ١٩٧١ .
- ٩ - « ما وجدت الحكومات الا لتحصى الحريات » العربى : مايو ١٩٧١ .
- ١٠ - « حريات الانسان » العربى : يونيو ١٩٧١ .
- ١١ - « رجال الشرطة بين حرية الفرد وسلامة الجماعة » العربى أغسطس ١٩٧١ .

- ١٢ - « حرية الصحافة » العربى : مارس ١٩٧٢ .
- ١٣ - « بين الحرية والكسب » العربى : يوليو ١٩٧٢ .
- ١٤ - « حرية الفكر فى سلام وفى حرب » العربى : مايو ١٩٧٣ .
- ١٥ - « قانون الطبيعة ضد حركات التصوير فى كل القسرون »
العربى : اكتوبر ١٩٧٣ .
- ١٦ - « الافتتاحية الاخيرة » العربى : ديسمبر ١٩٧٥ .

الباب الثالث

نظرات فلسفية

العقل والإيمان : عينان بهما يبصر الإنسان سبل الحياة
ويتهدى *

أحمد زكى

هذا هو الباب الثالث من الجزء الذى يتناول فلسفة الدكتور
أحمد زكى وأذن فليس من المتقبل أن يفتص وحده بالعنوان الذى
يشير الى أن يتناول الفكر الفلسفى ، أو التفكير الفلسفى عند أحمد
زكى .

وقد أدرك المؤلف هذا بلاشك ، ولاشك أدركه القارئ عندما
وجد العنوان على النحو الذى هو عليه من جمع التفكير .

وأصل المسألة أن هناك مسائل ما ، تدرج فى تصنيف المعرفة
تحت عنوان الفلسفة ، رغم أن كل نظراتنا الى كل أوجه
الحياة هى نوع من الفلسفة ، ولكن هناك قضايا هى فلسفة الموضوع
والنظرة . أو هكذا اعتاد المفكرون والمصنفون والمؤلفون أن يضعوها
كمسألة القضاء والقدر ، والجبر والاختيار ، والمادية والروحانية ،
وما وراء الطبيعة ، والحقيقة وأمور المنطق ، والعقل
والعاطفة ... الخ .

أما هذا الباب فيتناول من كل هذه الأمور أمرين اثنين فحسب ،
رأى المؤلف أن دراسة فلسفة الدكتور زكى لهما يعطينا فكرة لابس

بها عن نظراته الفلسفية ولا أقول عن تفكيره الفلسفى أو عن فلسفته فذلك من شأن الجزء الثانى كله بأبوابه الثلاثة عشر .

١ - الحقيقة

أول هذه الأمور هى « الحقيقة » ، وعلى الأخص سبل الوصول إليها . فعلى حين كان الدكتور زكى يقدر قيمة العقل والفكر والمنطق والعلم فى الوصول الى الحقيقة ، وعلى حين أن عباراته فى هذا واضحة فى كثير جدا من المواضع الا أننا سنركز معه على الجانب الآخر من القضية ، وهو الجانب الذى يطرح لنا سؤالاً يقول : متى لا تكون كل هذه الوسائل العلمية والمنطقية هى السبيل الأمثل الى غاية الانسان من استجلاء الحقيقة أو استهداف الصواب أو طلب الحق . (الخ) .

هنا نقسراً لا سستاذنا الدكتور زكى مقالاً قيماً فى (الهلال . ١٩٤٨/٩) تحت عنوان « الكرة التى تحمل فوق عنقك » ، وهو فصل من فصول كتابه (ساعات السحر) ويحدثنا استاذنا فى مقاله عن زيغ الرأس التى كنى عنها فى العنوان بالكرة التى تحمل فوق عنقك حديثاً طويلاً ثم يخلص الى النتيجة فيقول : « أو لست أحسب أنى أريد من أحد أن يقلع عن زيغه ، فزيغ العقول صفة لها أصيلة لا يمكن أن يكون عنها اقلاع ، ان الزيغ من بنية العقل ، من تشككه ، ومن تصميمه ، ككرة الحشيش اذا دحرجت عليه ، بها ما بها من ثقل ، أو بها ما بها من تحذب جانب دون جانب لم يكن لها اختيار الا أن تميل .

والحل : « ولكنى أود لو يفعل الناس برعوسهم فعل مدحرج الكرة بكرته ، انه يقدر ما فيها من زيغ ، وبحسب ما فيها من عوج ، ثم هو يطلقها طلاقة تتراعى عوجاء ، ولكنها تصيب الهدف تماماً كما

تصيبه الكرة الأخرى التى ليس فيها ثقل ولا زيغ اذا اطلقت مستقيمة
غير ذات اعوجاج ، •

هكذا يضع الدكتور أحمد زكى تصويره لحل المسألة ، لأنه
يؤمن بأن زيغ العقول صفة فيها لابد لها منها ، ولهذا هو يريدك أن
تفكر بها مع تقديرك لزيغها حتى لا يذهب بك الأمر الى أن تكون من
الذين يفكرون لافق ما يجب أن يكون ، ولكن وفق ما يحبون أن
يكون ، فيبلغون النتيجة التى يريدون دون تفكير ثم هم بعد ذلك
يعملون المنطق ليأتوا لها بما يبررها •

على نفس الخط من الرؤية يأتى تقدير أحمد زكى للخيال ، وهو
بالطبع تقدير شروط ، واقرأ له معنى فى هذا المعنى من مقالة
« حشاشون بلا حشيش » الذى نشره فصلا فى ساعات السحر قوله :
« ان ائمن ما فى الرجل منا الفكر ، ومن ائمن ما فى الفكر الخيال ،
والخيال جعل ليجمع به المرء من الاشياء اجزاءها ، ومن الحوادث
أطرافها وليصور به لنفسه كيف تصلح الأمور وهو خيال يتصل
بالواقع ، ويتصل بالمنطق ويعتمد على الممكنات ، وهو أداة المخترع
حين يخترع ، والعالم حين يبتدع ، والشاعر حين يقصد القصيد ،
والفيلسوف حين يقنن الأمور •• ولكن غير ذلك الخيال الذى
تثيره حشيشة الليل ، وغير ذلك الخيال الذى تثيره حشيشة
النهار » •

على سعيد آخر يذهب الدكتور أحمد زكى فى تأكيد انتفاء العقل
المطلق ، نفس المعنى الذى مسه من قبل ، وفى يونيو ٦٧ يكتب
الدكتور أحمد زكى فى العربى ليقول ان « العقل المطلق لا وجود له
فى الناس ، ان العقل منطق ومنطقه الباده مستمد من حياة صاحب
ومن عاداته ، والعادات مستمدة من جغرافية المكان وتاريخ

الزمان على السواء واختلف الزمان ، واختلف المكان فاختلفت
العقول وتفاوتت ، *

وفي عبارة أخرى « من المشكوك فيه أن ميزان العقل من الدقة
ثابت الدلالة بين أيامه القريبة وأماسيه البعيدة ، ومن المشكوك فيه
أن يزن الخير دائما فيجد أنه الخير ، ويزن الشر دائما فيجد أنه
الشر ، وقد يدخل المشك الى سجية هذا الميزان ، فيصبح يزن الشر
الثقل فلا يثقل به كثيرا أو لعله يزن فيجعل الخير مكان الشر والشر
مكان الخير ، *

ويضرب الدكتور الأمثال على صحة رأيه بموقف البشرية
وعقلها ، في قضايا الرق والقتل ، والعفة ، والعمل ، وحتى الشوارب
واللحي .. ثم لفت النظر الى الحقيقة الكبرى حين يقول : « لهذا
جاءت أحكام السماء تثبت أحكام أهل الأرض وتنأى بها عن
المزلق ، *

وينتقل الدكتور أحمد زكي الى مسألة متقدمة فيقول ان العقل
حتى مع العلم قاصر (أى عقل العلماء) لسببين أولهما : قصر
أعمار العلماء فالعالم يحصل ثم حتى اذا هو بدأ ينتج عاجله الموت ،
وتزداد مدة التحصيل (كلما تقدم الزمن) كلما اتسع العلم ،
وازدادت المفرازة عمقا ، والسبب الثانى « هو ذلك القصور الذى
فى الذهن نفسه من حيث أنه جهاز له طاقة للنمو ينتهى عندها *

بل ان العقل نفسه ، لا يشكل الا جانبا واحدا من جوانب النفس
الانسانية فللنفس الانسانية جوانب أخرى اذا حاول العقل أو حاول
المنطق دخولها فقد عمى ، ان العقل لا يكاد يرى من هذه الجوانب
شيئا .. ، نعننى بها المعواطف ، والاحاسيس وصوت فى الاعماق
ادخل فى النفس وأعمق ، أو لعله لا مدخل له و لامخرج ، وانما هو
صوت الكيان يتردد خافتا فى الأعماق ، *

ومن هذا المنطق كانت أفكار الدكتور زكي في مقاله (نوفمبر ١٩٦٨) الذى يقارن فيه بين العقل والايمان أو يجمع بينهما على أنه كما يقول العنوان : « العقل والايمان : عينان بهما يبصر الانسان سبل الحياة ويهتدى : فيقول :

١ - العقل والايمان ، سبيلان الى المعرفة سلكتهما الانسان منذ كان قبل المسيحية ، وبعدها ، وفى دين ، غير دين ، ألما العقل فمناك اما الايمان فمن الله • اما أن يمن الله عليك به واما أن يحرمك اياه •• « ازدواج طبيعى » •

٢ - « وعند جاكوبى : أن الله الذى يمكن اثباته بالمنطق لا يمكن أن يكون الله ، لأن الحصول عليه بالمعرفة عن طريق العقل يتضمن معنى سيطرة العقل ، والخالق الأعظم لا يمكن أن نسيطر عليه ، أو يحتويه عقل •• أن الحقيقة فيما وراء الطبيعة ليس سبيلها الفكرة المنطقية تتلوها أخرى •• أن سبيلها تتكشف عن طريق الالهام وهذا الالهام هو الذى يسميه جاكوبى واضرابه بالايمان • »

٣ - انهما « كالنظارة ذات العدستين اذا طمست عدسة منهما ، قامت الأخرى لتحل محلها ، أما اذا طمست العدستان معا ، كان العمى ، ومع العمى الحيرة التى لا يدرك معها صاحبها الى أين يتوجه » ، وهكذا قعلت الوجودية ، ومذاهب أخرى بالانسان فى هذا الزمان • »

٤ - « سر القلق فى العصر الحاضر أن ما أحدثته تلك المبادئ الفلسفية المتضاربة المتشابكة المعاكسة التى ينفى بعضها بعضها ، والتى كانت ، قاصرة على المكتبات ، حبيسة فيها زمانا لا يقرأها الا المختصون ، ثم هى نزلت بالنشر ، على اختلاف طرقه الى القارئ العادى فى مدرسة وجامعة وإلى رجل الشارع من بعد

مدرسة وجامعة » ٠٠ « وقد كان لاستجلاء سبل الحياة عند المفكرين طريقان : طريق الايمان المباشر ، وطريق العقل ، وسبق الضعف الفكرى الى طريق الايمان فى الناس فاضمحلت الثقة فى الايمان ، ثم قام رجال جدد من اهل الفكر يقضون على السبيل الباقية تلك ، سبيل العقل ٠٠ ذهبيوا بالايمان ونفوا العقل ٠ فماذا بقى ؟ بقيت الحيرة تحتل انفس الناس ، وظهرت فى الشسباب أكثر لأنهم أكثر تأثرا واقرب ثائرة ٠

٥ - وانضم الى هذا الخبال فى فلسفة الحياة : خبال فى حال الدنيا ، خبال فى المجتمعات وخبال فى حكامها ٠٠

لهذا كله يؤمن الدكتور بضرورة الاعتماد على الايمان ، والابقاء على الايمان ، والايمان بالايمان ، وان تتوجه الى نفسك تطلب منها الهدى : « واذا عجز اهل الفكر ، وأهل الفلسفة عن اثبات وجود ، واذا رفض العلم الحديث فى هذا الأمر بعد ان دفع بعدم الاختصاص لم يبق لنا الا الرجوع الى المصادر التى نهزع اليها دائما عندما تتعطل مصادر العقول ٠

ونتفرع من مسألة الحقيقة لنناقش آراء الدكتور زكى فى « حتمية التاريخ » هل يعيد التاريخ نفسه ؟ أم لا يعيد ، وهنا سنلخص افكار الرجل واكثرها ما ورد فى حديث الشهر « ابريل ١٩٦٨ » ٠

١ - ان قولهم بحتمية التاريخ « عبارة حلوة ، أجد فيها انا نفسى روحا وريحانا ، وشميم أمل حتى والياس كل اليأس جاثم ، « وهى عبارة ليست بنتيجة دراسة خرج الدارس بها : ان التاريخ يحتم ، انما هى عبارة ايمان ، والايمان قد يخرج من الرأس والايمان قد يخرج من القلب ، وحتمية التاريخ صرخة من صرخات الايمان التى تخرج من القلب ٠ انها صرخة الأمل ٠ قد يفرزها ما يتوأكب

معها من أحداث الدنيا ، تلك التى تهدف جميعا الى غاية واحدة
فيها استبشار وبشرى •

٢ - وهو يستعيد أو يتحفظ لأن « التجارب العملية هي وحدها
التي تعيد نفسها أى اذا نحن أعدنا في المختبر اجراءها عادت بنفس
خواتيمها ، وغير ذلك التجارب الانسانية وتجارب المجتمعات
الانسانية ، وتجارب التاريخ » •

٣ - والسبب في عدم تقبله لفكرة الحتمية هو ان في أمور
التاريخ « الانسان هو أول شيء تفاعلى ، وليس كالانسان مثل ،
ينفى صفة الثبات كيفا وكما ، انه الهوى المتغير ، والمطمع المتقلب
والثقافة المتباينة والميراث الذهني متفاوت •• جيلا واحدا ، وانما
جيلين وثلاثة أجيال اجتمعت كلها على صعيد من الزمان واحد
بل يصل الحد الى القول بأنه لا يوجد في التاريخ حادثتان متطابقتان
ابدا ولو اسميناها اسما واحدا •

٤ - « ان الأبدية المتواصلة عند نقشة تتمثل في الدائرة ••
على أن مقالته قد تصح في غير اجمالها هذا المنتهى في زمان محدد
قصير من حياة البشر ولكن قديم ، أما اليوم فنحن في زمان غير ذلك
الزمان » •

٥ - وهذا هو جوهر الراى العلمى فى المسألة بيديه الدكتور
زكى بعد دراسة تمحيص ودون تعرف عند الاطراف فيقول :
« كل الذى يستطيعه الناظر عند المقارنة أن يحبس ، أى خاتمة
تكون ، وهو يحبس حتى في حياته الخاصة وحياته الخاصة
لا خاتمة واحدة ، بل عدة من خواتم ، ربما تمثلت في عدة من تجارب
سابقة له ، وليس من الضروري ان تكون وقعت لأخ أو أب أو قريب
أو صديق أو حتى تسامع بها » •

٦ - ومع هذا لا ينكر الدكتور زكي الفائدة التي أفادتها البشرية من هذا الرأي فيقول « الرأي بأن التاريخ يعيد نفسه ، صح أو لم يصح ، كان له نفع لا شك فيه ، من ذلك أن الناس تدرس التاريخ ، وتقرأ أوضاعا ماضية تشبه أوضاعهم الحاضرة ، وتخشى أن تحل بهم النتيجة التي كانت فيقومون فوق رجل واحد يحولون بينها ، وفي هذا نفع كبير » *

هذا عن حتمية التاريخ ورأي أحمد زكي في هذا المذهب ، ونذهب مع استاذنا ، ومع التاريخ الى مقاله الذي كتب قبل وفاته بمدة وجيزة (٧٥/١٠) تحت عنوان « الأزل والأبد معنيان تحديا فطنة الانسان من قديم العصور والأزمان » *

ونجده يقول في تأكيد « ان الانسان خلق أعمى رغم حاله من عينيين من قديم العصور اذن لهما فقط ان يبصرا ما اذن لهما أن يبصراه ، والانسان قد يكون أشد جهلا بالذي خرج منه النور أو وقع عليه النور ، والنور قد يبهز ، فيحسبه الانسان علما ، ثم لا يكون الا وسيلة لتغطية سر مكنون ، وكم في الدنيا من خفاء يسطع من الغباء » *

« وإذا كان العلماء حاولوا ان يغوصوا بعلمهم في غياهب الماضي فما اهتموا ، فهم أقل اهتماء وهم يغوصون بعلمهم في مجاهل المستقبل ، وهي أقص وأمس وأعسر » *

بقيت نقطة في هذا البند لابد منها قبل ان ننتقل الى البند الثاني ، ولعلها هي الحلقة الرابعة ، ونحن نعود مع استاذنا الدكتور زكي الى مقاله عن التعميم والتخصص في الدراسات الجامعية (٧٢/١٠) فنجده يناقش قول الذين يقولون ان أهل العلم الطبيعي أهل جفاء وقسوة ، وما يرتبونه على هذا القول من أن احكام أهل العلم بعيدة عما تبتغيه الانسانية ، فنجد الدكتور زكي يرد في صراحة وقوة ووضوح على هؤلاء بقوله ان هذا القول ضلال

كبير .. « وأصدق منه أن نقول » ان اهل العلم الانساني ومنهم
الادباء هم اهل العاطفة الأشد ، والعاطفة قد تكون خيرا ، والعاطفة
قد تكون شرا ، ومثل ما كان عالما طبيعيا ، وما كان موسيقي ،
كلاهما كان ذا قلب خفاق نبضاته تتصل بأحوال الانسان دون علوم
الأرض ، وهما صنعا من الخراب ، ما لم يسبق مثله على سطح
هذه الأرض » .

أرايت الى هذا الحل البديع الذى حل به استاذنا الدكتور زكى
هذه المشكلة الفكرية التى لاتفتأ تراودنا فى كثير من الأحيان .

٢ - المادية والروحية

كان الدكتور أحمد زكى يتناول مسألة المادية والروحية من
الجانب الذى عرضت المسألة نفسها فيه على التفكير الشرقى ، حين
ثار السؤال التاريخى الذى تساءل عن امكانية الجمع بين حضارة
الغرب وروحانيات الشرق ، ولسنا فى حاجة الى تفصيل للقول فى
هذه الناحية ، بقدر ما نحن فى حاجة الى الدخول مباشرة الى حيث
ناقش الدكتور زكى هذه القضية ابتداء حين حل أصلها فى مقاله
(٧٤/٤) فقال : « ولعل الحقيقة أن العلماء اهتموا بالمادة
قوانين ، واهتموا بها مظاهر حياة ، وظواهر كون ، لأن عندهم
الوسائل المادية لبحثها ، وسكتوا عن الروح لأنها أعصى من أن
يتناولها بحث أو يـُـوزها مختبر ، فاتخذ أكثر الناس من هذا
السكوت عن الروح انكارا لها والحق انه كان عند العلماء الاحداثين
إيمان بالروح بالقدر الذى عند غير العلماء اثباتا ورفضاً تبعاً لما
آمنوا به من دين ، أو ما اتبعوا من فلسفة ، أو اتفق لهم من
مزاج » .

« على أن الأمر تبدل أخيراً ، وأدرك العلماء انه ليس من
الجائز عند عالم أن ينكر ما لا يعلم ، أو ما لا يستطيع عالمه ، وغير

ذلك اتضح للعلماء أن مسألة الرفض لا تكون بهذه السهولة ، وأن تسلك الظواهر الحيوية ، وتتابع بعضها وراء بعض في منطق عجيب ، وهدف بل أهداف في الحياة واضحة ، تشير كلها الى أن للحياة تخطيطا وتدبيرا لا يمكن ان تقسوم به وحدها المادة الصماء الخرساء » .

وأحمد زكى لهذا لا يتطرق الى لب المسألة الا بالقدر الذى يعرض فيه لأراء وجهات نظر أصحاب المذاهب فيها ، على النحو الذى نعهده منه حين يتناول المسألة من المسائل الخلافية ولكنه مع ذلك يعقب في فبراير ١٩٧١ بقوله « على أنه لا يفوتنى ان أذكر أن الذين يقولون بالمادة والروح شيئين متناضلين أو بالجسم والعقل ، هؤلاء كانوا أهدى سبيلا وأكثر اتباعا من الماديين الذين رفضوا الروح أو ارتابوا فيها » .

وأحمد زكى يرد القول الفصل في هذه المسألة الى « النفس » كما يفعل في كثير من أمور الغيبيات «الحجة الأقوى عندى هى مايجده كل انسان في دخيلة نفسه ، لكأنى والله بنفسى نفسان لا نفس واحدة » . وتحدث احدهما الأخرى وتجادلها ، فكيف لا يكون لهذه النفس وجود رائع هو بعض وجودى » .

ان ما يهمنا أن نقرر أن البحث عن وجوه أعمق في مسألة المادية والروحية لم يكن الشغل الشاغل لعالمنا بالقدر الذى كانه أمر آخر ، هو اهتمام أحمد زكى باقناع العقل العربى أنه من الممكن أن يجمع الى روحانيته خير المادة ، وخير حضارتها ، وهو في هذا لا يؤيد رأيه بالإيجابيات التى حققتها الحضارة المادية يسردها على العقل العربى كما يفعل الكثيرون ولكنه يذهب مذهبا آخر يبرىء فيه ساحة المادة نفسها مما ألحقه بها بعض أهل الفكر من عيوب وأكبت حضارتها ، فاستحقت بسببها نقد هؤلاء ، وخرف أولئك من تلك المادة والمادية والحضارة المادية :

« ولا أستطيع أن أقنع نفسي بأن انسانا - كان ما كان - يستطيع أن يتقرب الى الله بدم خلق الله ، فالاجسام مادة ، وهى من خلق الله . فكيف تكون هى بعد ذلك شرا فى ذاتها . وكيف يقرب انسان الى الله ينفى مقاصد الله فى مخلوقاته . ان شهوة الطعام من صنع الله . وما صنعها الا لهدف . وشهوة الجنس من صنع الله ، وما صنعها الا لهدف . هدف الأولى وصل الحياة فى الفرد . وهدف الثانية مواصلة اسكان الأرض ، وان كان بهما ما يعاب فهو الافراط أو التفريط ولا أكاد أصدق أن رجلا يؤمن بالله يدم المادة أبدا ، بمعناها الخلقى بتسكين اللام ، أما معناها الخلقى (بضم اللام) فهى الأنانية والبخل والحرص فمقبول معنى ، مرفوض لفظا . قل ان الرجل بخيل ، أو محب للمال ، أو مفرط فى شهواته أما أنه مادي: فلفظ فيه التباس كريبه » .

ويتطرق الدكتور أحمد زكى الى مناقشة الأثر السئ الذى تركته هذه الفكرة على أعمال وتصرفات وسلوك كثير من البشر ، فتركوا العمل الى اللاعمل ، وعبارته فى هذا المعنى أوضح من ان نقم لها ، وأنهى من أن نتأخر بها عن قارئنا ، يقول الدكتور زكى فى مقالته (يوليو ٦٦) «لأننسى العرق الصيب ، فهذه الحياة عرق صيب ، انه العرق الصيب أو الفقر الذريع ومن أجل هذا وجدنا أكثر شعراء هذا العصر فقراء لأنهم عدوا النزول من أبراجهم التى أقاموها عالية، الى الأرض الدنية يتفهمون الحياة تجرى ، والمال كيف يحصل ، والانتاج كيف يكون ، والأعدة كيف تملأ ، والاجسام كيف تكسى انما هو مهبوط الى عالم المادة ، عالم الانحطاط والتردى » .

ينظر الدكتور زكى الى مسألة المادية والروحانية من وجهة صوفية عملية ان جاز هذا التعبير وهو يقول فى مايو ١٩٦٣ عندما يتحدث عن هذه المسألة عرضا « حياة المدنية الحاضرة التى يحلو لكثير من الرجعيين بأن يسموها مدنية مادية ، تحقيرا

لها وتهويننا من شأنها . هي مصدر للروحانية قد يفوق المصادر جميعا » وفي موضع آخر يفصح الدكتور زكي عن هذا الرأي ويزيده ايضاحا فيقول :

« وعندي ان رجلا عاملا يقف الثماني الساعات كل يوم امام الآلة تتسخ يده بمسها ، وينال قميصه غير المحمود من زيتها ، ويعود في آخر اليوم الى بيته . ينفق مما كسب على أهله ، طعاما هنيئا وكساء سابغا ومسكنا طيبا ، وترفيها ما استطاع ترفيها ويسجد لله يحمده على ما كسب ، هذا الرجل وهو يعمل في المادة لينعم هو وأهله بالمادة ، روحاني في الصفوف الأولى من الروحانيين وحسبه من روحانيته أنه احيا عمله في المادة لانتاج المادة ارواح ذرية مساكين ، وكل ذرية مسكينة لأنها على الصفر بالعجز موسومة » .

وقد أفضنا في الحديث عن الجانب العملي من هذه المسألة في هذه النقطة في موضع آخر . ولكن هل لنا أن نختم هذا الموضوع بعبارات لأحمد زكي عبر فيها عن أهله في أن تهتدى الانسانية الى وجه الحق في مسألة المادية والروحانية (من جانبها النظري) فيقول : « وكل الذي أرجوه أن يتحقق عندي ان تكون أنفس هؤلاء الرجال - بعض اصحاب الرأي في مسألة المادية الروحية - قد اطلعت من بعد موت على حقيقة الحال ، ودبت لو أنهم استطاعوا بعد ذلك ان يتصلوا بذوى القيمة من الرجال ، وان يفضوا اليهم بالسر الأكبر الذي كشف لهم عنه الموت » .

« وذلك رجاء ان يهديء الرجال الأحياء من جدلهم ، ويقدرُوا حقيقة ما يستطيع الفكر الانساني كشفه في فترات من الزمن قصار ، هي فترات اعمارهم ، وان يصبروا فما أسرع ما سوف تتكشفه لهم الحقيقة عندما تفترق أجسامهم ، وهي مادة ، عن ارواحهم ، وهي لطافة وأحسب انهم عند ذلك سوف يدركون ان الانسان مادي وروحي في آن » .

المصادر :

- ١ - « الكرة التى تحمل فوق عنقك » (الهلال : ٤٨/٩) ،
وهو الفصل الثانى عشر من ساعات السحر .
- ٢ - « الذرة تشق طريقها الى الصناعة وسائر مرافق الحياة
شقا حثيثا » العربى : مايو ١٩٦٣ .
- ٣ - « الجدل اكثره مجهود غيرنا » العربى : اكتوبر ١٩٦٣ .
- ٤ - « خذعوك فقالوا : تغير الزمان وما تغير الزمان ولكن
تغيرت اساليب البغى والعدوان » العربى : ابريل ١٩٦٥ .
- ٥ - « عقل الانسان ميزان غير ثابت على الزمان » العربى :
يونيو ١٩٦٧ .
- ٦ - « هذه المدنية زادت الناس جميعا أم تشقتنا » العربى :
ابريل ١٩٦٨ .
- ٧ - « التاريخ قال قائلون انه يعيد نفسه وقال آخرون انه
لايعيد » العربى : ابريل ١٩٦٨ .
- ٨ - « العقل والايمان : عينان بهما يبصر الانسان الحياة
ويهتدى » العربى : نوفمبر ١٩٦٨ .
- ٩ - « المادية والروحانية عند الفلاسفة » العربى : فبراير
١٩٧١ .
- ١٠ - « بين التخصص والتعميم فى الدراسات الجامعية »
العربى اكتوبر ١٩٧٢ .

١١ - « المادة والمادية والروح والروحانية وسؤال المادة
النادية في العربية » العربى : إبريل ١٩٧٤ .

١٢ - « الحضارة الحاضرة سبقتها حضارات كثيرة »
العربى : يونيو ١٩٧٤ .

١٣ - « الأزل والأبد معنيان تحديا فطنة الانسان من قديم
العصور والأزمان » العربى أكتوبر ١٩٧٥ .

الباب الرابع

فلسفة الحياة عند الدكتور احمد زكى

لابد من الغاية فى الحياة وكيف يكون النجاح بدون
غاية ؟ بل حتى كيف تكون الخيبة بدون غاية ؟

احمد زكى

يتناول هذا الباب عشرة بنود تدور فى فلك الحديث عن فلسفة الحياة عند الدكتور زكى ، وقد تعرضنا فى الباب الاول لحياة الرجل ، واسنا هنا نطالع فلسفه لحياته ، ولكننا تعرض فلسفته التى اراد للناس ان يأخذوا بها فى حياتهم ، ولم تكن هذه هى الفلسفة التى صاغت حياة احمد زكى ، ولكنها كانت الفلسفة التى صاغت حياة الدكتور زكى الطويلة العريضة العميقة وأول هذه النقاط هو طبيعة الحياة ، الحياة على وجه العموم ، والحياة فى هذا الزمان ، وثانيها تتعاقب بحظوظ هذه الدنيا ، وما فيها من ثنائيات قد لا تسر المرء فلا يرضاه ، ولكنه اذا اراد ان يعيش فلا بد لها من الأمر ونقيضه ، والأمل وخيبته ، و ، وثالثها يتعلق بتريديد احمد زكى فى شبه اقتناع لنظرية الابدانية فى أن امتناع الالم هو سبيل السعادة ، وان انعدام الشقاء هو اللذة ، ورابعها تناقض معنى النجاح فى الحياة ، وخامسها تركيز على « الغاية » من الحياة ، وأهميتها فى صنع النجاح ، وفى تقدير النجاح .

ثم يتطرق بنا الحديث فى البند السادس من هذا الباب الى انجح الوسائل لاختيار البديل فى طرق الحياة عندما نتعرف بالانسان

وأنجح الوسائل عند أحمد زكى هي الفطرة ، ولهذا فإن النقطة التالية (السابعة) تحلل فلسفة الحياة مع النفس ، على حين يدعو الدكتور أحمد زكى (فيما جعلناه ترتيباً) (النقطة الثامنة) الى التركيز على الحاضر وضرورة الاستمتاع به ، ثم تتناول النقطة التاسعة آراءه فى علاقات المرء بالنفس من حوله (ونظريته فى ذلك ان العيش المعاملة (على وزن الدين المعاملة) . ونختتم هذا الباب بتحليلات شيقة للدكتور أحمد زكى يناقش فيها مصائب الدنيا كيف تهون ؟ وهى مناقشة علمية مازيفة سوف تفتح نفس القارئ للباب التسالى ان شاء الله .

وهذه هي البنود العشرة على سبيل التفصيل :

١

كتب الدكتور أحمد زكى مقالاً رائعاً فى الهلال ، ديسمبر ١٩٥٠ تحت عنوان «الحياة فن عسير» قص فيه قصة شاب نابه نابغ، استكمل تعليمه فى كلية الطب ، وخرج الى أوروبا ، فعاد منها بأرفع الشهادات مستوى ، وكان له من العلم مستوى أرفع ، فلما أخذ يعامل الناس كطبيب لم يحظ بالنجاح الذى حظى به من هم دونه بمراحل علما وخبرة وشهادات ، هذا هو مايعيننا من التفاصيل الطويلة التى رواها الدكتور أحمد زكى فى أمر هذا الشاب ، وما ناقشه من أسباب فشله فى ممارسة الحياة ، ولعلنا نأخذ هنا تلك العبارة البليغة المركزة المؤثرة التى روى بها أحمد زكى سبب فشل هذا الشاب حين قال « انه خرج الى الناس لايخرج انسان ولكن خروج كتاب » .

« ذلك ان الحياة علم ، وان الحياة فن ، ولكنها علم لاتلقى دروسه فى حجرات المدارس ، وفن لا يتعلمه الانسان فى مرسوم أو منحت أو متحف فنون ، وليس للحياة علاقة بشهادات المرء

ولا مؤهلاته ، فهذه لا تغنى شيئا عن صاحبها اذا اخترق الشارع خطأ فداسته سيارة ، وليس يعفيه من عاقبة خطئه أنه محام كبير أو عالم جيهذ ، ذلك انه لا المحاماة ولا العلم تعلم اختراق الطريق أو احسانه .

« وقد تجد رجلا لم يتعلم ولم يتفقه ، ولكنه فى الحياة ناجح وهو فيها سباق ، ذلك لانه تعلم الحياة لا مما تجمع من علومها وتبوب ، ولكن من ذلك الجانب الأخرى الذى يتعلمه الانسان ممارسة بالعيش واحتكاكا بالناس وتدربا على تصريف الامور وهى فى مجاريها الطبيعية من سطح هذه الارض » .

ونعود مع مجلة الهلال حوالى عشرين شهرا لنقرأ لأحمد زكى فى مقاله « الكذب : فى قديم الزمان وحديثه » الهلال ابريل ١٩٤٩ اقرارا طويلا بصعوبة الحياة نجتزئ منها بقوله : « وصناعة العيش مرهقة ، والطبيعة ، والطباع ، وأوضاع الحياة كثيرا ماتكون مجحفة ، وهذه الأرض البسيطة ما بسطت ، لتكون أرضا حراما والا فما فضل المساجد والكنائس والبيع » .

هذا عن الحياة فى عمومها ، فماذا عن حياة اليوم ، حياة القرن العشرين ، هذا هو مانقرأ فيه فى الجزء الثانى من حديث الشهر ، العربى ، ابريل ١٩٧٥ ، تحت عنوان « دنيانا هذه مريضة تزداد مرضا عاما بعد عام » حيث يقول الدكتور أحمد زكى : « ان سرعة الحياة فى القرن التاسع عشر غير سرعتها فى القرن العشرين ، الحياة تتسارع على القرون ، ونعم تظل ضربات القلب فى انسان القرون واحدة ، وعدد الانفاس فى الدقيقة واحدا ، ولكن غير ذلك ما تجرى به الاقدام وتختلج الأدمغة وتضطرب به القلوب والرغوس .. » .

ولكن هذا لا يبرر الهرب من الحياة ولا من معاملة الناس ، مع ان الحياة فن صعب ومعاملة الناس هى اصعب اشياء هذا الفن «راسا ، وهذا هو ما يؤكده عليه الدكتور احمد زكى فى مقاله الحياة فن عسير :

« وقد ينجح الهارب من الحياة ، ولكنه يكسبها عندئذ تبقى الحياة ، والهرب على كل حال هرب من تبعه ، والحياة انما كانت لتحمل فيها التبعات والراحة آتية لاشك فيها ، وهى رقدة تطول لا تتغير فيها جنوب الراقدين ، فلم نستعجلها ، ولم ننكر الحياة ، وفى صدرنا انفاسها ، »

ويلتفت الدكتور احمد زكى بعد هذا ليقول : « اقول هذا ليسمع عني السامعون وأذننى بالذى اقول اولى » اليس فى هذا تأكيدا للمعنى الذى اشرنا اليه فى مقدمة هذا الباب ، الم يكن الرجل ينصح الناس بما وجدته فى حياته وان لم يكن قد التفت الى أهميته فى بعض الاوقات .

٢

وفى مقال « تحرك الزمن ، فتحركت همومه » ، الهلال ، ديسمبر ١٩٤٧ ، وهو الفصل الثانى والعشرون من «ساعات السحر» يتحدث الدكتور احمد زكى عن نوعين من البشر ، وقارن بينهما ، وأراد الناس ان يتعظوا برأى شيخ كان يرى فى الدنيا ثنائياتها ويؤمن بتتابع هذه الثنائيات ، ويتوالىها ، وبوجودها معا : « حكمة بالغة تلك التى علمها اياى هذا الشيخ فى زمانه ، انى على الجوع لايد ان اذكر الشبع ، وعلى الشبع لايد ان اذكر الجوع ، وفى الخيبة لايد ان اذكر النجاح ، وعند النجاح لايد ان اذكر الخيبة ، وفى كدر الصداقة لايد ان اذكر صفوها ، وعندما تصفو الصداقة يجب الا انسى كدرها » .

وأكثر من ذلك يذكر الدكتور أحمد زكى للناس أنهم لو تكاشفوا بما فى حياتهم لوجدوا أن الجانب الذى لايسر فيها أكثر من الجانب الذى يرتاحون له ، ويصوغ عالما هذه الفكرة فى قالب مؤثر فيقول : « ان الله أعطى الانسان اللسان يكشف به عن نفسه ، ولكنه اعطاه كذلك الصمت يستر به على نفسه ، ولو تحدث الناس بالذى فى طواياهم ، وصدقوا لعرفوا ان حظوظ هذه الدنيا من خوف أكثر من حظوظها من اطمئنان ، وقسمتها مما يسوء أكثر من قسمتها مما يسر ، ولو أن الناس نطقوا وأفصحوا عن نية خالصة ، لكان بالتعاون عليه واستئصال اسبابه » .

ويمضى الدكتور أحمد زكى فى هذه الناحية يضع تصويرا (طبيعيا) لحياة الناس بداياتها ونهاياتها : « ان حياة الناس كأنها الأرض ، لها منبع ، وبها مصب ، ومن البحار تعود فتنشأ الانهار ومن الانهار القصير السريع ، لأنه يهبط من جبل ، ومن الانهار الطويل المتهدى لانه يجرى فى انبساط ، ومن الانهار المستقيم ومنها المتعرج حتى لتحسبه عائدا من حيث أتى ، ومن الانهار ما يضيق مجراها حتى لتحسب أنها تنضب وتجف ، فاذا بلغت مداها اتسعت فلا تكاد تؤلف بين هذه السعة وذاك الضيق ، ومن الانهار ما تعترضه الشلالات ومنها ما يدور حول جزر ، ولكنها كلها تنتهى دائما الى المحيط الاعظم فتتسى ، وينسى معها وجودها ، وكل ما كانت قد لقيت فى مجراها » .

« وكذلك الناس ، يلقون ما يلقون بين شروق الحياة وغروبها . وعند الغروب يستوى العظيم والضميل والكثير والقليل ، وذو اللون الزاهى ، وذو اللون المعتم ، ان الالوان تتوحد بدخول الظلام » .

والمعنى الذى تدور حوله هذه النقطة من ان السعادة هى انتقاء الآلام ، معنى فلسفى قديم ، لم يفتأ احمد زكى يكرر روايته حيناً على سبيل الرواية فحسب ، وحيناً على سبيل الرواية او الترجيح وحيناً على سبيل الرواية مع الاعجاب، وحيناً مع التزكية * وسنجدتzy هنا بعض الفقرات القصيرة من مقاله « هكذا أدبنا أسياننا » ، الهلال ، مايو ١٩٥٠ ، و « تحرك الزمن فتحسرت همومه » ، الهلال ، ديسمبر ١٩٤٧ ، واكثر من حديث من احاديث الشهر حسب ما ستوضحه قائمة المصادر *

والعدم خير من الوجود الذى يكون شقاء ، ويكون ألماً ، وانعدام الشقاء اول خطوات السعادة ، وانعدام الألم اول السبيل الى اللذة *

لقد اوجب ان تكون حياة العاقل منا لاسعياً دائماً الى لذة ، ولكن تجنباً دائماً للآلم ، ان السعادة فى الحياة قد تكون بالذى تأتى به الحياة من افراح ، ولكنها تكون اكثر من ذلك بالذى لاتأتى به من احزان ، وماكدح الناس فى الحياة وراء الغنى الا دفعا للفقر لانه ألم *

ولا يقتصر أحمد زكى على أقوال الابوقراطية القهماء وحدهم فى هذه المسألة ولكنه يبدى اقتناعاً بها فى فلسفة ارسطو حين يقول « العاقل لا يهدف الى اللذة فيطلبها ولكن الى الألم فيتحرر منه » وفى أقوال فولتير حين يصور الأمر بطريقة أخرى فيقول « انا نحس السرور حالين ، ولكننا نحس الاحزان ايقاظاً » *

أما القول بأن أحمد زكى كان من هؤلاء فأمر لايزال دليلاً عليه يعوزنا *

وماذا عن النجاح في الحياة ، ان أحمد زكى يخصص مقالا في هلال مارس ١٩٤٧ ، تحت عنوان « أصحابي الذين خابوا » يناقش فيه الأسباب التي حالت بين هؤلاء ، وبين النجاح ، ويلخص الدكتور أحمد زكى عوائق النجاح بعدما أفاض الحديث فيها على نحو لا بد من الرجوع اليها للباحثين عن النجاح ، والمعانين في سبيل البحث عنه ، ولكن لا بد لنا من أن نجتزئ هنا هذه الفقرة :

« فدون النجاح في الحياة عوائق ، هي ضروب ثلاثة ، عوائق من طباع ، وعوائق من بيئة ، وعوائق من فرص تأتي ثم تفلت وقد تتجمع فتجعل النجاح أعسر من دخول الجنة ولكن كثيرا ما يسعف الطبع وتسعف البيئة وتأتى الفرص فتقف عند بابك ، فتصبح الموانع من النجاح دوافع اليه ، ونذر أن تجتمع كل هذه دفعة واحدة لرجل ، الا رجلا اصطفته الآلهة ، كما زعم الاغريق - للاعزاز وللتدليل - »

والحقيقة ان الدكتور أحمد زكى بعد ماحقق من نجاح ، وبعدمه استبان له طريق الحياة بما فيه من دروب شاقة ، ومسالك وعرة ، وبعد جاءت له الخبرة بالحياة قراءة وسماعا وملاحظة لخطى الناس كان يؤمن ايمانا لاشك فيه بضرورة المجاهدة والمكافحة الى أقصى مدى ، وفي كل لحظة وحين ، فلا ميل الى دعة ولا الى هدوء ولا ارتكان الى صدف أو رياح تأتي بما تشتته السفن ، ولعل في هذه الفقرة ما يعبر عن حرارة هذا المعنى وتمكنه من نفس أحمد زكى .

« ان النجاح أكثر ما يكتسب غالبا وصراعا ، وكل رجل عنا كالملاح فوق سفينته ، فقد يسكن له الماء ويهب الريح على هواه . ولكن الماء أكثر ما يكون مضطربا تنشره وتطويه الامواج ، والريح أكثر ما تكون ساصعة هوجاء ، فيعتمد الملاح عندها الى ما أسموه

في لغة البحار الصفيح والاصلاح ، فيقتبس من الريح وهي تعارضه
نصيبا يدفعه ، يدفعه الى حيثما يريد هو لا الى ما تريد الريح ،
ويصل الى غايته أخيرا ، وبعد مشقة وبعد زمن قد يقصّر أو
يطول ، وقد يطول الزمن فوق ما يطول العمر ، فيفنى الرجل
المجاهد كما تفنى الموجة فوق سطح الماء ، وفي نفسه لبانة لم تنقض ،
وبى قلبه من أجلها حسرة ، وقد تنقلب به السفينة على الرغم من
الجهوه الشاقة ، وعلى الرغم من المهارة والنية الصادقة ، لأن الموج
كان أعتى وأغلب » .

٥

وأحمد زكى في فهمه لمعنى النجاح في الحياة يوافق الناس الى
حد كبير على فهمهم له بأنه النجاح في الغاية ، في النهاية ، يكسب
السباق ، هنا يكون معنى الغاية وعلاقته بمفهوم النجاح واضحين
في فكر الرجل ، وعبارته في هذا صريحة : « والناس لا تفهم من
الاشياء الا غاياتها ، ولا ترى من هذه المعارك الدائمة الا خواتيمها ،
وهم في سباق الحياة ، كما هم في سباق القوارب ، يتكوبون عند
الهدف الاخير يصفقون للرجل الذى وصل أول واصل بأول قارب ،
أما سائر القوارب فتنسى ، أو هي لا تنسى لأنها لم تذكر قط ، ولن
تذكر أبدا » .

والناس من يلحق خيرا قائلون له

ما يشتهى ، ولأم المخطيء التهلل

ولكن أحمد زكى يتخذ من هذه النقطة بالذات مدخلا الى
تقرير أهمية أن يكون للانسان غاية في هذه الحياة ، يسعى اليها
يوما بعد يوم ، وهذا هو المعنى الذى كرره أحمد زكى مقالا بعد
مقال ، بل أنه يبدى تعجبه من أن يتحقق النجاح وليس للانسان
غاية يسعى اليها . هذه الفكرة بالذات من أعظم افكار مفكرنا
الكبير ، ومن أروع الافكار في تفكيرنا العربى المعاصر ، يظهر فيها

واضحاً اثر التفكير العلمى الذى يهدف فى الأصل والنهائية الى
ايجاد حل لمشكلة !! ، ويظهر فيها واضحاً فكر الرجل الذى كان
يعرف ماذا يريد فحقق ما أراد .

لا بد من الغاية فى الحياة . « وكيف يكون النجاح بدون غاية ؟
بل حتى كيف تكون الخيبة بدون غاية ؟

« ذكرنى هذا بالفتاة « أليس » فى الكتاب العالمى الشهير « أليس
فى بلاد العجائب » جاء فيه أن « أليس » وقفت عند مفترق الطرق
ولا تدري أى الطرق تأخذ ، وجاءت قطة تسعى . فنادتها الفتاة
وسألتها : أى هذه الطرق أخذ ؟ قالت القطة : هذا يتوقف على أية
غاية تقصدين ، قالت الفتاة : ليس لى غاية فقالت القطة : إذن
فخذى هذا الطريق أو هذا أو هذا . »

٦

ولكن كيف يمكن للانسان أن يسلك مسالك هذه الحياة الوعرة،
وما هو المعيار الثابت الذى يستطيع ان يقيس به الأمور اذا اختلطت
عليه الأمور ، صوابها وباطلها أو صوابها وصوابها . ان أحمد
زكى يؤمن بما يدعو إليه الحديث الشريف من أن البر هو موافقت
عليه نفسك ، وعبارات أحمد زكى فى هذا واضحة صريحة لا تحتاج
الى تعليق ، غير اننا هنا سننجزىء مع اعادة ترتيب لفقرات
وعبارات الرجل فى هذا الموضوع ، فى مقاله « الى أين المسير » ،
الهلal ، فبراير ١٩٥٠ .

ان الذى أريده منك ، فيما ترتاب فيه ، ان تستوحى الفطرة
ثم تسلم لها قيادك كما اسلمت الأم التى ترعى وليدها - ولو سألت
المنطق لما وجدت سبباً فحياتها ليست متوقفة عليه بل تسوء . فتخرج
بك من الظلام الى النور فتحسن العاقبة . »

« الفكر كالبصر له غاية وليس جواب » (الى أين الصير « مما يدركه الفكر ذلك لأنه جاوز تلك الغاية » * ودنا تتدخل الفطرة فتهل حيث يعجز الفكر » *

فطرتك هذه هي منار الهدى لك ، ما بقيت سليما ، هي مصباحك الذى ينير لك السبيل ما حافظت عليه فلم تأذن لأحد أن يفسد زيتته أو يعيث بقتيله أو يحطم زجاجه ، فطرتك هذه هي في داخلك تستخدمها وتستمد منها العون فتغنيك عن عون يأتيك من خارجك ، انك اذا تبعت ما توحى به الفطرة سلمت عاقبة » *

« وانى بالفطرة احس دبيب الفرح في قلبي : ان هذا الخلق ما كان عبثا ، وان هذا الفكر الذى أفكر به لا يجوز في احساس الفطرة ان يكون ثم لا يكون وان هذه الدنيا لها ما وراءها » *

« ما خشيت الزمان ، وما خشيت الكهولة ، ولن أخشى الشيخوخة لأنها الفطرة والفطرة عودتنى الا يكون منها الا الخير وانا لن أخشى ما وراء ذلك لأن الفطرة تريد ، والفطرة طيبة خيرة ، فهذا ما سلمت منها في سابق الأيام » *

٧

ومن الطبيعى اذا كان لفطرتك التى هي بعض نفسك كل هذا الدور في تحديد مسار حياتك ، فلا بد لك من التوافق مع هذه النفس ، وان تكون واياها في انسجام ، وهدوء بال ، والدكتور أحمد زكى يعبر عن هذه النقطة بالذات بمثل واقعى من الحياة ، وذلك ان الدكتور الجوادى (يقصد الدكتور عبد الجليل الجوادى) كان استادا للنبات في جامعة مصرية (هي جامعة الاسكندرية) واصابه من الناس فيها عنت ، ومشقة وأذى في عمله ، فظن ان في الهجرة

خارج مصر متنفسا له ولعلمه ، وترك البلد ، وسافر ، فعمل في أمريكا ، وما لبث بها وقتا قصيرا ، حتى كان الدكتور أحمد زكى هناك في رحلته التى استطلع فيها أحوال مراكز البحث العلمى في البلد الكبير ، فطلب مقابله ، وقابله واستمع الدكتور أحمد زكى منه الى قصته ، وما عاناه ، وحاول ان يرغبه فى العودة الى الوطن بعد عام أو عامين ، فوجد عند الدكتور الجوادى رفضا وتصميما ، شديدين ثم مرت فترة قصيرة ، وأتى الدكتور أحمد زكى الخبر بأن الدكتور الجوادى أنهى حياته منتحرا ويحكى الدكتور أحمد زكى هذه القصة مشيرا الى أسم العالم المصرى فى مقاله « مربوا من الحياة ، فلاحقتهم » الذى نشره فى الاثنين ، ثم اعاد نشره فصلا فى كتابه « ساعات السحر » ويقول الدكتور أحمد زكى : « ان صاحبنا الذاهب (د . الجوادى) أصابه فى مصر من الناس لاشك شيء كثير ، ولكن أكثر ما أصيب به كان فى نفسه ، تلك النفس الحساسة ، القلقة ، المريضة ، التى أخذت تدفع لوم الناس بلوم ، وترد لهم التهمة بتهم ، وتتلقى البصقة القليلة تلوكها لتردها اليهم أكبر حجما وأكثر لزاجة ، حتى حصلت من خصومة الناس هم الحياة ، وشغلها المرض والقلق والحس المرهف عن القعود فى هدوء تدرس فيها أسباب كل هذا الشغب لتبدأ بنصيبتها من اصلاحه ، بل لعلها عرفت بالحس الخفى ما سوف يؤدى اليه هذا القعود ، وكرهت نصيبتها من الاصلاح فأثرت عليه لفحة الخصام ووطيس الحرب »

« وذهب الدكتور المسكين ذلك المذهب البعيد ليبرا من الناس وبرىء ، ولكنه لم يبرا من نفسه ، لأنه لا يستطيع البعد عنها ، وكيف وهو يحملها بين جنبيه » .

« ويستطرد الدكتور أحمد زكى من هذه النقطة الى القول بأن الأسرة قد تكون هى الأخرى عاملا تضيق به نفس الانسان ، فيخرج عن طوقه ، وقد تكون هذه النقطة بعيدة عن الترتيب الطبيعى لهذا

الباب ، ولكن لابس من أن يقرأها القارئ من باب الاستطراء ، بل وله الحق أن يأخذها كما لو كانت هامشا .

وآخرون عرفناهم لم يضق بهم وطن ، ولكن ضاقت أسرة . واتخذوا الزوجة من بعد الزوجة ، وحسبوا فيمن تركوا السوء ، وفيمن استجدوا الخير ، وتكذب التجربة ، فيعودون يطلبون الزوجة الصالحة ، وما في الزوجة الفساد ولكن في الزوج وانى له أن يرى ولم تخلق بعد المرأة التى يرى بها الرجل نفسه كما يرى وجهه اذن لعلم أنه في مهربه انما يهرب من نفسه ، وهو لا يستطيع منها مهربا ، وانه لا يستطيع أن يجد الزوجة الصالحة ولو بلغ الزوجات ألفا ، وان عليه ان يطلب أول ما يطلب ، النفس الصالحة » .

ونعود مع الدكتور زكى حين يؤكد على ضرورة الرجوع الى النفس للاستهداء بها في كل ما تفرق فيه الطرق وهو هنا يؤكد على النسبة بين النفس والدنيا ، لا تقليلا من شأن النفس ولكن تقريراً لمقيمتها الحقيقية ، وهى عظيمة !

اذا ما ضقت أو قلقت ، فارجع الى نفسك ، وانظر ما بها ، ان الدنيا كبيرة عظيمة لا يمكن أن يغير الفرد ما فيها ، ولكن النفس صغيرة قليلة ، وهى ملك صاحبها ، اذا لم تكن غلبته تملكه ، واذا ضاع اتساق بين كبير وصغير ، وكثير وقليل ، أعيد الاتساق بتعديل القليل الصغير ليتفق مع الكثير الكبير ، فعدل من نفسك تتعدل الدنيا ، .

٨

والدكتور أحمد زكى يؤكد على ضرورة الاستمتاع بالحياة ، لا استمتاع اللاهى العاثر ، ولكن استمتاع المقدر للحلاوة والمرارة والعامل للحياة وما بعد الحياة .

وفي مقاله « الحرب اليوم علم وتكنية » مجلة العربي ، حديث الشهر ، مارس ١٩٦٩ ، نجد قوله :

ويجب ان تستمتع بالحياة ، وتهمس لها ، تستمتع بحلولها وملحها وبحانقها ولا تجعد الوجوه تقززا من مرها لأنه كائن ، وكل كائن هو بعض الحياة ، فاذا جاعنا المر ونحن في نشوة من حلوة ، وجب ان نقف بالحلو عند غايته ونقول للمر تقدم فما عليك من بأس ، *

« نعم يجب ان يتعلم الشباب منا والرجال ان الدنيا ورود وأشواق ، وإن الله ما جمع الورد والشوك على ساق واحدة عبثا *
انها رمز الحياة » *

وفي حديث له عن الاجازات والاسترواح ، بعنوان « أخذت اجازة من نفسي » الهلال ، يوليو ١٩٥٠ يقول الدكتور أحمد زكي :
« ان أكثر ما يعكر على الانسان صفو الحياة ، تلك اللفتة التي يلتفتها المرء الى الوراء الى الأمس ليذكر * أو امتداد العنق لتنتظر عليه الى أمام الى الغد فيأمل » *

« ان الرجل في اجازته يجب أن يتذكر حاضره ، يجب ان يأخذ اجازة من نفسه ، من ماضيها ومن مستقبلها ، وأن لا يعنى بغير الحاضر ، يجب أن يحزم في حقيبه ما شاء الا الهم هما سلف ، أو هما يستقبل » *

٩

وبلغت عالمنا النظر الى أهمية حسن العلاقة مع الناس ، وهو يؤمن بصعوبة تحقيق هذا الخلق ، ولكنه يؤمن أيضا بأنه ممكن وليس مستحيلا ، وهو يرتفع بهذا الخلق الى درجة رفيعة ويؤكد على أهميته المرة تلو المرة ، وبخاصة في فصول كتابه « ساعات

المسحر ، التى كانت فى الأصل مقالات فى الاثنين وفى الهلال فى
أواخر الأربعينات ، وهى الفترة التى عنى فيها الدكتور أحمد زكى
« قالوا ان الدين المعاملة ، وأقول ان العيش المعاملة ، المعاملة بين
الناس شاققة حتى على النية الحسنة انه العيش المعاملة بين شيئين قلما
ان يكونا خلقا ليتقفا ، والتنسيق بين أمرين قلما ان يكونا وجدا
ليتسقا ، والتنسيق بين ترسين من فولاذ فى مكنة الحياة ، قلما ان
يكونا صبا ليتعشقا » .

وعلى نحو ذلك يمضى الدكتور أحمد زكى يعبر فى عبارات
مطولة عن أننا فنكر من الطبيعة الجامدة أشياء كثيرة ، حرا ،
وبردا ، ومطرا ، وجفافا ، وربما رمالا ، ومع هذا نصبر على أسواء
الطبيعة الحية ، وأحداثها ، أجواء الناس ؟

ونعود لننهي هذا البند بما بدأ به أحمد زكى حديثه فى هذه
النقطة حين يقول : « انك لا تستطيع ان تكون هذا ، أو بعضه اذا
انت لم تكن قادرا على ان تجعل ما بينك وبين الناس عامرا ، وأن
تجعله موهولا ، وتجعله صافيا ، أو اذا هو تعكر ، أن تحتمل
العكر ، وتحتمل القذر ، وتحتمل الأذى » .

« انك يا صاحبي ذو حس مرهف ، تسيئك الكلمة النابية ،
والنظرة الجافية ، والفعله النكراء ، فتجفل منها ، وتعطى ظهرك
للادنيا ، ان الذى أريده منك أن تفعل كالقطط ، تقذفها الناس
بالاحجار ، ولكنها تثبت على البيت الذى خرج منه الحجر ، لأنها
تعلمت بالتجربة ان البيوت كلها بها محصول من الحجر وافر
سوف لا يفنيك أن تتحول عما أنت فيه ، فأنك حيثما تحولت :
ستجد الأرض هى الأرض ، والسماء هى السماء ، والناس هم
الناس » .

وقد لا يكون من التكرار الممل ان نعيد هنا في معرض الحديث عن تهوين الدكتور أحمد زكي لمصائب الدنيا قولاً له وضعناه من قبل في البند الثانى من هذا الباب حين أردنا أن نعبر عن فهمه لثنائيات الحياة ، وهذه الطبيعة الثنائية فيها ، اذ يقول الدكتور أحمد زكى : « ان الله أعطى الانسان اللسان يكشف به عن نفسه ولكنه اعطاه كذلك الصمت يستتر به على نفسه ، ولو تحدث الناس بالذى في طواياهم ، وصدقوا ، لعرفوا أن حظوظ هذه الدنيا من خوف أكثر من حظوظها من اطمئنان ، وقسمتها مما يسوء أكثر من قسمتها مما يسر ، ولو أن الناس نطقوا ، وافصحوا عن نية خالصة لهان لهم بالشركة فيه ، أو لهان التعاون عليه واستئصال أسبابه » .

وجوهر فلسفة التهوين في الفقرة السابقة هو المشاركة (الشركة) أو التعاون على أن هناك فلسفتين أخريين للتهوين الثانية عبر عنها الدكتور أحمد زكى في مقاله « تحرك الزمن فتحركت همومه » الهلال ١٢/١٩٤٧ وتكمن في توحيد المكان على نحو ما يحدث في ميدان الحروب حين يموت الجمع مرة واحدة :

« والانسان يفقد أمه أو أباه ، أو يفقد ولده ، ولا يكاد يخطر له في بال أنه في تلك الساعة ذهب عن الدنيا ألوف من أباء وأمهات وأولاد ، جمع بين أحداثهم الوحدة ، الزمن الواحد ، وفرق بينها المكان ، ولو توحيد المكان ، لهان من الأمر ما هان ، لهذا كان موت الميدان ، في الحروب ، أخف من موت الفراش في الأسرة ، هؤلاء يموتون جماعة ، وهؤلاء فرادى ، ومن الأحداث ما يجمع بينهما المكان الواحد ويختلف الزمان ، ومن ذلك زهاب الجد والأب والولد من بيت الأسرة الواحدة يمضون على أحقاب متفرقة ، فيزيد في ألم

الشتات اختلاف الزمان ، لارتباط بحاضر ، وتعلق بماض ، وتربص
بمستقبل ، •

والفلسفة الثالثة تكمن في الاحساس بالزمن الجارى الذى
لا يدع لك فرصة للتفكير الطويل فى مسألة الفاجعة : « ان الاحساس
بالزمن الجارى ، يذهب عن الناس بشيء كثير من مواجعهم ، ويذهب
كذلك ببعض مفارحهم ، وهو فى الحالين كسب ، لأن مبداء الحقيقة
الشعر والخيال » •
ويعد :

فهل وجد القارئ فى هذا الباب ما يفيد فى أن يحيا الحياة
كما أرادها الله ، أو كما يريد لها لنفسه ، أو كما أرادها أحمد زكى ،
أو هل أفاد القارئ فى أن يفهم بعض حكم هذه الحياة الدنيا ، أو
بعض أمور الحكم فيها ، أو هل اضاف اليه هذا الباب شيئا يستطيع
به أن يحكم على موقفه من حياته أو أن يتحكم به فى مسارها •

بل هل أفاده شيئا فى ثقافته ، ثقافة العامة ، أو ثقافة الحياة ؟
هل فتح عينيه على سعادة لم يكن يجدها ، أو على باب للسعادة لم
يكن يعرفه من قبل لو كان لهذا الباب بعض هذا فان المؤلف أن
يسعد ، ولو لم ينل هذا الباب من قارئه بعض هذا ؟ أو لو لم ينل به
قارئه بعض هذا فان أمام المؤلف ثلاث فلسفات للتبوين من أمر
المصائب قد سردها المؤلف عن قرب فى البند العاشر مع ايمان
المؤلف أن أعماله مهما بلغت لا تصل الى هذه الدرجة من الأهمية :

المصادر :

- ١ - « أصحابي الذين خابوا » الهلال : مارس ١٩٤٧
(الفصل الثامن عشر من ساعات السحر)
- ٢ - « تحرك الزمن فتحركت همومه » الهلال : ديسمبر ١٩٤٧
(الفصل الثاني والعشرون من ساعات السحر)
- ٣ - « سلاسل وأغلال » الهلال : ديسمبر ١٩٤٨
(الفصل الحادي عشر من ساعات السحر)
- ٤ - « دنياك لا تخشىها أبدا » الهلال : يناير ١٩٤٩
(الفصل السابع من ساعات السحر)
- ٥ - « الكذب » الهلال : إبريل ١٩٤٩
(الفصل الثالث عشر من ساعات السحر)
- ٦ - « إلى أين المسير » الهلال : فبراير ١٩٥٠
- ٧ - « هربوا من الحياة فلاحقتهم » الفصل السابع والعشرون
من ساعات السحر نشر قبلا بمجلة الاثنين .
- ٨ - « الحياة جسر لابد أن يعبر » العربي : مايو ١٩٥٩
- ٩ - « هكذا أدبنا أسيادنا » الهلال : مايو ١٩٥٠
- ١٠ - « أخذت أجازة من نفسي » الهلال : يوليو ١٩٥٠
- ١١ - « الحياة فن عسير .. استفد من تجاربي » الهلال : ديسمبر ١٩٥٠
- ١٢ - « سألته عن السعادة » الهلال : فبراير ١٩٥١
- ١٣ - « النجاح في الحياة حظ » الهلال : يونيو ١٩٥٦
- ١٤ - « الحرب اليوم علم وتكنية » العربي : مارس ١٩٦٩

أحمد زكى والوحدة العربية

لا يخلص العرب في النكبات غير العرب ، وغير التمسك
بالوحدة عندما تمهد النكبة للفرقة ، شريطة أن يكون
عند كل بك عربي هاية له للوحدة •

أحمد زكى

سنحاول ان شاء الله ان نركز الافكار في هذا الباب ، بعدما
أفضنا في الباب السابق في الحديث عن موقف أحمد زكى من أزمة
الشرق الأوسط ، ومعالجته لها ، وقبل أن نتعرض في الباب السادس
ان شاء الله لأرائه فى قضية الاسلام والعصر الحديث ، ولا بد أن
نشير هنا أنه لابد للمقارئ لكى يستكمل الصورة فى آراء أحمد زكى
فى مسألة الوحدة العربية ان يرجع الى البابين السابق واللاحق •

وقأتى أهمية رأى أحمد زكى فى مسألة الوحدة العربية من
سيرة حياته شخصيا ، فهو عالم مصرى ، ذهب فأقام فى الكويت ،
ليرأس تحرير مجلة تصدر للعرب أجمعين وتحمل اسم العربى ،
والأهمية ليست شكلية فحسب ، ولا نظرية فحسب ، وإنما هى
أعمق من هذا وذاك •

وقد تحدث أحمد زكى برأيه فى الوحدة ، وجودها وحقيقتها،
وسبلها ، وكيف الوصول إليها ، فى غير حديث من أحاديث الشهر ،
وإن نسرد هنا كل ما قاله ، ولا كل مقالاته ، وإنما سنمضى على

نحو معنى لا يرتبط بالترتيب التاريخي ، ولا بالاستقصاء ولكنه يرتبط بالقدرة على « أو بإمكانية » الإبانة عن أفكار الرجل في هذا الشأن .

كتب الدكتور أحمد زكي في (عدد يناير ١٩٦٦) يتحدث عن الأعوام السبعة الماضية من حياة العربي فاشار الى أن هناك مواضيع تغلق دونها أبواب الفشر في العربي ، اذ لا يمكن معالجتها ودخول « العربي » بها في كل البلاد العربية مع المزاج الفكري الحاضر ، وضرب مثلا بالاشتراكية ، ومثلا آخر « بالوحدة العربية ، وذكر أنه اذا تحدثنا الآن عن الوحدة وتحدثنا صادقين وخلعنا أدب السياسة والساسة والعقائدية ، لقلنا ان الوحدة الشاملة الكاملة تراجعت اليوم في حسيان العرب الى حيث تراجعت بها التجربة المرة والاحداث ، والحديث اليوم أولى أن يكون في وحدة كل قطر ، الوحدة الداخلية التي لا تكون وحدة خارجية الا بها ، وحدة الكيان الذي فيه بناء الدولة . هذه الوحدة الداخلية في حاجة الى رعاية كثيرة في أكثر البلاد العربية ، والى بحث كبير والى حديث كثير اذ كيف يمكن التوحيد بين وحدات هي في داخلها متصدعة .

وعاد الدكتور أحمد زكي في (مارس ١٩٦٦) ليجعل عنوان حديث الشهر : « الوحدة العربية .» ليست شعارا سياسيا يصرخ به الصارخون ليحجب الحقائق المرة حتى تفضحها الايام ، فذكر أن كثيرا قد أرسلوا يعاتبونه على هذا الكلام الذي كتبه ، وأضاف أن أحدهم ناقشه في رسالة ثم قال له في آخرها : « هب هذا حقا ، فما كان لرئيس تحرير «العربي» أن ينطق بمثله . ويسخر أحمد زكي من هذا الرأي قائلا : « عنده ان رئيس تحرير « العربي » يجب أن يكون حامل شعارات في الأمة العربية ، دائما يصرخ بأخبار السفر ، ولو كذبا ، حتى تصبح الأمة ذات يوم فتجد العدو عند عتبات

دورهما يدق بكعوب بنادقه الأبواب ، لاحظ أن هذا الكلام كان قبيل
الذكسة بعام وشهور . *

ويؤكد أحمد زكي أنه ليس شيء أحق بالقول من هذا الذي
قاله رئيس تحرير العربى فى ذلك المقال . *

ويزيد فيقول « ان الوحدة العربية فى ظروف التاريخ العربى
الحديث ، ومع رواسبه هى كوارث » . *

ويحذر من أنها « شيء لا يمكن أن يتقبله الناس على مستوى
عواطف الجماهير والشعور العام وحده ، لأن وحدة تبنى على هذا
المستوى تكون كالشيء الطافى ليس لها قرار . ليس لها عمد
متأصلة فى قاع البحر تعدها .. ان تذوق الجماهير الوحدة تخيلا
غير مذاقها فعلا » . *

الاقليمية والوحدة :

والدكتور أحمد زكى يرجع السبب فى انهيار الوحدات القائمة
على عواطف الجماهير الى الاقليمية المتأصلة فى طباع هذه
الجماهير . *

ولكنه ينظر الى هذه الاقليمية نظرة موضوعية ، ويقرر أنها
بعض صفات النفس الانسانية حتى فى البلد الواحد ويضرب الأمثلة
الكثيرة على هذا المعنى ، فدمشق أحب للدمشقيين من حلب ...
الخ (..) ثم يفرق بين اعلان الحرب على الاقليمية واعلان الحرب
على الغلو فيها ، « ان الاقليمية مزاج طبيعى محمود فى اعتداله ،
مرذول فى غلوئه ، وما الاقليمية الا نوع من الاقليمية السليمة ،
ومنها حب الاوطان » . *

« وللإقليمية حتى في البلاد المستنيرة حساسية تجاه كل غريب عن البلاد ، لا سيما فيما يتصل بالسكان في البلاد ، لقد كره الفرنسيون وجود الجنود الأمريكيين في فرنسا بعد حرب ، وهم مخلصوهم من نكبتهم .. » .

ويمس الدكتور أحمد زكي العلاقة بين القومية والوحدة العربية فيقول : ان الوحدة الكاملة الشاملة الدستورية التي تشيع في افهام الناس تتطلب نزول البلد الواحد عن بعض وجوه السيادة فيه ، فكيف يرجى من تلك الاقليميات التي نعرضها اليوم في البلاد العربية أن ترضى بهذا ؟ هذا اذا كانت حرة في اختيارها ، فكيف اذا لم تكن ؟

« ان سنين من التوعية طويلة يتطلبها التحضير الشامل للوحدة الدستورية الكاملة الشاملة ، ان تكن هذه حقا فهي خير مظلة تستظل بها البلاد .

والسبيل عند الدكتور أحمد زكي هو قيام كل بلد بالتحضير ، بالعمل على التشابه « علما وأدبا ، وثقافة ولغة وتنشئة أجسام وتربية أفهام ، ومعالجة مال ، واستثمار أرض وتصنيع موارد ، بحيث يجعل كل وجه من وجوه الحياة هنا شبه أخيه هناك الا فيما تدعو الى الخلاف فيه مصلحة ، ومعنى هذا « ممارسة التعاون على طول الخط » وهذا هو السبيل المفضل عند مفكرنا .

تقوية الاجزاء :

ولابد في هذه السنوات من اشتغال كل أمة بأمور نفسها اشتغالا كاملا حيثما تحاول به أن تسبق الزمان مسبقا ، تزرع البلاد اذا لم تكن تزرعت ، وتصنع اذا لم تكن صنعت .. » .

« إن الوحدة إذا تعثرت قليلا أو إذا همت تجهم لها الدهر قليلا أو كثيرا ، فخير ما تنفق البلاد فيه زمانها - دون أن تنسى الوحدة - هو قيام كل بلد عربى بالعناية بأمر نفسه ، بإرساء مقومات الحياة فيه ، أساطين عريضة ، تحمل مطالب هذا العصر الحديث وحاجاته الثقيلة ولا تنزل » .

ويلخص أحمد زكى فكرته فى هذا المجال فى عبارة أروع من عبارة نسبت الى سعد زغلول ومصدر الروعة فيها أنها استمدت التقرير والتقرير من الدرجات لا من مفهوم الأبيض والأسود حيث يقول : « ولتذكر دائما ، أن الوحدة ، التى تضم آخر الأمر نياقا ، غير الوحدة التى تضم فيلة وفهودا وآسادا » .

اليس ذلك خيرا من القول بأن الصفر والصفر صفر كبير !
والواقع واحد أو يكاد ! .

ونواصل عرض آراء أحمد زكى فى موضوع الوحدة العربية
« فى مقالات أخرى ، ولكن على طريقتنا هذه فى التبويب : »

الشعوب والوحدة :

وكان أحمد زكى لا يفتأ يدعو الى توعية الشعوب بمدى التضحيات من أجل الوحدة حتى يتبين استعدادها « علموا الشعوب أن الوحدة الشاملة أخذ وعطاء ، وهذا حق ، ولكن علموهم أيضا أن الوحدة الشاملة ستجمع بين السباح والذئب والنعاج وأن النعاج لابد مأكولة ، وعلموا الشعوب التى عندها ما تعطى ظاهرا وليس عندها ما تأخذ ظاهرا بأن الوحدة غرم عليها واستغلال ،
(العربى : يناير ١٩٧١) .

التقسيمات والمصادر :

وكان الدكتور أحمد زكي لا يفتأ يتحدث عن خطورة التقسيمات الى اشتراكية وغير اشتراكية وملكية وجمهورية ، وكان يناقش هذه الآراء فيمحسها ويبين ان النفع ليس في الشكل وانه في المضمون .

وكان يرى أن الحل في هذه الأمور هو معالجتها بهدوء : « انها صنوف من الاختلاف تمنع من ائتلاف ، اما أن نعالجها بحكمة ، والا فعلى العروبة والاسلام كليهما السلام » .

الوحدة الاندماجية ليست اليوم :

ومو يستنتج بعد هذا ويقرر أنه « لا يمكن أن تكون هناك وحدة اندماج تكون فيها للعرب حكومة واحدة تنظر في شتى أمورهم وتدفع عنهم غائلة الايام من الخليج الى المحيط » الى هذا يجب أن ننتهى ، وبهذا نصرح ولا نخدع الناس » .

« وتبقى الوحدة الكاملة الشاملة أملا عسى ان تخطيء الآراء وتتغير بما لا نستطيع ان نتنبأ الاحوال » .

« وصلة العروبة لا يمكن أن تزول ، كما انها ، على التقدير الحاضر للامور لا يمكن أن تنتهى الى وحدة كتلك التى ننتعها بالكامل الشاملة » .

« وان لم تكن وحدة واحدة شاملة كبيرة فلنكن وحدات مجزاة صغيرة » .

وححدات جديرة بالرعاية :

ونعود لننأمل في هدوء سريع - ان جاز هذا التعبير - آراء أحمد زكي في عناصر الوحدة ، والطريق الى الوحدة الشاملة، هذه

الآراء التي إبداهما مع انعقاد مؤتمر القمة العربي الاول في ١٩٦٤ ٠٠
كان أحمد زكي يرى ان هناك وحدات كثيرة أولى بالرعاية ٠٠٠٠
والوحدة الثقافية أولى هذه الوحدات بالرعاية ، وهى أسهل شيء
تحقيقا في مثل عالمنا العربي ، لسان واحد ، وتاريخ واحد ، وعادات
موروثة واحدة ، وجهاد واحد للخروج من تخلف آثاره في الوطن
العربي كله واحدة والثقافة تتأقلم ولكن لا يبلغ بها التأقلم حـه
التنافر ٠

والوحدة الاقتصادية : كالوحدة الثقافية خطرا ، فالثقافة حاجة
الروح والاقتصاد حاجة البدن ، ولعل حاجة الابدان أكثر ربطا
للاقدام من حاجة الارواح ٠ والوحدة الاقتصادية العربية بالطبع
لا تسد النوافذ على أسواق الدنيا الواسعة العريضة ٠ تأتي بعد
ذلك الوحدات الدفاعية والسياسية ، ولهما أهداف سواء ٠

الصفاء مع الفرس والباكستان :

سيجد القارئ في الباب الذي يتناول معالجة أحمد زكي لأزمة
الشرق الاوسط أننا خصصنا بندا للحديث عن ما بعد الحرب ودعوة
أحمد زكي الى الانفتاح على العالم بدءا بالجيران الأقربين ، ودعوة
الى التوسع في معنى العروبة والاتجاه الى الاسلامية ٠٠ والحق
أن أحمد زكي لم يناد بهذه الدعوة بعد نصر أكتوبر فحسب ، ولكنه
كان ينادى بها من قبل ٦٤ ، وكان يدعو الى إعادة النظر في العلاقات
مع الفرس والباكستان ، واصلاح شأن هذه العلاقات ، وكان يقول
« ان اقداما مست الأرض في القرن العشرين ، يجب ان تحمل رءوسها
معها ، فلا تتركها ترعى المر والحنظل من زرع ماضيات القرون
» ويحث أحمد زكي في موضع آخر على اصلاح شأن هذه العلاقات
فيتساءل « لقد وسعت سماحتنا بل وصداقتنا أمم الأرض ٠٠ فكيف
لا نتسع لشعوب شاركتنا في صنع أمجاد لنا ولهم قديمة ، وقاسمتنا

أرزاء للزمن حاضرة ، ، ويحذر عالمنا الجليل من أن نخضع هذه الأمور للجدل « لا سيما إذا استعين فيه بنبش الماضي بعيدة والقريب ، حينذاك يتغيب ويصبح الحق وكأنه الباطل . (هل كان الرجل ينظر من وراء حجاب الى ما حدث بعد وفاته بسنوات في حروب الخليج) .

هل العروبة عروبة دم ؟

مع شك أحمد زكى فى تحديد معنى العروبة الا انه كان يجاهر فى صراحة (العربى : نوفمبر ١٩٧٠) ان العروبة ليست عروبة دم أبدا ، ولا عروبة عروق موروثه ، وأكثر ما يقال فى هذا الأمر وأوضح ما يقال : ان الدم العربى دخل - على القرون الطويلة شرايين الكثير ممن ينطقون اليوم بالعربية . وسواء دخل كثيرا أو دخل قليلا ، أو حتى لم يدخل أبدا ، ودخول الدم الاجسام لا يعنى عند العلماء شيئا حتى اختلاط الانساب لا يدوم اثره أكثر من ثلاثة أجيال أو أربعة أو خمسة ثم يمضى .

دور اللغة فى تحقيق الوحدة :

وعلى الصعيد الآخر يرى الدكتور أحمد زكى (العربى : نوفمبر ١٩٧٠) ان اللغة لغة الناس ، هى المكون الاول لقوميتهم ، فهى الوعاء الذى يحمل حاضرهم بكل ما فيه مما يسر وما يسوء ، وهو الوعاء الذى يحمل ماضيهم وما الحاضر الا ارث من الماضي وهو الوعاء الذى تجد فيه كل آمال القوم ، وكل آلامهم ، والحوافز التى تحركهم جميعا فى مسالك الحياة جميعا . كيف يسلكونها والى أى الغايات يسلكون ؟ « لكادت اللغة والقومية أن يكونا شيئا سسويا » .

لهذا كان اهتمام الدكتور أحمد زكى شديدا بهذا الدور الذى تلعبه اللغة ، فهو يقدره حق قدره ، ويدعو الى الاهتمام به ، ويجعل له المنزلة العظمى فى مسألة القوميات .

فأما عن تقديره له فقد سقنا الفقرة السابقة ، وأما عن دعوته الى الاهتمام به فهذا هو موضوع البند التالى حول المشرق العربى والمغرب العربى كيف فرقت بينهما اللغة ، وأما أن أحمد زكى يجعل لغة المنزلة العظمى فى مسألة القوميات فقد سبق ان أوضحنا هذه النقطة بكثير من التفصيل فى الباب الذى تناول الفكر السياسى للدكتور أحمد زكى فى البند الخاص بالقوميات *

بين المشرق العربى والمغرب العربى :

كان الدكتور زكى يرى لا فى كتاباته فحسب ولكن فى العنوان وبالبنط العريض ، أنه « من وحى رحلة فى المغرب العربى لصيف عام ١٩٧٠ ٠٠ اللغة العربية ان شئت الوطن العربى شقين ٠٠٠ فشق ينطق بالضاد ، وشق ينطق بغير الضاد ٠٠ فذلك قضاء الله لا دافع له » . وخلاصة قوله فى هذا أن المغرب العربى قد عانى من الاستعمار الفرنسى « اللاتينى » الذى عرفنا من خصائصه حب صبغ مستعمراته بلون ولغة ٠٠ وهكذا عانى مغربنا العربى من هذا التغير الخطير . ويمضى الدكتور زكى فى شرح ابعاد المشكلة وحلولها وكيف أن الأمل فى حلها كبير ، خصوصا للأسباب الآتية:

١ - أن الريف ، وهو أكثر النبلاء لا يتكلم الا العربية ، ولو عامية محلية .

٢ - أن الذين يتكلمون لغة المستعمر فى العواصم من الجمهور لا يتكلمون من هذه اللغة ولا يعرفون منها الا القدر الذى تستوفى حاجات الشوارع والاسواق والجارى السارى من المعاملات .

٣ - أن المستعمر خلف البلاد فى جهالة غامرة ، وأذن لابد من أن يبدأ تعليم السواد من جذوره وحيث بدأنا من الجذور وجب أن تكون البذور عربية .

٤ - ان طائفة الوطنيين المثقفين ثقافة فرنسية ، وهم قلة وهمى الضخمة ، ولهم كل عطفى بحسبانهم ذلك فهو لاء امرهم يسير ليس فيهم من يعجز عن أن يستدرك من لغة آبائه ما فات ، ولن يساء احد بسبب اختلاف الدهور وتقلب الحظوظ .

ولكنه مع ذلك يركز على الاختلاف المناشئ بين ضلعى الوطن العربى ، واثره السئ فيما يتعلق بمسألة الوحدة العربية .

وان ما يعنينا من هذا الحديث هو ذلك الفهم التطبيقى للآثر الخطير الذى هو للغة فى صنع القومية وقيام الوحدة ، على أننا سنترك للقارئ حرية الرجوع الى هذا الحديث للاستمتاع بهذا الآثر الفكرى الرائع .

الانسجام مع الجماعة سبيل العروبة الى الحياة :

يهدف أحمد زكى من هذا الشعار الذى رفعه فى أوائل مقالاته بالعربى الى أن ينسجم الفره مع رأى الجميع حتى لو عرف بضلاله ، وأدرك خطاه . ويمضى يذكر لنا أمثلة ومواقف من التاريخ العربى كان أبطالها الشعاعران الكبيران دريد بن الصمة ، ومحمود سامى البارودى ، يدركون أن الجماعة تذهب بعيدا عن الصواب ، فكانوا يذهبون معها ، حتى لا يفتحوا بابا للشقاق ، ولكنهم سجلوا بأشعارهم أنهم كانوا على صواب ، وبقيت لنا هذه الأشعار تبرئهم من فساد الرأى ، وتذكر لهم فضل الانسجام مع الجماعة .

ولكن لابد للعمل الجاد من أجل الوحدة :

وعبارات كاتبنا الكبير فى هذا المعنى غنية عن التعليق ، وعن مقال مارس ١٩٦٤ ننقل قوله : « ان السماء لا تستجيب لدعاء الا

أن يعمل له الداعى أولا فوق هذه الأرض ، ولقد نظرنا فى أسباب الفكر الذى كان فرضيها قواعده تترك لكل بلد اعنته فى أيدي رجاله ، وتتواصى ، ولكن على الرفق ، ونجعلها حلبة سباق تسبق فيها الجياد الضامرات الفضليات فى كل مرفق من مرافق الحياة ، وفى حلبة السبق يتعلم أصحاب الجياد الشئ الكثير .

« واختصارا نعود الى المزاج العربى الذى كان سائدا عام ١٦٥٦ حين لم يكن بين العرب روابط الا روابط قلوب ، حين وقع الاعتداء المسلح فاهتز له الوطن العربى بمثل ما لم يكن يرجى له اخيرا أن يهتز والدعوة الى « الوحدة الشاملة » قائمة مسمعة تصم الأذان . »

خطورة بضياح الوحدة :

ليس من خاتمة فى هذا الموضوع أولى من خاتمة التحذير والتنبية فى قول الرجل « وبضياح الوحدة تكون مرارة فى الأنفس شديدة عميقة ، لو كانت فى اللسان ما ذهب بها حلاوة يجتمع على استخلاصها النحل من زهر الأرض جميعه . والعاقبة للصابرين . »

المصادر :

- ١ - « رابطة الثقافة اقوى من رابطة السياسة » الهلال : ديسمبر ١٩٥٣ .
- ٢ - « الجامعتان العربية والاسلامية » الهلال : نوفمبر ١٩٥٤ .
- ٣ - « القومية العربية تجتاز محنا ثلاث » العربي : ابريل ١٩٥٩ .
- ٤ - « النكبة الكبرى نكبة فلسطين » العربي : يونيو ١٩٥٩ .
- ٥ - « العروبة ليست رابطة دماء » العربي : يناير ١٩٦٠ .
- ٦ - « الشعوب نعمة عنصرية وتفتيت قومية » العربي : فبراير ١٩٦٠ .
- ٧ - « امجاد العرب هي ام امجاد المسلمين » العربي « فبراير ١٩٦٤ .
- ٨ - « مؤتمر القمة العربى الأول » العربي : مارس ١٩٦٤ .
- ٩ - « العروبة والاسلام » العربي : يونيو ١٩٦٤ .
- ١٠ - « بدانا السنة الثامنة مباركة في حياة العربى » : يناير ١٩٦٦ .
- ١١ - « الوحدة العربية ليست شعاراً يصرخ به الصارخون ليحجب الحقائق المرة حتى تفضحها الايام » العربي : مارس ١٩٦٦ .
- ١٢ - « نحن العرب : لا خوف علينا اليوم ولا غدا ، ولا بعد غد ولا نحن نحزن » العربي : يناير ١٩٦٩ .
- ١٣ - « المجتمع العربى » العربي : اكتوبر ١٩٦٩ .

- ١٤ - « رباطان هما مساك الأمم لا ينحلان أبدا : القومية والدين »
العربي : أبريل ١٩٧٠ .
- ١٥ - « من وحى رحلة في المغرب العربي لصيف عام ١٩٧٠ »
نوفمبر ١٩٧٠ .
- ١٦ - « ان تكن ماتت الوحدة الكاملة الشاملة ٠٠ فلنحى اجزاء
في ظل العروبة متكاملة » العربي : يناير ١٩٧١ .
- ١٧ - حضارتان عريقتان يعيش العربي فى ظلالهما » العربي
ديسمبر ١٩٧٢ .
- ١٨ - « الانسجام مع الجماعة سبيل العروبة الى الحياة » العربي :
ديسمبر ١٩٧٢ .
- ١٩ - « الانفتاح على الدنيا ضرورة » العربي : فبراير ١٩٧٤ .
- ٢٠ - « اذا جمعت الحرب فلا بد ان يفرق السلم » العربي : مارس
١٩٧٤ .
- ٢١ - « اختلاف الراى فى سبيل الخير غير اختلاف الراى عن
خبط ومكر » العربي : مايو ١٩٧٤ .
- ٢٢ - « لا صلح بين الزعماء اذا لم يتبعه صلح بين الشعوب
وصلح الشعوب اعصى » العربي : يونيو ١٩٧٥ .

الاسلام والعصر الحديث

« لقد كانت الحضارة العربية الاسلامية جذيرة بان تكون هي الحضارة الجديدة تعتنق الجديد اللازم لهذه العصور الجديدة ، وذلك بكل ما تضمنته من خير عظيم ، ومن ديمقراطية هي في اصل حياتها وثيقة وفسيرة ، ولكن فاتهما ما لم يفت اهل اوربا من ضرورة تحرير الفكر قبل التفكير في التخطيط والتدبير » .

أحمد زكي

لعل فقرة الاطار تلخص في تركيز شديد الجزء الاكبر من افكار هذا الباب ، ولكنها مع ذلك قد لا ترضى البعض ، وهي على هذه الصورة من الاجمال والتعميم ، ومن هنا تأتي فرصة المؤلف في هذا الباب ، لا بالاطناب أو الاسهاب أو التعليق على ما لا يحتاج الى التعليق ، ولكن بتناول الجوانب والنواحي والمزايا المختلفة لهذه القضية من خلال افكار الدكتور أحمد زكي في عدد من مقالاته الصحفية المختصة .

وتأتي أهمية فلسفة الدكتور زكي لهذا الموضوع من حيث كان الرجل مفكرا اسلاميا غيورا على دينه ، مهتما بأمره ، مدركا كيف يكون التوافق بين الدين والحياة ، دارسا لفلسفة التاريخ وطبيعة التطور .

ولن يجد القارئ في هذا الباب حلا لكل العضلات التي تواجه

الفكر الانسانى فى العصر الحديث فيما يتعلق بهذه القضية ، ولكنه سيجد أساسا فكريا يستطيع أن يبنى عليه من الموقف ما يساعده على الوصول الى وجه الحقيقة فى كثير من هذه الجزئيات .

وسىلاحظ القارئ فى العبارات التى ننتقيها للدكتور زكى شيئا من الانشاء فى اعجابه بالدين الاسلامى وسماحته وقدرته على الاستيعاب والتوجيه والبناء ، وليس للمؤلف أن يقول ان هذه العبارات لا تنم عن عاطفة الدكتور زكى بقدر ما تنم عن عقله ، ليس للمؤلف أن يقول ذلك فيما اظن لأن هذا من البدهيات سواء من ناحية الاسلام الذى لا يستطيع قلم كائن من كان أن يوفيه حقه ، أو سواء من ناحية الدكتور زكى .

وفىما يتعلق بالدعوة الى انشاء جامعة اسلامية (توسيعا للجامعة العربية) أو بادئ ذى بدء فقد أشرنا الى هذه الفكرة لأحمد زكى فى الباب السابق من وجهة النظر السياسية والعربية . أما هنا فسوف نشير الى الفكر من وجهتى النظر الانسانية والاسلامية .

وسوف يخرج القارئ من هذا الباب وهو يشعر بقصره ، ولكننا نرجو أن لا يشعر القارئ بقصور فيه ، فهذا ما عملنا على تجنبه قدر امكاننا .

اما عن أبرز المقالات التى تأخذ منها أفكاره هذه فهى :

- ١ - « الجامعتان العربية والاسلامية » الهلال : نوفمبر ١٩٥٤ .
- ٢ - « الاسلام والمسيحية هل يمكن التوحيد بينهما ؟ » الهلال : يناير ١٩٥٥ .
- ٣ - « كنا زمنا سادة فلنكن اليوم أسيادا » الهلال : يناير ١٩٥٦ .

- ٤ - « عبادة الله بغير علم كعبادة الاصنام » الهلال : مايو
١٩٥٦ .
- ٥ - « النكبة الكبرى نكبة فلسطين » العربى : يونيو ١٩٥٩ .
- ٦ - « أمجاد العرب : العرب حملوا مشعل الفكر قرنا » العربى :
نوفمبر ١٩٦٣ .
- ٧ - « أمجاد العرب هي أم أمجاد المسلمين » العربى : فبراير
١٩٦٤ .
- ٨ - « العروبة والاسلام » العربى : يونيو ١٩٦٤ .
- ٩ - « النكسة الكبرى ثالث النكسات فى ٢٠ عاما » العربى
يوليو ١٩٦٧ .
- ١٠ - « نحن العرب : لا خوف علينا اليوم ولا غدا ، ولا بعد غد
ولا نحن نحزن » العربى : يناير ١٩٦٩ .
- ١١ - « الحرب اليوم علم وتكنية » العربى : مارس ١٩٦١ .
- ١٢ - « ١١ عاما من حياة العربى » العربى : يناير ١٩٧٠ .
- ١٣ - « الولاء » العربى : فبراير ١٩٧٠ .
- ١٤ - « رباطان هما مساك الأمم لا ينحلان أبدا - القومية والدين »
العربى : أبريل ١٩٧٠ .
- ١٥ - « معركة الفقر والغنى » العربى : يوليو ١٩٧١ .
- ١٦ - « حضارتان عريقتان يعيش العربى فى ظلالهما » العربى :
يوليو ١٩٧٢ .
- ١٧ - « حقائق عشر عن تخلف الشرق » العربى : يناير ١٩٧٣ .

- ١٨ - « للجدل آداب لا بد من أحيائها » العربى : فبراير ١٩٧٣ .
 ١٩ - « متى أين وإلى أين يارجال العرب » العربى : إبريل ١٩٧٣ .
 ٢٠ - « الحضارة الحاضرة زيت وفحم » العربى : يوليو ١٩٧٣ .
 ٢١ - « الضمير لفظ له معنى فى اللغة لم يعرفه العرب » العربى :
 مارس ١٩٧٥ .

وقديلاحظ القارىء أن بعض العناوين التى أخذنا عنها هذا الباب قد لا تمت إلى الموضوع مباشرة ، والواقع أن هذا يعود إلى أن الدكتور زكى لم تقتصر أفكاره على موضوع معين من مقالاته وأحاديثه ، وإنما كانت تفرض نفسها على قلمه فى كثير من المواضع .

ويؤكد الدكتور زكى بشدة على أهمية عنصر حرية الفكر وهو يرى فى مقاله « معركة الفقر والغنى » (العربى : يوليو ١٩٧١) أن مشكلة الاسلام جاءت من بعض الذين اتخذوا من الدين صناعة، وضيقوا على الناس أبواب الفكر ، وحرموا الفلسفة فى حين أن الاسلام هو أكثر الأديان تكريما للفكر والعقل ، والجدل فى الاسلام اساس الايمان :

« لقد أعطى الله العرب والمسلمين دنيا سمحة ، وأفاقا للرأى واسعة ، وسعت الدنيا والآخرة ، وأعطاهم من الرجال المتحررين مثل من يقول لعامل له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، ولكن قوما صار لهم الدين صناعة ، وما جاز الدين الاسلامى أن يكون صناعة لأحد ، عمدوا بحكم الصنعة إلى تضيق السبل وتعسير السبل فيها ، وإلى المبالغة فى الحذر حتى سدوا على الناس أبواب الفكر ، وجعلوا الفلسفة بابا كتبوا عليه « ممنوع

الدخول « زيادة في الخشية حيناً ، وجهلاً بالفلسفة أحياناً ، ولو علموا أن الفلسفة كالفكر قد تؤدي إلى الإيمان كما تؤدي إلى الكفر ، لما الحدودوا وثابروا على ذمها إلى اليوم . هذا في حين أنك لن تجد ديناً كرم الفكر ومجد العقل . كما كرمه ومجده الإسلام . والجدل في الإسلام أساس الإيمان » .

ولكن ما هو معنى السماحة في الدين ؟ وما هو علاقة هذا المعنى بالإسلام كدين للمسلمين في هذا العصر ؟

« الدين الإسلامي سمح والدين السمج هو الذي يقول نعم أكثر مما يقول لا ، «لا» لا بد منها ، ولكن لا تقول «لا» إلا بعد فكر كثير ، وحذر شديد ، وأخذ بما نؤمل للعرب والمسلمين في مستقبل أيامهم ، لا من نعمة وخيفة هائلة ، ولكن من طيب حال وطيد ، وعزة وقوة وصفة لا تطيب بغيرها حياة أبداً ففي الآخرة عنها عوض إن الله أوجدنا في الدنيا لنبتئس بها وليكون أجر يؤسها في الآخرة !!

« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

ويفهم الدكتور أحمد زكي الإصلاح الديني على نحو يخلص الإسلام مما أحاط به في عصور متتالية ويرجع إلى يوم كان النبي صلى الله عليه وسلم :

« الإصلاح الديني في الإسلام هو الرجوع إلى الدين يوم كان محمد صلوات الله عليه قائماً فيه والاكتفاء بما كان من دين في عهده ، وإلى وفاته . فلماذا ندعى بأن إسلامنا لا يصح ، إلا إذا عدنا إلى المؤلفات الكثيرة والمذاهب العديدة التي صنفها القرون من بعد ذلك وهي قرون اختلفت والقرن الذي عاشه النبي صلى الله عليه وسلم واختلفت وقرونا نعيش فيها اليوم » .

وينتقل الدكتور أحمد زكى الى تحسيد العلاقة بين الدين والحياة على نحو يتيح للأخذ بفلسفته نوعا من التوفيق العقلى ، وعبارة الدكتور أحمد زكى فى هذا المعنى جازمة حاسمة ، اقرأ له فى مقاله « الضمير لفظ له معنى فى اللغة لم يعرفه العرب » « العربى » مارس ١٩٧٥ •

« علم الله لا أقر ديننا لا يعمل فى صالح من هم به مؤمنون ، فالصلحة أولا ، ورأى الرأى فى تفسير النصوص يأتى فى المقام الثانى ، وأعلم أن رأى الرأى فى تفسير النصوص يتلون بلون زمانه ، وللأزمنة ألوان شتى وأعلم أن الناس تتطور ويتطور عيشها ، وتتطور أنظمة حياتها • وتتطور مشاكل لها فلا يبقى مما تعتمد عليه من مقالة قديمة للحكماء ، أو رأى شديد كان لبعض البلغاء الا ما اتصل بقواعد الحياة الأساسية الأولى التى يحاوس الدهر أن يغير منها ويبدل ثم لا يكاد » •

وفى موضع آخر يرد الدكتور زكى على أولئك المتحذلقين الذين راوا فى الدين وفى الايمان تخلفا ورجعية ، ومناقضة للتقدم ، فيقول فى نهاية حديثه « حتى الايمان لا يكون الا بعد تفكر والايمان درجات ، لا أحسب أن رجلا ، ذا دين ، يتفق فكره كله مع ما جاء بدينه حرفا حرفا ، ولا يخرج ذلك عن ايمانه » •

ومن هذا المدخل يتناول الدكتور أحمد زكى فى مقال عن الحرية « العربى مارس ١٩٦٩ » مسألة رهن الحضارة الأوروبية بحجة « معارضتها مع الدين » لما تحتويه من بعض التجاوزات فى الناحية الاخلاقية التى يكثر الرافضون من ذكر أمثلتها ، ويقند الدكتور أحمد زكى هذه المزاعم ، وينهى حديثه بقوله « هذا افك وبهتان ، فالصالح صالح فى كل زمان ومكان ، وهم يقبسون للتشهير بالمدنية الحاضرة ما فيها من شر ، ويصمتون عما فيها من خير ليحسب

الناس أنه هكذا كل ما في الوعاء ، وما عرفنا مدنية الا وكان فيها الطيب والخبيث بحكم ان الانسان مصدر الخير والشر صاحبها .

ذات المعنى يعبر عنه الدكتور أحمد زكى في قضية أخرى تتصل بالموضوع ، في مسألة العلاقة بين الولايات المتحدة والعرب ، حين كانت الولايات تستعلى بقوتها على العرب ، وعلى حل القضية الفلسطينية في الفترة ما بين الحربين (١٩٦٧ - ١٩٧٢) وكان هناك قوم يريدون ذلك الى أن في العلم شرا أو شيئا من هذا القبيل ، وكانوا يذكرون هذا في معرض الحديث عن العلم والأخذ به ، وكان في ذلك شر الأمور حين نترك العلم الى الجهل لأننا نرى قوما صار لهم مع العلم شيء من الشر ، هنا لا ينسب الدكتور أحمد زكى عن أن يبين الحق في طبائع الأشياء فيقول في وضوح وحزم وجزم :

« ان الانسان خلق ومعه الخير والشر ، والعلم والتكنية فيهما الخير والشر معا ، بل هما اداتان عجموان ليس فيهما ارادة الخير أو ارادة الشر ، ولكن في الانسان كالسكين نقطع بها الثمر من شجر ، أو بها قطع الرقاب ، كذلك العلم والتكنية مطيعتان طيعتان يركبهما بنو الناس ليسلكوا بهما الطريق الى الله أو الطريق الى الشيطان وما أكثر ما يتعمى على البشر الطريقان » .

يؤمن الدكتور أحمد زكى بضرورة ايجاد التوازن بين العلم والايمان ، وبضرورة الجمع بينهما في توازن وتوائم وتعاون يتيح التقدم الذي يسند الى القوة الذاتية ، والقوة الداخلية التي لاتزعزعها عواصف الزمان .

وعلى حين ينعم الدكتور أحمد زكى على الجامدين جمودهم في سبيل العلم ، وكفهم عن الجهاد في سبيله فانه في الناحية الأخرى لايقبل مايفعله « التقدميون » ممن ظنوا أنهم بدرجاتهم العلمية قد

أصبحوا مؤهلين للحكم في أمور الدين والدنيا ، فذهبوا يرمون الدين وأمله بالرجعية والتخلف • ما هو مفكرنا الدكتور زكي يقولها في صراحة وقوة لهؤلاء •

« ومقالة اقولها لبعض شباب العرب الذين اخذوا من الدكتورةشارة يتقدمون بها الى السذج من أهلنا ، يتهمونهم بالرجعية ، وينسبون هذه الرجعية الى الايمان بالله ، ويشككون في الاديان جميعا ، اقول لهؤلاء فما بالكم وضمائر هذه الأمم التي لا تجد لها الى اليوم اساسا صالحا تقوم عليه غير الدين • ما بالكم بها هكذا تصفون • واياها تهدمون ، واذا هدمت فماذا للناس بديلا عنها تقدمون » •

يتناول الدكتور أحمد زكي مسألة الضمير ، وقد افردنا لهذه النقطة في فكره بندا في باب البناء الاجتماعي ، ولكن ما يعيننا هنا هو هذا التأكيد الذي يذهب فيه مفكرنا الى أبعد مدى في أضواء الاسلام وقرآنه على خلاصة الضمائر وأصولها الأولى ، هنا يتبين لنا الى أي حد كان الرجل يؤمن باخلاقيات الاسلام وامكاناتها غير المحدودة ، على الرغم مما قد يتصوره البعض حين يقرأون له رأيه القائل بأن الدين ليس مصدرا للسلوك الانساني أو حين يتجاوزون في فهم هذا الرأي النظري الذي عبرنا بالتفصيل عن حقيقته في موضع • واقرا للدكتور زكي في مقاله عن الضمير قوله :

وفي الدين الاسلامي ، وفي القرآن الكريم ، مايملأ دساتير الضمائر بأصولها الأولى ، من عطف ورحمة ، وزاد في الكشف عن كلمة العيش مفاهيم تخفف على الناس في دنياهم كثيرا من اثقال السنين ، والاسلام ، كما جاء به الرسول الكريم ، لا كما صار اليه من بعده في وجوه شتى دنيا ودين • ومعنى ذلك عندي أنه عقيدة

«فريضة • ثم هو حضارة ، حضارة سبقت زمانها بعدة من قرون لو أن الله كان يقضى لها كفاة من أهلها لما بزتها الى اليوم حضارة كانت أو تكون •

جانب آخر يحرص الدكتور أحمد زكى على لفت النظر اليه فى ديننا الحنيف ، حين يتحدث عن الولاء ، ويحلله لنا فى دراسة تاريخية واجتماعية شاملة ، ويتعرض للولاء فى الاسلام فبين كيف نجح الاسلام فى التوفيق بين الولاءات ، وكيف اعطى لكل ولاء حقه المناسب ، المناسب للولاء ، والمناسب للانسان نفسه :

« والولاء العاطفى اتسع له الاسلام اتساعا كبيرا ، ولكن لم يتسع كل هذا الاتساع للولاء الوطنى المحلى السياسى • ان احتمله بمقدار ما يحتمله الطبع الانسانى ولكنه تجاوز الوطن الأوسع الى أرض الله الواسعة • فحيثما ذكر اسم الله فهذا هو الوطن على اختلاف لون ، واختلاف لسان ، ومن أجل هذا كثرت فى الاسلام الأوطان • »

« وينزل العالم ببغداد أو بدمشق أو القاهرة أو القيروان أو قرطبة ، وهو حيثما حل يجد وطنًا واحداً ، وولاء واحداً ، وترحبيا واحداً ، وكثيرا ما زاد فأين ولد ابن خلدون وأين درس وأين عبد اللطيف البغدادى وأين علم ؟ والكندى وابن الهيثم ؟ ، وهو حيثما حل ، عنده الولاء يعطيه ، وله الولاء يعطاه • »

ثم يخط لنا قلم أحمد زكى عبارة من عباراته الخالدات ، لابد من الاعتراف من أن المؤلف أمضى الساعات يفاضل بينها وبين العبارة التى وضعت فى صدر هذا الباب أيهما يضع ، حتى غلبته طبيعته فى ذكر العبارة التى تغطى وجهين فى صدر الباب والابقاء على العبارة التى تصور جوهر رأى أحمد زكى فى لب الباب •

عبارة الدكتور زكي نقرر حقا لا ريب فيه حين تقول ان الاسلام كان أقوى روابط البشرية على الزمان :

ان انسان هذه الأرض ما ربطه في قديم الزمان رباط الاسلام ، وانا لا اتحدث هنا عن الاسلام عقيدة ، ولكن عن الاسلام حركة انسانية ، جمعت من الانسان ، وربطت بينه ، مالم يكن سبق مثله ربط ولا جمع » .

ونعود للعلاقات بين الاسلام والعصر الحديث فنستطلع رأى العالم الذى قال فى عنوان مقاله فى الخمسينات ان عبادة الله بغير علم كعبادة الاصنام ، والذى تلت نفس القولة على لسانه فى حديثه مع سامح كريم (الاذاعة والتلفزيون : ١٩٧٤) هل كان الدكتور زكي صاحب هذا الرأى القائل بأن الباحث فى العلم اذا استهدف به بعض جوانب الله فهو أكبر عابد ، مشجعا لأولئك الذين يخلطون العلم بالدين ، على النحو المسمى بالتفسير العلمى للقرآن وما الى ذلك من الأمثلة التى يعرفها القراء الاعزاء . . . وأقرأ معنى مبرراته فى مقاله « حضارتان عريقتان يعيش العربى فى ظلالهما » (العربى : ١٢ / ٧٢) اذ يقول :

« وجاء عصر العلم الحديث . فقام قوم باسم العلم ، يعمدون ماخالوا ان فقهاء المسلمين غير عامديه ، فربطوا الدين بخرافات من العلم حديثة . زعزعت من ايمان أهل الايمان واليقين . لووا عنق العلم مرة ، ومرة اصاب اللى عنق القرآن الكريم ، كل هذا ليلتقى الاثنان وساء لهم النقاء ، وقالت زمرة طيبة من خيرة من الفقهاء ماهذا بدين ، وماكان كتاب الله كتاب علم تستفاد منه تفاصيل المظاهر الكونية والقوانين ، فقلت لهم اصدعوا برايكم واصرخوا اعسلانا وارثقوا بالقرآن عن تلك المهاوى ، فهى ان زادت جمهرة الجاهلين

إيماننا بشعونة زادت جمهرة أهل العلم شكاً وريبة • قلت اصعدوا
بزيكم ، ولكنهم عادوا بالسكوت والصمت يلونون » •

وفى مسألة القومية والدين يكتب الدكتور أحمد زكى كثيراً ، ثم
يخصص مقالا كاملا لهذا الموضوع (أبريل ١٩٧٠) يجعل عنوانه .
رباطان هما مساك الأمم لا ينحلان أبداً : القومية والدين ، وقبل أن
يدخل الدكتور زكى فى العلاقة بين الاسلام والقومية يتعرض لليهودية
التي كانت « دينا مغلقا وقومية مغلقة فلم تمتد فى أرجاء الدنيا ،
ولعلها بسبب هذا عانى أهلها ولاسيما من أهل الغرب ، ماعانوا ، من
معاملة لم تكن من أحسن المعاملات » على حين كانت المسيحية
« دينا مفتوحا وقومية مفتوحة امتدت فاحتوت الكثير من أرجاء
الدنيا » •

وينبه الدكتور زكى من باب الاعتبار - على اثر الزمن فى
الديانات ورجالها فيقرر فيما يتعلق بمسألة الكنيسة والدولة فى
العصور الوسطى ان المسألة مسألة زمن ومسألة بشر :

« أى ادارة كنسية أو غير كنسية انما يديرها رجال والرجال
تخطيء وتصيب وتصلح وتفسد ، ويختلط صالحها بفاسدها ، والزمان
الذى يأبى على الطعام أن يبقى طاهرا مطهرا فيصيبه العفن ،
والزمان الذى يأبى على الشباب أن يظل على الصحة والقوة
والقدرة فيصيبه مع الشيخوخة بالمرض والضعف والعجز هذا الزمان
كأنما يأبى أن يترك شيئا على حال واحدة » •

وينتهى الى مسألة ظهور « العلمانية » فيبين عن فهمه للأمـر
فيها بقوله « ان الخشية من الأديان ظهرت فى دساتير الأمم الحديثة
لاسيما دول أهل الغرب ، وذلك للذى عاناه المجتمع الأوربى من
حروب سببها اختلاف الأديان (حروب الثلاثين عاما والمائة عام)

« وكلها اختلطت فيها الاطماع الدنيوية بالمذاهب الدينية ، » مظهر
الخشية عند هذه الأمم حذف ما كانت تجرى به الدساتير من أن
الدين دين هذه الدولة أو تلك » .

ثم يقرر الدكتور زكى أن « حذف الدين من الدساتير انما يفيد
عندهم (هكذا ذكر لى ذاك منهم) ان الأديان لديهم سواسية ،
وأنه لا يجرى مواطنا بينهم جزاء خير أو شر بسبب (نبيه) ولكن
بإمكاننا الرد على هذه النقطة بالذات فى بساطة شديدة فنقول أنه
كان بالإمكان أن تبقى هذه الدول فى دستورهما على النص على دينها
ثم تضيف إليه هذين المعنيين سواسية الأديان ، وعدم ربط الجزاء
بالدين . »

على كل فإن الدكتور أحمد زكى لا يذهب فى هذه المسألة الى
أبعد من هذا الحد ، لأنه يؤمن تمام الإيمان ان مسألة الدين مازال
لها الأثر الكبير فى عقليات ونفوس الأوروبيين ، وأن علاقتهم بالحروب
الصليبية التى قام بها أجدادهم فى الماضى لاتزال قائمة ، وأن الأمر
فى هذه الحروب وأن توارى إلا أنه لا يزال راسبا فى أعماق الوعي
أو أعماق اللاوعى قابلا للظهور فى المناسبات (أنها أحقاد تهبط
من الوعي الى اللاوعى حتى تأتينا المناسبات فتطفو . . سلطان
اللاوعى هو المحرك الثابت الدائم على الزمان) .

لهذا يدعو الدكتور أحمد زكى الى قيام جامعة اسلامية ، وأن
تكون هذه الجامعة « سياسية هدفها الدفاع عن العقيدة ذاك الحق
الذى سجله العصر الحاضر ، والديمقراطية الحاضرة ، وهو حق
من أبرز حقوق الانسان) . »

ويدعو الدكتور زكى الى إعادة النظر فى العلاقات مع أوروبا من
هذا المنطلق عنده أن الحق فى هذه الأمور يجب أن يكون واضحا
عندنا وعندهم ، وأن لابد من أن تظهر صورة الاسلام ساطعة ناصعة

قوية بمثل القوة التى فيه ، ولايمانع الدكتور زكى فى قيام قومية على أساس دينى ، على أساس الاسلام ، ويضرب الأمثال فيقول ان الدين هو حافظ اليهود اليوم مهما حاول الصهاينة أن يقنعوا العالم بغير ذلك (ومن التاريخ القديم يذكر الدكتور زكى أن ابراهيم عليه السلام لم تمنعه مكانته عند الله من أن يكون شيخ قبيلة بدوية يريد لها عايريد من قومية ، وموسى كان رسولا نبيا ولكن لم يمنعه ذلك من أنه كان زعيم قومه ، وأنه خرج بهم من عبودية) .

على أن المؤلف يريد أن يستسمح القارئ فى ثلاث دقائق يزيد فيها مسألة العلاقة بين المسلمين وأوربا أيضا بفقرتين من مقال الدكتور زكى « ومن أين والى أين يا رجال العرب » العربى : أبريل ١٩٧٣ ، أولهما قوله : « من الواجب أن يقوم المسلمون بالدعاية الواسعة ليثبتوا بها أن الحروب الصليبية ما كانت الإحروب استعمارية شئ كهذا ، كان يذهب بالكثير من الكرامة التى فى قلوب أهل الغرب للعرب والمسلمين منهم خاصة ، وسيعجب المسلمون عندما يعلمون أن أكثر مسيحيى أوربا يعتقدون أنهم وثنيون، فهكذا سماهم مسيحيو القرون الوسطى وتناقلوا هذه التهمة عبر السنين » .

والفقرة الثانية «سبب آخر جعل بيننا وبين هؤلاء الاقوام جفوة، لاتزال الى اليوم تعلم فى مدارسها التاريخ ، ومن التاريخ الحروب الصليبية » .

(ولاعبرة للقول بأن المسيحية ضعفت فى أوربا ، ونحن نأسف لضعف دين من أديان أهل الكتاب بين أهله ، فالدين عماد ، والدين خير ، والدين محبة. ، ولكن ضعف العقيدة بين نصف أهل أوربا لا يؤثر فى عواطف الرجال عندما ما يكبرون ، فالعقل هاربا أو ضالقا قد يقول لا ، وقد تقول العاطفة الدينية والكرامة : نعم » .

كل هذا فى الجوانب النظرية للموضوع فماذا عن الخطوات التنفيذية للنهوض بالمسلمين فى العصر الحديث ، هذا موضوع لاشك يرتبط بالواقع الاليم الذى عاشه المسلمون والعرب حين كان الدكتور أحمد زكى على قيد الحياة يعانى فى أكثر العمر من الهزائم التى هزينا بها ومن ساعات الضيق والشدة ، ولكن هذا لا يمنعه من ان يرى النور وسط الظلام ، وأن يرى طريق الخلاص ، وأن يلخص ذلك فيجعل أهدى السبيل هو حرية الفكر « نفس ماعبرت عنه الفقرة التى فى صدر هذا الباب) قال الدكتور أحمد زكى فى ختام حديث له عن المتناقضات والمؤلمات العربية :

« ومع هذا اختتم القول ان العرب اليوم فى أحلك ايامهم ، وقد تشرق الشمس غدا ، أو بعد غد،ولكن لا بد لأشراقها من اصلاح ذلك الخلل الأول فى بناء الناس ، ذلك الذى حال بين أهل الراى ، وجماهير الناس ، فأهل الراى عليهم رقابتان ، رقابة الحكومة ، وقد تكون جائزة ، ورقابة الجمهور المتخلف ، وهو كثيرا مايرفض الخير لجهالة ضاربة فيه ، ولنذكر دائما تلك النسبة التى اقسم بها العرب فى القرن العشرين ، تلك ان بهم سبعين فى المائة من الاميين » .

وصبيحة النكسة كتب الدكتور أحمد زكى (٦٧/٧) يقول (لنعد اسرع مانستطيع الى التحدى ، نعود الى التحدى العاقل هذه المرة ، العامل هذه المرة ، الصادق هذه المرة ، الصابر هذه المرة ، الناظر لما يقرأ أو ما يسمع هذه المرة ، المشارك مشاركة فعالة فى خلق الأجواء ، جو العمل فى الحقل والمصنع والمكتب والمتجر ، وجو الفكر فى مدرسة وجامعة ومسجد ومعبد .. الجو الحر الطليق الذى لا يخشى الحرية فطالب الحرية كيف يخشاها » .

(ان وقائع هذا الزمان تصرخ فى آذاننا تريد أن تقول لنا ان عندكم ايها العرب أشياء كثيرة تحتاج الى اصلاح ، والكثير منها

الخافى الذى يخاف حتى عقلاء الناس ان يذكروه ٠٠ عليكم اولا ان
تتبينوها ، ولايكشفها الا الفكر الطليق » ٠

« الفكر العربى فى الوقت المناسب القريب لا بد ان ينطلق ابيضه
واسوده وأزرقه واحمره من كل ارض ، ومن كل كوخ ، ومن كل قصر ،
ومن كل حامل سيف أو مشرط أو قلم أو كتاب أو قاس ، ويجب ان
نسمع الراى من ذوى العقول الراجحة ، وتلك التى تتراعى لنا غير
راجحة ، ونسمع من العقول الملتزمة وغير الملتزمة ، والتى مزاجها
الحفاظ ، والأخرى التى مزاجها التحرر على السواء » ٠

« كل الآراء يجب ان يؤنن لها ان تقال ، ثم يقلب الراى الواحد
الذى اقنع راسا على عقب لعل نقيضه هو الأهدى سبيلا » ٠

« وأمور نشأتنا على اعتبارها بعض قوام الحياة لا بد ان نبدا
اليوم ندرسها من جديد ، لعل بهم اسم الحياة ، ونحن لاندرى ، حتى
الغذاء ، حتى الهواء يجب ألا تفرض فيها الصحة والنقاء فمن
يدرى ؟ » ٠

فى الشهر التالى (أغسطس ٦٧) يؤكد أحمد زكى بعنوان المقال
نفسه ان « الفارس الذى سقط منه عند النزال سيفه ٠٠ لا يزال سليم
القلب والجسد » وفى موضع آخر يقول أحمد زكى فى قوة وصراحة
انه « لاجابة بنا الى اخلاق نستوردها ولادين ٠٠ ان ديننا مصدر
من مصادر الخلق عندنا مبين مكين » ٠

نظرية البناء الاجتماعى فى فلسفة أحمد زكى

(الغرائز - العادات - الأخلاق - التقاليد - الضمير - القيم)

أن اصحاب الضمائر هم قادة الأمم الصامتون وهم
الذين يحركون حتى على الصمت الركب الانسانى نحو
غاية أريدت له مرجوة ، فان نطقوا كانت الحركة أكبر
واسرع .

أحمد زكى

كان الدكتور أحمد زكى دائم التأمل فى طبيعة النظم التى تحكم
العلاقات بين الناس ، وكان دائم الكتابة فيما يلحظه من قواعد تقنن
هذه الأمور ، والملاحظ للتطور الزمنى فيما كتبه الرجل ابتداء
بمقالات الأربعينات فى الهلال ، أو ما قبل ذلك بقليل لاشك وأجد كيف
نمت الفكرة بعد الفكرة فى رأس الرجل ، حتى استطاع فى نهاية
الأمر أن يكون فكرة كاملة أو نظرية متكاملة فى هذا الشأن .

ولو كان من عادة أحمد زكى أن يعيد النظر فيما كتبه فصولا
ليكتبه كتابا أو كتيبيا متكاملا لخرج من مقالاته التى تنسألت هذا
الموضوع بهذا الباب الذى نخرج به الى القارئ هنا .

ومن نافلة القول أنه ليس من الصعب على القارئ المحيط بأفكار
أحمد زكى ومقالاته جميعا أن يدرك المعانى الكثيرة التى يرمى إليها
تجميعنا لهذا الفصل ، غير أنه ليس بالشئ اليسير أن تفوت هذه

المعانى المتعطشين لفكر عالم ، عاش الحياة ، وفلسفها ، وأراد
الناس أن يعيشوها على خير ما تكون .

ولن يزعم المؤلف فى هذا الباب بالإشارة الى مصادر حديث
أحمد زكى ، فى أى مقال وفى أى مجلة ، فى كل فقرة من الفقرات ،
ولكنه يتنازل عن هذا الخلق بعض الشيء ، ليتيح للأفكار التى تتناول
حياة الناس الاجتماعية انسيابية تقربها من انسيابية حياة الناس
الاجتماعية ، ولكن المؤلف مع ذلك سيشير فى البداية الى اسم
المقالات التى أخذ عنها تفكير أحمد زكى فى هذا الموضوع وهى :

المصادر :

- ١ - « عقل الانسان ميزان غير ثابت على الزمان » - العربى :
يوليو ١٩٦٧ •
- ٢ - « هذه المدنية زادت الناس جميعا أم قشتيتا » - العربى :
ابريل ١٩٦٨ •
- ٣ - « الأخلاق • اذا عجز العقل عن القول فيها ، قامت معايير
أخرى تدعم قواعد السلوك والأخلاق » العربى : أغسطس ١٩٦٨ •
- ٤ - « العقل والايمان : عينان بهما يبصر الانسان سبل الحياة
ويتهدى » العربى : نوفمبر ١٩٦٨ •
- ٥ - « الحرية فى ظل العادات وفى ظل القانون » العربى :
أغسطس ١٩٦٩ •
- ٦ - « مصادر السلوك الإنسانى ثلاثة : الغرائز والسمادات
والضماير » - العربى : فبراير ١٩٧٢ •
- ٧ - « الأخلاق والقيم والعادات فى حياة الناس » - العربى :
نوفمبر ١٩٧٢ •
- ٨ - « توحيد المذاهب والمشارب والعادات فى الأمة الواحدة
يسهل مسيرة الحياة فيها » - العربى : أغسطس ١٩٧٣ •
- ٩ - « التقاليد » - العربى : يوليو ١٩٧٤ •
- ١٠ - « أهل اليمين وأهل اليسار » - العربى : أكتوبر ١٩٧٤ •
- ١١ - « الضمير لفظ له معنى فى اللغة لم يعرفه العرب » -
العربى : مارس ١٩٧٥ •
- ١٢ - « سوق عكاظ أ يكون له نشر من بعد انطواء » - العربى :
أغسطس ١٩٧٥ •

فى حديث للدكتور أحمد زكى عن مصادر السلوك الإنسانى ،
 لخص عالمنا رأيه فى طبيعة هذه المصادر فى عنوان فرعى ، وقال
 إنها ثلاثة : الفرائز ، فالعادات والتقاليد • • وقد جعل الدكتور أحمد
 زكى مدخله الى الحديث قصة قص فيها أنهم كانوا فى جلسة عند
 واحد من الأصدقاء اذ جاءه خادمه فقال له أن فلانا يسأل عنه فى
 التليفون حتى اذا كان فى الدار جاءه على التو لزيارته ، فقال صاحب
 الدار للخادم : قل لفلان أنى تركت المنزل منذ دقيقتين قاصدا الى
 المدينة وأنت لم تستطع أن تلحق بى لتخبرنى بمجيئته ! فتعجب
 الحاضرون ونظر بعضهم الى بعض وإلى مضيفهم وابتسموا فقال
 الرجل أنه ما أراد أن يجمع بين هذا الذى تكلم وبين أحد الجلوس
 لأن فى اجتماعهما جمعا بين الزيت والنار « فكذبناها كذبة بيضاء
 تدفع بها من السوء الشئ الكثير » فيسأل واحد من الحضور :
 وماهى الكذبة السوداء ؟ فيجيبه الرجل : « أن تكون من مستأجرى
 أرضى ، وتجمع الحصاد ، وتبيع من الثمر ماتبيع ، وتلقانى وأسالك
 عن الإيجار ، فنقول لى أنك فى حرج من ضيق ، وفى جيبك حشوة
 من مال وفير » وأضاف رجل آخر من الجلوس أن هناك كذبة لالون
 لها ، فسألوه : ماتلك ؟ فأبان لهم عن أنها تلك التى نتفوه بها جميعا
 حين يلقى بعضنا بعضا كل صباح ويسأل الواحد اخاه : - كيف
 الحال ، وفى كل صباح يجيب بأن الحال عال والحمد لله « ولا يمكن
 أن يكون الحال كل صباح عالا ، وأنت تعلم أنه لا يمكن أن يكون كل
 صباح عالا ، وأنا أعلم أنه لا يمكن أن يكون كل صباح عالا فهذه كذبة
 ناتئها جميعا باتفاق عام ، ما كذبتك وما كذبتنى ، فهذه الكذبة التى
 لالون لها » ثم مضى الدكتور أحمد زكى يضرب على لسان واحد من
 شخصيات حكايته التمثيلية الوانا من الكذب التى تقع فى الحياة كل
 يوم : الزوج يسأل زوجته عن هدية أهداها أياها ، كيف وجدتتها ،
 فكيف تقول ؟ زائر زارله فى المساء وحتى انتصف الليل ، ثم ذكر وهو
 يغادر بيتك أنه ربما أثقل عليك ، فأى شئ تجيب ؟ • • الخ ، وعقب

بقوله : « أمثلة في الحياة لاتعد ، يقف منها الإنسان منكرا ، ولايقول الا حمدا ، أو حامدا ٠٠ وانتقل بعد ذلك ليضرب المثل بالرجل في الحرب يقابله عدوه وهو خارج من البيت فيسأله أفي البيت أحد ؟ والعدو لايقصد الا قتلهم ويصف الدكتور زكى هذه الكذبة بأنها « كذبة جلّت عن أن تكون بيضاء » ٠ فهي فوق صنوف المصدق جميعها !

وانتقل أحمد زكى ليتأمل في معنى الفضيلة ، ومعنى الرذيلة ، وجعل قائمه على هيئة حوار بين الجلساء :

ثم سأل أحدهم : « من قال ان الصدق فضيلة وأن الكذب رذيلة الا قرون معي أن أكثر مايمارس الناس في حياتهم العسارية الكذب ، وأنهم جميعا يعرفون أنه الكذب ، وأنه لايشجب أحد منهم أحد في ذلك لأنه الكذب ٠ لابد من الرجوع الى المصادر التي قيمت مسالك الانسان لتعرف منها الحكمة أو الحكم التي من أجلها رأى الناس ، أو شاع فيهم أن هذا المسلك فضيلة وأن هذا رذيلة ، فلعننا نجد أن كثيرا مما يساق على أنه رذيلة ، ينفع الناس ، فحق أذن أن يكون فضيلة ٠

والسؤال إذن ماهي الأصول التي تحكم مسالك الناس وأخلاقهم؟ هذا هو السؤال الذي يدور حوله حديث عالمنا عن مصادر السلوك الانساني وقد جاء به بعد هذه المقدمة الطويلة التي اختصرناها على النحو سالف الذكر ، بعدما أثار بها أهمية الموضوع من حيث صار خلقا لا أحد ينكر فضله موضوعا للتفاضل عند الأخذ به ! فهو أي الصدق مهلكة في حالة كحالة الحرب ، مجاف للذوق والخلق الكريم في حالات أخرى، ليس من المستحسن الأخذ به في كثير من الأمور التقليدية ، ومدمعة لجلب الخلافات في أحوال أخرى إذن فهل هو مطلوب ؟ أو هل هو مطلوب على الدوام ؟ وما الحكم في هذا ؟ من الذي يحكم في مسالك الانسان ٠

هل الدين مصدر من مصادر السلوك الانساني ؟

في ثقة بالرأى يستبعد الدكتور أحمد زكي أن يكون « الدين » أصل الأصول فيما هو فضيلة ورذيلة !! ومذهبه في هذا أنه من الجائز أن يهتدى الانسان وحده الى مسالك العيش حتى اذا تخلف عنه عون السماء !! ويدلل على هذا بدليل قاطع حين يذكر من حال الناس الذين اختاروا أديانهم في قديم الزمان أنهم قد رضوا أديانهم بقدر ما عرفوا فيها من حسن سلوك :

« ندرك هذا من قصص القوم الذين دخلوا في الاسلام أو في المسيحية أو غيرهما يعرض عليهم الدين فينظرون فيما قدمه لهم الدين من عقائد ومن اخلاق ومن معاملات بين الناس أى مسالك عيش وهم يرضون الدين بسبب ما يرضون من هذه الأمور واذن فهم عارفون الأخلاق الطيبة وما المسالك الخيرة قبل ان يكون لهم هذا الدين أو ذاك ، عرفوا ذلك من حياة الانسان التى سبق أن عاشوها . . وهذا يؤكد قولنا أن الانسان مهتد الى ما تدعو اليه الأديان من مسالك قبل ان تكون الأديان . . انها بذور الخير التى بذرها الرحمن في الانسان ليتعرف بها الحياة . ويتعلم خطاها . ويهديه في كل ذلك الطبع الخير اذا تخلف عن اللحاق به الرسول الهادى !! »

واذن فأحمد زكي لا يعتبر الأديان مصدرا من المصادر التى حكمت السلوك الانسانى واذن - مرة ثانية فما هى الأصول التى بنى عليها سلوك بنى الناس ؟ ويجيب مفكرنا أنها ثلاثة :

- ١ - الغرائز البشرية .
- ٢ - العادات القومية .
- ٣ - الضمائر الانسانية .

وهو يرتبها هكذا على مذهب البعض فى ترتيب وجودها تاريخيا ولكنه يعتمد فى مذهب الذين يقولون بأنك تبحث عن المسلك الانسانى الواحد ، فى الرجل أو الفتة من الرجال ، فلا تدرى ما سبق الى تكوينه : غريزة هى ؟ أم عادة وتقاليد ، أم ضمير ؟ وعندهم أن الثلاثة تفاعلت معا فأنتجت ما أنتجت من مسالك للسير رضىيها الناس » •

الغرائز

وخلاصة قوله فيها أنها أول مصادر السلوك الانسانى ، ولكنها غير كافية من هذه الناحية ، لأنها تحتاج الى أمور أخرى ، فلو سلك الناس حياتهم بها وحدها ، ما نتج عنها الا الصدام والمجابهة • من ناحية أخرى فانك لا تستطيع أن تعيب أو تحمد سلوكا انسانيا يقوم على الغرائز وحدها •• واقرأ من كلام أحمد زكى :

« ان الانسان منا يبدأ الحياة ومعه أقوى دوافعها ، تلك الغرائز ، انها تعلمه ، كيف يصنع فى الحياة ، ومنها غريزة الطعام ، فالطفل يمد الى الطعام يده عندما يجده ، وهو لا يسأل أهو طعامه أم طعام غيره •• وهكذا •

و « مسالك الحياة المطلقة الأولى مع الغرائز الاولى ، لا ينتج عنها بين الناس غير الصدام ، وغير المجابهة ، والحرب الدائمة » •

وإى نسق فى السلوك الانسانى ، يقوم على الغرائز وحدها ، فى مراتب الحياة الانسانية البدائية الاولى ، لا يحمد ولا يعاب ذلك انك لا تستطيع أن تدم الجائع الذى يطلب طعاما فلا يجد الا رميح بالنبل اليه سييلا ، ولا تستطيع أن تردمن رماك بسهم اذا أنت قمت تمنع عنه الماء ويضرب لك الدكتور أحمد زكى مثلا عمليا فى مقال آخر فيقول : « اذا كنت فى جزيرة وحده فلك أن تكون أنانيا ما شئت لك الانانية،

وأغلب الظن أنها لا تضرك ، وهى عندئذ لا تكون من الاخلاق الحمودة أو السيئة المرذولة فى شىء وإنما تصبح كذلك اذا سكن مثلك فى الجزيرة رجل أو رجلان عندئذ تتضارب الانانيات » •

العادات

المصدر الثانى من مصادر السلوك الانسانى

لا يذهب الدكتور أحمد زكى فى تعريف العادات أكثر من أن يضرب مثلا لتكوين العادة بأطفال صغار راهم قد خرجوا مع أبيهم يرمون الورق المستهلك من سبت صغير بيده ، ويضعه فى برميل طويل أقيم لاحتواء الزباله ، فأخذ الولدان اللذان يبلغان من العمر حوالى السنتين ، والخمس يقلدان والدهما فيما يفعل « أنه التقليد الذى هو بعض الشر » وكان لون شعر الطفل والطفلة أصفر وما كان ليختلف لو ان الشعر كان أسود وأحمر » •

« أنه التقليد الذى يصنع فى الأمم العادات ، فان صار عادة فهو مسلك رضيه الناس وهو بعض مسالك القوم » •

« والعادات عشرات ومئات يمارسها الناس ، ابن عن أب ، وأب عن جد ، وتصبح عادات طعام وعادات شراب ، وعادات ملابس ومسكن ، وعادات بيع وشراء ، وعادات تمس الأخلاق فى الصميم وأخرى تمس الاخلاق مس الأديم .. الأديم » •

« والطبع البشرى يتقبل العادات دون التوقف للنظر فيها ، خشية أن تنقلب الحياة كلها الى تساؤل فى هذه العادة ، وتساؤل فى تلك ، فلا يكون فى الدنيا لعمل حسم ولا لحظة أطراد » •

النظرية الاقتصادية في العادات :

هنا لابد أن نتطرق لنذكر ما حرص الدكتور أحمد زكى على تكراره والتأكيد عليه دائما أن العادات اقتصاد ، لأنها توفر على الناس مجهودا كبيرا في التفكير ، وتغنيهم عن النظر في الشيء الذى يصفونه ، ومواقف الحياة تتكرر ، والمواقف المتشابهة كثيرة ، يلقي الانسان الموقف الجديد الذى سبق أن وقف مثله ، وتصرف فى مثله ، وعندئذ لا يكون عليه فى هذا الموقف الجديد الا أن يعيد تصرفا كان له فى الماضى ، وبذلك يختصر الجهد والفكر والزمن ، « ومن هنا فان للعادات من حيث الاقتصاد دورا كبيرا فعلا » .

وإذا كانت العادات اقتصادا ، فكذلك التقاليد ، وسنعود الى هذه الفكرة بشيء من التفصيل فى جانب آخر من جوانبها ، عندما نتحدث عن الأثر الذى أحدثته التكنولوجيا فى التنظيم الاجتماعى فالفلسفة هى ذات الفلسفة .

ويتفرع الحديث عن العادات الى الحديث عن العادات الشخصية والعادات الاجتماعية كنموذجين مختلفين لطبيعة العادات :

فالعادات الشخصية صنف من صنوف العادات ، وهى تمس الشخص بمفرده ، ولكن الاختلاف فيها قد يؤدى الى متاعب غير قليلة ، «لأنه ما من شيء يعتبر شخصا فى أكثر صفاته الا وهو متصل بالحياة العامة من حيث يدري صاحبه أو لا يدري » .

وخذ مثلا لذلك حلاقة الذقن «لو أن الناس تعودوا عادة واحدة، وهى الشفرة فى الحلاقة صباحا ، لكان صدى هذا فى الصناعة فى الأمة صدى كبيرا اذن تصنع الشفرة بكثرة ، واذن تصنع أجود ما تصنع ، وتباع بأرخص الأثمان » .

ومثل هذا في الطعام والشراب » وفي توحيد الذوق تسهيل الأمر على الصانع والخايز في كل مرفق من مرافق الحياة *
« انه المجتمع الانساني ، والاجتماع لا يكون الا بين أشباه ، وكذلك العادة ، وانما هي الخط الواحد والانماط الواحدة التي تلبسها الاشياء » *

والعادات الاجتماعية : وهي التي تتصل بالحياة في المجتمع ، تتصل بالمعاملات ، بالبيع والشراء والتعليم والصحة والزواج والطلاق والولادة والموت والأفراح والأفراح فهذه من الضروري أن تضمها وتلها صور من العادات واحدة ، وهذه العادات تتصل بالزواج والجنس وبحسن المعاملة وكل ما درجنا على تسميته بالأخلاق *

أثر الزمن في العادات :

هذه النقطة بالذات استحوذت على اهتمام الدكتور أحمد زكي في عدد كبير من مقالاته وله الحق ، ولها الحق ، لأنه في تقرير طبيعة أثر الزمن على العادات ، تقرير لحياة العادات ، هل هي شيء وقفي ؟ أم شيء متغير مع الزمن ؟ أن طبيعتها تتغير مع طبيعة الزمن ؟

والجواب أن الأمر يختلف من عادة الى عادة ، وإن الناس تنظر الى العادات نظرة براجماتية تبتغي منها النفع ، وهي غير مطالبة بأن تقدس عاداتها على مر الزمن وهذه هي فقرات من أحمد زكي في مواضع مختلفة :

ومن العادات ما هو دائم النفع يصلح لكل زمان ، كعادة العمل ، ولكن من العادات ما يصلح لزمان دون زمان ، كوسائل المواصلات ووسائل العلاج .. الخ . فقد استبدلنا بالجهل في هذه الأمور علما على الزمان الطويل *

« والعادات تدوم ما رضى بها أهلها، وتتغير الظروف المعاشية، والاعمال المهنية والمسالك الاقتصادية والمجتمعات الانسانية ، فلا يلبث سكان المدينة أو القرية أن يحسوا الحاجة الى التغيير . فتتغير العادات رويدا رويدا * وفي التغيير استرخاء لمطالب الحرية بتوسيع مجالات الحركة في العيش » *

« والعادات باقية فى قبيل الناس ما بقيت تعطى نتائجها المرضية من التعاون والتآلف وحمل التبعات معا وبالسرية » فهذه الرتبة الراضية تسرق من الناس الفكر فى صلاح هذه العادات أو فسادها *

« العادات راحة ، والتقاليد راحة ، وفيها راحة الروتين وترك العقل خاليا ليفرغ لتقدم الحياة وأسعارها » « ولكن تقدم الحياة على هذا النحو يغير من صور الحياة، وقد تتغير عادات على هذا النحو وبسرعة هذا التغيير فلا يكاد يحس به أحد ونخضع فى ذلك ونقول مثلا ان عادات اليابان وتقاليدها رغم تقدمها الصناعى ظلت على ما كانت عليه ، والحقيقة أنها تغيرت كثيرا بسرعة لم يحس به راكبو قطارها » *

ومكذا يحدد أحمد زكى فى وضوح طبيعة اختلاف العادات بمرور الزمان ، ويقرر أن العوامل التى تستطيع تغيير العادات ليست أقواما من الناس «استعجالا للخير أو ما يحسبون أنه الخير» فيفشلوا» « وانما ينجح فى تغيير العادات : ظروف الحياة المتغيرة بعنفها وجبروتها ، وينجح تطور التعليم ، وينجح تواصل الأمم » *

الضمير

واذ يتحدث الدكتور أحمد زكى عن حكم العادة ، ينطرق الى الحديث عن الضمائر هنا يعرف عالمنا الضمير تعريفا غامضا بعض الشيء حين يربطه « باستيقاظ الحفاظ على العادات ...

وهو حفاظ طبيعي الأصل فيه معارضة التغيير لأن التغيير غير مأمون العاقبة ، وباستيقاظ هذا الحفاظ على العادات عند الكثيرين ، يستيقظ في بعض أفراد الأمة الضمير تلك القدرة النفاذة التي تنام في الناس طويلا حتى توقظها دقة الاجراس المندرة بالمخاطر » .

وعلى الوجه الآخر « اذا حدث ان جماعة قامت تعرض على فرد من هؤلاء الافراد ما لا يرضى بدأ استيقاظ الضمير الراض ، الضمير الذي يقول لا ، ولو قال من حوله ألف لسان نعم ، فأصحاب هذه الضمائر كانوا يركبون راحلة العادات مركبا سهلا ، فلما رأوا أنها انما تسير بهم الى اضرار لا يدركها الا ذوو العقول الناقدة نزلوا عن المركب السهل واتخذوا ضمائرهم المركب الأخشن » .

والمسلك الطيب عند ذوى الضمائر هو الذى يحكم عليه بأنه المسلك الطيب في محكمة الضمائر ، تلك التي لو شئت أن تتخذ لها مقرا لجعلته حبات القلوب » .

العلاقة بين الضمائر والتقاليد :

« ليست محكمة الضمائر ، بالمنصوية دائما لتعارض محكمة التقاليد فحسب فهذا هو السخف البعيد ، ولكن محكمة الضمير هي التي تتخذ من عقل صاحبها ، ومن فهمه ، ومن رقيق حسه ، ومن لطائف طبعه ، ومن علمه في الحياة وخبرته وثقافته موارد قانونية تستند عليها في احكامها وكثير من هذه الأمور لا يحتاج في احكامه الموضوعية الى الغوص البعيد في المراجع » .

« وأوضح مثل على ذلك هو ما نذكره من امر الرجل العربى البدوى الذى نشأ فوجه قومه يعبدون وثنا ، ثم استيقظ ضميره عندما رأى ثعلبا يبول عند رأس الرب ، ففكر ، فحكم فقال :

أرب يبسول الثعلبان برأسه

لقد ذل من بالث عليه الثعلب

وهذا أمر لا يحتاج الى ضمير نفاذ (نلاحظ هنا أن مثل هذا الحدث عند الكثيرين من أهل الرأي والفكر ليس أمر ضمير وانما هو أمر عقلى ، ولكن أحمد زكى يتسع بالضمير فيشمل به مثل هذه الأمور) *

ويمضى الزمن فيحس الدكتور أحمد زكى - قبل أن نحس - أن كلامه هذا فى موضوع الضمير الذى جاء عرضا عند الحديث عن العادات والتقاليد ، لا يوفى الضمير حقه ، ولعله كمادته بحث ، بدءا بقواميس اللغة فى أمر الضمير ، فلما استقرت له الفكرة كتب عن الضمير شهرا كاملا فى مجلة العربى (٧٥/٣) وجعل عنوانه « الضمير لفظ له معنى فى اللغة لم يعرفه العرب » *

من هذا الحديث بخاصة ومن غيره تاتى افكار الرجل التالية فى مسألة الضمير *

ما هو الضمير ؟

تعريف الضمير عند أحمد زكى هنا يتفق تماما مع تعاريف جمهور علماء النفس ، ولعل هذا الاتفاق جاء نتيجة أنه مقال عالم جاء بعد قراءة ودراسة ، لا بعد تأمل نفس وتفكر . ليس غريبا أن يعرف أحمد زكى الضمير فى مقال مارس ١٩٧٥ بأنه « الوازع الذى يزع الانسان عن ممارسة السوء » وأن يردف قائلا : « والوازع هو الكف والمنع » « والوازع الزاجر يزجرك عندما تريد مقسارفة الشمس » *

هذه الفلسفة في النظر الى الضمير على أنه رقيب يمنع الشر ويحول دون السوء والفساد .. الخ .. هي جوهر ومظهر نظرية أحمد زكي الى الضمير ، وانى لأعجب كيف جعل استاذنا الدكتور زكى الضمير في هذه المنزلة فحسب ، ولم يذهب الى الناحية الأخرى ليجعله دافعا الى الخير ، وانى واثق كل الثقة أن أحمد زكى بالذات لو عبر عما في نفسه لذهب هذا المذهب ، ولكنه فكر في المسألة على نمط من التفكير لابد أن ينتهى به أو بغيره الى هذه النتيجة وهذا هو نمط التفكير :

الضمير والشيطان :

يذهب الدكتور زكى مذهب القائلين أن : وجود الشيطان في النفس ووسوسته لها بالشر ، اقتضى وجود عامل آخر يقوم في النفس أيضا ، ويهمس لها بالخير ، ويزجرها عن الشر زجرا ، وذلك كي تتزن موازين الأمور . أنها الزوجية التي يجب ان تكون في كل شيء .. خير وشر .. نهار وليل .. حياة وموت .. ثراء وفقير ، عز وذل ، حلو ومر .. وهذا العامل الآخر الذى يوسوس بالخير ، أو يقوى فيزجر عن الشر ، انما هو الضمير بالمعنى الحديث * .

ولو انك الدكتور أحمد زكى على قوله « ويهمس لها بالخير » وانطلق من هذه النقطة لأتى لنا بفلسفة عميقة فى مسألة الضمير، ولكنه يفضل أن يذهب الى القول بأن الضمير ، وازع ، رادع ، رقيب الى الحد الذى يشبه فيه الضمير بالرقيب فى الصحف ، ويمضى فى تفصيل هذا التشبيه على نحو يستطيع القارئ لو أحب أن يرجع اليه فى موضعه * .

الضمير أشمل من القوانين :

ويقارن أحمد زكى بعد ذلك بين الضمان والقوانين من حيث مقدرتها على الرقابة على الذنوب ، ويقول :

قوانين الدولة لا تشمل الذنوب جميعا ولكن تشملها الضمانات ان القوانين تحمى الناس من القتل غيلة ، ومن سرقة المال ، ومن انتهاك العرض وما الى ذلك من الجرائم الواضحة البينة . ولكن كثيرا من هذه الشوائب قد تخفى على القوانين وعلى الشرطة ، ولكنها لا تخفى على الضمانات ، ولا تحمى منها القوانين ولا الشرطة ولكن تحمى الضمانات .

وان من الذنوب ذنوبا لا يمكن أن تدخل في قوانين لأنه لا يمكن تحقيقها ، ولا تكييفها ولا وزن لها ولا قياس . فماذا تصنع القوانين في رجل قيل انه عقى أباه ، أو أزرى بأمه أو شتم بين الجدران زوجته ، أو سامها سوء العذاب ، وما كل عذاب يظهر على جسد . « كل هذه الذنوب لا تغطيها قوانين الدولة ، ولكن تغطيها ضمانات الناس عندما تصح أو تسوء » .

ويتوج أحمد زكى هذه الفكرة بحكمة من ماثوراته فيقول :

« فإذا نزلت بقوم ، فلا تسأل كم عندهم من قوانين ، وكم لهذه القوانين من نفاذ ، بل أولى بك أن تسأل كم بأنفس أهلها من ضمانات » .

ويعود الدكتور أحمد زكى ليؤكد معنى التفريق بين القوانين والضمانات -- لصالح الضمانات -- من زاوية أخرى فيقول :

« الشرطة والمحاكم قائمة على نفاذ القوانين مما تستطيع الدولة تقنينه وتصنيفه وتكييفه . أما الضمانات فهي رقباء على نفاذ

كل القوانين ، ما خالته الدولة وما لم تخله ، وما استطاعته وما لم تستطعه ، وما يدخل تحت معنى القانون أو يدخل تحت معنى الذوق والجمال والمواساة والرحمة وكل مسلك من مسالك الخير » .

المبادئ التى يسير عليها الضمير :

« انها قيم الحياة ، فى مراتبها العليا ، وفى تلك المراتب الأخرى السفلى ، تلك القيم الكريمة النبيلة الواحدة التى لا تأبى أن تحل فى قلب رجل حل به الفقر ، أو رجل صاحبه الثراء ، ولا رجل رفع به العلم ما رفع ، أو نزله به الجهل ما نزل . انها القيم التى ترتفع بالناس فوق آراء الدنيا ، وفوق آلامها . وفوق آمالها واحلامها ، والتى بها وحدهما يحكم المرء على نفسه يوم الرحيل الأخير أنجح فى هذه الحياة الدنيا أم فشل فيها » .

كيف يتكون الضمير ؟ :

وهذه الفقرات المنتقاة من أفكار أحمد زكى هى أروع ما فى حديثه عن الضمير وسنوالى بينها بالصورة التى تحدثنا عن تكوين الضمير دون تعقيدات ولا استطراد :

الضمير لا يبدأ الا حينما تحصل علاقات بين الانسان والانسان
بعد الثالثة يأخذ الطفل يعى أنه ليس وحده يملك الدنيا . فهناك صبي ، وصبي وصبي ، فلا بد ينسجم .. وعلى أمثال هذا ينشأ الكثير من الضمير .

« الضمير يبدأ ملء دستورهِ فى البيت ، ويتابع كتابة دستورهِ فى المجتمع . ان المجتمعات تحمى نفسها بأشياء كثيرة منها »
« الاتباع » والاتباع عامل فى ملء دستور الضمير له أثر كبير .

وهناك أمثلة تضربها من ظواهر الأمور • وهناك أخرى أخفى منها ، وأذهب في النفس الانسانية عمقا ، وأكثر في الفكر الانساني اختلافا ، ومنها الآداب العامة ، وأشد منها وأعمق العادات القومية ، وأعمق من هذه العقائد الدينية •

ودساتير ضمائير الناس ليست كلها نسخة واحدة ، لأن الناس في أجسامهم ، كما في أنفسهم أشباه ولكن ليسوا في جسم أو نفس سواسية •

والانسان في المجتمع يمر بأطوار الصبا والمراهقة والشباب وأكثرها أطوار تقليد يصنع الانسان فيها ذاته بالتقليد لما حوله • وفي الانسان مقدار من التقليد يضارع أو يشابه ما في القرود من ذلك • **وبعد مور التقليد والانصياع لطقوس المجتمع وعاداته** يبلغ الانسان السن التي عندها يأخذ يدخل فكره الى التقاليد ليرى كم هي تقع من الفكر السليم بحسبان أن فكره هو ، هو الفكر السليم ، وعندئذ يدخل الحذف والمحو والتصحيح في دستور الرجل الذي يأخذ يهديه ضميره ، وهو يسلك به في مسالك العيش •

المصادر الأخرى للضمير :

وعلى نحو ما فعل الدكتور أحمد زكي في مناقشته لمصادر السلوك الانساني ، نجده هنا يتأمل هذه الناحية فيما يتعلق بالضمائير ، ونلخص آراءه هنا فنقول نقلا عنه ان « في أديان الأرض كثيرا من الروايع التي تتألف منها دساتير الأرض » ، «ولكن القواعد التي سنّها الفلاسفة لا تصلح لأن يقام عليها ضمير • ذلك لأنهم اختلفوا فنفي بعضهم بهذا الخلاف بعضا ، ولأنهم فكروا فحينما أصابوا وحينما أخطأوا ، وضلوا ضلالا بعيدا » واذن فالعلة في عدم صلاحية الفلسفة لتكوين الضمير تقود الى الاختلاف البين والى

التفكير ، والتفكير لا يؤدي الى الصواب دائما . ويفيض الدكتور زكي في تفصيل هذه النقطة وضرب الأمثلة لها على نحو ممتع يجدر بالقارئ أن يعود اليه .

الضمير وتقديم الأمة :

لا ينظر أحمد زكي الى ضمير الجماعة . نظرة الذين يحللون ، أموجود هو أو غير موجود ، وما هي طبيعته ، دائما يأخذ أحمد زكي بالجانب المرتبط بالاصلاح والتقدم ، من حيث أهمية الضمير لهذين الجانبين . فنراه يركز على أهمية يقظة الضمائر ، من حيث كانت هذه اليقظة ضرورة أولى للاصلاح والترباط والتماسك .

ويذهب الدكتور أحمد زكي فيصف أحوال الجماعات والأمم في غيبة الضمير ، وصفا يؤكد على أهمية الضمير ، وأهمية العناية به .

ويتطرق الدكتور أحمد زكي ليتحدث عن الرشوة (الناحية الاصلاحية العلاجية الوقائية في مقالات عالما الجليل ذات الصفة الشهرية) وعن علاقتها بالضمير ويرد ذلك منذ البداية الى أن الفقر يضعف الضمائر . . ضمائر الافراد . وقوله هنا « الفقر كافر والضمير ايمان » درة من درره .

وماك فقرات الدكتور زكي على نحو مسرود في سرعة وترتيب : ولكن للضمائر مقدار من اليقظة اذا هي لم تبلغه ، لم تبلغ الأمة ما وجب ان تبلغه من اصلاح . ولم تبلغ ما وجب ان تبلغه من ترباط وتماسك . فما يكون في غيبة الضمائر الا الظلم والا الاعتداء ، والا اضعاء الحقوق . والا ذهاب القوة في الدولة من حيث أنها قائمة دائما في ميدان صراع بين دول أكثرهم به عداوة وله اطماع .

ان الفقر يضعف الضمان ، ضمان الأفراد ، والفقر كافر ،
والضمير ايمان وفي الفقر يشمل المرء مالا يشمل على الغنى ،
ودعوة الوعاظ الى التمسك بالصبر ، على الفقر ، بأن الله رازق ،
قلما تشبع من جوع وتغطي الجسم العارى بلباس •

والفقر كان حظ الدولة العربية في دور الاستعمار الذى كان
ولكم امتد فيما بعده من سنين ، والاستعمار كان فقراً وكان جهلاً ،
والجهل يسد باب الغنى ، ويسد باب الضمير •

وغابت الحرية •• وفي مظلة الاستبداد تكثر السرقات ، وتباح
الحرمان •

لهذا كان من رحمة الله أن تجول الأبصار اليوم فى الدول
العربية فلا تزال تجد فيها من الضمان بقية باقية •
الا أن أكثرها ضمان عاجزة • ترى النكر وتضعف من تغيير •
الا بقلوبها ، والتغيير بالقلوب أضعف الايمان ، ان أكثر الضمان
تقع حيث يقبع الذل ، والذل أخرس •

ولكنة ما شاعت الرشوة فى الناس حتى صارت أصلاً من أصول
العيش ، اقترحت أن يحذف من القوانين العربية حيث الرشوة
شائعة • النص بعقوبة المرتشى والرائى •

والى جانب الرشوة الاختلاس • ويختلس وهو آمن أو يكاد •
يا من القانون •• ويا من الناس أن تسفك دمه أو تحرق بيته •• جزاء
عن الآلاف الكثيرة التى اختلسها من شعب فقير • وذلك لأن ضمان
الناس ألفت أن تسمع ثم تقول لا حول ولا قوة الا بالله • مع ان الله
اعطاهم كل حول وكل قوة •

ولكن ما هو الحل ، هنا لا يجد الدكتور أحمد زكى بدا من أن يقولها بملء فمه : أنه التربوية ، ويرد أولا على الذين ينادون بمثل ما حدث في الصين من « ثورة ثقافية » فيقول :

« ولكنى لا أحسب أن بهذا تنصلح الأمور • فالضمانر تحيا بالتربية في المنازل وفي المدارس وفي المساجد وفي الجامع والدعوة الى تصحيحها تخرج من بوق من أبواق الدعاية ، وفي كل كتاب الا أن يأتى القوم نبي ، فيبدل من أنفسهم تبديلا • نبي من بنى البشر لا رسول من رسل السماء •

انتهينا مع الدكتور أحمد زكى من واقع مقالات سابقة لعل أبرزها المقال الذى جعل عنوانه « مصادر السلوك الانسانى » الى أن هذه المصادر ثلاثة هى الغرائز فالعادات فالضمانر • • وفهمنا عنه أن المنطق ليس بمصدر ، وأن الدين ليس بمصدر للأسباب التى ذكرنا بالتفصيل •

ولكننا نجد للرجل بعد ذلك مقالا كاملا عنوانه الأخلاق ، والقيم ، والعادات فى حياة الناس • ما مصادرها ؟ وعلى سبيل التلخيص السريع الذى لا بد منه لفهم الأمر كلية بادئ ذى بدء ، فإن الدكتور زكى قد جعل مصادر الأخلاق والقيم والعادات أربعة مصادر رتبها على النحو التالى :

- ١ - الفكر الانسانى ما احتواه من منطق •
- ب - الطبيعة التى يعيش فى أحضانها الناس •
- ج - الجبلة الانسانية التى لا تكاد تعتمد على فكر •
- د - أديان البشر جميعا •

وتركنا الدكتور زكى في حيرة • أيهما مصادر السلوك ؟ الثلاثة الأولى الغرائز فالعادات فالضمان ، أم الأربعة التالية : الفكر والطبيعة والجبل والأديان •

على أن الاختلاف في العناوين قد يورى بارقة أمل ، فالثلاثة الأولى مصادر للسلوك الانساني ، على حين أن الأربعة التالية مصادر للأخلاق والقيم والعادات • ولكن ما الفرق ؟ لاشك أن هناك فرقا بين السلوك الانساني وهو شيء واقع وبين الاخلاق والقيم ، والعادات وهى أشياء يفترض فيها أنها تحكمه أو تحاول أن تحكمه أو تقسره أو تحاول أن تفسره •

ولكنى لا أظن أن هذا الفرق يبلغ الدرجة التى تسوغ هذا الاختلاف بين تأجيل المصادر فى كلا الحالين •

فلننظر أى المصادر تكررت فى الأمرين ، عندئذ نجد الغرائز (فى الأولى) قد عبر عنها بالجبل (فى الثانية) وهناك فرق مابين الاثنين سأحدث عنه فى حينه •• ونجد العادات (فى الأولى) مصدرا ولكننا نجدما فى الثانية من الأشياء التى تتطلب المصدر ، ونجده فى الأولى ينفى أن يكون الدين مصدرا ، ثم يجعله (فى الثانية) المصدر الرابع •• ويبدو إذن أنه على مثل هذا النحو من المقارنة والمراجعة لن يتأتى التوفيق الذى يؤدى بنا الى فهم فلسفة أحمد زكى فى هذا الموضوع •

ولكنى أزعم أنى فهمت الموضوع على نحو رياضى ، يستند الى علم التفاضل ، لا تعقيدا للموضوع ولكن تبسيطا له •

وتبسيطا لهذا الفهم أقول اننا نجرى عملية « التفاضل » فى الرياضيات على نحو قريب مما يسميه العامة بالتفصيص ، أو على نحو ما يفهمه الكثيرون من سلسلة الأمور فبعد الله بن عبد الطلب،

ومحمد صلى الله عليه وسلم ابن عبد الله ، وهو ابن عبد المطلب أيضا (ولكنها ليست بنوة مباشرة ، ليست بنوة ناتجة من الخطوة الأولى في تعاقب الأجيال) ٠٠ وهكذا تمضى العلاقة التفاضلية أو العملية التفاضلية على نحو يتيح لها أن تكرر نفسها على الناتج الذى انتجته من المعطى الأول .

لا على القارئ مما تقدم ، ولينظر معى الى السلوك الانسانى ما مصادره ، فليكن مصدره أى شىء ، ولكن ما مصدر هذا الشىء المصدر ؟ انه المصدر (الجد) ٠٠ ولكن مصدر السلوك الانسانى ليس واحداً وقد يكون أكثر من شيئين أو ثلاثة ، وقد يكون لمصدرين من مصادر السلوك مصدر واحد أعمق ، وهكذا ٠٠

لو فهمنا هذه القاعدة التفاضلية لأدركنا أن أحمد زكى لم يخلط حين جعل مصادر السلوك الانسانى هى الغرائز فالعادات فالضمائر ثم أعاد النظر يرى ما هى مصادر العادات والاخلاق والقيم فوجدها الأديان والجبلة والطبيعة والفكر .

بل أكثر من هذا فقد جعل الدكتور مصادر الاخلاق فى مقاله (أغسطس ١٩٦٨) ثلاثة هى من ذات التى نتكلم عنها ولكن مع اختلاف فى الترتيب :

- (أ) الدين .
- (ب) قانون الطبيعة .
- (ج) الجبلة البشرية .

يقول المؤلف هذا هنا بعدما أخره عن قارئه لكيلا يزيد اللبس ، ولكنه متأكد الآن أن لا لبس ولا تلبس .

ولا علينا من هذا الترتيب التفاضلى ، لأننا لا نهدف فى المقام الاول الى جعل هذا الباب تكامليا بالدرجة الاولى ، ولكننا نهدف الى أن نستكمل على نحو ما البحث والتأمل فى جزئيات فلسفة أحمد زكى فى جوانب النظام الاجتماعى ، لهذا سنسرع الحديث عن القيم ثم نتفرع بالحديث الى الأصول الأربعة :

القيم

وهى عند الدكتور أحمد زكى تلك التى « يقيم بها الانسان أشياء الحياة ، مما يتصل بحوافزها ، وأهدافها ، والأمانى التى يحاول الانسان أن يبلغها » .

تعريف ليس هو تعريف غالبية الفلاسفة ، ولكنه قريب الى حد بعيد منها .

ويتفرع الحديث بالدكتور أحمد زكى ليحدثنا عن نوعين من المجتمعات :

المجتمعات المستقرة :

التي قلما تتاح لها الفرصة فى التريث قليلا لتتنظر فيما هى صانعة ، وفى موضع صنعها من الصحة والخطأ ومن الحق والباطل ، « ومثل هذا المجتمع عنده أن عاداته حق ، وأن نقيضها هو الباطل ، وأنها حق لأنها عادات ، وأنها عادات قاذن هى حق ، والا ماحفظها الزمان » ومثلها مجتمعاتنا الشرقية .

والمجتمعات غير المستقرة :

وهى تلك التى يصحو الناس فيها ويمسون ، وهم يفتشون فى عاداتهم وأخلاقهم ومعتقداتهم من كل نوع . ومثلها المجتمعات

الاوروبية • ويذكر الناس من أمثلة القلائل التى وقعت فى المجتمعات الاوروبية الثورة الفرنسية وقبلها كان التحرك الفكرى الذى قاده فلاسفة الفرنسيين فى أوائل القرن الثامن عشر وفى أثنائه وهو كما عبر عنه باسم التنوير « وقبل عصر التنوير كان عصر النضبة ، وكان عصر الثورة الدينية ، ومن بعد الثورة الفرنسية جاءت الحركة الرومانسية •• أمواج متلاطمة فى البحر الذى افتقد السكون • تلك البيئة الاوروبية فى القرون الثلاثة أو الأربعة الماضية •

وكان أثر هذه الزوابع التى وقعت فى الغرب فى حياة الناس فى أمم الغرب أثرا بالغاً فى مساكن الناس ، وملابسهم وطعامهم ، وعاداتهم ، وآرائهم العلمية والاجتماعية والنفسية والمادية والروحية •

ويمضى الدكتور أحمد زكى يناقش الى أى مدى بلغ تأثير ما حدث فى الغرب على الشرق •

ونعود لنناقش معه مصادر السلوك والأخلاق فى أمم الأرض

١ - الفكر كمصدر من مصادر السلوك الإنسانى والأخلاقى :

بعد أن يضرب الدكتور أحمد زكى أمثلة على نحو الأمثلة التى ضربها فى مقاله (فبراير ١٩٧٢) يقرر صراحة أن « مبادئ الأخلاق ، وقواعد السلوك لم تكن من نتائج الفكر • أو على الأقل من نتائج الفكر العارى والمنطلق السليخ وحده • لا بد اعتمد الناس فيها على مصادر أخرى •

وليس معنى هذا أن أحمد زكى لا يعتبر الفكر مصدراً من مصادر السلوك ، ولكنه يريد أن يؤكد أن الفكر العادى أى الفكر

المجرد ، والمنطق المطلق (بتعبيره : السليخ) ليسا هما المصدر الوحيد للسلوك الانساني ٠٠ صحيح أن عباراته في هذا ليست واضحة بالقدر الكافي ولكن سياىى بيان هذه النقطة في موضع آخر من كتابنا هذا ان شاء الله ٠

٢ - الطبيعة كمصدر من مصادر السلوك الانساني :

يسرد الدكتور أحمد زكى نماذج الطبيعة التى يستلهم منها الناس سلوكهم ، ففى الحيوان تعاطف ، وفيه ميل بين الذكر والانثى وفيه أمومة ، و القط يأبى القذارة ، فلهذا يلحق شعره دائما ، والكلب يحسن ولاءه للنعمة ، والشجرة تزرعها حيث ضوء الشمس قليل فتميل لتخرج الى الضوء ٠٠ وكل هذه دروس للانسان ٠

ولكن الدقة العلمية تجعل الدكتور أحمد زكى لا يمضى دون أن يذكر الجانب الآخر من الموضوع ، فان « فى الطبيعة ظواهر جرى الناس فى اخلاقهم على نقيضها ٠ ففى الحيوان افتراس دائم ، يأكل القوى الضعيف ، ويأكل الكبير الصغير ، والناس لا ترضى هذا ، أو هى على الأقل تحاول أن لا ترضاه ، فتتشىء معانى من العدالة ومن المساواة ، لا يعرفها عالم الحيوان ٠

وينتهى الدكتور أحمد زكى نهاية اقرب الى ما ننتهى اليه فى أمر الفكر كمصدر من مصادر السلوك الانساني فيقول « وليست هذه المعانى مصدرها الفكر والمنطق ، وليس مصدرها الطبيعة يعيش الانسان فى احضانها ٠

٣ - الجبلية الانسانية كمصدر من مصادر السلوك الانسانية :

وهنا سؤال ، هل أراد الدكتور زكى ان يعاود انفسول بأثر الغريزة فاختر لها اسما آخر هو الجبلية ٠ قد يكون ٠ ولكنه ضرب

مثلا يساعدنا على فهم الجبلية على أنها شيء آخر غير الغريزة ،
فهى شيء فى الانسان الذى نما فى المجتمع الانسانى ، اما الغريزة
فهى تلك التى فى الانسان الذى ولد فحسب ، هذا هو ما فهمته
شخصيا من ضربه المثل بالرجل يأكل طعامه على ناصية الطريق
فيقرر به المحروم فتدفعه جبلته - ان ظلت صحيحة - الى أن يوجد
ببعض طعامه لهذا المحروم .

ويختتم أحمد زكى رأيه فى أمر الجبلية بتأكيد ما ذهب اليه من
قبل من اثر الغريزة أو الجبلية أو الطبيعة فى سلوك الانسان وعباراته
فى هذا واضحة « هذا هو أنت أيها الانسان ، ولا تقل من أى جنس
أنت ، ولا من أى أرض ، ان كل الناس الاسوياء فى هذا سواء فتلك
هى الجبلية الانسانية ، وكدت أقول الفطرة التى تهدى الناس سواء
السبيل » .

٤ - الأديان كمصدر للسلوك الانسانى والاخلاق :

ولعل رأى الدكتور أحمد زكى فى مسألة الدين هنا أقرب الى
الصواب من رأيه عندما تحدث عن مصادر السلوك الانسانى ،
تنفى ان تكون الأديان من هذه المصادر ، لأن الناس تقبلوا الأديان
بقدر ما وجدوا فيها من توافق مع ما عرفوا من قواعد السلوك
السوى .

وقد يكون هذا صحيحا فى شأن أولئك الذين انتهم الأديان فى
ماضى الزمان ، ولكن ما بال أولئك الذين يولدون فيجدون أنفسهم
على دين آبائهم ، وهم كل الذين يعيشون عصورنا اليوم .

لهذا كان من الصواب ان يذهب الدكتور أحمد زكى فيقرر أن دور
الايجابى للأديان فى تكوين السلوك ، وطبيعة هذا الدور ، على النحو

الذى ذجتزىء منه بقوله : « جمعت الاديان - الى العبادات والعقائد - محاصيل القرون من الاخلاق ، ورسمت طريقا معبدا سهلا ، وفر على الناس اضطراب الفكر ، وريبة المنطق ، واشياء يستوحىها الانسان من بيئته ، ومن الطبيعة التى يعيش فيها ، اما الجبله الانسانية فانتقلت خلاصتها طاهرة مطهرة الى الاديان تكاد تتحدث بها » .

« والفضائل الأساسية فى الأديان - واحدة أو تكاد تكون » .

ولكن ماذا عن التقاليد ، أنها الشيء الذى لم نتناوله حتى الآن بالتفصيل بعدما تناولنا مع الدكتور أحمد زكى : الغرائز ، والعادات ، والضمائر ، والقيم وكلها من عناصر البناء الاجتماعى .
ها هو الدكتور أحمد زكى يختص التقاليد بمقال كامل فى حديث الشهر يوليو ١٩٧٤ مجلة العربى ويجعل عنوانه « التقاليد : يذكرها من أهل اليمين من يذكر فيرفعها الى الذروة ، ويذكرها من أهل اليسار من يذكر فينزل بها الى الحضيض » ، ومن هذا المقال ، ومن فقرات أخرى نلخص للقارئ آراء أحمد زكى فى التقاليد من زوايا مختلفة .

التقاليد بين أهل اليمين وأهل اليسار :

ولأهمية هذه النقطة نقدمها فى الحديث كما قدمها أحمد زكى من قبل ، التقاليد لا تختلف فى قيمتها بين هؤلاء وهؤلاء ، ولكنها تكاد تكون من العوامل المفرقة بين أهل اليمين وأهل اليسار ، فأهل اليمين ينظرون اليها على أنها عمد من أعمدة الحياة ، تنقوض الحياة بتقويضها ، وعند أهل اليسار هى أسواء وأدواء يجب ان تتخلص منها الحياة لتصح وتتنهر .

ما هي التقاليد ؟ :

وينتقل الدكتور أحمد زكى الى تعريف التقاليد حسب مفهومه
فهى : « انماط من السلوك تواضع عليها مجتمع من الناس ، لتنظم
الحياة بينهم ، فلا تكون فوضى ، ولكى يعرف كل من فى المجتمع
حين يحل به أمر ، أو يشكل عنده مشكل ، أو يقع له من الاحداث
ما يدب أو ما لا يحب ، كيف يتصرف كما يتصرف الناس لابد من
اسلوب واحد أو اسلوب متشابه يتعوده الجميع فى شتى ما يكون
بينهم من علاقات » .

وأبسط مثل للتقاليد هو السلام . على اختلاف صور التحية
التي يحى بها الرجل من يلقاه ممن يعرف وهى « تقليد دفع اليه
الطبع عند لقاء الناس بالناس . ان الرجل لا يلقى الرجل وكلاهما
كالحجر جامد اصم ، لابد من حركة ، من اشارة من كلمة من تحية ،
ولابد من الاتفاق عليها ليفهم معناها . وهذا هو التقليد عند اللقاء ،
وفاء بحاجة الانسان » .

ويجيب الدكتور احمد زكى على سؤال يطرحه « كم عدد التقاليد
هل هى مائة ؟ هل هى ألف ؟ » فيقول انها عديدة لا يكاد يحصرها
حصر ، وهى تشمل جميع مناشط الحياة ويمضى فى تفصيل ذلك
على نحو تتركه للقارئ فى مقال الدكتور زكى .

معنى التقاليد :

وهذه فقرة هامة لأحمد زكى يعبر فيها عن رأيه الشخصى فى
التقاليد ، وعن معنى التقليد ، ومن الطريف ان هذه الفقرة بالذات
وردت فى مقاله « الأكل فن وفلسفة » وهو أحد فصول كتابه
« ساعات السحر » فاقرا معنى الخلاصة الاولى للرأى : « أحسب

أن الأساليب شيء عظيم ، وإن أطرزة التقاليد لم تكن عبثاً ، وأنها دائماً أبداً ترمى لعنى ، قد يكون صريحاً أول الأمر ، ثم هو ينهم من بعد ذلك ، فيقول التقليد وحده من بعد ذلك ، فيظنه الناس عبثاً ، وما هو بالعبث ، إنه لفظ فقد معناه ، أو انبهم معناه ، ولكن يبقى له جرسه المسموع المألوف الحبيب » .

من يصنع التقاليد ؟ :

إنها مؤلفات فقدت أسماء كتابها ، ولعل ذلك كان بسبب كثرة من اشترك في تأليفها ، وينشأ الناشئ في المجتمع فيحسب أن هذه التقاليد خلقت في المجتمع مع ظهور الشمس والقمر .

كيف تنشأ التقاليد ؟ :

ويضرب لنا الدكتور أحمد زكى في أكثر من موضع الأمثال لنشأة التقاليد ، وهو حريص على أن يؤكد أن التقاليد في نشأتها لا تعرف المنطق ، والمثل الكلاسيكى عنده لهذا ، هو السنة القمرية : « فابتدعنا السنة القمرية ، وهو معنى مصنوع ، وهو لا يتصلن بجرم من السماء ، السماء تعرف سنة الشمس ، ولا تعرف ، وما عرفت للقمر سنة فقط » . على كل حال هذا استطراد أشبه بالثرثرة . فليعض الناس على ما هم فيه فللتقاليد قوة فوق المنطق ، لا سيما إذا عززتها وغرستها وصانعتها في قلوب الناس السنون . فلنسر مع القمر ، في صحبة وثيقة ربطت أوأصرها القرون » .

التقاليد والقانون :

وينتقل الدكتور أحمد زكى الى علاقة التقاليد بالقانون فيذكر أن من التقاليد « مايرى المجتمع أنها بلغت من الضرورة مبلغ الإلزام

فيجعل منها المجتمع قانونا ملزما * « ويقع هذا أكثر ما يقع فيما يتصل بين الناس والناس من معاملات وخصوصا » *

« على أن أكثر القوانين، بل الكثرة الكثيرة منها ، إنما ترسم للناس جميعا في حياتهم الجارية كيف يسلكون ، ويرضاهاها الناس حتى لتصبح فيهم تقاليد ، بمعنى أنها تصبح فيهم عادة ، وخطوطا للعمل يمشون عليها غافلين عما تضمن القانون بها خاصة من ثواب وعقاب » *

وعلى الجانب الآخر فإنه إلى جانب هذه التقاليد التي يعمدها القانون ، تقاليد أخرى عدتها ألف لا يعمدها القانون ، ذلك لأن القانون كالسيف القاطع ليس مما يفيد المجتمع أن يعلق فوق كل حائط ، وكذلك من شئون الحياة ما يجب تركه لضمائر الناس لتقضى فيه ، تستخدم في حكمها ما وهبت من عقل ، وما قسط المقسط لقلوبها من رحمة وذلك لأن الهدف الأكبر من التقنين ، وأن طال زمانه أن يقوم مقام الضمائر حتى تبلغ غايتها من النضج ، لهذا يجب استخدام الضمائر وتدريبها ، حتى يأتي الزمان الذي يكون فيه الضمير هو القانون الذي يحكم ليحتكم إليه الناس » *

تقاليد الزواج : مثل للتقاليد الشائعة :

ويعود الدكتور أحمد زكي ليستعرض بعضا من تقاليدنا الشائعة ويقف منها بعض وقفات التأمل ، سننقى القارئ من أكثرها في هذا المقام ولكننا سنستمع معه بالاستماع إلى أحمد زكي وهو يتحدث عن تقاليد الزواج فيقول أن الزواج ازدواج ، والعروس والعريس عند الازدواج يغفلان عن كل هذا ، ويجب أن يغفلا ، أنه الحب بينهما ، وأنه العشق ، وأنه الشهوة أو ما شئت من أشياء .. أن الانجاب واحد من أشق الواجبات زيفته الشهوة التي تبدأ ،

انها كشيوة الطعام لولاهما ما قام أحد الى مائدة « ويستطرد ليقول ان التزييف نوعان ، ان تجيء الخسيس تحت غطاء من ذهب ، وتكشف عنه غطاءه ، فلا تجد الا شيئا خسيسا ، ولكنك أيضا قد تجيء الشيء الثمين تحت غطاء من فضة وتكشف عنه غطاءه ، فتجد من دون ذلك ذهباً خالصاً » وهكذا الانجاب عمل يغرى به الانسان فقشرته من فضة ، ولو كشف عنه قشرته ، لوجده ذهباً خالصاً وقل من الناس من يتوقف ليكشف .

التقاليد والحروب :

« وللتقاليد جذور ثابتة في الشعوب وقد عرفت أوروبا قبل الحرب تقاليد تكاد ثابتة بثبوت الدهر ، ثم تبدلت أسرع تبدا عقب الحرب العالمية الأولى وجاءت الحرب الثانية فزادت تلك التقاليد تبدا ، حتى كان التبدل ثورة » .

« وتنتهى الزلازل المتلاحقة وقد تقطعت روابط الناس بالناس ، والذي لم يتقطع شك الناس فيه ، وانه النافع حقا ، وتتغير بتصدع الايمان غضبا » .

ومع هذا فالكثرة من سكان أوروبا وسكان أمريكا كان لابد من تقاليد . اهي جديرة قد تكون ولكنها على كل حال تضمنت الكثير من القديم فان الطبيعة الانسانية لا تأبى الانفصام والمجتمعات الانسانية تأبى الا الانسجام ، فان ذهبت تقاليد فلابد ان تحل محلها تقاليد ، والا صارت الحياة فوضى ، في منزل ، وفي شارع ، وفي سوق ، وفي كل مكان تذهب بالناس اليه خطاهم .

التقاليد بين الريف والحضر :

وينبه الدكتور أحمد زكي الى اختلاف التقاليد بين الريف والحضر ويضرب المثل لذلك بالاقراض فهو في الريف دون صك ،

فان اتبعت هذا التقاليد في الحضر فأكبر الظن أنه لن يعود اليك
مقترض بمال ، ولن يحمذك على عملك هذا حامد ، هذا في الريف
حسن ثقة وخلوص نية ، وفي الحضر سفه وغفلة وقلة احساس
بالتبعة .

والحضر ذاته درجات فهناك حضر صناعي وحضر زراعي ،
وحياة هؤلاء غير حياة هؤلاء ، وتقاليد هؤلاء لا يمكن ان تطابق
تقاليد هؤلاء .

التقاليد ومصالح الناس :

« ان التقاليد وجودها مرتبط بأنها مع تيسير عمل الناس في
الحياة بتوحيد مسالكهم فيها تقوم بخدمة مصالح الناس » .

والتقاليد ما خلقت في بدء خلقها الا لتفي بحاجة من حاجات
العيش ، وهي قد تتوسط معاملات الناس وقد تكون بدءا في هذه
المعاملات وقد تكون انتهاء وما خلق تقليد أبدا لضررة الناس ، اذن
لما كان تقليدا رضيه الناس » .

التقاليد البالية :

ولأننا نعيش في عصر تتغير ظروفه وحاجات الناس تتغير بتغير
الأزمان « فلا مانع مطلقا من ابدال جديد من التقاليد بقديم ، على
أن يكون التقليد من الأصالة في العيش بحيث يستأهل كل ما يبذل في
ذلك من جهود وعلى شرط أن يكون للناس وأخص السواد ، ان يكون
لهم مصلحة محققة في هذا الابدال والتغيير » .

أثر التعليم في التقاليد :

أنه يحدث انقلابا في التقاليد وحسبك أمره في مسألة السفور
وواجبنا ان نفتح الابواب لتعليم الرجال والنساء « ويسروا للناس

الاعمال ليرتزقوا الرزق الحلال الطيب المجزى ، تنطهر المجتمعات من كثير من التقاليد ، لا نقول البالية ولكن « الضارة » قديمة كانت أو حديثة »

« ان للجهل تقاليد تخفف عن الجهلة اثقال الحياة ، حتى ليكون أحيانا من الضررة سلبهم أياها ، انها المخدر الذي يذهب بالآلام ، وكذلك الفقر له تقاليد تخفف عن أهله مرارة العيش ، وقد يكون من القسوة تجريعهم كأس العيش بمرارته الكاملة » .

التقاليد والمستقبل :

وقد يكون من حسن الختام أن نختم حديثنا عن التقاليد وعن نظرية البناء الاجتماعى فى فلسفة الدكتور أحمد زكى بالحديث عن أمل الدكتور أحمد زكى فى تطوير التقاليد خصوصا وإن الفقرتين قبل الأخيرتين من هذا الباب تحسدتنا هن التقاليد البالية ، وأثر التعليم فى التقاليد .

لا شك أن ذلك من حسن الختام ، خصوصا إذا كنا نقتبس من الرجل الذى كان يحسن الختام ، وقد أحسن الله خاتمته .

روى الدكتور أحمد زكى أنه حدث رجلا جاهلا فقيرا فى شيء يشبه ما يتحدث عنه الناس من تقاليد فقال ذلك الرجل موجهها حديثه الى أحمد زكى : « عادات آيه وسخام آيه » ما لها عاداتنا ، أنها على قدنا - .. أن كنتم تريدون عمل شيء لنا ، فعلموا أولادنا كيف نكتب وتعمل وترتزق ، واملاوا أفواههم باللقمة السخية الطافية حتى يملؤوها هم بأيديهم » .

ويشير الدكتور أحمد زكى الى أنه من اللطيف أن الرجل ذكر الأولاد ولم يذكر آباءهم ، لعله ظن أن النجدة بحسبها أن تصل الى الأولاد ، وأنه ليس فى الزمن متسع لأكثر من هذا « فهل نفعل ؟ » .

نظرة في الإصلاح الاجتماعى

الإصلاح عندى لا يبدأ من أسفل ، ولكن يبدأ من الأعلى الى الأسفل أو هكذا هو يجب أن يكون .
ان الإنسان أوثق قدما وأثبت موضعاً وهو فى الدور السفلى من ناطحات السحاب « فإذا أنت علوت ثم علوت ثم علوت حتى بلغت الدور الأربعين أو الخمسين من البناء ، ونظرت الى أسفل ، هالك المنظر ، وضاعت عند تلك وثاقة القدم ، وذهب ثبات الموضع ، وانت ان بقيت هناك طويلاً نسيت ما العيش ، مع سواء الناس ، على الأرض الجامدة » .

أحمد زكى

لعل أول الأمور فى فلسفة الإصلاح الاجتماعى وأخطرها عند الرجل الذى نيطت به هذه المهمة على مستوى الوزارة هو « القضاء على الفقر » . حتى الأخلاق هى عنده نوعان : أخلاق على الفقر، وأخلاق بعد القضاء عليه ، وعباراته فى هذا المعنى واضحة ، ومنها قوله فى (يوليو ٧٢) : « القناعة تكون بعد الثراء لا قبله ، ولا بأس من البجوحة فالتناس ناس » .

والفقر عنده مأساة تؤثر حتى على الإيمان (١٩٥٩/٧) :
« الجوع كافر ، فلا تأت لكافر ، كفره الجوع ، فتحدثه عن إيمان ان سبيل الإيمان عنده الرغيف والادام . ان هذه هى الطبيعة وبكذا خلقنا الله » .

والفقر عنده مأساة تؤثر على الإنسانية فتنتزل بها عن المستوى الذى أراده الله (١٩٥٩/٧) : « الانسان على الجوع المتصل نزل فى الفهم الى مستوى البهيم » .

والفقر سبة (٧٢/٧) ، سبة للفرد لأن مع الفقر الضعفين : ضعف الجسم ، وضعف النفس ، وكلاهما سبيل الضعة والمذلة ، فالفقير لا يكاد يرفع يديه ليرفع ، بصرا لأنه تعود النظر الى الأرض » .

والفقر سبة للجماعة وسبة للأمة التى أكثر أهلها فقراء فى عصر حضارى .

ولكن على من يقع وزر الفرد ؟ أن الدكتور زكى يلقى به صراحة على عاتق الدولة (٦٧/٣) . أن وزر الفقر على الدولة ووزر البطالة ، وهى فقر ، على الدولة ، والدول الواعية اليوم تدرك أنه ما من بطالة الا وهى سوء تنظيم وتخطيط « أن تيسير التلقمة النظيفة لتصل الى أفواه المواطنين هى فى حسابى أول واجبات الدولة » (العربى : ٧٤/١٢) .

وفى هذا المعنى يقول الدكتور أحمد زكى ، « لا لربط الفقر بالمذاهب أنها طبخة الطابخ هذا يجب أن تطبخ فى نحاس ، وهذا يجب أن تطبخ فى حديد » فى فخار ونسوا الطبخة نفسها . والطبخة قيمتها ليست فى وعائها ولكن فيما تحويه من لحم وشحم وما الوعاء الا عارية » ، « والناس تقضى أمساءها والأصباح فى مذاكرة المذاهب ولو أنهم صمتموا عن هذه المذاهب ونزلوا الى الحقول يعملون لاغنائهم العمل ، وانتجة العمل ، عما كانوا فيه مجتمعين » ، « أخطر من المذاهب الاقتصادية الاقتصاد نفسه » « لابد من عمل الناس كافة ، فلا يكون بينهم قاصر كسول عالة » . « يأكل بلا عمل ، أو يأكل من عمل غيره ، عمل الناس » .

ويضرب الأمثلة « لقد زرت ألمانيا بعد نكبتها بسنوات فوجدتها كخلية النحل لا تهدأ عملاً ، والنحل يعمل نهاراً ، ومولاء كانوا يعملون ليلاً ونهاراً ، في « الرور » في « الرين » في كولون ... الخ) ٥٥ صفوف كصفوف النحل رائحة بأعمالها غادية ، ومنهم من أعطى فوق حصته عملاً ، ورفض أن يأخذ عليه أجراً ، أنه يبني أمة ، أنها روح الجهاد ، شملت كافة الناس هناك ، ولم أقف لاتساع : ما كان مذهبها الاقتصادي عند ذلك » .

وان تعجب فاعجب من قوم يرون في المذاهب أنها الغاية المذهب عندهم هو الأول والآخر ، يعتقدون المذاهب أي مذاهب ثم ينظرون إلى السماء عليها تمطر ذهباً ، أنها معركة الفقر أقل سلاحها خطراً المبادئ والمذاهب وأعظمها خطراً عمل العامل وجهد الجاهد » .

إذن الحل هو العمل ، والانتاج ، ولكن أي نوع من العمل والانتاج إن أحمد زكي يركز على ضرورة التصنيع ، وحتى الزراعة لابد من دخول التقنية إليها ، وهو يفيض في شرح المعنى الذي يفرق بين الناتج النهائي من الزراعة أو العمل البدوي ، وبين ذلك الناتج بعد التصنيع ، وسنورد هنا في اختصار شديد بعض فقراته في هذا الصدد .

١ - « والحقيقة التي أريد أن يعلمها العرب ، وأكثرهم لاشك إيقاظ لها ، بها عارفون ، أنه لا سبيل إلى أن تكون للعرب صناعة إلا من هذه المدخرات التي انتهم من البترول ولسيت أريد للعرب زماناً صناعياً ضيقاً كالذي كان للشعب الإنجليزي في القرن الماضي ولا كالذي كان للشعب الروسي في القرن الحاضر ، ولكن أريد أن أقول إن إنشاء الصناعة العربية يحتاج إلى تضحية من أهلها ترك البذخ والاسراف في اقتناء السيارات وبناء القصور ، ويكفي العرب إلى حين أكثر مما كفى الإنجليز والروس في نشأة صناعتهن » العربي . ١٩٧٣/١

٢ - « أكاد أقول أن البلاد التي لم تتصنع ليس من حقها أن تشتري من هذه المدنية الصناعية ما تشاء بغير حساب ، لاسيما في البلاد التي إذا اشتريت فيها سيارة ذهب ثمنها بطعام مائة أو ألف من الناس لاسيما سيارة لا يركبها راكبها الا لينتمى ظاهرا الى المدنية الحاضرة وهو ليس منها وهي ليست منه » . (٧٤/١١)

٣ - « المصانع اليوم صارت أبواب الثراء وأبواب الاكتفاء وأبواب الرخاء ، وأبواب العزة لمن يطلب العزة ، والقوة لمن يطلب القوة ، والعزة التي بناؤها القوة هي اليوم المتكافؤ الأول لمن يخشى في الحياة ذلة » (٦٦/١٠) .

٤ - « المكن المكن يا سادة العرب ويا دهماءهم . تمكنوا بالمكن ، فليس اليوم في حاضر هذا العيش من مكنة سواه . ان الفراع الذي يعمل اليوم من حديد وإن بقى ذراع من عظم ولحم يعمل الى اليوم فهو ذراع البقر والخيول والحمير » .

الشرط الاول للتجهيز للانتاج المكنى : أن يقرأ العامل وان يكتب فكيف يعمل المكن ثم كيف تحسن ادارته وحسن الانتاج به عامة ، (٧٠/٢) .

٥ - ويعلق على الذين يفخرون باقامة مجموعة من المصانع والصناعات تبلغ خمسا أو سستا وتكون هذه فخر مواطن بوطنه ويقول « وأحسبها فخرا لصناعة بادئة ، ولكنه يجب أن لا ننسى ان هذه الصناعات ألف وألف ، لا بضع خمسات أو عشرات ، وعلى هذا المواطن ان يراجع قوائم للصناعات في البلاد الصناعية ويحاط حتى لا يتورط في انهيار عصبي شديد » (العربي : ٧٢/١) .

هل لنا ان ننقل بعد عرض هذه الفقرات التي ابانت عن نفسها وعن فكر أحمد زكي في المطالبة بضرورة تصنيع البلاد العربية الى الجانب الثانى من جوانب الاصلاح الاجتماعى وهى مسألة متصلة

أشد الاتصال بالجانب الأول من حيث أهمية العلاقة بين الأجور والانتاج لأنه لابد من مراعاة « أن كل محاولة لرفع الأجور الحقبة فوق ما يأتى به الانتاج أو خفضه دون ذلك لابد أن تنتهى بالفشل وتعم المأساة حين يصل تأثير هذا الخفض فى سائر الانتاج فتتسبب به الأجور ويتعطل العمال والنتيجة التى لا مهرب منها إنما تكون زيادة الاسعار وزيادة الاسعار عقوبة للشعب » .

ويصل اقتناع أحمد زكى بهذه الفكرة الى حد أن يجاهر (فى ٧٣/٩) بأن كل مؤسسة عامة أو خاصة لا تحسن الانتاج - كثيرا ما يكون اغلاقها خيرا لأنها تنزل بالأجور وترتفع بالاسعار والفقر يرقد فى كليهما والافقار » .

وأحمد زكى يقيس الاصلاح الاجتماعى ، والنجاح الاقتصادى المسبب له بالمستوى الأدنى الذى يكون فى البلاد بعبارة أخرى يذهب الدكتور أحمد زكى فى تعريف الفقر الى أنه غياب الضروريات « والضرورة هنا ليس معناها أن الشيء هذا الذى نسميه بالضرورى اذا غاب هلك الانسان ولكنه ضرورى بمعنى أنه اذا غاب افتقده الانسان افتقادا شديدا » .

بعبارة ثالثة اقرب الى علم الحساب والرياضة أنه يجعل حد الفقر وهو الحد الذى يكون من تحته فقيرا ٧ بدلا من ٣ وهكذا .

هذه المعانى تجدها فى حديثه عن الصناعة وعلاقتها بالحرية ، وما نحن نختار لك من حديثه فى هذا المعنى ثلاث فقرات من مقاله فى يوليو ١٩٧٢ » .

« الرجل القنوع هو الذى يأكل ولكن دون أن يشبع ويطلب الطيب من ثمرات الأرض ويقف دون الكثير حتى يكون لغيره نصيب ، وهو الذى يلبس الثياب نظيفة مريحة لا بهرج فيها ، ويفى بمطالب العيش ولكن فى اعتدال » .

« والرجل القنوع هو الذى يقنع بالعيش المحدود ، شريطة ان يكون هو الذى يحد منه ، والرجل القنوع هو الذى يرضى بالعيش القليل شريطة ان يكون هو الذى يقلل منه لىبقى منه شىء ينتفع به ذو رحم أو ذو صداقة أو ذو ميزة أو ذو جاه ، »

وليس من القناعة ان يقنع المرء بالعيش الزرى الذى تفرضه عليه الايام فرضا نك الذى نسميه بالفقر ، فما كان الفقر يوما بزينة . وما كان صبر على فقر له اجر فى دنيا أو آخرة . والرجل قادر على تغييره . اما ان يطلب الفقر عمدا ، فى اليوم الحاضر رجاء اجر مرجو غدا ، ففكرة تعجز عن فهمها العقول ، »

وأروع من هذه الفقرات الثلاث السابقة ، فكرة ذكية لأحمد زكى يرد فيها على أولئك الذين يرضون لشعوبهم - أو لغيرهم أو لانفسهم - الفقر تحت شعار الزهد ضاربين الأمثال بالزهاد الكبار فى تاريخ الانسانية والاسلام . فيقول أحمد زكى ان هؤلاء عملوا ولم يرفضوا اجر عملهم ، وانما أجلوه - الى يوم القيامة - فهو نسيئة .

وأخيرا فان أحمد زكى يؤمن ان ليس فى عالم اليوم مسكان للضعفاء على النحو الذى يجده انصارى مفصلا فى الباب الأول . وهو يتحدث فى (٦٨/٦) عن أحكام القانون الدولى فى شأن الدول المتخلفة ثم يقول عن هذه القوانين أنها صارت كلها كسائر قوانين أهل الأرض ان كنت ضعيفا وتخشى الملامة فانت تتقبلها وتحاول فيما ظهر منك ان تخضع لها ، وان كنت قويا فم هذا الذى سوف يطالبك من بعد حساب .

المصادر :

- ١ - « الفقر داء عز دواؤه » الهلال : مايو ١٩٤٨ .
- ٢ - « معركة الفقر قائمة » العربي : يوليو ١٩٥٩ .
- ٣ - « فقر الدولة من فقر أفرادها وغناها من غناهم » العربي : يوليو ١٩٦٤ .
- ٤ - « الف مصنع ومصنع تفتح الآن أبوابها لتصنع الرجال » العربي : أكتوبر ١٩٦٦ .
- ٥ - « الفقر .. الفقر » العربي : مارس ١٩٦٧ .
- ٦ - « الدولة الخسيرة ترعى أبناءها من يوم يولدون الى يوم يقبرون » العربي : ديسمبر ١٩٦٨ .
- ٧ - « فقر وغنى » العربي : مارس ١٩٧٠ .
- ٨ - « التربية كيف تمارس على التخلف والفقر » العربي : فبراير ١٩٧١ .
- ٩ - « هموا الى الاصلاح » العربي : مارس ١٩٧١ .
- ١٠ - « معركة الفقر والفنى » العربي : يوليو ١٩٧١ .
- ١١ - « بين الحرية والكمب » العربي : يوليو ١٩٧٢ .
- ١٢ - « حقائق عشر عن تخلف الشرق » العربي : يناير ١٩٧٣ .
- ١٣ - « الأجور وكيف اختلفت بين الناس » العربي : سبتمبر ١٩٧٣ .
- ١٤ - « الاسعار .. الاسعار » العربي : نوفمبر ١٩٧٤ .
- ١٥ - « الفقر أكثر أسباب التخلف أمالة » العربي : ديسمبر ١٩٧٤ .

الباب التاسع

المرأة

أحب المرأة التى تقول لا ، ولا أحب التى تقول نعم
دائما لأنها تعيش على الظلم ، ولا التى تقول لا دائما
لأن هذا ينافى طبائع الاشياء •

أحمد زكى ٦٨/٢

يناقش هذا الباب بعض النقاط التى قد تبدو منفصلة عن بعضها،
أو بالمعنى التقسيمى تبدو كل واحدة منها منتمية الى عنوان كبير
غير الذى تنتمى اليه النقاط الأخرى ، ولكننا مع ذلك نجتمعها فى هذا
الباب الذى يحمل عنوانا له الصدارة من حيث أهميته على بقية
العناوين ، من حيث كانت المرأة طبيعة ، وللطبائع السبق عند التقسيم
وخير التقسيمات هى تلك التى تخضع للطبيعة •

يناقش هذا الباب حاجة الرجل الى المرأة : طبيعة هذه الحاجة
ومداها وسرها ، ويعرض رأى الرجل فى تحرر المرأة وإى نوع من
التحرر يجيز وإلى أى درجة يوافق ، ويعرض أيضا مذهبه فى أن
الأسرة باقية ، وأن الإباحية شئ إلى حين • وإلى حد •

والأمومة ، ودورها فى تربية الإنسان ، ربابة البيت كمهنة
المرأة الأولى ، طبيعة المرأة التى تضيق بالقرى والإباحية كل هذه
أيضا رموس موضوعات يتناولها هذا الباب على نحو نرجو له أن
يلقى القبول •

ويستمد هذا الباب أفكار أحمد زكى في عدة مواضع لعل أبرزها .

المصادر :

- ١ - « للنساء حروب ناعمة » مجلة الهلال : سبتمبر ١٩٤٩ .
 - ٢ - « الخاطبة » مجلة الهلال : ديسمبر ١٩٤٩ .
 - ٣ - « اللهم نسألك الستر » ٠٠ الفصل العاشر من « ساعات السحر » (١٩٥٠) ونشر في مجلة الاثنين قبل ذلك
 - ٤ - « عتاب » مجلة حواء : ١/٣/١٩٥٦ .
 - ٥ - « الأمومة » العربى : مارس ١٩٦٢ .
 - ٦ - « حجر الأم أول كرسي في مدرسة الحياة » العربى « يونيو ١٩٦٦ .
 - ٧ - « أحب المرأة التى تقول لا وتقول نعم » العربى : فبراير ١٩٦٨ .
 - ٨ - « الأسرة بين عصريين زراعى قديم ، صناعى حديث » العربى : نوفمبر ١٩٧١ .
 - ٩ - « مكانة المرأة في سائر الأمم عبر القرون » العربى : يناير ١٩٧٥ .
 - ١٠ - « ريادة البيت أول مهنة ، وأقدم مهنة ، وأثقل مهنة وأكرم مهنة أمتهنتها الأنثى في شتى العصور ولسائر المهن في حياة المرأة المكان الثانى » العربى : سبتمبر ١٩٧٥ .
- على أنه ينبغي لنا قبل أن نعضى في هذا الباب أن نشير الى
أمرين :

أولهما : أن أحمد زكى كان من أنصار المرأة - أن صبح أن للمرأة انصاراً واعداء - كان يدافع عنها في العهد الذي كان الدفاع عنها فيه شيئاً غير مألوف من الرجال ، وكان يفخر بالمرأة المصرية في كل مجال ، وكان يدعو إلى التقدم المحسوب بالمرأة العربية ، المحسوب ولكن في جميع الميادين ، وكان يعتبر على المرأة نفسها أنها لا تنهض بينات جنسها النهوض الواجب عليها نحوهن • كان أحمد زكى يقدر فضل المرأة على ولدها جنيها ، رضيعا وطفلا شابا ، يافعا ورجلا • وكان يعتز بفضل أمه عليه ويوليها من حبه أكثره ، وكان يقدر لزوجيه صبرها وتحملها وجلدها ورعايتها له • وكان يصرح بذلك في فخر • وكان يحترم المرأة في بيتها وعملها ، وكان يشجعها في الجامعة وهو استاذ وفي مصلحة الكيمياء وهو مدير ، وكان يهتم بأمورها في مجلة العربى وفي مجلة الهلال من قبل ؛ يخصص ركن الأسرة والمرأة ، يعنى فيه بكل الأمور المنزلية والصحية •

ثانيهما : أن أحمد زكى كان من المقتنعين تمام الاقتناع أن الأسرة باقية ما بقى الزمان أو بتعبيره ما بقى طير قادرا على بناء عش لم يتعلم كيف يبنيه •

وكان ينظر إلى كل موجات الانحلال على أنها عوارض ستزول وكانت له في ذلك فلسفته التى سنقرأها بعد قليل •

هذان الأمران ستتناولهما البنود القاسمة من زوايا مختلفة
فلنبدا :

١ - حاجة المرأة إلى الرجل :

١ - أن المرأة لا بد لها في الحياة سند ؛ رجل كل ما نرجوه أن يكون سندا معوانا فيه الود ، والحب ، واللهم معه الرحمة ، وكل هذه صفات تناهض فيه القوة وعنفوانها وغطرستها •

٢ - « ان المرأة قد تكسب حق التصويت في سياسة ، وقد تكسب ما تراه نصيبها في ادارة ، وقد تكسب حق العمل ، وحقوقا لها في زواج ، وحقوقا في طلاق ، وقد تخاصم الرجل خصومة تقول انت لشدتها : ما بعد هذا الخصام وثام ، ولا بعد هذا الانفصام التتام ، ثم تنفض الجلسة وتأتى للاستراحة فترة تبحث فيها عنه وعنهما فتجدهما وراء الكواليس قد جمعتهما قبلة ، »

« ان الغاية لا تستغنى ابدا عن وسيلتها ، والرجل وسيلة المرأة ، والولد غايتها هكذا قال زرادشت » (الهلال ١٩٤٩/٩) .

٣ - « المرأة ترضى بغضب الرجل لأنها بدونها سوف تلقى من البشر الذئاب ، وهو ان مات عنها تحرشت بها السباع والضباع فهي مع زوجها ، كما قال الشاعر وأحسن ، الأعشى « ويلي عليك وويلي منك يا رجل » العربي : ٧٥/١

٢ - حاجة الرجال الى المرأة : الأمومة :

والدكتور أحمد زكى يؤمن ايمانا يقينا (٦٦/٦) ان الانسان يولد ليموت لولا أمه ، فان فقد الأم فابوه ، وذووه ، انه لا يدري ما يأكل ، ولا كيف يأكل ، فتعلمه الأم ما يأكل وكيف يأكل . . وكذلك الشرب والمشى والتعبير . . ويكبر الطفل وفي اثناء ذلك تعلمه الأم الكثير من ثقافة العيش الأولى . واللغة . . ومع اللغة ثقافة القوم .

والمرأة روح البيت لا الرجل انها ساكنته ، وانها حارسته ، وانها الحانية على فراخه ، ولهذا وجب ان تتنقف كتشقف الرجل او فوق تشقف الرجل ، وان تفتح لها بالتعليم على الدنيا ألف نافذة . .

والتعليم والثقافة ليس تعرية نحور ، ولا كشفاً عن ظهور ،
ولكنه كذلك ليس اخفاء في حجور ، والثقافة وقاء من شرور الدنيا ،
والا فتقافة الطبع اولى واحكم .

والأمومة في الحياة عامة اذن ليست بالواجب الحقيقي
(٧٢/٢) انها اصل الكون ، واصل الحياة المركبة في شتى درجاتها
على سطح هذه الأرض ، ولكن أشق الأمهات عبثاً انما هي أم
الانسان .

والأم في المدنية واجبتها اكبر ، عليها ان تصنع من الاولاد ما
يتفق وهذه المدنية وفقاً لما اخرجها علمائها ويخرجونه كل عام من
كشوف تتصل بنشأة الأطفال .

الأمومة اذن دراسة .. الأم ليست وعاء حمل فحسب ، ولا
مرضعة فحسب .. لها تشكّل الرجل .. تشكّل جهاز النفس .

ويلفت الدكتور أحمد زكي النظر الى اهمية الموازنة بين حقوق
الزوجية والأمومة ، وفي هذا يقول ان جهاز الأمومة ليس من فولاذ ،
انه لحم ودم وأعصاب ، يضع الولد الواحد فيه في العام الواحد
ثم هو لابد ان يستريح لأعوام .

والمجتمع لا يكون الا بالأسرة ، والأسرة لا تكون الا بالزوجة
والزوجة لن تشبع مطالب الأنوثة الا بالأمومة . فلا تقيمه الا امرأة
أخرى .. المرأة اذن هي البيت في الاصباح والامساء .

« الأمومة شاملة في ذاتها على الثراء ، فكيف بها على الدخل
المحدود ، وعلى الدخل الذي يزداد كل يوم تحديداً » .

٣ - ربابة البيت هي مهنة المرأة الأولى :

لانها كما يعبر الدكتور أحمد زكي في العناوين النوعية في مقال

سبتمبر ١٩٧٥ بالعربي « أول مهنة .. وأقدم مهنة .. وأثقل مهنة .. وأكرم مهنة » :

انه مبدأ تقسيم العمل ، هذا المذهب الحديث الذي اعتنقه كل ناظر في الاقتصاد من الناس ، علام قالوا انه مذهب حديث ، وهو أول المبادئ التي طبقها الانسان بفطرته على نفسه ؟

والانسان الاول لم يكتشف هذا المبدأ عن علم واسع او تكنية مساهدة .. انه اكتشفه بحكم الطبع ، لا بحكم الفكر .

وليس معنى هذا أن احمد زكى يريد أن يقصر عمل المرأة على ربابة البيت ، ولهذا فهو يسارع فيقول « أن ربابة البيت ليست هي المهنة الواحدة المفتوحة للمرأة التي يجب سائر المهن أو سائر الأعمال فان المرأة - في نظره - على رقتها (ويتحوط فيقول : ولا أقول ضعفها) يتسع وقتها للحمل واشياء غير الحمل ، وليس من هم الرجل ان تظل المرأة تحمل له العام بعد العام ، فلا تكون هناك فترات راحة واستجمام ، حتى المكثات الصماء لابد لها من اجازة تنأى بها العمل ، والمرأة تنتج بمقدار ما تحمل جسمها ، وبمقدار ما يتسع رزقها ورزق زوج .. ثم ان الاطفال يكبرون ، وتقل عنهم رعاية الأمومة .

فالمرأة ان ملأت رعاية الزوج ، ورعاية البيت والاولاد وقتها كله ، فأنعم بذلك ، وأنعم بمهنة امتهنتها هي أشرف مهنة المرأة على الإطلاق .

والمرأة اذا فاض وقتها عن رعاية البيت ، وطلبت الى مهنة البيت مهنة أخرى ، فاملا بذلك وسهلا ، وليس في هذا جديد ، فالمرأة من قديم الزمان خرجت عن بيتها لمعونة المرضى ومواساة الفقراء ورعاية

الأشياخ الضعفاء ، وخرجت حتى مع الخارجين الى الميدان لتعالج الجرحى وتحمل المئونة والسلاح .. ومنهن من تسلحن وأخذن يدفعن مع الدافعين » .

والمرأة اليوم تمتحن التمريض ، وتمتنن التدريس ، ومنها أخرى كثيرة لتضح ان الأنوثة أدق أداء فيها وأحسن انتاجا ، ولا بأس عندي ان تخرج المرأة الى كل عمل يأتلف وطبيعتها . ولكن في الرجال مروءة تأتيهم ان يروا امرأة تكنس الشوارع أو تحفر الأرض أو تسوق قاطرة بخارية أو يروا امرأة متمددة على الأرض تحت سيارة تحاول أن تصلح فيها ما قسد » .

ان مهن النساء تعددت اليوم وهي مهنة كريمة : في الطب .. في علم الحياة .. في العلم جميعا وفي الجامعات .. وفي البنوك ، والشركات وفي الصحف والاذاعات ، .

ولكن في كل هذه تحتاج المرأة الى حماية وإلى حماية تأتيها من الرجال . من المجتمع ومن كل ذى شارب وكل حليق » .

ان حرية المرأة لا يكفلها في المجتمعات الا كبح جماح الرجال . فان من الرجال رجالا كان من الخطأ ادماجهم في الجنس البشري ، وهم كانوا بالظهور في أجناس الماشية أولى ، بل ان في الماشية احتراماً للأنثى أكثر من احترام نراه في بعض المجتمعات الانسانية ،

٤ - الأسرة باقية :

يخصص الدكتور أحمد زكي حديث شهر نوفمبر ١٩٧١ في مجلة العربي لدراسة التطور التاريخي للأسرة عبر العصور والازمان ،

وفي الأديان وعند الفلاسفة ، ويناقش كل موقف من هذه المواقف ، ويحلل الاباحية المتفشية اليوم وينتهي الى ان الاتصال الاباحي - ان يكن مهربا للرجل ، فهو مهرب الى حين ، فالجنس في الحياة ليس كل شيء ، والجنس ينطفئ لهيبه على السنين ، وهوان لهيبه في العشرين والثلاثين . ثم يبحث الرجل عن طمانينة الحياة بتقدم السن فيفتقدما : الصحبة الصادقة ، المشاركة في السراء والضراء ، الانس في الوحدة ، في غربة وغير غربة ، وفي وحدة النكبات ، في كل هذه لا يكون لارتداء الشهوة مكان ، وفي الأزمات تتراءى الشهوة على حقيقتها : انها الانانية . وانها انانية الرجل خاصة . وانها الكرامة الخبيثة في قلب المرأة .

الاباحية يغالبها الانسان خصائص لا يمكن ان يتخلص منها لانها معجونة في كيانه . فهو لا يستطيع ان يستعير طبع الكلاب طويلا ، فيلقى بشهوته ، كما يلقي الكلب ببوله ، وهو عابر سبيل ، فالشهوة للبقاء لا للهرب ، والحياة ذكرى ، والحياة تمسك بالايام وتعلق ، والانسان منا ذاهب ، يعمل في الأرض لارساء أقدام لاحق . وشر الزاهبين من قدروا ولم يلحق بهم أحد .

لا ، لا ان الأسرة باقية ما بقى طير قادرا على بناء عش لم يتعلم كيف يبنيه ، او حيوان وحش يطلب جحرا يطويه . او انسان يأوى الى كهف يسكنه او بيت يحتويه .

٥ - حرية المرأة :

من مقال ديسمبر ١٩٤٩ ننقل هنا بالنص رأي أحمد زكي في هذه المسألة وهو رأي واضح قوى أخاذ جدير بالأخذ به قبل ذلك وبعده . يقول الدكتور زكي :

الخير كل الخير أن نقر تحرر المرأة ، وأن نقر سيفورها ، وأن نقره لا شعور قلب فحسب لكن شعور عقل وشعور فكر وشعور لسان وشعور اختلاط وأن ننظم هذا الاختلاط فنخلق من ذلك أعرافا جديدة مكان العرف القديم . وأن ننظمه بحيث نهدي الفتاة الطيبة الى الفتى الطيب ونزيد الفرصة للقاء طالب بمطلوب على براءة وحسن مقصد فيبنى الزواج الذى هو غاية كل حى ، على اختيار متكافئ ليس فيه مشتر ومشترى ، ولا بائع ومبيع ، وسوف تتطلب منا حتى هذه الحرية المنتظمة قرباناً ، فلنتقرب به عن رضا ولنتذكر دائماً عند التقرب به أن للنظم جميعاً ما تحرر منها وما تقيد ضحايها وقاربين اقتضاها الزمان من كل الأمم وكل القرون .

٦ - دفاع عن المرأة :

يدافع الدكتور أحمد زكى عن المرأة فيطالب بالآ تكلف فوق طاقتها ، انطلاقاً من مبدأ المساواة ، الذى يريد البعض الانتقام به له منها .

ويتوجه أحد القراء للدكتور زكى بسؤال من هذا المنطلق ، فيرد بقوله أن هذه هى المساواة المنقعة .

وتشدد الحملة على المرأة فى بعض الأحيان ، وتتهم فى خلقها . فيجاهد أحمد زكى قائلاً : « ينسى الشرق أن الانثى عندما تبسّم فى لطف ، أو تغمز بعين لا تطلب العاشق العابر ولكن تطلب العاشق المقيم ، تطلب الزوج وتطلب الولد ، وتطلب من حيث تدرى أو لا تدرى عماراً يكون باعطائه طفلاً يولد مكان شيخ يموت ، وينسى الشرق وينسى ذكره أن المرأة لا يمكن أن تفسد إلا إذا فسد فى قلبها رجل .

ولو ذهبنا نستقصى للقارئ ما لخصناه واستنبطناه من حديث أحمد زكى فى شأن المرأة ما وجدنا الى ذلك سبيلا ، لا اقصد سبيل قدرة ، ولكن اقصد سبيل توافؤم مع الخطة الزمنية التى قسمنا عليها وقت هذا الكتاب . . لهذا سنسرع لنهى هذا الباب بعد دقيقتين نروى فيها ما يرويه أحمد زكى من حلم رأى فيه نفسه فى مزرعة العراة ووجد النساء اكثر هذه الجموع ضيقا ، واكثرهن سخطا ، فقلت لهن : افما كانت هذه الغابة التى رمت اليها اكثركن ، قلن : قبحت من غابة . . لقد كنا نتخذ من الثياب ستارا للمصائب نخفيها ، واطارا للمفاتن نبديها ، وكنا نملأ بها الفراغ ، ونخفف بها عن الملآن ، والزوايا نحشوها فنصطنع منها الدوائر والذيل نجبره أحيانا ، والمعطف نعطفه فتنة ودلالا ، قلت : والرجال ؟ قلن : قبحهم الله ، لقد كان الرجل منهم يدخل بيوتنا فأول ما ينادى : (ياستار) ! فما اولام اليوم بهذا النداء ، وما اولى بهذه الكروش الورمة والصدور المعشبة ، وتلك السيقان النحيلة العوجاء التى كانها تمشى القرفصاء ما اولاما الآن ان تصرخ تطلب الستر من الله .

الباب العاشر

تنظيم الأسرة

ان الأمة قد يكون لها مصادر طبيعية للثروة كثيرة ولكن ليس كالثروة البشرية ثروة ، ان الانسان ثروة ، وهو قد لا يكون ذا قيمة كبيرة وهو خامة ، ولكن قيمته هي القيمة الكبرى من بعد تصنيع .

أحمد زكي

تثور الدهشة في نفس المطالع للبيولوجرافيا حين يجد شيئا من التعارض في عناوين مقالات أحمد زكي ، فبينما يجد كثيرا من هذه الموضوعات تنادى عناوينها صراحة الى الحد من النسل وتنظيمه يجد على الصعيد الآخر بعضها يدعو الى التناسل والتكاثر . ومن الطريف ان هذه التي يدعو فيها الرجل الى التناسل هي اخر مواضيعه ، وهكذا يصبح من السهل على الذين ينادون بالتناسل والتكاثر أن يضعوا أحمد زكي في قائمة المعارضين لتحديد النسل ، ويصبح من السهل ان يقال في بساطة أن الرجل العالم انخدع طيلة عمره ولكن الله هداه في النهاية فكتب يقول :

ليس ما يعنيننا هنا ان نضع الرجل في هذه القائمة او تلك ، أو على رأس هذه القائمة او تلك ، أو أن ننتقل به بين القائمتين ، وانما نحن ندرس فكر الرجل محللين ومقارنين ومتوصلين الى الأصل فيه وعندئذ نصل الى جوهر رأيه في الموضوع ، والجوهر واحد والصور التي تظهر له متغيرة ، المبدأ واحد ، والمواقف التي تنشأ

عن المبدأ الواحد يجوز لها ان تتغير ، هذا هو الفرق بين المبدأ والموقف . كلاهما صورة للرأى ، وكلاهما يتخذ الرأى صورة وكلاهما يتخذ صورتها فى الرأى . ولهذا كان عنوان هذا الباب من كتابنا رأى أحمد زكى فى تنظيم الأسرة ، ولم نقل مبدأ لأننا لن نقتصر فى التناول على الجانب النظرى من فكر الرجل ، ولم نقل موقف لأننا لن نبرر مواقفه الاولى والاخيرة وانما سنناقش فكرة الرجل وكيف أوقفته مواقفه التى وقفها ، ووقفته الى آرائه التى ابداهما .

وسوف يناقش هذا الفصل أربعة من النقاط الأساسية يتحقق بمناقشتها مجتمعة فهم فكر الرجل فى شأن تنظيم الأسرة .

الوجهة الدينية فى الموضوع :

وأحمد زكى على رأس المؤمنين بأن ليس فى تنظيم الأسرة تعارض مع الدين ، ولا مع الايمان بأن الله هو الرزاق .

وهو يؤكد على هذا المفهوم غير مرة فى مقالاته فى أول حياته وفى آخرها ، ويكفيها ان ننقل هنا عنه قوله فى ابريل ١٩٦٧ .

« وهم يؤكدون لك ان عليك ان تكد وان الرزق على الله » .

« اما انها ارادة الله فلا علم لنا بانها ارادته » انما الذى يعلم ان الملايين تموت كل عام جوعا فى الأرض حيث لا يكون النسل ضابطا حابسا بالقدر الذى فى الموارد من وفاء » .

« لما أن الله يرزق من يشاء فانه يرزق حقا وصدقا ، ولكنه لا يرزق الجاهلين العابثين غير الحاسبين من عباده الا الفقر . وان جعل فى الخلق قوانين لا يخرقها ، وجعل لكل شىء سببا » .

« ويمضى الدكتور أحمد زكى فيذكر المفهوم الذى أتى به حديث

رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر دابة الاعرابي ، حين قال له :
اعقلها وتوكل .

« ويكرر أحمد زكي ذات المعنى بأسلوب آخر فيقول في « مارس
١٩٧٠ » تحت عنوان « فقر وغنى » : « لن يقول أحد باطلاق النسل،
ولأن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ذلك أن الله أول ما رزق
الانسان رزقه العقل والعقل يقضى بأن زيادة السكان مع ثبات الانتاج
يؤديان الى زيادة الحرمان والتاريخ دليل ذلك » .

ويعقب الدكتور أحمد زكي بقوله : وانا اؤمن باطلاق النسل
وزيادة الانتاج والجمع بينهما . فدون ذلك فناء العرب ولكن لهذا
حديث آخر ، .

طبيعة دعوة أحمد زكي في تنظيم الأسرة :

وينبغي هنا ان نشير الى ان أحمد زكي كان مهتما بهذا الموضوع
أشد الاهتمام ، وبخاصة أنه في مقدمة طلائع الأمة العربية المفكرة،
وقد واجهه لبعض الوقت وهو وزير الشؤون الاجتماعية أما عن
أحمد زكي شخصيا فقد ذكر الباب الاول أنه كان له ابنة واحدة ،
في حين كان هو أكبر ستة اشقاء .

ولكن ما هي خلفيات أحمد زكي في مسألة تزايد النسل ؟ انه
يفرد مساحة كبيرة من حديث الشهر (٦٦/٢) للحديث عن تزايد
السكان في حين لا يزد الانتاج (على النحو الذي قال به من قبل
علماء الاقتصاد وهو يؤمن ايمانا شديدا بقول الخبراء ان الخطورة
في مسألة تزايد السكان أشد ، والنكبة في هذه الناحية اقرب في الأمم
المتخلفة وحدها ، وهذا هو ذات المعنى الذي عبر عنه من قبل حين
تولى وزارة الشؤون وخرج يطالب بتحديد النسل حيث يوجد الفقر

والتعاسة ، وهو يرى انه لا فائدة حاسمة ترجى من معونة القادر
لغير القادر ، ، والغنى للفقير اذا لم يقد العاجز الفقير نحو نفسه
بما يجب عليه من التدرج في مدارج الرخاء واولها ضبط النسل .

وبطبيعة العالم والمفكر العميق الذى يتميز بطول النظر ،
والعمل على تقصى المشاكل وحلها من جذورها ، نجد أحمد زكى
يجاهر في العناوين الفرعية ان « لا مخلص الا التوعية ومع التوعية
الحبوب واللؤلؤ » أما التوعية « فيكون هدفها اقناع الأم بمخاطر
الأمومة التى تتضاعف مثنى وثلاث ورباع .. وثمان وتسع ..
مخاطرها على صحة الأمة نفسها وذبول زهرتها بهذا التكاثر ،
ومخاطرها على الاولاد الذين سوف تنجب للفقير ، لنصف طعام ،
ونصف كساء ، وللحقير من الايواء ، وما يصاحب هذا وما قد
صاحبه فعلا ملايين من سكان بعض من نعرف من الأمم الحاضرة
من هبوط في طاقة أجسام وضعف في مدارك أفهام ، جلود على
عظام ، تسير بها على الأرض سيقان كالعصى تكاد تنكفى بهم على
الأرض سكارى ولكن من جوع وما يدرك ما سكر الجوع من لم
يعرف حياته غير الشبع » .

« يجب ان تعمى الأم ان الطعام في مستقبل الايام اذا ظل حال
النسل في الدنيا على هذا الحال ، سوف يعز في الدنيا فلا يشتريه
حتى المال » .

« يجب ان توعى المرأة بان مع اليوم غدا ، وان تعود ان
لا تنظر في يومها فحسب ، وتحت قدمها الحاضرة فحسب ، ولكن
كذلك الى الاغداء البعيدة بعد العام ، والعشرة والعشرات من
الاعوام ، وحينما يكون اطفالها رجالا ، سببت هم وجودهم على
الكثرة في هذه الدنيا ، فضاقت بهم الموارد ، رغم التششير عن

السواعد ، أو جاءت بهم قلة فنعموا بمقدار ما يأمل أن ينعم الانسان
بالذى يبذر ويحصد من طيبات هذه الارض » .

« ومع توعية النساء لابد من توعية الرجال ، ومع التوعية
حبوب ضبط النسل ولوالب » .

وينبغى لنا ان نشير أيضا الى أن أحمد زكى قد خصص
الصفحات العديدة من مجلة العربى يكتب فيها بقلمه وبقلم غيره ،
فى غير موضع من موضعها ، وفى كثير من الاعداد ، يجارى بهذه
المقالات والتحقيقات آخر ما وصل اليه العلم من استكشافات فى
مجال وسائل منع الحمل ، ويدل عليها جمهور القراء .

خفض سن الزواج لا رفع سن الزواج :

ولكن هناك وسيلة من وسائل تنظيم الأسرة لم يكن الدكتور
أحمد زكى يرتاح اليها ولا يحبذها بل كان يسعى الى تقيضها على
خط مستقيم ، هى المطالبة بسن تشريع برفع سن الزواج « الى
عشرين مثلا للفتاة وأربعة وعشرين للفتى » ، وكان الدكتور أحمد
زكى يعارض بكل شدة هذه الوسيلة ، وقد جعل لهذا الحظ الأكبر
من حديثى الشهر (العدد ٤١) و (العدد ٧٨) على الرغم من
أن هذا القول قد حظى برضا الكثيرين « ووافق عليه بعض أهل
العروبة ، وصادق على أقوالهم الاطباء ، وصادق العلماء ،
والمهندسون ، وصادق النفسانيون ، ولم يبق أحد الا قال له أمين ،
ومن ذا الذى لا يقول أمين ، لأول وهلة ، وقد فجأه حل تراءى ،
أنه يقف سدا يمنع هذا الفيض الذى يهلك بعضه بعضا من خلق
الله » لكن أحمد زكى مع هذا يرتاب فى فعالية هذا الاجراء للأسباب
التالية :

١ - لا ينجح قانون ليس وراءه رأى عام في الشعب يدعمه ،
وان كان الشعب يؤمن حقا بنظرية احتمال انفجار المكان بالسكان
اذن فما الحاجة الى القانون ؟

٢ - ان القانون يتدخل في شهوة طبيعية ، تكون عارمة في
بعض الناس ، وقد تكون مجنونة يريد القانون كبحها فلا تكبح ،
وفي هذا خطر كبير ، ولنذكر دائما ان طالب الشهوة قسرا ، لا يطلبها
للطفل الوليد يأتى من بعدما ، وانما هو يطلبها ليخفف عن نفسه
قسوتها تماما كالجوعان يطلب الطعام ، لا يعفيه من ألمه ان يقول
له القانون اصبر على الجوع يوما أو بضعة أيام .

٣ - ان القانون المطلوب سوف يحرم الزواج ليمنع النسل ،
ولكنه سوف يمنعه فقط في زواج ولن يمنع النسل يأتى في غير زواج ،
إذا تراضى الطرفان .

٤ - إذا منع القانون اتصالا بين الفتى والفتاة في زواج ، اتصالا
في غير زواج ، وعين القانون تنظر ، ويده تعجز عن عمل ، ثم
يخشى الفتى وتخشى الفتاة مغبة الطفل ينتجانه في غير ظل الله
فيعمدان الى منع الحمل بالحبوب الواقية ، واللواجب المانعة ، اذن
فما كان أولاهما أن يعمدا الى الحبوب واللواجب على الزواج ،
فسيبقى القانون المطلوب الى أهدافه وهى الحد من النسل مع اباحة
الزواج بدون حد .

٥ - ان المرأة تستطيع الانجاب عادة فيما بين الخامسة عشرة
والخامسة والاربعين ، وفي هذه الثلاثين من السنين يستطيع بعض
النساء انجاب العشرة من الاخلاف فما فوقها ، فاذا نحن رفعنا سن
زواج الفتاة الى العشرين فكم يكون قد وفرنا من النسل ؟ الولد أو

الوالدين ؟ وتستطيع المرأة بين العشرين والخامسة والاربعين ان تاتى
بالثمانية من الاولاد فما فوقها .

٦ - يذكر المحبذون للقانون ان امم الغرب رفعت سن الزواج ،
فلم لا نرفع مثلها ؟ وهنا يحذر الدكتور احمد زكى بشدة مما وصلت
اليه الحال عند هؤلاء الذين فعلوا هذا في بلاد الغرب ، ويضرب مثلاً
بالسويد التى ارتفع عندها سن الزواج الى ٢٨ أو ٢٩ عند قيام
الحرب العالمية الثانية .٠ وصل الامر بها الى ما صار من اباحة .
ويحذر الدكتور احمد زكى من انتشار ما حدث في السويد الى
غيرها نتيجة عاملين :

الاول :

هو ضغط الحياة الاقتصادية الحديثة ، وطول الزمن الذى
يتجهز له الفتى والفتاة للتعليم فالكسب ،

الثانى :

« ما يقول به الكثير من النفسانيين في الغرب بان اطلاق الشهوة
قبل الزواج هى للنفس اشقى ، وعلى الصحة النفسية اعون » .
ومن اجل هذا الرأى الخطير ، وقبل ان يصلنا نحن اهل الشرق
شره المستطير دعونا لا الى الزواج المتأخر ولكن الى الزواج المبكر
يعقد حتى بين طلاب الجامعات وطالباتها ، زواج يمنع فيه النسل ،
حتى تتيسر القدرة بالتعليم على كسب الرزق ، والنسل يمنع
بالوسائل الطبية المستحدثة ، وهى لاشك ناجحة مهما شكك في امرها
المشككون » .

ويعرب الدكتور احمد زكى عن سعادته عندما قرأ ان فكرته
هذه قد لاقت نجاحا وانتشارا في جامعات امريكا ، حتى ان منها

ما شمل نحو الثلث من طلابها ، ولعله سهل من أمره عندهم ان
الطلاق في حالات الشقاق صار ايسر مؤونة *

ويلخص الدكتور أحمد زكى مزايا النظام الذى يدعو اليه
بخفض سن الزواج لا يرفعها في ثلاث نقاط يكتبها بالبنط الثقيل :

١ - شهوة جامحة اشتفت *

٢ - شرائع الله رضية *

٣ - أنسال منعت *

ويعود الدكتور أحمد زكى في « حديث الشهر يوليو ١٩٧٠ »
ليحدث عن الطعام والجنس باعتبارهما الغريزتين الكبريين فى حياة
الانسان وبعد ان يتحدث في امر غريزة الجنس كلاما كثيرا ليس
هنا موضعه يناقش نفس القضية ولكن من بداية أخرى تتصل بغريزة
الجنس كغريزة ، ويقول ان المدنية الحاضرة خططت لكل شيء الا
الجنس ..

« وكان من بعد ترك امر الجنس على عوامنه تصنع به ربح
الزمان الهوجاء ما تشاء ان ظهرت الاباحية في بعض الأمم التى
تدعى التقدم .. » ونتجاوز وصفه للمشكلة الى رأيه في حلها حيث
يقول لو أن هؤلاء الناس نظروا ثم خططوا لوجدوا أكثر من حل
حاضر ، ؟ ثم يشرح لنا ما ارتآه هو من بعد نظر فيقول ان المشكلة
اليوم تكمن في طول فترة التأهل للزواج ، وعلى الناحية الأخرى فان
« اباحة اليوم حيث هى من شمال الأرض لا ترتبط هذه الاباحة
بالكسب * ويضع حله في صورة تساؤل : فماذا لو غيرنا من
مفاهيمنا التقليدية وحلت العقدة بالسيف بقطع ما بين الزواج وقدرة
الزواج على الكسب من رباط ، واذن يحدث الزواج في عام مبكر
من العمر *

« وستسأل من يعول » وأقول « ماداموا في جامعة أو مدرسة فالعائل لكل منهما هو العائل القديم وهما كلاهما في مدرسة أو جامعة ، مادام الأب رضى بالنفقة على ابنه حتى يبلغ العشرين أو الخامسة والعشرين ، فحاضره أن ينفق سواء كان ولده أعزب أو له علاقة بالزواج لا يضمهما سقف دار خاص به ، وما يقال عن الفتى يقال عن الفتاة ، أن في الزواج المبكر منجاة » .

وستسأل من يعول الاولاد ؟ والجواب حاضر . حبس النفس اليوم في مكنة الزوجين الى حين ! حتى المسيحيين الذين لا يجيزون العقاقير حابسا ، عندهم طريقة التوقيت والتزمين .

وهكذا يعضى الدكتور أحمد زكى يدفع الاعتراضات التى تقوم في وجه افتراضه .

« وستسأل فيما يقول في بعض علماء النفس من ان الأنفس على الصغر لا تدري ما يلائمها من الأزواج ، فيؤدى الزواج الباكر الى الاخفاق ، فأقول ان علمى وخبرتى تدل على أن الأنفس اذا لم تدر ما يلائمها من زواج ، فهى هكذا تفصل على صغر وعلى كبر على السواء . على أن السن الكبيرة أفضل في خدع صاحبها » .

وأخرون يقولون ان الجسم لا يكون في الزواج الباكر قد نما النمو الكافى لانتاج البنين والبنيات اذا هم شاعوه ، وتسهلت سبله ولهؤلاء نقول ، انا لا نقول بالزواج عند الخامسة عشر أو السادسة عشرة حتى ولكن وراء ذلك بقدر ما يستطيع الفتى ان يصمد على الفردية . . . وهؤلاء أنكر بان العالم منذ وجد لم يعرف الا الزواج الباكر وانتجة القرون الماضية من أجسام ، ومن لحم وعظام ومن عقول وفيت لاشك بحاجات الزمان ، وكان في الناس العمالقة وكان القوم الشداد ، وكان الذكاء وكانت الفطنة النادرة ، .

ويعوم الدكتور أحمد زكى ليؤكد القول بأنه في غريزة الجنس لا هناة الا بالوفاء بها فان هناة العيش انما تكون بالاستجابة الى الفرائز ، فواضعها انما وضعها لفائدة العيش ، وهو وضعها فينا للهدى وانارة السبيل ، وعلى الانسان العاقل ان يفهم الغاية منها وان يبذل لها بمقدار ما يصل بها الى غايتها ، فاذا زاد فعليه وزر ذلك » .

وفي موضع آخر يرد الدكتور أحمد زكى على من ناقضوه رايه فقالوا له مستنكرين : وما الرأى في منع النسل عند الولد يتزوج مبكرا ، ويقول الدكتور أحمد زكى في رده على هؤلاء : « ان المقبل على الموت اذا اعطى سبيلا للخلاص منه . لا يذكر الحلال في ذلك والحرام ، والفجور ان لذ الشباب منه اول جرعة . فهو يغص بالرف جرعة من بعدها ، وتبتذل المرأة خاصة من بعد ذلك في الطريق كقشرة الموز بعد ان زال عنها لبها ، فتأخذ تدوسها الأقدام فمن أجل تجنب الفتاة هذا المآل لا تسألنى ما الحلال في حبس النسل هنا وما الحرام » .

لماذا دعا الى التناسل والتكاثر ؟

وأما دعوة أحمد زكى الأخيرة الى التناسل والتكاثر « أيها العرب تناسلوا تكاثروا حتى تملأوا البر والبحر عربا » فلم تكن تنصلا من دعوته الاولى ، و لا خروجا عن اطارها وخطها العام ، وانما كانت دعوة سياسية اقتضتها ظروف العرب الذين كثرت عندهم الخيرات كثرة هائلة بحيث زادت عن طاقتهم لا في الانتفاع بها على الوجه الأمثل فحسب ولكن زادت عن طاقتهم في الدفاع عنها . لا مبرر هنا إذن للحد من النسل ولا للدعوة الى تنظيمه وانما يدعو الفكر العلمى النير المستقيم في هذه الحالة الى الاستزادة من السكان باعتبارهم يمثلون القوة البشرية .

وينبه أحمد زكى الى حاجة الوطن العربى الى العون المستمد من القوى البشرية لسبيين أولهما أن العرب ليسوا من أحب الأمم الى الأمم ٠٠ أما أوربا فعداؤها للعرب قديم بدأ منذ الحروب الصليبية ولم ينته بعد ٠٠ وسوء السمعة هذه الكاذبة بكل صنوفها لا يرفعها العرب عن اكتافهم الا بالشموخ والشموخ الصادق قوة ٠ أما الأمر الثانى الذى يدعو الوطن العربى الى الاستزادة من العون المستمد من القوة البشرية فهو اسرائيل ٠٠

يتناقش أحمد زكى فى مقال مايو ١٩٧٥ قول الشاعر الذى يذهب الى ان الكرام قلة ، ويقول ان الاعتداء على القلة هنا اعتذار شاعر ، فالكرام يكونون فى الأمة على القلة ، وكذلك على الكثرة ٠

على انه يبدو لنا أن من الأفضل قراءة افكار الرجل فى هذه النقطة بالذات فى فقرات ثلاث :

« ان الأمة قد يكون لها مصادر طبيعية للثروة كثيرة ، ولكن ليس كالثروة البشرية ثروة ان الانسان ثروة ٠ وهو قد لا يكون ذات قيمة كبيرة وهو خامة ٠ ولكن قيمته هى القيمة الكبرى من بعد تصنيع » ٠

« ان الدعوة مؤسسة بوجه عام على العلاقة الكائنة أو التى ستكون ، بين الأرض ٠ أى أرض وسكانها ٠ فان زاد السكان على ما تطيقه الأرض ، فالحد وارد ذكره ، ووارد بحثه ٠ وان قل السكان عن الأرض ، فلا معنى للحد ، ولابد للنسل ان يزيد مادامت هناك ارض صالحة هى وعاء حياة » ٠

« وارض العرب أكثرها الصحارى ، وفى اجزاء كثيرة من الصحارى ينزل المطر ، ولا يلبيث أن ينزل الى مخازنه فى بطن الأرض ٠ وهذه ظاهرة جديدة تعرف عليها العرب وأخذوا بها

يستقون ، ومن مائها يزرعون • والسعودية تضرب الأمثال الطبية في ذلك ، •

وهكذا يستبين لنا الدافع الحقيقي وراء هذه الدعوة من أحمد زكي ، هدف ساسي واجتماعي واضح لا لبس فيه يدعو اليه أحمد زكي من هذا الطريق ومن طرق أخرى كالهجرة فيما بين ارجاء الوطن العربي وهو يستعرض المحاولات العربية في هذا الصدد ، ويشير الى السودان والعراق وغير ذلك من التجارب ويقرر ان الأمر في مسألة الهجرة في الوطن العربي لا بد من أن يعتمد على نتائج التجربة « فعندما ظهرت لأول مرة سارت مسار كل الافكار الجديدة تتلقاها الشعوب بالرفض لغرابيتها ، ولأن العقل لم يتسع لدرسها ، ولأن العاطفة الباردة صدمتها فقضت عليها ، ثم يتسع الوقت للفكر ويتسع للدرس ، ويتسع لخبرة الايام ، والمتعة التي يعطيها الزمان والاطمئنان فاذا المرفوض مقبول ، واذا به لاصواب سواه ، وكذلك كانت فكرة الهجرة في الوطن سارت من الرفض الى القبول والممارسة » وعند هذا الموضع يحذر أحمد زكي من الأثر السيء الذي قد يحدثه تعكر العلاقات على سير مثل هذه التجارب •

وفي موضع آخر يتناول الدكتور أحمد زكي المسألة بقدر أكثر من الصراحة والوضوح ويقول ان تجربة التهجير الجماعي « هي في رأيي ، وأنا واحد من الف ، تجربة فيها الكثير من الريبة ، ومع هذا ادعو لها بالنجاح مادام هدفها زيادة ثروة العرب حيث الطاقة البشرية اقل مما يجب وزيادة في الرجال الذين يدفعون عن العرب غائلة التعدى من أي طائفة من البشر جاء •

وفي صراحة أكثر « ان الايمان بالتهجير ايمان بالوحدة العربية تكون او لا تكون ، ان نجاح التهجير امتحان لامكانية الوحدة ، واخفاقه يجعل العرب يقفون من أمر الوحدة الشاملة موقف التريث الطويل »

خاتمة

هكذا يتضح لنا ان الرجل لم يكن من اصحاب الافكار الجامدة، ولا الآراء المتصلبة دائما وانما كان من أصحاب العقليات الناضجة والافكار المفتحة . وكان يدعو الى ما فيه الخير لوطنه ، يدعك الى التحديد حيث الفقر والتعاسة ، وإلى التزايد حيث الحاجة الى من يدافع عن خيرات أنعم الله بها على عباده العرب .

ولم يكن عالما يعنى بالفكرة ذاتها فحسب ، ولكنه كان معنيا أشد الاعتناء بوسائل التحقيق ، الوسائل العلمية على نحو ما ذكرنا من فضله في هذا المجال ، وتسخيره للصحافة والاعلام في أداء دوره الرائد في هذا المجال ، والوسائل الاجتماعية كيف ناقشها بقلمه وفكره ودعا الى الوسيلة الأنجح .

يبقى ان نختم هذا الفصل بقوله في ديسمبر ١٩٧٢ حديث الشهر العربي تحت عنوان « حضارتان عريقتان يعيش العربي في ظلالهما » . « أو الرأي عندما ندرس موضوع الجنس عمليا كما درسه القوم هناك، وان نستنبط في ظروفنا وفيما يأتلف مع تقاليدنا غير ما استنبطوا وان نخرج الشباب بجنسه من هذا الحرج الذي لاشك فيه والذي زادت المدنية الحاضرة حرجا ، بما يحفظ على الفتى والفتاة ماء الوجه ، وعفة النفس والعزة التي هي عزة الشرف غير الجريح » . فهذه هي الوسيلة التعليمية ، والوسائل التعليمية أنجح الوسائل على مر الأزمان والأجيال .

المصادر :

- ١ - « وزير الشؤون يدعو الى هجرة المصريين ويطلب تحديد النسل حيث يوجد الفقر والتعاسة » (الاخبار : ١٩٥٢/٧/٧)
- ٢ - « اقراص لمنع الحمل أم لتشتيت الشمل » العربي : ابريل ١٩٦٢ .
- ٣ - « ارقام تدغدغ الافهام » خفصوا سن الزواج لا ترفعوها « العربي : فبراير ١٩٦٦ .
- ٤ - « المسكن ٠٠ المسكن » العربي : ابريل ١٩٦٧ .
- ٥ - « الدولة الخسيرة ترعى ابناءها من يوم يولدون الى يوم يقبرون » العربي : ديسمبر ١٩٦٨ .
- ٦ - « فقر وغنى » العربي : مارس ١٩٧٠ .
- ٧ - « الطعام والجنس » العربي : يوليو ١٩٧٠ .
- ٨ - « معركة الفقر والغنى » العربي : يوليو ١٩٧١ .
- ٩ - « الاسرة بين عصرين زراعى قديم ، وصناعى حديث » العربي : نوفمبر ١٩٧١ .
- ١٠ - « حضارتان عريقتان يعيش العربى فى ظلالهما » العربي : ديسمبر ١٩٧٢ .
- ١١ - « مكانة المرأة فى سائر الأمم عبر القرون » العربي : يناير ١٩٧٥ .
- ١٢ - « ايها العرب تناسلوا تكاثروا حتى تملأوا البر والبحر عربيا » العربي : مايو ١٩٧٥ .

آراء فى التعليم الجامعى

القمر يطلبه كل الاطفال ، ولكن الرجال تعرف ما ينال •

أحمد زكى

سنتناول فى هذا الباب باذن الله ، الآراء التى استقر عليها استاذنا الدكتور أحمد زكى فيما يتعلق بالتعليم الجامعى ، وسوف يلاحظ القارئ ان مراجعنا فى هذا الباب تغلب عليها الحداثة ، مما هو جدير بالذكر اننا عبرنا بذلك عن مصدر آرائنا ليس الا ، ويتنى هذا من حرصنا على أن نسجل آراء الرجل الاخيرة أو ما عبرنا عنه فى الجملة الثانية من هذا الباب بعبارة « التى استقر عليها استاذنا الدكتور أحمد زكى » وليس معنى هذا ان الرجل كان دائم التغيير فى أفكاره فى هذا المجال ، ولكن مرجعه الى أن الرجل وهو جامعى أصيل ظل طيلة عمره مهتما بأمر التعليم الجامعى من جميع الزوايا ، كيف يبدأ وكيف يستمر وكيف يقوم وكيف تكون علاقته بما قبله من تعليم عام وما بعده من حياة عامة وكيف يمول وكيف يستقل وما هو المستوى الذى يجب أن يكون عليه التعليم الجامعى ذاته ، وخريجه وبأى لغة وعلى أى منهاج ، وأيهما يفضل التخصص أم التعميم •• الخ) من هذه النقاط التى سنعرض لمذكره فيها وكان أحمد زكى فى رحلاته وقراءاته حريصا على أن يوفى هذه النقاط جميعا حقها من البحث والاستقصاء •

فاذا جاءت هذه الصفحات العشر متعرضة لكل هذه القضايا

في هذا القدر من الإيجاز فإنه لابد لنا من أمرين أولهما أن نشير إلى القدرة التعبيرية الهائلة في تلك الألفاظ والعبارات التي صاغ فيها الدكتور أحمد زكي الآراء التي تعرضها له هنا بعد الانتقاء والانتخاب وثانيهما أن نشير إلى أهم المقالات والأحاديث التي صنفنا منها أفكار أحمد زكي في هذا الباب وهي :

- ١ - « الطريق السلطاني وما وراءه » الهلال : يوليو ١٩٤٧ .
- ٢ - « التعليم كم منه للثقافة وكم منه للرزق » العربي : أكتوبر ١٩٦٢ .
- ٣ - « شبابنا وثقافة العصر » العربي : يوليو ١٩٦٦ .
- ٤ - « ألف مصنع ومصنع تفتح الآن أبوابها لتصنع الرجال » العربي : أكتوبر ١٩٦٦ .
- ٥ - « جامعات الغرب مفتوحة الأبواب اليوم وقد تضيق في وجه أهل الشرق مسالكها غدا » العربي : فبراير ١٩٦٧ .
- ٦ - « المعلم كالسيارة هي من طراز ١٩٣٠ أو ١٩٥٠ » العربي : فبراير ١٩٦٨ .
- ٧ - « الدولة الخيرة ترعى ابتغاءها من يوم يولدون إلى يوم يقبرون » العربي : ديسمبر ١٩٦٨ .
- ٨ - « الكتاب العربي : سبب التخلف الحضاري والتخلف العلمي والتكني في روضة أو مدرسة أو جامعة » العربي : مايو ١٩٦٩ .
- ٩ - « الجامعات بين قديمها والحديث » العربي : ١٩٧٠/٥ .
- ١٠ - « التربية كيف تمارس على التخلف والفقر » العربي : ١٩٧١/٢ .

- ١١ - « جامعة الهواء » العربى : ١٩٧١/١٠ .
- ١٢ - « الجامعات فى الأمم المتخلفة » العربى : ١٩٧٢/٥ .
- ١٣ - « تربية ابنك كانت تبعتك فصارت تبعه الدولة » العربى : ١٩٧٢/٦ .
- ١٤ - « بين التخصص والتعميم فى الدراسات الجامعية » العربى : ١٩٧٢/١٠ .
- وليسمح لنا القارئ الآن ان نعرض عليه بنود هذا الباب :

١ - ضرورة الجامعة :

(أ) يؤمن أحمد زكى ان الجامعة هى أول حاجات الاستقلال (٧٢/٥) لأنها تخرج الفئة المثقفة المختارة التى تدير رضى العيش فى الدولة الجديدة (يقصد بعد استقلالها) ويستعرض الدكتور أحمد زكى تاريخ الأمم النامية فى هذا المجال ، والظروف المثيرة التى مرت بها هذه الدول بعد خلاصها من الاستعمار .

(ب) يشير الدكتور زكى الى ارتباط الديمقراطية بالتعليم بمسألة القوميات ويتتبع تطور هذا الارتباط فى أوروبا بعد العصور الوسطى ، وأهم عباراته فى هذا المعنى (٧٢/٦) قوله : « والظاهر أن فكرة الديمقراطية ولو أنها فكرة قديمة لم تحظ دولة بتطبيقها ، من حيث الشمول فى الخدمات كخدمات التعليم الا بعد العصور الوسطى فى أوروبا الحديثة . »

نشأت فكرة الديمقراطية بمعناها ومبناها مع فكرة الوطنية لما أخذت أوروبا تتفاضل الى أمم لها لغاب خاصة بها ، وملوك يرعون أمورها وفروق تفرق بين أجناسها فهذا فرنسى وهذا بريطانى

وهذا .. وبنشوء الدولة الوطنية نشأت فكرة اللغة القومية ، ونشأت معها الحاجة الى التعليم وقد بدأ التعليم في أول مرة محدودا تقوم به جمعيات خاصة وهيئات ولاسيما الهيئات الدينية ثم أصبح رويدا رويدا من بعض واجبات الدولة » .

ومن هذا المنطلق كان تأكيد الدكتور أحمد زكي « فبراير ١٩٦٨ » على أن التعليم اليوم حق الدولة على كل فرد فيها (لاحظ التقديمية في فكر أحمد زكي الذي لم يتوقف عند قول القائلين أن التعليم حق الفرد على الدولة) . . وأكثر من هذا يرى الدكتور أحمد زكي أن الواجبين الأساسيين للمجتمعات الانسانية هما السعي للعيش لوصل الحياة ودفع الموت وتنشئة جيل قادم يحل محل هذا الجيل الحاضر الذي هو لابد ذاهب وذلك لكي تتصل الحياة باتصال الاجيال .

(ح) وكان الدكتور زكي يتابع بقلمه كثيرا أخبار التعليم الجامعي في الخارج ، خصوصا في إنجلترا وفي فبراير ١٩٦٧ تحدث عن رفع إنجلترا لرسوم الدراسة وبدء تنفيذ هذه الزيادات على الأجانب ثم أهاب بالعرب أن يسارعوا الى انشاء جامعاتهم « وأن ينشئوها سريعا ، وأن ينشئوها أكثر وفاء بالعتاد والرجال للقاء المستقبل الذي لن تكون فيه سوق الجامعات الأجنبية سوقا مفتوحة على مصراعها » .

ويمضي في تحذيره فيقول « لقد أوشكت الأبواب أن تسد ، ومنابع العلم المفتوحة التي يغترف منها الآن من يشاء ما يشاء ، لا تلبث أن يقف عندها حارس يأذن لبعض ولا يأذن لبعض وقد يكون من أسباب ذلك الولاء السياسي أو غير الولاء أن العلم سيصبح نادرا فعلى العرب أن يبتوا له صروحه » .

وينتـهـز الفرصـة ليعبر عن سعادته بإنشاء جامعة الكويت « وبهذه المناسبة أقول مرحباً للكويت أن بدأت بجامعتها على خير ما تكون الجامعات ، وهى بدأتها ككل الجامعات فى الأمم النامية ، وفى جامعة القاهرة خاصة بأساتذة من غير ابنائها .. ثم يفعل الزمان فعله ويرث ذاك الجيل جيل من أبناء البلاد لاحق » .

٢ - استقلال الجامعة :

وفى مقاله عن الجامعات فى الأمم المتخلفة « يتعرض لهذه المسألة مسألة استقلال الجامعة من وجهة مختلفة تماماً عن وجهات نظر الذين تناولوها من مفكرينا العرب ، فأحمد زكى يعتبر أن مشكلة الاعداد الكبيرة هى الخصومة الكبرى بين الجامعات والحكومات وأنها أخطر الأمور على الاستقلال : « على أن الخصومة الكبرى التى بين الجامعات والحكومة خصومة حلها مستعص على جامعة وعلى حكومة على السواء ، ذلك ضغط الحكومة على الجامعات أن تفتح أبوابها لكل من أراد أن يدخل جامعة ، ولو لم يحصل على النصاب الاوفى ، والحكومة تنزل بالمستوى الذى يجيز للطالب دخول جامعة ، لأن الشعب وراءها يطلب لابنائهم أن يدخلوا الجامعة ، لأنها فى نظره ، هى الطريق الوحيد لحياة أفضل ، فنزول بمستوى التعليم عند دخول الجامعة يجتمع فى الجامعة بمدرسين جامعيين اسما ، وهم غير كفاة لما يتصدون له من التعليم حالان الجمع بينهما يخرج الخريجين وهم انصاف متعلمين وهؤلاء يدخلون فى مرافق الدولة يديرونها ، وهم غير أهل لها ، وتكون العاقبة خسارة جامعة شاملة .. الشعب لابد أن يرضى .. والجامعات لابد أن تخضع .. والمرافق لابد أن تسوء » .

أما عن المعنى المألوف فى مسألة استقلال الجامعات ، فأحمد زكى مطمئن تمام الاطمئنان الى أن الحكم فيه هو الزمن ، وهو

تطور المجتمع وتطور فهمه وممارسته للحرية وإن كان في نفس الوقت لا يقف مسلماً ١٠٠٪ باستقلال الجامعات في أعظم الدول تقدماً .

« ولكن واقع الأمر ، أن الشعوب المتقدمة ، جرى فيها استقلال الجامعات مجرى سائر الحريات التي تتطلبها الديمقراطية ويتطلبها العلم والمعرفة في هذه الحضارة العصرية القائمة .

فالحكومات اليوم دفعت من نفقات الجامعات أو لم تدفع لا تتدخل في شئون الجامعات حتى تواصل النظام في الحرم الجامعي ، واستدعى ذلك استدعاء رجال حفظ النظام ، لم يدخل في الحرم جندي واحد إلا إذا كان مدير الجامعة هو الذي استدعاه وأذن له بدخوله .

هذا هو العرف في الأمم المتقدمة ، ومع هذا فلا بد لى من القول أننا الآن في زمن أسهل شيء فيه العبث بالأعراف ، .

٣ - أيهما أولى : التوسع في الجامعات أم القضاء على الأمية :

طرح الدكتور أحمد زكي هذا السؤال قبل أن تطرحه الظروف والاحداث العلمية في وطننا العربي مع الزيادة المضاعفة التي شهدتها اعداد الجامعات واعداد الطلاب فيها في العقد الأخير (٨٠/٧١) ذلك أن أحمد زكي دعا في (أكتوبر ١٩٧١) في مقاله الافتتاحي لمجلة العربي الى انشاء جامعة الهواء على غرار تلك التي في بريطانيا ، واستطرد في مقاله الى مناقشة الآثار التي قد تنشأ نتيجة تنفيذ هذه الفكرة ، وأولها زيادة عدد الجامعيين مع مازلنا نعاني منه من أمية ، وقد رد الدكتور زكي على هذا التساؤل في وضوح وقوة يبين عنهما قوله : « وسيقول قوم كيف تأذن للتعليم العالي ان يمتد هكذا ، وأكثر العرب أميون ، وهذا حق ، وكان المنطق يقضى بأن نزيل الأمية قبل ان ترتفع بالتعليم ونحدده ولكن اعداد العرب قائلون

من حولهم كالسباع لا يعطون التي أكثرها الخراف والنعاج ، فهي طعام لها طيب وفير ، لا يعطونها الزمن الكافى لتتطور وتحسن أحوالها وتستأثر من بعد ذلك . لهذا وجب ان نعالج الأمة العربية من طرفيها ، الطرف النامض لنملاؤه علما ولتزيده ولنتوسع ، والطرف المتخلف لنرفع عنه أميته ، طلائع ترتفع بامتها وتصون وحدتها عن علم لا دجل فيه ولا خداع ، وتضرب عند الجد وتدفع الاعداء بآخر ما ابتدعه العلم من سلاح ، وطوائف في الجانب الآخر كالنمل عددا تعينها على الخروج من وحل الجهالة التي رطمها الزمان فيه .

٤ - ماذا تضيف الدرجة الجامعية الى صاحبها :

يجيب الدكتور أحمد زكى على هذا السؤال ، فيضرب مثلا بالحداد ، ويقول : « ولا أحسب ان هذه الدرجة ستجعل منه حدادا أكثر حدادا ، ولا أمهر في حدادته كثيرا ، وهى لن تحوله عن حدادته الى سبيل للرزق غيرها ، فلأبد في الناس من حدادة وانما سوف تجعل منه انسانا أكثر عرفانا وأوسع ادراكا ، وأقدر على التفتح للحياة ، والاستمتاع بمتع العقل والقلب فيها ، ماكانت تنهيا له وهو على الحديد والنار ، وفوق ذلك ، وأخطر من ذلك أنها سوف تجعل منه لأمته ، مواطنا صالحا » .

ويستطرد الدكتور زكى فيقول : « ان آماله هذه قد تكون أحلاما ، ولكن حاضرننا ان نحلم ونحلم ونحلم نفس الأيام ان تحقق لنا حلما يكون واحدا باللف ، والذى لا يحلم أبدا ، لا يصدق له حلم ، ولا يتحقق أمله » .

٥ - لابد من المستوى العالى لتعليمنا الجامعى :

يؤكد أحمد زكى في كل المواضع - وان لم يواظب على هذا التاكيد في مقاله الاخير - على أهمية العناية بمستوى خريج

جامعاتنا ، وعباراته في مقال (مايو ١٩٦٩) صريحة واضحة حادة حيث يقول : « ان لا تخرج الدولة جامعيين وفنيين خير من ان تخرج انصاف جامعيين او انصاف فنيين ، انهم صانعو الدولة في غدها ، ولا نريد دولة نصف مصنوعة فيها الأطباء ، ولكن انصاف ، والمهندسون ولكن انصاف ، والفزيائيون والكيميائيون والذريون ولكن انصاف وارباع واخماس » .

وفي مقال (مايو ١٩٧٠) يؤكد أحمد زكي رايه ويوضح فكرته من هذا الرأى بقوله : ان هذه المنتجات الانسانية لا تستهلك في عام أو عامين . . ان الطبيب الماهر باق معنا ننعم بمهارته ثلاثين عاما أو أربعين . . وكذلك الطبيب العاجز باق معنا نعانى من عجزه ثلاثين عاما أو أربعين .

« فالضبط والربط يجب أن يبدأ حيث يبدأ الخلق فى الجامعات .
الجامعات تختبر ، ولكن قبل أن تختبر يجب أن تختير . » تختبرها الأمة للتأكد من أن النتاج الذى سوف يأتى أخيرا سيكون نقاجا بحمد الله طيبا حميدا ، وحديثا ، مواكبا لزمانه » .

ولهذا : وجب على الأمة العربية ان تقوم بنقويم ماعندها اليوم من جامعات ، كم هى وأين هى تقع من مراتب جامعات الأرض ، وعلى أى شىء نبنى تقويم جامعاتنا على كلمة من صحفى . او خبر شارد علمى . أم على قرار للجنة محايدة فاحصة ، عارفة عادلة ، صادقة صديقة ، نستدعيها من أقصى الأرض ، يكون أكثر صداقتها وصدقها فيما تكشفه لنا فى جامعاتنا من نقص مع ما تذكر من جودة وإن نسير وفى أيدينا مصابيح تهدى . نرسم على ضوئها الطريق الذى نسلكه فى غد ليس كله بنور الشمس غامر .

ولهذا أيضا يدعو الدكتور أحمد زكى ويكرر دعوته الى

امتحان الطبيب والمهندس والمعلم كل ١٠ سنوات للتأكد من ان كلا منهم لازال يلاحق العلم الجديد كلما نبت فيه في الطريق نابت ٠٠ وهذا هو ما يعبر عنه باختصار عنوان مقاله « المعلم كالسيارة هي من طراز ١٩٣٠ او ١٩٥٠ ٠٠ بل ويدعو أحمد زكي الى امتحان البرامج واساليب التعليم والاجهزة »

٦ - بين التخصص والتعميم في الدراسات الجامعية :

ويقصد الدكتور بالتخصص ، ذلك الأسلوب الذى أخذت به حديثا الجامعات الامريكية من تطعيم الدراسات الانسانية بالدراسات العلمية الطبيعية والعكس ٠٠ وما الى ذلك من الأساليب المستحدثة في التعليم . وقد ناقش استاذنا الدكتور زكى في مقاله (اكتوبر ١٩٧٢) أصل التخصص وتطوره على مدى التاريخ ، وعرض لآراء القائلين بأهمية وضرورة التخصص ، وعرض لآرائه في تطبيق هذه النظم في جامعاتنا العربية وانتهى الى أن : « البلاد العربية لاتزال في أول الطريق والبلاد العربية بها نحو ٧٠٪ اميون فأين نحن من الترف العقلى أو القلبى الذى لا يخطر الا على بال أمة اكتملت فيها الدراسات الجامعية في نواح كثيرة ٠٠ وبلغت مستويات عالية ووصلت بمعارفها الى القمر وهى تطلب المريخ ٠٠ وكثرت كذلك اموالها فهى تفيض على أهل الأرض بالمعونات التى يرضاها الله أحيانا ويرضاها الشيطان أكثر الاحيان بما تفيض ٠٠ والرفه الدراسى المقترح يكلف الدولة اموالا طائلة والدولة العربية يعد فيها الفقراء كثرة ، فقر غذاء ، وفقر كساء ، وفقر مسكن . وفقر رعوس كثيرة من أهلها لم تزود بعد بالاقساط الضرورية للحياة الحاضرة من معارف وعلوم » .

وعلى الرغم من أن هذا الرأى قد يبدو متعارضا مع طموح الدكتور زكى واحلامه خصوصا في المجال الجامعى ، وهى طموحات

تعرضنا لها بالتحليل والسرد منذ لحظات ، الا ان الحقيقة في هذه المسألة على ما يبدو لى ان احمد زكى كان يريد للتعليم الجامعى العربى ان يمضى فى سبيله الطبيعى ، بالتقدم الذاتى ، وبالتجريب المتناسب مع ظروفه وامكاناته بعيدا عن الطفرات التى هى فى الواقع ليست من أنسب الأمور للعلم والتعليم الجامعى .

كان احمد زكى يريد للتعليم الجامعى ان يرتبط بالبيئة التى هو فيها ، حتى يكون صادقا فى الاجيال التى يعمل عمله فيها ، ومؤثرا فى الاجيال والاعمال التى تتعامل مع هذه الاجيال .

وعلى الصعيد الآخر كان احمد زكى يعتذر عن قصور امكانات التعليم بالقصور الذى فى امكانات البيئة على النحو الذى نخصص له البند التالى .

٧ - التعليم الجامعى والمجتمع :

احمد زكى مقتنع تمام الاقتناع ان التعليم - حتى فى البلاد المتقدمة - لا يتطور بالسرعة التى يتطور بها المجتمع هناك ، وهو يرى ان من الطبيعى ان يسبق المجتمع العلم .

وفيما يتعلق بحالنا يقرر مفكرنا ان الفقر هو علة تخلفنا الكبرى فى كل جبهة ، وليس هو العلة الواحدة ، ولسكنها العلة الاخفى بين العلل جميعا « اثر الفقر يتراءى فى كل منشط علمى ، وفى كل اقتراح نتقدم به التقدم التكنى ، ولكنه يتراءى خفيا فى ايسر الأمور التربوية وأظهرها .. فالفقر .. الفقر ! فلينكره الذاكرون عندما يجتمعون فى مؤتمرات التربية .. اجتمع فيها وزراء ام خبراء او مدرسون عاديون ، » .

« والجامعات انما تحيا بمقدار ما في البيئة من موارد حياة ..
وتموت بمقدار .. من اسباب موت » .

« والذي يسأل أين جامعاتنا من جامعات الغرب .. انما يسأل
عن بيتنا أين تقع من سائر هذه البيئات » .

نحن نحتاج الى الفنيين تخرجهم الجامعة المختلفة ، ولكن
« اقتصادهم اليوم ليس في حاجة الى تدريب خاص لمهنة خاصة
بقدر ما هو في حاجة الى رجال ذوى نكاء وذوى فطنة - حتى النكاء
البالغ هم لا يطلبونه - ان يكون في كل من يريدون - فعندهم ان
صنوف الخبرة متعددة ومتغيرة ، وكثير منها لا يستدعى ذلك القدر
من النكاء الذى يقيسه علماء التربية بالمقياس المعروف عندهم
بمقياس النكاء ، فعندهم كنكاء الرأس ، نكاء اليد ، ونكاء العيش ،
ونكاء الاذن ، ونكاء العصب في ساعد وفي قدم حتى ذوى العاهات
لهم في التطبيق أماكن » .

لهذا يقرر أحمد زكى فيمايتصل بالتخطيط لحاجة المجتمع من
التعليم « ان التخطيط ملء بالظنون فيما يختص بالغد ، ولكن
التخطيط لسد نقص قائم فعلا على ما تحتم الضرورات القائمة » .

٨ - التوافق بين امكانات الطالب ودراسته :

بقيت نقطة لابد للشباب ولوجهيهم من الاستفادة بقدرة أحمد
زكى على ادراك أمر الحق فيها ، وهى ضرورة وضع الشاب
المناسب فى المكان والمهنة المناسبين لامكاناته العقلية والتعليمية ..
وهذه فقرات من رأيه فى هذا المعرض نضعها امام الأبصار .

يشبه أحمد زكى فى مقاله (الهلال : ٤٨/٧) التعليم العام
بالطريق السلطانى الواسع العريض ، ولكنه يوشك ان يكون له

انتهاء ، وعند الانتهاء يتفرع فروعاً عدة ، يقف عندها المتخسير حيران ، لا يدري أيها يسلك ، وأيها اهدى الى العيش الرخيص والحياة الهانئة •

ويستطرد معبراً عن واقع الحياة فيقول « لكل شخص طريق لا يطلبه ، ولكل طريق شخص لا يطلبه ، وسر النجاح في الحياة هو ذلك التوفيق بين طالب ومطلوب ، وهو سر غامض ، من أجله النجاح في الحياة وعمر » •

« خير للمطالب ان يطلب التل اذا تعذر الجبل واستحال ، والقمر يطلبه كل الاطفال ولكن الرجال تعرف ما ينال ، وما لا ينال فنفسك الحكم الاول في كل ذلك » •

« وأول ما توارث في نفسك ذكاؤك العام الذي يجيء بعضه من التعليم وبعضه من الطبع ، فليست المهنة كلها تحتاج لقدر من الذكاء واحد •• واذكر دائماً ان الحلاق المناجح خير ألف مرة من الطبيب الخائب •• وان النجاح في حد ذاته متعة وهناء وفرحة وسرور لا يغيض منبعه أبداً » •

« ان وضع الشاب الصحيح في المهنة الخاطئة ، هو ، على ما يقول المثل الأجنبى ، كوضع الخابور المدور في الخرق المربع لا يكون للشباب منه استقرار ، ولكن يكون منه القلق ، وهو لا يشقى وحده بذلك ، ولكن أسرته وبيئته وأمه تشقى به » ١٠ هـ • أحمد زكى وأظن أن هذه النقطة التامة بالذات قد لا تقل في أهميتها فيما يتعلق بموضوع التعليم الجامعى عن النقاط السابقة الأخرى وان كنت قد اخترتها الى هذا المقام فيها العبرة الاولى والأخيرة •

مفاهيم اعلامية وثقافية

« وعلموا الطابعين ان الجمال قد يشتري بائس
الاثمان .. وان الكتاب كامرأة هذا العصر أجمل ماتكون
وهى فى أبسط الثياب » .

احمد زكى

يؤمن مؤلف هذا الكتاب بضرورة الفصل بين الثقافة والاعلام،
ولكنه لا يفهم هذا الفصل على أنه فصل بين متناقضات ، ولا بين
أشياء ينشأ عن اجتماعها آثار للثقافة مدمرة ، أو آثار غير مرغوبة،
ولنما هو الفصل الذى يتيح لنا أن نركز على كل من الثقافة والاعلام
فى خطط التنمية بالأسلوب المناسب لكل منهما ، وبالقدر المطلوب بل
وأكثر منه .

لهذا السبب كان فى خطة المؤلف أن يجعل من هذا الباب بابين
بابا يتعلق بالرؤية الثقافية ، وبابا للمفاهيم الاعلامية ، ولكنه وجد
أن تركيز أحمد زكى فى كتاباته التى تناولت الحياة الثقافية كانت
على مسألة القراءة والكتاب ، وأن تركيزه فى كتاباته التى تناولت
المسائل الاعلامية كانت على الصحافة والاعلام الصحفى .. المسألة
اذن فى القلم ، والقلم هو جوهر الثقافة والاعلام ، وهو البؤرة التى
تلتقى فيها جميع اشعاعاتهما ، بل هو البؤرة التى تخرج منها تلك
الاشعاعات .

والمسألة فى آراء الدكتور زكى فى هذا الشأن لا تحتاج الى كثير

من التعليق ، ولا الى أى قدر من الايضاح ، وبغود هذا الباب واضحة التميز لا تحتاج الى كثير من الربط ، انما ينصرف الجزء الأكبر من جهد المؤلف في هذا الباب الى اعادة ترتيب الأفكار ، والخروج بالمتشابه على النحو الذى لا يجعل القارئ ينصرف بعد قراءة الباب الا بفكرة واضحة بالقدر الذى كان فيه الموضح عنه الدكتور زكى ، في حجم قد يكون العشر أو أقل من عشر فقرات لأحمد زكى ، هذا فضلا عن دورات ثلاث من الاختصار اضطر اليها المؤلف في هذا الباب بالذات أكثر من غيره .

يؤمن الدكتور زكى أن الدعاية علم ، كالنهر ، تمده بالماء ، روافد من المعرفة شتى : معرفة تتصل بأنفس الناس ، ما هى ، وكم هى ، وما مزاجها ، وكم سرعتها في تقبل المعنى والخبر ، وكم هى من التشكك والحذر ، وأين هى من العلم ، وأين هى من الجهل ، وما صنع التاريخ بها ، وكم ضيع من آمالها ، وكم أحيأ .

« وأنت تستطيع أن تصل الى الناس عن طريقين : طريق العقل والمنطق ، وطريق الانفعال والعاطفة ، وأغلب المظن أنك سوف تحتاج الى العقل والعاطفة معا » .

« والدعاية في الدين كل دين ، دعاية تخرج عن عقل ، ودعاية تخرج عن عاطفة ، ويصل العقول منها أهل العقل فيكون الرضا ويصل المعطوف منها أهل العاطفة فيكون الرضا ، ولقد مر بخاطري يوما رأى خبيث عن الخرافات التى أدخلها الجهال في سائر الأديان فقلت لنفسى ، وما ضرر ذلك إذا كان في الخرافة احياء أمل أو طمأنينة من بعد خوف - وخيل الى أن بعض الفلاسفة ، حتى من المسلمين سبقونى في هذا الرأى فيما سبقوا » .

والرأى عندى ان الدين ، أئى دين ، لا تأتلف وإياه الدعاية
الا أن تكون حقا ، أما التحبيب والتحبب فى الدين فتتهريج لا
يسستقيم مع عقول تطلب حقيقة الكون الكبرى : حقيقة الله
سبحانه . *

والدعاية فى الاناشيد الوطنية « ولكل نشيد وطنى من هذه التى
فى بلاد الغرب ، ولكل سلام قومى قصة امتزجت بدماء ، أين منها
أناشيدنا أناشيد الشرق تلك التى وكلنا أهرما الى قاعد منا يقعد
فى حجرته ليضع لنا لحنًا من عنده ، فاترا ، ماجورا ، وتندق به
بيننا الطبول فى الاحتفالات ، فنقوم له فى غير كثير من احتفال ،
اذ ليس له فى القلب صدئ » . *

وقد تقدمت الدعاية تقدما كبيرا فى الحرب العالمية الثانية عنها
فى الاولى « حدث تحول فى دعاية الحرب من الغلو الى الاعتدال
فاقتربوا بالصدق ما أمكن ، وعرف القارئون للصحف ،
والسامعون للاذاعات من أمر هذه المصادر ما عرفوا فاقبلوا عليها ،
وبالطبع نجد أن الأمم مع القوة ، أقدر على الصدق ، وهى مع
الضعف تتوارى فى الكذب ، وهى تكذب على أهلها سواء بسواء » . *

والثورات تهتم كثيرا بالعلاقة بين الدعاية والتعليم
« فالدعاية فى حجات الدراسة وبرامج التعليم هى أنجح الدعاية ،
وتستوى فى استهداف ذلك ثورة اليمين ، وثورة اليسار ، ، وأول
العلوم ملازمة للدعاية ، الدروس التى ننعتها بالأدبية ، وأسرعها
استجابة علم التاريخ ، فصاحب الدعوة يستطيع أن يبدل فيه .
فيثبت ما ليس فيه ، ويحذف مما فيه ، وفقا للدعوة التى يريد ،
ووفقا للأمواء العاطفية التى يريد أن يزرعها فى الطلاب » . *

« وان يكن التعليم الرسمى بين الحواظ الأربعة يتخذ وسيلة

للدعاية ، فالتعليم الطليق وسيلة أفعل وأوسع دائرة وأبعد مدى «
يقصد الصحف والاذاعات والتلفزيون « ومن أجل هذا احتوته
على الأخص الحكومات التى لها فى الدعاية أهداف تستهدفها ،
ومذاهب تشيعها وتنشرها » .

« وباحتواء الحكومة كلا النوعين : التعليم والاعلام (التعليم
الطليق) « تستطيع ان هى أرادت ان تخلق الانسان الذى تريد ،
وتحن فى العصر الصناعى تصنع الخامات المعدنية ، وكذلك نستطيع
اذا أردنا ان نصنع الخامة الانسانية ، فننتج منها الخراف والاسود ،
والحمائم والصقور ، وما لم يخطر ولا خطر ببال أحد » .

ان الاعلام من العلم ، والمدارس والجامعات تعطى العلم
والدنيا تعطى العلم ، والاذاعة والتلفاز جامعتان عظيمتان يظل يستمد
منهما تارك الجامعة بعد تركها ، علما وأدبا وفنا ، وخبرة حياة ،
ليس شىء منها من الصنف الذى تعطيه المدارس والجامعات
عادة » .

« ان أجمل شىء فى الحضارة الحاضرة « العلم والمعرفة
والاستنارة أجمالا ، وأخطر ما فى العلم والمعرفة والاستنارة
مصدرها ، ومن أخطر هذه المصادر ، مصدر الكلمة المذاعة ،
والصورة المذاعة ، بهما تخلق خلقا جديدا ، وبهما تتغير مقادير
الشعوب » .

« رأى العام صار يصنع كما تصنع البضائع ، بالشكل الذى
يريدون ، كما يحيل الخراف صلصاله ، فهو يصنع منه مزهرة
لعطر ، أو مبولة لطفل .. » « وهو لا يمكن أن يعمم وقد نشأ الناس
أمزجة ومشارب شتى ، وليس كل فرد فى جماعة بقادر على ابداء
رأى ، وقد يستطيعه الفرد القادر ولكنه يبنيه على الخبر الكاذب » .

« انما هي الصحف تمارس لأممها ما يمارسه الطبيب النفساني الذي يحاول أن يذهب بالقلق عن مريضه ، فأحيانا هو بالعقاقير المسكنة يهدئه ، وأحيانا هو يعطيه حقنة من انسولين تصدقه ، أو لعلها شحنة من كهرباء تهز كيانه » .

ويذهب الدكتور زكي في تقدير دور الاعلام الى الحد الذي يجعله أخطر عامل يهدد بقيام حرب عالمية جديدة » والرأى عندى أنه والحرب بالكلم قد وقفت عند هذا الحد أنه لن تنطلق قنبلة ذرية أو غير ذرية الا من بعد مفاوضة . هذا اذا حبست الصحافة فى كل البلاد ألسنتها ، وكظمت ما فى صدرها وسكت كذلك كلاب الحرب ، وكفوا عن نباح لا يجنى منه الموقف الا شرا .

واذا اراد القارئ ان يطالع رأى أحمد زكى فى حرية الصحافة فى اثناء الحرب . . فليرجع الى الباب الثانى من هذا الكتاب حيث المفكر الذى يكبح جماح نفسه .

ونحن فى البلاد العربية فى حاجة ماسة الى اعلام نعال بقضيتنا ، هذا لاشك فيه ، ولكننا « أحوج الى اعلام عربى فى البلاد العربية نفسها » .

وأحمد زكى يعتقد : ان رجل الاعلام غير رجل الشرطة ، وغير رجل المخابرات ، رجل الشرطة ورجل المخابرات يجب ان تتوفر فيهما كفايات كبيرة ، ولكن لتظل فى الظلام محبوبة ، أما رجل الاعلام فمصباح نصفه ليشع بنوره ، هكذا اعلانا حيثما حل .

وهو يأسف لهؤلاء الصحفيين الشباب « الذين يكتبون اكثر مما يقرعون » .

وحرية الصحافة « انما هى حرية واحدة من حريات عشرات نعرفها فى هذا العيش الحاضر ، وحرية الصحافة انما هى معنى

متفرع من معانى الحريات عامة ، وبقدر ما يكون في الناس من ايمان بمعانى الحريات الاصلية يكون ايمان بالفروع ، والايمان بالحريات ، لا يكفى وانما لابد مع الايمان عن ممارسة » .

والجانب الآخر من القضية لا يتركه أحمد زكى : « والذين يتحدثون عن رقابة الحكومات على الصحف ، ينسون ، ان هناك رقابة مثلها توازنها ، تلك رقابة الصحف على الحكومات » .

« ان الصحافة تأتى للناس بالاخبار من داخل البلاد ومن خارجها ، وتنتشر في الناس الرأى ، وهو رأى فيما تجرى به الايام من أحداث ، ومن أمس أحداث اليوم بالناس هي أحداث تتأثر أشد التأثير بعمل الحكومات ، لاسيما بعد التطور الكبير الذى طرأ على واجبات الحكومات بعد قلاقل القرنين الماضيين ، فالصحافة أصبحت اليوم ، قائمة برقابة على الحكومات لعلها أخطر من رقابة الحكومات على الصحف .. ولكن من عجيب أمر هذه الرقابة ان لا يتحدث عنها من الكتاب غير قليلين » .

ومناك معنيان لحرية الصحافة والنشر عامة ، أحدهما هو الأشهر ، وهو الأوضح وهو حرية الصحافة في ان تنشر ما تشاء ، لان الخطأ التاريخي الأكبر كان في كبت الحكومات حرية الصحافة ، وعلى زعم أن صوت الصحف هو صوت الشعب ، فهذا الكبت انما كان كبت حرية الشعب ان يقول ما يقول » .

« أما المعنى الآخر الأخفى فهو محافظة الصحف على حرية الشعوب أفرادا وهيئات ، فلا تنال أحدا بسوء اعتمادا على مالها من قوة هي في آخر الأمر مستمدة من الشعوب » .

« وقد نضيف الى هذين المعنيين معنى ثالثا ، وهو محافظة الصحف على حرية الحكومات ، فالحكومة التى يقيمها الشعب على

الأسس الديمقراطية من حقها ان تنال حريتها في القول والعمل فلا
تتهاجم افتراء وادعاء .. حتى من معركة قائمة .. »

أما الصحافة في البلاد الواقعة تحت الحكم الكلي (الشمولي)
وهو الواقع الذي عاشته معظم البلاد العربية والفلسطينية ولا يزال
أغلبها يعيشه : « والصحافة تحت هذا الحكم جزء منه ، والصحفيون
عندئذ موظفون في الدولة ، وموظف الدولة مطيع .. لهذا لا أرى
وجها للذين يلومون رجال الصحافة فيما كانوا صنعوا وهم غير
أحرار ، انه لوم غير جائز إلا اذا جاز لوم سسائقي القساطرة
أو ضابط الشرطة ذلك أنهم جميعا تسربوا على نفقة واحدة قادما
رئيس الجوقة الموسيقي ، وفي يمينه عصا القيادة : ومن ورائه
« مسرور » صاحب نظم الرشيد وسيفه ، وويل لمن خرج عن الصف
فضرب نشارا » .

« ذلك أن الحريات أخذ وعطاء ، وميزانها العدل بين شعب
وصحافة وحكومة في الأحوال العسوية ، والاسراف في اعطاء الحريات
تبذير ، وكل تبذير مفسدة » .

وهناك متاعب الكاتب من جهل الشعوب « الشعوب كاذب
تنتظر منك ان تمر بكفك مرا خفيفا على شعرها في اتجاد واحد ..
فاذا أنت غيرت هذا الاتجاه ذاك من مخاليتها الشيء أكثر » .

وفي مسألة الرقابة على الصحف والرقب : « الفكر لابد له من
ضابط ، وخير ضابط لفكر كتابه ومن الكتاب من لا يقدر تبعة ما
يكتب .. فيكون كالفردي في المجتمع الذي يعمل ما يشاء على هواه ،
ولا يقدر تبعة ذلك ، فيقف له رجل الشرطة بالمرصاد » .

والذي يشكوه الكتاب ، والصحف والكتب « ليس هو قيام
الرقابة ، ولكن مقدار ما تعطيه الرقابة لحرية العمل وحرية الفكر
والكتابة من رحابة » .

الحلال بين والحرام بين ، ولكن الأمر يختلف من رقيب لآخر ، وكثير من الرقباء فيهم كثير من سعة الفكر ، والكثير من النبل ، وأذن تكون الشكوى ليست من هؤلاء ٠٠ ومن الرقباء القليل الذى لا يجيز فيما يقرأ الا الذى يرضاه هو رأيا ٠٠ وهذا أخطر شيء يكون فى الرقابة » ٠

« والرقيب خادم دولة ، وعليه واجب عسير ، ولكنه من أغرب الواجبات ، ذلك أن التفريط فيه خير من الإفراط ، فالتفريط فيه بذل من حرية ، والإفراط حجر وكبت وكنم أنفاس » ٠

وفيما يتعلق بالرقابة فى بلادنا : « لابد من أن اعترف عن تجربة ، انى رأيت عوامل الشر فى البلد المتخلف أقوى من عوامل الخير ، وأهل الحق أضعف من أهل الباطل ، وأقل علما ، وأقل فطنة ، وأقل مالا ، ومنهم من فتنه فحيج الاناعى ، وفتنته ملاسة ظهورها ، وانسياب حركاتها ، ونقوش فى جلودها واللوان ، فراح يرقص رقصاتها على أنغام من عمل الشيطان ٠٠ ان الشعوب العربية لو درت ما يريد أهل الاحقاد من زعماء الأرض بها لعز نومها ، ولما استطاع ان يعبث بالوحدة العربية اليوم عابث من بينها » ٠

هذا عن ما بين الحكومات والصحافة ، والصحافة والحكومات ، والشعوب والصحافة ، والصحافة والشعوب ، والرقابة والصحافة فماذا عن ما بين الكتاب بعضهم والبعض الآخر من آداب الجدل « ان التزام موضوع النقاش ، والحرص فيه على قواعد الجدل الصحيحة ، والبعد به عن الاعيب الجدل المعروفة ، واجب كل كاتب عربى فى موضوع مصيرى كالموضوع الذى نحن فيه ، ونحن أعجز ما نكون فى تكوين رأى فيه ، معطيات الرأى ليست لدينا ، بل لدى الحكومات وهى لا تقضيها » ٠

«من نقاد العرب من لا يعرف الجدل الا اشتباكا واعتراكا ومشادة تنتهى بالقذف بالاعراض وان أنت اختلفت معهم فى سياسة فأنت المنحرف المارق ، وان أنت اختلفت معهم فى أمر دينى ، فأنت الزنديق الكافر ، وان أنت اختلفت معهم فى موضوع خلقى ، فأنت المتفسخ أيسر وأكثر قبولاً عند الجماهير من تجريح موضوع الجدل » *

ان العادة جرت على رمى صاحب الرأى بالحجر أولاً ، ثم رمى رأيه ، فان هم قتلوا الرأى فيها ، والا فلا ، ففى قتل الرجل قتل للرأى ، وفى هذا الغناء كل الغناء » *

هذا مع حقيقة لا يد منها ، وهى ذلك الجفاء الذى بين أحمد زكى وبين النقاش لأن « النقاش يهدف عادة الى تبرير غايات مرسومة لا الى كشف حقائق غير معلومة » *

وماذا عن الكتاب : « لا يشك أحد فى ان الأمية متفشية فى الدول العربية مجتمعة ، فالكثرة الكبرى لا تقرأ ، وليس كل من فك الخط بقارىء ، وليس كل من خرج من أمية بقارىء كتاب » *

« عودوا الناس على الكتاب الجميل مظهرا ، الجميل مخبرا ، وعودوهم على ان يكبروا الجمال ، ومع هذا أن ينكروا الترف فى الكتاب المشرف ، وعلموا الطابعين أن الجمال بأبيض الأثمان .. وان الكتاب كامرأة هذا العصر أجمل ما تكون وهى فى أبسط الثياب » *

وماذا عن الجوهر : « يجب أن يكون الى جانب الكتاب الخاطف الكتاب غير الخاطف ، الكتاب المتند .. الكتاب العميق ، وأن يكون الكتاب الخاطف لطيفة من طبقات الديمقراطية هى من حيث الثقافة

دنيا . . يجب أن يكون الكتاب (بل الكتب) ذات الثقل والوزن لطبقات الديمقراطية التي هي في الثقافة عليا ، والأخرى التي هي بين بين ، فالناس في طبقات الفكر عدة ، وكلها تجوع وتظمأ ، وكلها تطلب الرأي والمشيع .

ويصف الكتب الشائعة اليوم فيقول : « أكثر هذه الكتب لا عمق فيه . إنها الكتب الضحلة التي هي من الضحالة بحيث إذا سرت فيها لم تحتج إلى أن ترغع ثيابك عن مائها رفعا كبيرا ، وقد تجد مع الضحالة الطين ، والذين كتبوا إنما كتبوها حفظا ، وإذا أنت وزنتها بميزان العلم شالت .

ولابد أن نهىء من كتبنا العربية مصدرا لما هي فيه من علم ، ولا يكون ذلك إلا بالفهرسة ، وهو منهج حرص عليه أحمد زكي في الكتب التي أشرف على ترجمتها مما أخرجته فرانكلين ، « ومأميق من تأليف عربية لا يعاد طبعه إلا وقد استكمل فهرسه الهجائي ، كما حدث مع الأغاني ، والأمالى ، والحيوان ، والعقد الفريد والجمهرة ، وعيون الأخبار ، ومعجم البلدان ، ومعجم الأدباء ، والمسالك والممالك للمقريزي ، والنجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، « وبقي «نهاية الأرب» أكثر من ٣٠ جزءا (وصبح الاعشى» و « الفهرس الأبجدي في آخر الكتاب الأفرنجى كالذيل للقط يولد به خلقة ، ونتبع وما أحرانا أن نتبع والمقبوع صالح » . وما نحن قد وصلنا إلى موضع الذيل .

المصادر :

- ١ - « قصة العربى كيف نشأ » العربى : ٨ / ١٩٥٩ .
- ٢ - « الصحافة : انحرافات تذهب بسمو الرسالة » العربى :
١٩٦١ / ٤ .
- ٣ - « حرب أم سلام » العربى : ١٠ / ١٩٦١ .
- ٤ - « يومان : يوم للاعلام ، ويوم للوقاية من العمى » العربى :
يونيو ١٩٦٧ .
- ٥ - « رأى العام : صار بضاعة تصنع فى الناس » العربى
سبتمبر ١٩٦٧ .
- ٦ - « البروباجندا : لفظ برىء صاف كالماء فى الزجاج ، تدخله
السياسة فيتلون » العربى : ديسمبر ١٩٦٧ .
- ٧ - « القبة تغيرت وظل الرأس واحدا ، شهر انتظار واصطبار
وترقب » العربى : ابريل ١٩٦٩ .
- ٨ - « الكتاب العربى : سبب التخلف الحضارى والتخلف العلمى
والتكنى فى روضة أو مدرسة أو جامعة » العربى : مايو
١٩٦٩ .
- ٩ - « ١١ عاما من حياة العربى » العربى : يناير ١٩٧٠ .
- ١٠ - « هذا شهر حزين » العربى : يونيو ١٩٧٠ .
- ١١ - « اسموه اعلنا ، وما هو الا مواصلات بين أرواح وأفهام
من بعد مواصلات بين أجسام وأجسام » العربى : ديسمبر
١٩٧١ .

- ١٢ - « عصر الضياع .. انها حيرة الشباب في كل عصر »
العربي : يناير ١٩٧٢ .
- ١٣ - « حرية الصحافة » العربي : مارس ١٩٧٢ .
- ١٤ - « الكتاب العربي بين أمية فاشية ، وقرصنة باغية »
العربي : ابريل ١٩٧٢ .
- ١٥ - « للجدل آداب لا بد من احياؤها » العربي : فبراير ١٩٧٣ .
- ١٦ - « الدعوة ، الدعاية ، الاعلام ، البروباغندا » العربي :
مارس ١٩٧٣ .
- ١٧ - « حرية الفكر في سلام وفي حرب » العربي : مايو ١٩٧٣ .
- ١٨ - « اختلاف الرأي في سبيل الخير غير اختلاف الرأي عن خيـث
ومكر » العربي : ابريل ١٩٧٤ .

الجزء الثالث

أدب أحمد زكي

كان الدكتور أحمد زكي رحمه الله كاتباً غزير الانتاج ، وكانت كتابته في العلم وفي غير العلم نموذجاً رائعاً للكتابة الأدبية التي تعتمد على المعاني في جوهرها ، وعلى البيان في عرضها ، تستعين بالبديع على بيان المعاني ومعاني البيان .

وليس من شأننا هنا أن نحصى للقارئ عدد مقالات الدكتور زكي لنثبت له مدى غزارة انتاج الرجل ، ولكن الجزء الأخير من هذا الكتاب « البيولوجرافيا » سوف يقوم بهذا الجهد خير قيام وسيجد القارئ فيه القوائم الطوال تلو الطوال الأخرى تحاول أن تحصر انتاج الرجل فلا تجد الى ذلك سبيلاً .

على أن المؤلف لا يزال يعتقد أن تقدير المرم (عالماً أو أديباً أو سياسياً) لا يقاس بمقدار ما انتج ، ولا بنوعية هذا الانتاج فحسب وإنما ينبغي أن يقاس الكم والكيف (المقدار والنوعية) في ظل المقارنة مع المعاصرين ، فإذا كان الحال مع أحمد زكي وجب أن ننظر اليه ضمن نظرة أكثر شمولاً تحيط بالآثار الأدبية والعلمية والفكرية لمعاصريه . وقد نظر المؤلف هذه النظرة يوازن بين أحمد زكي وأعلام المعاصرين فانتهى الى النقاط التالية :

أولاً : ففي المجال العلمي كان الدكتور زكى مع مشرفة باشا علمين خفاقين من اعلام العلم الحديث في مصر ، وكان الرجلان يؤمنان بدورها الرائد ، ويريان أن الكتابة للجامهير من الواجب عليهما ، وقد اتيح للدكتور زكى أن يعيش بعد وفاة مشرفة ربع قرن وشهور ، فلا محل للمقارنة بين الكميات الكبيرة للدكتور زكى وبين الآثار القليلة نسبيا للدكتور مشرفة ، ولا اظن أن المتوسط الحسابى يغنى في هذا ، فقد كانت المعدلات مختلفة عاما بعد عام ، عند كل من العلمين ، وليس هذا - مع هذا كله مما يعيننا - انما يهمننا ان نركز على طبيعة تلك الانتاجات الفكرية لكل منهما ، فعلى حين كان الدكتور زكى يوجه الشطر الأكبر من اهتمامه الى تبسيط الثقافة العلمية ، وعرض العلوم الطبيعية على الناس ، والبحث والتنقيب عن تلك الموضوعات التى تحتل هذا العرض ، فإن الدكتور مشرفة كان معنيا بالكتابة في القضايا العلمية الكبرى التى ترتبط بعلاقات العلم بالحياة والدين والاخلاق والقومية واللغة العلمية والصناعة والبحث العلمى والحياة العامة .

وليس فى هذا غرابة اذا ما تأملنا فى المواقع الوظيفية التى شغلها الاستاذان ، فأحمد زكى يلى امر الجامعة والتعليم لينظم العلاقة بين العلم والمجتمع ، والتطبيق العلمى فى الحياة العامة فى مصلحة الكيمياء ، وفى مصلحة الصناعة ، وفى مجلس فؤاد الأول الاهلى للبحوث ، فكأنما كان يتم واجبه العلمى الذى تأهل له بالشرح والتحليل ، وهو فى كتاباته كأنما يشرح لطلبة أوسع عددا ، ويشرح فى عبارات أبقى على الزمان .

على حين كان الدكتور مشرفة يخرج تلاميذه فى كلية العلوم التى ظل استاذاً فيها وعميدا لها من يوم افتتاحها والى أن انتقل الى الحياة الآخرة ، وكان له حظ المشاركة فى اللجان والمجالس التى

تنظم تلك العلاقات العلمية ، ولكنه لم يكن سعيدا بما تنتهى اليه تلك اللجان مع طبيعة البطء التى تسود أعمالها ، ولهذا فانه كان يخلق الرأى العام ويوقظ الرأى الخاص بأفكاره وآرائه .

وقد لا تكون هذه النظرة الى طبيعة الفروق بين الكتابتين كافية لتفسير الموقف مائة فى المائة ، ولكنها على كل حال تستطيع أن تلقى لنا الضوء على أكثر من خمسة وسبعين فى المائة منه .

أما الجوانب الأخرى لهذه القضية فقد تعود الى انشغال الدكتور مشرفة فى وضع الكتب المدرسية العديدة التى لاتزال تمثل المرجع الأول فى الرياضيات بكافة فروعها على حين لم تكن علوم الكيمياء قد لاقت ذلك الاهتمام الواسع فى مراحل التعليم العام حتى والى حين وفاة الدكتور زكى .

وقد تعود أيضا ، بل أنها بالتأكيد تعود ، الى تلك القدرة الهائلة التى كانت للدكتور زكى فى الاستيعاب والتحليل والشرح على هذا المستوى العام من الثقافة العلمية وتاريخ العلم للجماهير على حين كان الدكتور مشرفة مشغولا ومأخوذا بتفسير وفهم التطور الذى حدث للعلوم فيما بين القرنين التاسع عشر والعشرين، وفيما قبل النسبية وبعدها .

ومع هذا كله ، ومع غيره فانك لا تستطيع الا أن تثبت هذه الطبيعة المتشابهة صدقا ، ورقة ، وروعة بيان ، دقة وصف ، ونقاء قلم ، وبعدا عن الأغراض ، والتزاما بالحقيقة مهما كانت عند كل من الرجلين .

ولا يخفى المؤلف أنه قبل ان يكتب هذا الباب راجع ما كتبه من قبل فى الباب الخاص بقدرات مشرفة البيانية فى كتابه « مشرفة

بين الذرة والذروة « فوجد نفسه في موقف لا يحسد عليه حين أدرك أنه لو تناول أحمد زكي من الزوايا التي تناول بها قدرات مشرفة الببائية لجاء هذا الباب صورة أخرى من الباب الذي كتبه من قبل عن مشرفة ، ولهذا أخذ المؤلف نفسه بمنهج آخر في تناول الدكتور زكي ، يتلاءم مع الجوانب الأخرى في الدكتور زكي .

ثانيا : وفي مجال الكتابة عموما فإنه لا يسعنا مع احترامنا للكاتب الكبير الاستاذ العقاد ولعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين الا أن نسأل : أيهما كان أجدى على الثقافة العربية ؟ تلك المقالات التي كتبها في تأييد هذا الحزب أو ذلك ذلك الزعيم أو مهاجمته . أم تلك التي كتبها الدكتور زكي في قصة اختراع ، أو شرح دورة حياة ، أو مكافحة ميكروب أو ترسيخ مفهوم علمي ، أو تبسيط فهم صناعة من الصناعات .

قلت الثقافة العربية في سؤالي ، خروجا بالقارىء الى الاقرار بفضل الدكتور زكي في هذه الناحية ، ولا اظن الأمر يختلف كثيرا اذا ما قلت الأدب العربي ، غير أنني في هذه اللحظة سأواجه بالذين يقولون بفضل الممارك الأدبية ، ولكنني اعتقد أنه ان كان للممارك الأدبية أثر ايجابي ، فان هذه الايجابية تتضاعف اذا جاءت الممارك بعد مستوى من التقدم الفكري والسياسي لا قبل هذا التقدم الذي لا يقوم ولن يقوم الا على العلم .

والممارك شأنها شأن كل عناصر الحضارة سائرة الى التقدم مع مرور الزمن ومرور العلم . . . ولهذا فانا لن نجد حرجا من أن نقول ان فضل أحمد زكي ومشرفة وقرنائهما على الأدب العربي بما كتبوا من مقالات علمية ، اضافت الى ادب العربية وقاموسها اللغوي مايفوق فضل اعلام الكتاب في مقالاتهم السياسية التي تركت العقول غير الناضجة في حالة تشكك لا تقبل لها بديلا .

ثالثا : على الصعيد الفكرى لا نستطيع أن نضع أحمد زكى من ناحية كونه فيلسوفاً فى المرتبة السامقة التى نضع فيها الدكتور كامل حسين مثلاً ، ولكننا مع ذلك لانستطيع أن ننكر أن السبب فى هذا كان أنبل من الغاية ذاتها .

ذلك أن الفكر الذى أفرزه الدكتور زكى لمجتمعه لم يكن من ذلك النوع الفلسفى دقيق الفهم ، غزير المعانى والناتج والمقدمات على النحو الذى نلقاه مثلاً فى « التحليل البيولوجى للتاريخ » أو « وحدة المعرفة » أو « الوادئ المقدس » ، ولكنه كان من ذلك النوع الذى يرتبط بمرحلة محدودة من الزمن هى الحاضر الذى عشناه والمستقبل القريب الذى نؤمله ، ولهذا كانت كتابات الدكتور زكى فى الجانب الحيوى من الحياة متماثلاً فى ملاحقة الأحداث والأزمات العصرية والدولية وخاصة أزمة فلسطين ، والظواهر الاجتماعية والمشكلات الناجمة عن التحولات ٠٠ الخ) سواء فى هذا مقالاته فى الهلال وفى افتتاحيات العربى .

لهذا كان الدكتور زكى مصلحاً ، وكانت له فلسفة فى الإصلاح ، وكان إصلاحه يستمد معظم جوانبه من الفلسفة ، ولهذا كان قولنا أنه لم يكن فيلسوفاً من أصحاب الفلسفات العميقة ، لأنه اتخذ الفلسفة سبيلاً الى الإصلاح والعلاج ، وليس على الطبيب الذى يعالج الحالات البسيطة أن يستعمل المركبات الدوائية المعقدة التى لا حاجة إليها ، وهكذا كانت الفلسفة التى اتخذها أحمد زكى سبيلاً الى الإصلاح ، ولو اتخذ الفلسفة سبيلاً الى الفلسفة لنبغ وبرز فى هذا المجال ، ولكن السبب فى هذا كان كما قلنا أنبل من الغاية نفسها .

وأنا لا أدافع عن الدكتور أحمد زكى بهذا ، فان كلامى نفسه يقول أنه فى هذه الناحية أعظم من كل دفاع ، ولكنى أبغى توضيح حقيقة أردنى الكثيرون على أن أوضحها لهم ولنغيرهم حين وجدوا

من فلسفة الدكتور كامل حسين قمة ليس الى المقارنة بها من سبيل،
وسألوا هلا كان عند الدكتور مشرفة من هذا النوع ، ولا أظنهم
سوف يجدون من هذا النوع عند الدكتور زكي ، وليس في هذا ما
يقلل قدر فلسفة مشرفة أو فلسفة أحمد زكي أو فلسفة على إبراهيم
كما أنه ليس مقلدا لقدر كامل حسين إلا يجدوا عنده من النوع
الذي أفاض فيه الدكتور زكي تبسيطا للثقافة العلمية وتفكيراً
بالعلم في نواحي الحياة الاجتماعية ذلك أن السبب
في هذا وكرر أن السبب كان أيضاً أنبل من الغاية نفسها .

وهكذا يتضح لنا الى أي حد كان الدكتور زكي في عصره
الزاهر وبين هؤلاء الأقطاب الأربعة ، ولا أظن أننا في حاجة الى أن
نقارنه بعد ذلك ببقية الأقطاب ، إلا إذا ذكرنا له من الفضل بانثائه
العربي ما يوازي فضل صديقيه الكبيرين أحمد حسن الزيات
بالرسالة وأحمد أمين بالثقافة، فضل نشر الثقافة بالصحافة وأن تكون بهذه
الثقافة ذات رسالة عليا وأن تمتد آثارها ما امتد اللسان العربي
وأن تستقي مواردها من كل منهل ، وفي هذه الأخيرة فإن أحمد زكي
فاق الأحمديين الآخرين .

ومع أن ترجمة الآثار الأدبية ليست من الآثار التي يضع
التفاضل فيها صاحب الفضل في الصف الأول ، إلا أننا مع ذلك
لا نستطيع أن نغض النظر عن فضل الدكتور زكي حين ترجم « غادة
الكاميليا » و « جان دارك » وأعتقد أن هذا الفضل يضاف الى الدكتور
أحمد زكي مع أفضال أخرى في نهاية القائمة التي وضعت في الصف الأول
بين كتابنا الكبار، وأحمد زكي في قصصه ليس رجل العربية الأول ،
ولكنه مع ذلك من رجالها الأوائل ، وإنني لأعجب لأولئك الذين ذهبوا
يبحثون عن ريادة القصة القصيرة كيف يغفلون الإشارة اليه وإلى
قصص « بين المسموع والمقروء » ، غير أن عجبى هذا يتلاشى

عندما أجد البيليوجرافيات المصرية للقصة تفغل قصص الدكتور زكى وكأنه كان واجبا عليه حين نشر هذه القصص فى الدوريات أو فى الكتاب أن يكتب قبل عنوان القصة أنها قصة حتى لا يذهب عنها البيليوجرافيون وهم يظنون أنها مقال ، لأنهم لم يعرفوا للرجل أياديه فى هذا المجال .

وسوف نتناول فى هذا الباب بعض القصص بشيء من التفصيل والتحليل والنقد ، ولكننا مع ذلك نشير الآن إشارة عابرة الى بقية القصص التى لن يتناولها هذا الباب بالتفصيل على نحو يعطى الهيكل العام فى القصة ، والهيكل الخاصة الأخرى التى نود لفت النظر إليها بما يتسق والفكرة من هذا الباب .

فقصة « بيوت مسكونة » : تحدثنا عن أن السمعة بين الناس وطيب الأحاديث لها علاقات وثيقة بالكسب ولها روابط متينة بالحب ، وهذا هو ما يحدث فى البيوت ، حين يشتهر عنها أنها مسكونة بالعفاريت ، عندئذ تسوء السمعة ، ويقل القدر ، ويقل الأجر ، وهذا ما حدث مع بطل القصة الذى لم يدرك من التجارة غير عبارة ساعدته على أن يكسب ما لم يكسبه أمهر التجار ، إذ آمن بقول كتب الاقتصاد « أقبل على الشراء إذا أحجم الناس ، وأحجم إذا أقبل الناس » ، فكان هذا المدرس يشتري البيت الذى ساءت سمعته بثمن بخس ثم يعيش فيه حتى ينسى الناس ويبيعه بالثمن المضاعف ، وهكذا تاجر بغفلة الناس حتى أثرى .

ولكن النهاية أن جاء زمن اشتدت فيه أزمة المساكن فأصبح الاحجام عن البيوت المسكونة بالعفاريت ترفا لا تطبق أزمة السكن وعبرة أحمد زكى فى هذا فى نهاية القصة رائعة إذ يقول « والواقع أن الإيمان بالعفاريت ترف لا يسوغ وهذا المضيق قائم » .

وأما الاسكافى الذى ملأ سمع الدنيا فى ليلة فقصة المانى بأس طارده الشرطة بعد السجن حتى ينس ، فاحتال على عمدة احدى البلاد وذهب فى لبس الحرس الامبراطورى وقد تقمص شخصية ضباط هذا الحرس ، وفعل ما فعل من خداع طويل ، قامت له الدنيا فى اليوم التالى ، استغل مكره وفكاهته وخياله الخصيب فى فعلته التى مزأ بها تلك الروح الالمانية تهزينا لا يقدر عليه مائة كاتب خطيب ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

أما ساعات الحرج على المسارح فليست قصة قصيرة وإنما هى اقصوصات تدور حول هذا الموضوع ، ويقدم الدكتور أحمد زكى بمقدمة عن الذاكرة وقوتها ثم يذكر « أن أخرج من تخرج الذاكرة من الرجال والنساء ، هم رجال المسرح ، فالممثل ليس من صفاته أن يحسن التمثيل وكفى ، بل لابد له من الذاكرة ، وليست الذاكرة ذاكرة ألفاظ وجمل وسطور فحسب ، بل لابد له من أن يذكر أين يبدأ وأين ينتهى . ويعسر هذا عليه خاصة فى المحاوره والمداولة لاسيما ان كانت بين أكثر من اثنين . وعلى الممثل فوق ذلك أن يذكر فى أى مكان من المسرح ينطق بما ينطق ويمضى الدكتور زكى فيروى لنا بعض الطرائف فى هذا الصدد للممثل « قل باكر » فى رواية « الابن المسرف » وللممثل « روبرب جليكار » حين سقطت فردة شاربه النعيم والممتلة « ييجى ريان » حين كتبت أدلتها على ظاهر الستار الأول فلما غيروا النظر رفعوا الستار الأول الى السقف ٠٠٠٠ الخ) .

يختم الدكتور زكى هذا الموضوع بقوله « ان اللباقة وحضور الذهن ، ضرورتان لازمتان لأدوار المسارح ، وهما كذلك لازمتان لأدوار الحياة ، فكم خلصت الكلمة الواحدة ، أو الحركة الواحدة . أو الفعل الواحدة ، من مواقف ، وكم دفعت من مكاره » .

وقصة « فآل البيت الجديد » تريد أن تضرب لنا مثلاً عالياً رقيقاً في تربية الأبناء ، ومعالجة أمور الحياة لخصه أحمد زكي في قوله « استمتعوا بالولادكم ما بقوا تحت سقفكم ، ان الأولاد كالافراح ، لا تبقى في عشها الأول الا ريثما تنبت أجنحتها فتشيل ، ثم لا يبقى لكم منها غير الذكرى » ، ذلك أن أسرة من أبوين وولدين انتقلت الى بيت جديد ، لم يكن فيه عيب الا الخلاف الدائب بينهم بين الزوج وزوجه والولد وأخته ، فلما أخذوا يبدون تأملاتهم في حسن البيت وجماله وقفوا عن كلمة لولا يشيرون بها الى ما يهتمونه به بعضهم بعضاً وما يلحظانه من ازدياد ولدهما وبنتهما على الأيام سوءاً رغم ما يعمرانهما من رعاية ولكن الزوجة تلفتت لتقول : نحن بنس الأبوان ، فلا مراوغة بعد اليوم ولا مداورة ، اننا نرى ما في ولدينا من عيوب ، فنحاول أن نصلحها وننسى ما نحن فيه ، كيف نصلح عيوبهما ، وعيوبنا قائمة تقول لهم بمثل هذا فليقتد المقتدون ، اننا جميعاً حساسون ، ونحن متركون أكثر التركيز على أنفسنا ، لا يهمننا الا همها وحدها ولا نطلب الراحة الا لها . انا نعمل أفراداً ، ونحن فرقة تعمل بروح الفرد لا بروح الجماعة ، روح التسامح والتناصح والتعاون ، فهل بعد ما نحن فيه نعجب ان يكون أولادنا ما نرى ، انا تجنى عليهم ، فالبدار البدار يا عزيزي لنعطى لهم قدوة أصـلح ، ومثلاً أنبل مما يجب ان يكون عليه الناس ، والوقت الباقي قليل ، فما هي غير سنوات حتى يذهب ابنك عنك ، وتذهب ابنتي ، ان الأولاد أفراخ لا تبقى في عشها الأول الا ريثما تنبت أجنحتها فتشيل .. وأثر هذا الخطاب في الزوج لأنه خرج من القلب .. ومضى الزوج والزوجة يقولان : لم لا نبداً من جديد في هذا البيت الجديد . لم لا نضبط المزجتنا ونلجم انفعالاتنا على وفق مزاجه ، وهو مزاج لطيف خفيف .. ومضت القصة تروى ماحدث بعد ذلك من ضروب التعاون والايثار والسبق الى العمل ، وما كان من أثر ذلك على ولديهما .. ولم يكن النجاح بالأمر السهل ، ولكنه يحتاج الى مران ، وهذا ما استغرق بقية القصة .

أما « القصاصة العمياء » فسيده ذهب عنها أولادها واحدة بعد أخرى فذهبت تعيش مع أخت لها . وعاشت سنوات حتى بلغت عامها التاسع والخمسين فجاءها ابن أخ لها يزورها وكان طفلا فأراعها لقد ذكرت بزيارته عهدا بالاطفال ، وما كان لها بهم من أنس ، وما كان لهم بها من أنس ، فقد ظلت تعمل مدرسة خمسة عشر عاما ، أما الآن ، فماذا يجد الطفل في امرأة عمياء ! ثم خطر لها أن تروح عنه بقصص تحكيها له مما وعت الذاكرة ، ولم يلبث هذا أن جاء بصاحب له ثم زادوا الى عشرة ثم كثر الزحام حتى شكا الجيران الى عمدة البلدة من زناط الأطفال ، وطلبها العمدة ، وطلب اليها أن تكف عن الحكايات في هذا الموضع ولكن لكي تتولى المهمة في الحديقة العامة ، قالت السيدة : من أين لى أن أعلم أن الاطفال يرغبونني أن أقص عليهم ، قال العمدة ياعزيزتى البلهاء : كيف ترين في شيء يطلبه ألف صبي وصبية أهم يرغبون فيه أم عنه ؟ ان تحت يدى الآن التماسا وقعه ألف صبي وصبية يطلبون أن تستمرى في قصصك هذا .

وأما « محنة كبرى » فقصة أقدار ، وما أعجب الأقدار ، ثلاثة رجال يهبطون وادى الموت حيث تنتقطع بهم أسباب الحياة ، فلا يكون لأحد منهم أمل في عودة ، ثم يأخذون يضربون في مجاهل الفناء أحد عشر نهارا ، واحدى عشرة ليلة ، يذكرهم النهار بالحياة وصحوتها ويذكرهم الليل بالقبور وظلمتها ، ثم يقضى لهم آخر الأمر أن لا يعبر هذا الوادى فيجوز الى الحياة والاحياء مرة أخرى غير واحد منهم ، ليس بأقواهم وليس بأكثرهم تمرسا بنوائب الزمان وهو يجوز هذا الوادى ليحكى ما جرى ، وتمضى القصة (أو الحكاية) تروى وتصف على نحو شيق ما يمكن أن يجرى للانسان عندما يلقي الموت صريحا لا شبهة فيه .

أما « بيت من طين » فبيت بنى في الهند ، في منطقة تقع قرب

خط الاستواء حيث التفاوت الشديد في درجات الحرارة بين الفصول، وبين الليل والنهار ، وحيث النمل الأبيض الذي يأكل مائدة من الخشب في ليلة واحدة ، بناء أهل قرية بأكملها (استعملهم المقاول لذلك) لسيدة أمريكية جاءت من حيث ناطحات السحاب ٠٠ ويمضى الدكتور زكى في تفاصيل بناء البيت مرحلة مرحلة على نحو أخرى به ان يكون الحديث عنه أدب الرحلات ، ولكنه يختم القصة بقوله : « وعاشت السيدة في المنزل ستين خالت في أثنائها أن المنزل يزداد جودة ، وسألت أهل الناحية كم يبقى مثل هذا البيت ؟ قالوا : إذا ولد فيه الطفل استطاع أن يستظل بسقفه حتى يرى أبناؤه وأحفاده وأحفاد أحفاده » .

ثم يقول أحمد زكى « بارك الله لها فيه ، وبارك الله لكل مصرى يستطيع أن يجعل من بيوت مصر ، وهى من طين ، بيوتا من الجودة بحيث تستطيع أن تسكنها ، على استمعات ، سيدة تأتى من حيث المنازل تنطح السحاب » .

ونمضى بعد هذا كله لنقرأ مع الدكتور أحمد زكى في « قضحك والأحزان ملء جلدكها » قصة زوجين سكنا الى بعضهما وسكنا في ضاحية هادئة من ضواحي العاصمة ، وكانا سعيدين في حياتهما ، سعيدين بالرضا بما هم فيه ، وبأنه ليس لهما أمل تقضى المضاجع ٠٠ ولكن الزمن لا يسكت دائما حتى عمن عنه يسكتون ، ولا يترك حتى أولئك الذين بالقناعة تركوه وارتضوه قسمتهم فيه . فقد جاء السيدة سرطان اللدى فتركها « قلقة مرتاعة » ، وكان زوجها أشد قلقا وأشد ارتياحا لأنه كان ذا حس مرهف ، وزاد حسهما بالمصيبة التى نزلت ، وبأعقابها التى لاتفتأ تهدها ، أنهما عاشا منظويين على نفسيهما ، ففى صلاتهما الواحدة تركزت لذة الحياة ، وبين حيطان بيتهما الصغير اجتمعت مفارق العيش ، فلم يكن لهما

خارج هذه الحيطان صلات وثيقة ، ولم يكن لهما أصحاب وثاق ،
وذهبت آثار المرض اللعين مع مضي الزمان ولكنه عاد الى الظهور
مرة ثانية ، وكتمت الزوجة الخبر عن زوجها « واحتفظت بسرهما
طويلا حتى ثقل عليها الداء ، فأخذ وجهها يصفر ، وجسمها ينحل ،
وقوتها تقل ، وهى تغالب كل هذا ، وأخذت تضحك وتخرج كعهدها
القديم ولكن زوجها لم يلبث أن أدرك أن شيئا ما قد اختل ، وخطر
بباله أن البلوى قد عادت ، فأشعار على زوجته ان ترى الطبيب ،
فضحكت الزوجة من تلك المشورة • قالت : وما حاجة امرأة صحيحة
سليمة مثلى ان ترى الطبيب ، وزادت مخاوف الزوج فأصر على
أن يذهب ، وذهبا ، وأدرك الطبيب أنه الموت المحتوم ولكنه لم يرد
أن يسود أيامها الباقية وأيام زوجها معها •

وأخذت صحتها بمضى الأيام فى الهبوط ، وعجب زوجها ، واعتزما
أن يريا جراحا فى العاصمة ، وذهبت اليه وحدها ، وكان اليوم يوم
عيد ميلاد زوجها ، فلم يذهب الى العمل بدعوى أنه عيد ميلاده ،
والواقع أنه لم يذهب لشدة قلقه • وظل قلقا طول اليوم يذرع
الشارع جيئة وذهابا ، ويضرب بقطعة الفضة يستلهم الخبر •
وكانت الزوجة قد لقيت الجراح وعرفت منه بعد الحاج أنه الموت
والموت القريب ، فلما لقيت زوجها قالت له ان الحال طيب ، فضمها
فى الشارع ، ونسى أين هو فرقص •

وتدخل الزوجة الى بيتها فتقترح على زوجها أن تدعو الجيران
والاحباب الى بعض الطعام وبعض الشراب احتفالاً بعيد
ميلاده ، فيقول بل احتفالاً بهناتنا ، ويحضر الجيران فيكون طعام
ويكون شراب ، ويكون ضحك وتكون نكات ، ويضحك الزوج ،
ويشربون الانخاب لصحة زوجته •

وبصبح الصباح فتخبره الخبر اللعين • لقد عز عليها أن
تحزنه فى آخر عيد للميلاد يجمعها •

لماذا هذه النهاية الحزينة يا استاذنا الدكتور زكى ، ألم يكن أخف منها أن تقول وماتت بعد أسبوع ، ؟ على استاذنا الدكتور زكى فقال : ومن أدراك أنى أبحث عن النهايات الحقيقية ؟

ساعة في قطار : تحكى عن ساعة قضاها الدكتور زكى في قطار . ولا لزوم للقطار هنا في سبكة القصة الا انه كان حر الجو ، فكشف جندى أجنبى جلس أمام الدكتور زكى عن صدره ، يزيد مساحة المعروض من صدره ، وعجب الدكتور زكى وصديقه الذى جلس لجواره لهذه اللوحة المرسومة بالوشم على صدر الجندى ، وأخذوا يتأملون ، ثم سأله أصدعه في لندن فقال : لا ، أنه في المحيط الهادى فلن تجد في الدنيا وشامة كوشامه * * ومضى الدكتور أحمد زكى يحكى على لسانه وعلى لسان الجندى في أمر الوشم ما حكى من تاريخه * * على أننا نختار لمعة القارىء في شأن الوشم ما رواه أحمد زكى من أن سفاحا فرنسيا كان يقتل القتل ولا يلبث أن يشم اسمه على جلده ، ويشم تاريخ فعلته ، وعلم أنه لابد صائر الى المشنقة فوشم خطأ على عنقه ، وكتب بالوشم تحته : أيها الجلد . اشنق هنا *

ثم ان أحمد زكى قال للجندى مباسطا : فهل توصى بهذا الجلد الجميل الذى فوق صدرك لأحد من بعدك ؟ انه قطعة من قطع الفن ذات بال ، فابتسم متعجبا وقال : وما نفع ذلك فقال الدكتور زكى : لقد وقعت مرة في معرض على كتاب عليه جلدة بها وشم جميل ، فسألت أمين المعرض عنها فعلمت منه أنها جلدة انسان دبغوها ، ثم الى هذا أصاروها ، قال ضاحكا : والله لن أضسن على أحد بالذى أجود به للودود ، على شريطة أن أعلم ما الذى سينصعونه في كتاب هذه جلده * * قلت : شعر جميل يحكى عن أفراح القلوب أحيانا ، وعن أحزانها أحيانا * قال : أما هذا فنعم فهل لديك الوثيقة قأمضيها الآن * قلت دون هذا العمر الطويل ان شاء الله وكان قد

بلغ القطار غايتنا منه فودعنا ونزلنا « لماذا هذه النهاية التى افتعل فيها المصادفة على نحو المقامات الحريرية ؟ لعلها الفورمة التقليدية لذلك الزمان والتغير ذلك الزمان لم يجد أحمد زكى بدا ولا بأسا من اتباعها ، ولو تركها لكان خيرا وأولى .

أما « حضرية فى أقصى الريف » فليست الا قصة فتاة نشأت فى عاصمة ثم ذهبت فعاشت فى ريف من أقاصى البلاد ، وتمضى القصة تعقد المقارنات فى تأمل بين الحياتين وكيف رضيتها صاحبها وتأملت عليها وسعدت بها .

وأما الصيدلى الذى تدور حوله قصة « من الناس والى الناس » فقد قضى من حياته خمسين عاما فى هذه المهنة . والدكتور أحمد زكى يسأله فى أول القصة :

ألم يسأم العمل فى هذه الصناعة الواحدة طول هذه المدة ، فقال : ان صناعة الصيدلة لا تسأم أبدا ، ولا يمكن أن تسأم أبدا ، فانت تقعد منها على مرقب من الحياة ، يمر بك الناس وأنت ثابت ، تتفرج بموكبهم الذى لا ينتهى ، وتوثقت بينى وبين الناس من وراء منضدتى هذه صداقات تتجدد لذتها كل يوم ، وتسر أخبارها أو تسوء ، ولكنها دائما تثير الهم ، ومن أثير همه لم يفقد الرغبة فى الحياة أبدا ، ولم يزهّد فى العمل ولو أتعّب أبدا .

والمسألة بسيطة ذلك أن الصيدلانى فى البلد الصغير ليس ساكب سوائل فحسب ولا طاحن أخلاط وعقاقير فحسب وإنما هو رجل قبل كل شيء ومستمتع وناصح على كل حال ، يأتيه الناس يتحدثون عن الأمهم ، وعن أطفالهم وعن زوج سكير وكلب مريض ، والفقراء يختصرون الطريق فلا يذهبون الى الطبيب ، ولكن يجيئون الصيدلانى ، وعليه أن يشخص الداء وينصح بالدواء .

وهكذا كان صاحبنا بل كان أكثر من ذلك ، وقصصته التي يرويها لنا الدكتور أحمد زكى تحكى لنا أمثلة من الواقع الذى قابله فى الحياة ، انقاذ ام أرادت الانتحار ، وهى اليوم - جدة ، ولم يكن يعضب أحدا لأنه كان يعتقد أن الذى يضيع الحرص يضيع الكرم ومع أن ثروته تعد بمئات الالوف فلا تكاد تجد فى المدينة شيئا حسنا الا وله نصيب فيه : فى الحدائق ، والمدارس والمكتبة ومؤسسة لاقراض الفقراء . وحين جاءت الانتخابات ذهب اليه السكان فحملوه على ترشيح نفسه نائبا ، ففعل ، فلما كان فى مجلس تبينت له فيه الريبة من النقاش الذى كان فيه قام فى المجلس وقال لاعضائه : أنا لا أدرى أين أزمعتم أن تختبئوا بعد هذا ، أما أنا فلم أعتزم اختباء ، وأريد أن أعيش بين أهل بلدى أنظر اليهم ملء عيني وينظرون . وأخفق المتآمرون ذكر أحمد زكى كل هذا بعد ما جاءه الخبر - منذ أيام - بأنه مات ، وهذه القصة لا تهدف تمجيد صيدلى بعينه أو عرض قصة كفاح انما أراد أحمد زكى بهذه القصة تلك العبرة التى وصفها صريحة واضحة فى نهايتها حين قال : « فرحمه الله رحمة واسعة ، ورحم أمثاله من تجار يحرصون ويجمعون » ، فى غير نفاق ، ويجمعون لينفقوا من بعد ذلك فى وجوه الخير عامة ، وعلى نوى الحاجات خاصة أن الذى يجمعونه ، من الناس والى الناس ! هل عرفت الآن ما هو هذا الذى من الناس والى الناس ؟

وفى « لا بد لها من أنف جديد » يروى لنا الدكتور أحمد زكى قصة فتاة ، كان لها أنف طويل وكان هذا يضايقها ، الناس تضحك عليه ، فضحكت هى الأخرى عليه تدارى ضحك الناس ، فكانوا يطلبونها لاضحاكهم ، فاستاءت أن تكون كمضحك الملك . وكانت تحاول تصغيره بربطه فى الليل ، فلم يكن يطاوعها . ثم دخلت مدرسة التمريض وتخرجت ، وسر المرضي بروحها الجميلة التى

وانتهت من طفولتها (الضاحكة) • ثم كان أن طلب أحد هؤلاء المرضى الناقهين يدها •

عندئذ ذهب ما كان بها من تردد في أن تجري عملية جراحية لتجميل أنفها • كان يمنحها من ذلك فيما يمنع خشية أن يقول الناس إنها إنما تطلب الزوج ، أما الآن ، وزوجها في يدها ، فهي إنما تطلب الأنف ، تطلبه لتكون جميلة - جذابة وليس في هذا المطلب ما يشين • إنه مطلب يطلبه النساء جميعا والرجال • ولو قالوا غير هذا لكذبوا •

• وما ذنب زوجي اللقاء بهذا الأنف ، وهو زوج حبيب ودود كريم •

وذهبت فاستشارت طبيبها وأعطاه اسماء الجراحين ، وأعطاهما الجراح الذي اختارته لقربه الى منزلها نماذج تختار ، واختارت ، وراجعها في الاختيار ، وتمت العملية ، ووصف أحمد زكي العملية وصفا دقيقا على عادته ، وما بعد العملية بيوم ويومين وبأسبوع وبأسبوعين وبأربعة شهور •

وعند ختام الأسبوع الثاني عشر أخبرها الجراح أنه لن يكون بوجهها تغير بعد الذي كان ، وأرسلها الى رسامه ليأخذ صورتها من جديد ، قال إنه يحتاجها لبحث هو ناشره في مجلة طبية •

• واستراحت أخيرا من بعد عناء ، ولاشك استراح زوجها •

وكان دليل تغير وجهها الى ما هو أحسن أنها خرجت من بعد ذلك ، فصفر لها في الطريق صافر يريد مغازلتها • وهو حادث لم يحدث لها أبدا • فعرفت وعرف زوجها من هذا الصفير ، أن الجراحة نجحت والحمد لله •

و « الجنة التي وعد الصابرون » جنة في الدنيا لا في الآخرة

وهى تحكى قصة زوج اشترى جزيرة في البحر ، مهجورة ، وجهاز بيته فيها ، وأخذ زوجه اليها ، وولدا هناك وعاشوا جميعا . . كيف كانت حياة الوحدة عظيمة .

« وعلمنا من ذلك أن الناس على الزحام تسوء اخلاقهم وتخبث نياتهم ، ولكنهم على التفرقة ، وعلى الوحدة ، وفى اختلاصهم بالطبيعة ، بدعوا بعدا وفكرا ، لا يبقى في أنفسهم مكان تشغله الأحقاد وتملأه المخايب » .

وتصور لنا قصة « يوم مات أبوها » فتاة جلست في ليلة تتذكر يوما كان من عشرين عاما ، يوم مات أبوها ، وهو لم يمت موتة طبيعية ، وانما أعدم ، لأنه قتل عاملا في الميناء . كانت الفتاة يوم وقع هذا الحادث في الثالثة عشرة من عمرها . وكانت اختاما في العاشرة والثانية ، والقصة لاتصور لنا الا حال هذه الأسرة في ظل عائلها متعهد السفن ، يشحنها ويفرغها لا يغيب عن البيت الا ثلاثة أيام كل ثلاثة أشهر . . وكان للأسرة حظ من السعادة بأبيهم لباأس به ، كان يكسب ، وكان ينفق ، وكان له قلب رحيم ، ومزاج ، على غير السكر محبب جميل . ولكن حدث ما حدث وقتل الرجل رجلا في الميناء ، وجاء الخال ، وذهبت الأم ، وسجن الزوج ، وزار البنات لأباهن في السجن ، فلاتفهن ، وضحك معهن ، ولما غادرن لاحظن أن عينيه غاصت بالدموع ، وطلب الا يراهن بعد ذلك . ثم حكم عليه بالاعدام ، وكان بين الحكم وتنفيذه خمسة أسابيع مرت سريعة ، وتحدد اعدام الأب في الساعة العاشرة مساء . وجاء ذلك اليوم ، وبقي الخال والخاله مع الأم في المطبخ ، وذهبت البنات بالأمر فجلسن في الصالون . حتى كانت العاشرة الا ربعا ، « وبغطة صرخت الأم وصاحت : « أى زوجى العزيز ! ماذا يصنعون بك الآن » وخرجت من المطبخ فزعة الى الصالون الى الابن الأصغر فرفعت الى صدرها والى النافذة اتجهت ورأت كبرى البنات ماذا تصنع الأم بنفسها وبأخيها الصغير ، ولكنها لم تفعل شيئا . لقد تسمرت رجلاها في

الأرض فلم تستطع حراكا ، فهي لم تذهب حتى الى النافذة لتري
ماذا جرى وهي لم تصرخ ولم تستغث وهي لم تبك .. وسمعت
شيئا يرن في أذنها .. ان الساعة .. تدق .. أنها تدق العاشرة ، ..

وقصة « طمانينة » قصة من أروع القصص النفسى ، لا التى
تصور عقدا نفسية ، ولا التى تقوم على مثل هذه العقد ، ولكنها
من ذلك النوع الذى صور نفسيات طريفة ، فهذا رجل فى الثالثة
والخمسين ذهب الى جراح كبير والقصة تحكى لنا ما دار بينه
وبين الجراح من حوار ، الجراح يبحث عن شيء غير طبيعى فى كل
جسم الرجل فلا يجد ، ويعاود فلا يجد ، ويستخدم كل الوسائل
(فامتحن قلبه ، ونظر فى عينيه ، وقاس ضغط دمه ، وجس كليتيه
وكبدته ، ودغدغ باطن قدميه ، ودق على ركبتيه بمطرقة فارتاح
المريض لكل هذا ، وعندما طلب اليه أن يلبس ملابسه بان عليه كأنه
يتلكأ ، بان عليه كأنه يريد من هذا الفحص مزيدا للغطى التى
وجدها فيه ، فلم يجد الجراح الكبير بدا من أن يصارح المريض أن
لا شيء فيه على الاطلاق مع أن سلامته فى مثل هذا السن سلامة
نادرة .

هنا قال المريض : اذا فأنت ترى رأى الطبيب فلان ؟ قال :
نعم ، قال ورأى وفلان وفلان وعد أسماء خمسة من الأطباء وثلاثة
من الجراحين ، واثنين من النفسانيين وكلهم من مشاهير الرجال ،
فسأله الجراح هل رأى كل هؤلاء وأجابه المريض : وكلهم أمن على
مثل ما تقول ، ولكن قل لى ما رأيك فى الدكتور فلان ؟ قال الجراح :
انه خير من أنجب الطب من الأطباء ولكن هل أنت قاصده أيضا
قال نعم .. واستشاط الجراح من هذا المريض الذى يهدر وقت
الأطباء اهدارا ولكن صاحبنا صمد لغضبة الجراح ولم تفارقه
ابتسامته وقال : قد يكون هذا ، ولكنى رجل بلغ الثالثة والخمسين ،
وهى سن يأخذ الرجال عندها فى الهبوط ، وانى واجد سرورا عظيما

كلما قال لى طبيب كبير ان صحتى على خير ما يرام • انها طمانينة كبيرة تساوى اضعاف ما ادفع فيها من مال ، مرة كل شهرين •
قال هذا وهو يأخذ سبيله الى الباب ، وعلى فمه ابتسامة فوز ، وعلى وجه الطبيب دهشة وغيظ •

« شكرا لك يا جدتى » هذه هى العبارة التى قالتها لأحمد زكى وصحبه عازفة من أبرع العازفات على البيانو ، حين شكروا لها عزفها فقالت انما الشكر لجدتها ، وقصة ذلك أن جدتها كانت تستمع اليها وهى طفلة فى الرابعة أو الخامسة من عمرها ، وكانت تأخذ - تعزف لها « فتارة خفقا ، وتارة موجا ، وتارة عاصفة بالموسيقى ، فأنصت وأنا ذاهلة عن نفسى ، وقد علمت من بعد ذلك انى كنت فى عداد القلائل الذين كانت جدتى تعزف لهم عن طيب خاطر ، وتلمع عيناها أحيانا فتدق الأوتار يجرى بالردة فى نقار ظهري ، ثم هى تدق دقا خفيفا فتقربنى بالاحلام » •• ثم انها أوصت صغيرتها أن تتعلم الموسيقى وان تخصص لها وقتا يوميا للدرس ، ولم يكن من عادة المدرسين الا ان يعطوا درسا واحدا فى الأسبوع ، وبعد أسبوعين من هذه النصيحة أصابتها السكتة المخية ، وانصرفت الفتاة ، فلم تعد الا بعد شهر ، كانت أمها ووالدها وعمها عند جدتها ، فوجدوها لا تفتأ تلعب بأصابعها على الفراش كما تلعب على البيانو وتنظر اليهم ، فظنوا أنها ربما تعניה فأتوا بها اليها ، فلما رأتها انشروحت وأخذت تلعب على الفراش كأن من تحته مفاتيح البيانو ، ففهمت صاحبتنا ، ونزلت الى حجرة الجلوس ، فعزفت على البيانو وعادت ، فرأت جدتها تعد بأصابعها ثلاثا ثم ثلاثا ، « فعلمت لأنها تذكرنى بالدروس الثلاثة التى أوصتنى بها ، فهزرت رأسى بنعم ، فابتسمت عيناها لما تعذر أن يبتسم وجهها ، ثم حدث شئ عجيب ، جاءت قصفة من الريح فتحت جانبا من النافذة خلت منه أشعة الشمس فأضاعت وجهها ، وعند ذلك أغمضت جدتى عينيها » وجاءت الأم فاكتشفت وفاة الجدة • ويقارن لنا أحمد زكى

على لسان بطلة القصة بين جانبين مختلفين جدا لاختلاف في موقفهما ذات اليوم حيث تقول « لقد افتقدت في ذلك اليوم شيئا على بساطته عظيما ، وكسبت كذلك شيئا على بساطته عظيما ، عزمنا أن نعمل وأعمل وأعمل ، وأعمل في جد لاينى ، وكسبت شيئا آخر خيرا من هذا وهذا ، أحسست أنى عرفت أين ذهبت جدتى ، ولا شىء أكثر من هذا ، ومن يومها وأنا أود أن أذهب حيث ذهبت لهذا ، ولكثير من مثل هذا ، شكرا لك يا جدتى !

وفى « حتى الحيوانات منها المجنون » يروى أحد عمال حديقة الحيوان للدكتور زكى صورا من الجنون الحيوانى التى أدركها بحكم مهنته ، ورحلاته فى افريقيا .

هذا عن قصص « بين المسموع والمقروء » التى لن نتناولها بالتفصيل فيما بعد ، على أن للدكتور زكى عددا آخر من القصص المنشورة ضمن منشوراته فى المجلات ، منها (المطلق) (الهلال : ٤٩/٧) وهى قصة قصيرة تتناول فى تحليل عميق لحظة الطلاق وشعور المطلقة عندها ، « وصاحت صيحة أخيرة : بالله كل الاحزان الا حزنى هذا ، وكل الوجائع الا وجيعتى هذه ، ويزيد فى وجيعتى لأنها من صنع يدى . فانر لى الطريق يارب الأنوار جميعا . ارفع فتىلا فى سراجى ليخرج منه النور ساطعا ، فقد عمشت عيني ، واختلطت عليها المسالك » .

كل هذا الذى عرفنا له غير القصص العلمية التى روى فيها احمد زكى أبرز النقاط التى تحول عندها مسار العلم الطبيعى والبيولوجى من قبل أن يترجم كتاب العلامة الكبير (كونانت) عن المواقف الحاسمة فى تاريخ العلم او كتاب استاذة (جافى) عن قصة الكيمياء .

وان كانت هذه القصص قد جاءت بعد ترجمته قصة الميكروب على صفحات الرسالة على مدى سنوات متصلة .

أما أدب الرحلات عند الدكتور زكى ، فلم يكن من الغايات التى رعى إليها ، وأبلغ دليل على ذلك أنه لو كان من الغايات لكتب لنا الدكتور زكى فى هذا المجال أضعافاً مضاعفة من واقع رحلاته العديدة والممتدة التى كان لا يفتأ يقوم بها .

ولكن الدكتور زكى مع هذا لم يحرمنا من الكتابة عن رحلاته العلمية ، وقد ضمن هذه الكتابات فى تقريره عن مجلس فؤاد الأول الاملى للبحوث ماضيه وحاضره ومستقبله .

وكتب فى المصور سنتى ٥١ ، ١٩٥٢ عن رحلاته الى المانيا وباكستان والهند كتابات منها «الامان كالمقطط لهم سبعة أرواح» ، «باكستان أمة بنيت بين يوم وليلة» ، «الهند بعد باكستان» .

أما بلاد الله المكرمة فى الحجاز ، فقد شد إليها الدكتور أحمد زكى الرحال أكثر من مرة ، وكتب لنا فيها ما سنعود اليه بالنظر بعد قليل .

وقد فصلنا القول فى أمر هذه الرحلات فى الجزء الأول من هذا الكتاب .

انما يعنيننا الآن هو أن نلتفت الى علاقة أحمد زكى ببلاد الانجليز ، التى تزوج منها ، وكان على صلة مستمرة بالسفر اليها ، وكتب عنها الكثير ، وبخاصة تحت عنوان لندن فى الصيف ما نشره فى العربى (٦٤/١٠) ، (٦٦/٨) ، (٦٨/٩) ، (٧١/٩) ، وقبل هذا (٤٧/٩) ، (٤٧/١٠) .

وقد فصل الدكتور زكى فى آخر هذه المقالات (٧١/٩) الاجابة على هذا السؤال (لماذا لندن بالذات) ، فى أول مقاله . ولكن

العبارة التي تعبر عن هذا المعنى في أبلغ صورة ليست تلك الفقرة من مقال ١٩٧١ ولكنها عبارة في مقال للدكتور أحمد زكي سنة ١٩٤١ من مقال سنقتطف منه فقرات طوالا يصف فيها تحرك القطار من لندن فيقول (فتتحرك القطار قمشى ديبيا ثم خيبيا ، ثم انطلق مسرعا الى العراق الواسع فلم يبلغه الا بعد حين طويل . فقلت : الى اللقاء في لندن لقاء غريب ما سلم حتى ودع . . غريب أشعت في نفسه الاجلال والاكبار لها الحب والهيام . فحب المدن غير حب العذارى ، لا تقال فيه النظرة العابرة الأولى .

هنا جوهر علاقة أحمد زكي وتقديره للندن اجلال واكبار ، لا حب وهيام .

ومن هنا يبدأ الخيط الأول الذي نستطيع معه أن نفهم طبيعة أدب الرحلات عند أحمد زكي فهو أدب تقديرى ان صح هذا التعبير يبحث عن أسباب العظمة المبهرة أو الباهرة قبل أن يصف هذه العظمة ، أنظر الى عبارته في وصف لندن حين يقول « وعشت في هذا البلد ما يقرب من عقد من الزمان لم أر فيه مظهر الفاقة المدقعة أبدا لأنى لم أر مظهر الكسل الفاحش أبدا » .

أدب الرحلات عند أحمد زكي أدب تحليلى قبل أن يكون أدبا وصفيا ، وهو نقد علمى قبل أن يكون نقدا انطباعيا وهو يرتفع بعقل قارئه الى مستوى التقدم ، قبل أن يرفع خياله الى طائفة يركبها الى البلد الموصوف .

وأحمد زكي يتحدث كثيرا عن بلاد الانجليز ، وعن الانجليز وهو يصراح بهذا في أول ما أدركت له من مقالات في هذه الناحية فيقول في نهاية حديثه :

« ان حديث هذه البلاد حديث طويل ، وما أفدته منها عديد كثير . وحسبى منها سنوات قاربت العشر قضيتها بين الحقيقة والخيال ، بين اليقظة والاحلام . وهى أحلام برئت منها على أثر دقة عنيفة دقها رجل على رأسى . جاءتنى هذه الدقة وأنا على الباخرة أهم بالنزول الى أرض بلدى . وجاءتنى على رأسى من الوراء فتلفت خلفى ، فاذا بالدقة من صندوق عظيم حمله حمال ، ووجدت الحمال يزعم فى وجهى : « أنت أعمى ؟ أعينك مفتوحة ؟ ألا ترى ؟ » فقلت فى نفسى : « لا والله لم تكن مفتوحة ، ولكنها فتحت الآن » . ومضى الآن على عودتى سنوات ، ولا أزال أحسب ان الصناديق لاتزال تدق رعوس الرجال ، وتدفعها من الخلف .

عبارة أخرى لا أظننى أستطيع أن أحرم منها القارئ بدعوى الاختصاص ، لأنها تبلور أدق وأروع آراء الدكتور زكى فى بلاد الانجليز حين يقول فى مقاله : « على ضفة التايمز » الهلال : ١٩٤٧/١٠

« انجلترا بلد يتلبد جوه كثيرا ، ولكنه يصحو من بعد غيام ، وقد عود هذا أهلها ان يطلبوا الصحو دائما اذا تلبد وجه الحياة وتجهم .

والموضوع من تلك الموضوعات التى تتناول لندن وغير لندن من بلاد الانجليز أو غير بلاد الانجليز لا يقف عند فكرة واحدة يناقشها وإنما هى كاميرا سينمائية تركز على أبرز الأحداث فى البلد وحضارته وتحولاته الاجتماعية . فمن حديث عن أزمة الأجور الى معاشات التقاعد ، الى انخفاض قيمة النقد ، الى التغيير فى الأوراق النقدية : الجنيه وشللته ، الى الحياة الاجتماعية والأطباء الى الحياة السياسية والديمقراطية ، الى الحضارات وعلاقاتها ببعض ، الى الطريق والمروء الى أزمات السكن وهكذا . . . وفى

مواضع أخرى بين حال البلاد قبل الحرب الثانية وبعدها ، وتعدادات السياحات ، وأثار التقدم العلمى والتكني والصناعى والاقتصادى ، وأوضاع اساتذة الجامعات •

أما الوصف فى أدب الرحلات عند الدكتور زكى فياتى فى المحل الثانى ، ولكننا مع ذلك لا نعدم نماذج رائعة للوصف الدقيق الذى عودنا عليه أديبنا الكبير ، وانظر الى هذه الصور الثلاث ، الأولى يصف فيها الورد على ضفة التايمز فيقول « والورد مالت علينا أغصانه من فوق شجرة كانت وراءها ، أمالتها ريح رخاء فيها من البرودة ما ينفس ولا يرعش ، والورد على التايمز أجمل منه على غير التايمز لأنه أهمز وأنصر » •

والصورة الثانية لأحمد زكى ورفاقه وهم يحرمون :

« وأقبل الصباح فصحبونا ، وأقطننا واستحمننا ، ولم نلبس من بعد استحمام ثيابا • ان الذى يلقي الله ليس فى حاجة الى ثياب • كان علينا أن نلقاه فى جلودنا كما خلقنا الله • انه الاحرام • وفى لفائف من القطن أحرمننا ، ثوبا درنا به حول السيقان والبطن ، وثوبا درنا به حول الصدور والظهور • وركبنا السيارات فأخذت تخطف بنا الأرض خطفا بين تلال سوداء ووديان من رمال الصحراء صفراء ، وتنبسط الأرض انبساطا عظيما فانظر الى السماء أقول يارب أين الماء • وذكرت قول ابراهيم : « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » •

والصورة الثالثة تصور السير فى الليل فى ساعات المسحر الى المسجد فى بلاد الاسلام المقدسة :

« لا ما أحلى السير في ظلام الفجر والناس نيام ، والحواسيت مغلقة ، والطرق فارغة وبصيص النور يشع من هنا وهنا على غير سالك طريق ، ونجوم السماء تطل من السماء ساكنة فتزيد في سكون الأرض » .

هذا وقد ذهب الدكتور الى الاراضى المقدسة غير مرة ، وكتب عنها كثيرا الهلال (٥٤/٢) ، (٥٥/٨) في العربى بعد ذلك كثير .

بقى ان نشير الى هذه الناحية من شخصية أحمد زكى الرحالة الذى كان يقضى الصيف في الترحال ، بينما هو ميال الى الوحدة ، وقد يكون القارئ أدرك هذا الخلق منه في الجزء الأول من هذا الكتاب لكننا هنا نضع أمام القارئ نصوصا كتبها أحمد زكى في « الجنة التى وعد الصابرون » يعبر فيها عن هذه الناحية من خلقه ، حلمه أن يعيش في وحدة :

« فهذا حلمي الذى حلمته » تحقق لغيري ، ولكنه حلم لايزال حيا ، وهو رغبة لا أزال احتفظ بها من نفسي حيث المرء بالأمال ، وهى أمنية ارتد اليها دائما كلما ساء الحال « وأخذت أتحدث الى نفسي ، وتحدث نفسي الى ، عما يكون لى فيها ، أنا وزوجى من حياة ثانية ، نبداً فيها دنيا جديدة ، تكون بعد مغادرة دنيا الناس ، أشبه « بالجنة التى وعد الصابرون » .

ولأحمد زكى بعض الآثار في أدب التراجم ، خاصة مع اولئك الذين كان يبدي إعجابه في بعض أمرهم ، وله كلمة رائعة عن لطفى السيد حين مات وأخرى في نهرو .

ويذهب الدكتور زكى في تراجمه الى تأكيد الصفة البارزة فيمن يترجم عنهم ، وقد لا تكون هذه الصفة البارزة هى ما برز عند

الناس ، ذلك أن لأحمد زكى مقياسا خاصا فى قياس العظمت يختلف كثيرا عن معدلات القياس الجماهيرية .

أما التراجم « الرسمية » فقد حفظت لنا منها مجلة الهلال مقالا لأحمد زكى فى عدد خاص عن « إبراهيم باشا » وهو لا يخلو من طرافة رائعة حين تجد أحمد زكى يلتفت الى النقطة الأولى فى حياة إبراهيم وهى وجوده وتزامنه مع عهد أبيه محمد على باشا الكبير فلم يحس به منفردا . وفى هذا المعنى يقول الدكتور زكى « حق لإبراهيم أن يشتكى من أبيه ، مثل اشتكاء القمر من الشمس ، فقد شاء القدر أن يطلع إبراهيم فى سماء مصر فى الوقت الذى طلع فيه أبوه فى سمائها وشاء القدر أن يهبط إبراهيم من سماء مصر ، بل بالموت من كل سماء قبل أن يهبط أبوه بالموت منها .

ويفرق الدكتور زكى بين العاملين خير تفريق يمس فيه أبرز وجوه الاختلاف فى أعماقها لا فى ظواهرها على نحو ممتع لا بد لمحبي الثقافة والمتأملين فى التاريخ أن يرجعوا اليه فى عدد الهلال (نوفمبر ١٩٤٨) .

وأحمد زكى لا يخطئ المدخل الى تقدير الشخصية ، اسمع له فى مقاله عن ويلز حين يتعرض لقصة زواجه وما يوجهه الناس من انتقادات حولها فيقول : « وما كان نبيا وماجاز له أن يكون . كان صاحب رسالة كريمة ، فلبينات أفكاره يجب أن يتوجه البحث والتاريخ لمن أراد بحثا وتاريخا أما ما جرى لشخصه فى الحياة ، فلا خطر له فى ذاته الا بالقدر الذى يتصل بالفكر ويؤثر فى الانتاج » .

هل لنا أن نعود بعد ذلك كله الى أسلوب أحمد زكى لنشير فى سرعة الى تطوره مع الزمن من دقة اللفظ الى سلاسة اللغة ، ومن

احكام اللفظ الى تعبيرية اللفظ ومن تقليدية التركيب الى دقة التركيب . . هذه الامور الثلاثة تعطينا المؤشر الواضح عن طبيعة الزمن في أسلوب أحمد زكى . ونعم الطبيعة ، ونعم التقدم . أما الرصانة فهي فيه بادىء ذى بدء ، وعودا على بدء ، والجمال فيه جمال الشباب ثم جمال الشيخوخة ، والعلم فيه علم الشباب المحصل وعلم العالم الشيخ المحنك ولكننا مع هذا نحب أن نطلع القارئ على بعض فقرات من مقال الدكتور زكى « ماذا أفدت من الانجليز » الذى كتبته قبل وفاته بخمس وثلاثين عاما ثم نترك للقارئ - اختصارا - أن يعود الى مقال من أحدث مقالات الدكتور في مجلة العربى .

وهاك بعض فقرات من مقال الدكتور زكى :

« كنت في القطار انتظر تحركه . وكان مقعدى فيه وثيرا ، ومس هواؤه وجهى ويدى دافئا لذيذا . وزاد في لذاته تلك النظرات التى كنت ألقيا عبر النوافذ المغلقة لاستشرف ما وراءها فيحجبه عنى بخار متكاثف على زجاجها يحدث عما وراءه من برد قارس شديد . . ومددت يدى امسح زجاجها فتبينت في الضباب السائد اشباح الراحين والمغادين من رجال ونساء وعمال يسيرون في اختلاط ، وزئاط في هذا الجو المعتم البليل ، وقد زاد البرد في وزن ملابسهم كما زاد في سرعة خطاهم . وكان الوقت ضحى ومع هذا أُنارت المصابيح في سماء المحطة الفسيحة . وجاءت فتيات حسناوات في ملابس واحدة تشق طريقها بين الناس ، وتجر أمامها عربات خفيفة عليها الفناجين والفطائر وقد تصاعد بخار الشاى من أباريقه فسطعت نفحاته في العين بأحسن مما تسطع في الأنوف . وصفر الصافر فتحرك القطار فمشى ديبيا ، ثم خبيبا ، ثم انطلق مسرعا الى العراء الواسع فلم يبلغه الا بعد حين طويل . فقلت : الى اللقاء بالندن ، لقاء غريب ما سلم حتى ودع . غريب أشعث في نفسه

الاجلال والاكبار لا الحب والهيام ، فحب المدن غير حب العذارى ،
لا تقتل فيه النظرة العابرة الاولى » .

« ومضت بنا في القطار الساعة تلو الساعة ونحن نتجه شمالا
الى الريف . وأخذت أبحث عن هذا الريف فيما انكشف من الأفق
فلم أجد شجرة قائمة أو عود نبت يهتز . ووجدت الطبيعة قد تعرت
من كل شيء ، والأرض قد نزلت عليها عناصر الاجواء المقاسية
كما ينزل الجرد فمسحتها مسحا من كل أخضر ، فتراعت واحدة
للون سوداء تنقسمها أسيجة كثيرة متلاقية كرقعة الشطرنج ، تقوم
عليها لتحرس غير محروس وتخفر شيئا غير موجود . فكانت
كأرض عاد وشمود . وانصف النهار واكتهل ولم تظهر للشمس
شعاعا . وخيم الظلام عصرا فحسبت بالساعة خلا . فقلت في
نفسى هذا بلد القحط والبرد والظلام لا يعيش فيه وخوم كسلان » .

« فهذا ما تعلمته في هذا البلد الكبير . بل هو أجل ما تعلمته :
العمل وقديسيته العمل الكامل الشامل الذى يتجه اليه المرء بقلبه
ثمنا لقوته وأداء لمواجب حياته . العمل الذى يستغرق أكثر ساعات
النهار . العمل الذى لا يأذن في العام الا باجازة تتراوح بين
الاسبوعين والأربعة . العمل الذى يشترك فيه من السكان الجنسان
فيصبح به انتاج الأمة انتاجين ، وثروتها ثروتين . العمل الذى
لا يطلب الكفاف ، بل ما وراء الكفاف ليرتفع بالعيش عن مستوى
البهائم . العمل الذى أساسه « نل من قنع وعز من طمع » . العمل
الذى يقوم به صاحبه دفاعا عن أسرته في تنافس الأسر ، ودفاعا
عن أمته في تنافس الأمم . العمل الذى هو مطمح الرجولة والانوثة
على السواء ، مطمح الانسان الذى يستكمل به كونه ويؤدى به
رسالته في هذا الوجود على ابتهام الغاية واحتجاب الغيب » .

« والعمل الكثير المتلاحق على هذه الصورة العامة لابد له من
النظام ، فتعلمنا الى جانب العمل النظام . . تعلمناه في المنزل ،

متابعة لأهل المنزل في قيامهم وقعودهم وطعامهم وخروجهم ودخولهم وتعلمناه في الجامعة ، مساهمة لأهل الجامعة في الدرس والرياضة والحفلات . وفي الملامى تعلمنا الوقوف على الابواب في الطوابير ووقف فيها معنا الكبير والصغير . وتعلمنا وقوفها عند أعتاب الترامات ومواقف السيارات ونوافذ التذاكر في المحطات . والبيئة المنتظمة ينظم من يدخل فيها غصباً خشية أن تفوته القافلة ، ثم يصبح الغصب عادة سهلة . ومع النظام تعلمنا قراءة الساعات . نقرأ عقاربها الكبرى بمثل ما نقرأ عقاربها الصغرى ، ونعنى بالدقائق عنايتنا بالساعات ، وذلك في تقدير الزمن وانفاقه وفي تحديد المواعيد والبر بها .

والعمل يقتضى حسن المعاملة ، فتعلمنا حسن المعاملة وآداب اللياقة . فالاحسان يشكر ولو جاء من خادم يؤجر . والاساءة يعتذر عنها ولو الى أفاق فقير . ولكل كتاب جواب . . . وساعد على حسن المعاملة تقارب ما بين الافهام في بلد ديمقراطى عمه التعليم . والتعليم يعرف المرء قدر نفسه وقدر غيره ، فهو لا يبالغ فى تناسيها . والتعليم اذا عم واستمر الأحقاب ساوى بين الطبقات من الوجهات الاقتصادية تساويا كبيرا . وعلى هذا التساوى ، أو ان شئت التقارب في الماديات ، والتقارب في العقليات ، تقوم الديمقراطيات ، الا فهى دكتاتوريات متشعبة الرعوس تتزيا بزي الديمقراطية لأنه زى جميل خداع يسهل على الطغاة قيادة الأمور . ففى هذا البلد الذى نصف صغرت الطبقة الفقيرة الجاهلة التى ينعتونها بالدنيا صغرا نسبيا كبيرا وصغرت الطبقة الغنية صغرا نسبيا كثيرا . وتضخمت الطبقات المتوسطة تضخما عظيما كما تتضخم نواة الخلية فتملؤها . فعلى هذه النواة الضخمة ، على هذه القاعدة العريضة قام صرح الحكم وصرح النظام وصرح الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فلم يكن من المستطاع الا

أن يكون صرحا شعبيا دستوريا • وكان على ضخامته فيه اتزان
لاتساع قاعدته ، فلم يخشوا عليه العوادي • وامنوا عليه فلم
يعنوا بوصفه وتحديد به بالوف المواد ومئات القوانين ، حتى القوانين
التي تصفه اختاروا لها الثوب الفضفاض الذي يتسع لأراء كثيرة
مما تحتمله الرعوس العاقلة في الظروف المتغيرة الكثيرة • وقد
يجدون في هذا الصرح الضخم على الزمن تصدعا فلا يرتاعون له ،
وانما يجمعون له المعاول والفئوس ليصلحوه في قوذه على أسلوب
الزمان الجديد بما لا يتنافر كثيرا مع الأسلوب العام للبناء القديم •
ويسهل عليهم اصلاحه لأنهم هم بانوه •

يدرك أحمد زكى أن صياغة المقال لابد أن تعتمد على التنوع ،
خصوصا اذا كان في المقال بعض الوحدات المتكررة ، لهذا فهو لا
يمضى على نمط واحد في مقاله ، وانما يتنقل بين الوسائل المختلفة
التي تعينه على بلوغ غايته •

والحمد زكى يدرك هذا الخلق من أول ما بدأ الكتابة ، كما
ادركت الآن ياسيدى القارئ من تلك الفقرات الطويلة ، ولكنه يزداد
قدرة على تحقيق هذا التنوع مع الزمن •

وهو في هذه التنويعات لا يخطئ اختيار القالب للفكرة ، بحيث
يظهر براعة أخرى في التوفيق بين الفكرة وقالبها ، أو الفقرة
وقائلها •

وقد كان في نية المؤلف - بل في مسوداته - أن يعرض للقارئ
أمثلة من هذه القدرة لأحمد زكى ثم وجد ان ترك الأمور كما هي
والإشارة إليها في المقالات بعد هذا التنبيه خير وأولى ، اختصارا
وتقديرا •

وقد يؤخذ على أحمد زكى اقراطه فى الاطناب فى كثير من الاحيان ، وبخاصة فى تفسيره للموضوعات العلمية ، والواقع أن مرجع هذا الى طبيعة المعلم فى الرجل ، تلك الطبيعة التى تحمل صاحبها على أن يبذل الجهد والجهد حتى يصل الى افهام أدنى المتلقين عنه ، فى الوقت الذى يبين فيه الآخرون عن ضيقهم لهذا الوقت المضائع .

وعبارة أحمد زكى واضحة ، فان لم تكن واضحة للوهلة الأولى ، فهى واضحة من اللحظة الثانية ، وكل عباراته لا تحتاج للحظة الثالثة كى تتضح عندها .

أما لماذا كانت بعض هذه العبارات أوضح فى الثانية من دون الأولى ، فذلك راجع الى طبيعة أخرى فى أسلوبه فى استعماله للالفاظ ، فقد يكون اللفظ غريبا أتى به أحمد زكى ليطبعه على السنة الناس ، وقد يكون اللفظ مما يعبر عن معنى الى ذات غريب على أفهام الناس يقرءونه عند أحمد زكى للمرة الأولى فى قراءاتهم ، فتكون الغرابة عندئذ غرابة العلم الجديد وهكذا ، الا اننا مع ذلك كله لا نستطيع ان ننكر نسبة لا يستهان بها من غرابة الأسلوب أو قل اختلاف الأسلوب قد نتعرض لها بشئ من التفصيل فى موضع آخر .

وأحمد زكى يدقق فى اختيار العناوين التى يضعها لمقالاته ، وهو لا يلزم نفسه بعدد للكلمات لا يتعداه العنوان ، وإن كان مع ذلك يدرك أهمية الاختصار فى العنوان لهذا تجده فى الفهرس (سواء فهرس العدد أو فهرس العام) يختصر العنوان الطويل .

والاثارة فى عنوان أحمد زكى اثارة صادقة لأنها تحمل الشئ المثير من الموجود فعلا ، على عكس الاثارة الكاذبة التى تشد المرء الى شئ « حتى اذا جاءه لم يجده شيئا » .

ومع تطور الزمن وأخذة بتكنيك العصر أخذ أحمد زكى نفسه يضع العناوين الفرعية في مقالاته في مجلة العربى ، وهذه أيضا كانت خير تعبير عن الفكرة التى عنونت لها .

وأحمد زكى من قمم التصوير فى أدبنا العربى الحديث ، اذا تناول الحواس والمشاعر والأمور الدقيقة والماديات على ماديتها ، أما تصويره للمرأة فى كتاباته فليس فيه هذا العمق الذى تجده عند آخرين من رواد القصص والمسرحيات ، انما هو تصوير نابع من الحواس الخارجية ان جاز هذا التعبير انظر الى عباراته حين يصف النساء الذين راهم فيقول : « رأيت الحواجب مزججة ، ورموش العيون مسودة ، والخدود موردة ، والشفاه معنبة ، والصدور تزينها للعقود وتزينها النهود ، وعلى المعاصم أسوار ، وعلى الأصابع جواهر .. دمية حقا من بعد دمية من بعد أخرى تطلب اللاعب فمن يلعب بها ؟ أسلوب لا يزيد عن وصف فتى يصف النساء لأخته الصغرى بعد حفل سهرة .

ولكن انظر معى الى هذه الصور التجسيدية الرائعة ، وتكاملها حين يصف الشباب الذى يتمناه للشباب فى قطعة « يعجبني الشباب » فيقول :

« يعجبني الشباب اذا هو استقام واستطال ، ثم انفتل ، عضل مشدود يستطيع أن يرفى ، وذراع ممدودة تستطيع أن تنطوى ، ورأس مرفوع ، وصدر مفتوح يستقبل الريح باردة ، ويستقبلها لا فحة ، وظهور مريض يعمل الانتقال ابتساما وقدم ككرة المطاط لا تمس الأرض حتى ترد عنها ، ومفاصل كمفاصل الفولاذ أغرقت فى الزيت ، جسم صحيح سليم كالدينار ، اذا ضربته على الرخام رن ، له متانة الحديد ، وليس به مسه » .

وسوف نستعرض مع القارئ في باب خاص - سبق هذا - التصوير البياني في قصص الدكتور أحمد زكي حيث تركّز على عدد من القصص التي كتبها أحمد زكي ووجدنا فيها الناحية التصويرية غالبية عليها ، وليس هذا الباب ببعيد ، ولكننا لم نر له أو لما فيه أن يقطع تواصل أفكار القارئ هنا حين يقرأ خصائص أدب أحمد زكي .

ويستشهد الدكتور أحمد زكي بالشعر كثيرا ، ولكنه لا يأتي به إلا في موضعه الأمثل حتى أنك تجد في نفسك إعجابا بهذه القدرة على التوفيق بين المعنى والبيت الذي استشهد به له يفوق إعجابك بالبيت أو بالمعنى ، وليس هذا إلا صورة من صور التواؤم العقلي الطبيعي الذي كان في عقل أديبنا .

وأقول التواؤم العقلي الطبيعي لأنه لم يأت نتيجة جهد بين بذله الدكتور زكي من أجله في أي وقت من أوقات حياته ، وإنما جاء نتيجة كل الجهد الذي بذله أحمد زكي طيلة حياته في تكوين شخصيته وعقليته والاتساع بمداركها حتى توافقت مع الكون الذي خلقه الله متوافقا بطبيعة الحال .

وكان الدكتور زكي قد صرح في أحد أحاديثه أن أكثر استشهاداته الشعرية من قول المتنبي ، ولكننا بعد النظر في كتابات عالمنا ، وجدنا أن قوله السابق يحتاج إلى النظر .

ولكن هذا لا يمنعنا من النظر في طبيعة هذا التوافق الذي وجده أحمد زكي من نفسه مع شعر المتنبي ، والإجابة عن هذا السؤال قد تحتاج الليالي الطوال فأحمد زكي رجل متواضع ، وما هكذا كان المتنبي ، وأحمد زكي نال ما تمنى من غير إرهاق لنفسيته ، على حين أن المتنبي لم ينل ما تمنى حتى بعد أن أرهاق نفسه ، وبعدها أرهاقت نفسه حتى كان منه ما يعرفه قراء العربية أجمعون ، وأحمد

زكى رجل مدقق ، والمتنبى رجل كان يطلق القول على عواهنه وعلى قواعده - ان جاز هذا التعبير ٠٠ وهكذا ، ولو أننا ذهبنا نبحث الامر من هذه الوجهة وهذا المنطق ما أدركنا من الصواب شيئا ، انما يتأتى لنا فهم هذه المسألة على الوجه الأكمل اذا اتخذنا لها مدخلا آخر فنجيب عن سؤال محدد « باى شعر المتنبى أعجب أحمد زكى واستشهد ؟ شعر الحكم ! ولم يكن فى العربية على ما نظن أنسب للمعاني التى استشهد فيها أحمد زكى بالمتنبى من المتنبى »

على أن هذا لا يعنى أن أحمد زكى قد استشهد بالمتنبى استشهدا المضطر ، فقد كان الرجل يحب المتنبى لاشك فى ذلك ، ولا غرابة فى هذا أيضا ، لأنه من البديهي أن الحب والاعجاب بالشاعر لا يستلزم توافق الطباع ٠٠ بل قد يكون العكس هو الأقرب الى الوقوع .

لاشك كان أحمد زكى يميل الى الحكمة ، وكان رحمه الله يعرف فى نفسه هذا ، وقد وجدنا فى تحليل نصوصه كثيرا من الشواهد ، لعل أبرزها ما كان فى مقدمة مقال « قلوب كبيرة » حين يقول : « فى العصر الاغريقى رأى الناس حكيما من حكمائهم يمشى فى الطريق وهو يحمل مصباحا ، والمصباح يضىء ، فسألوه ماذا يصنع والشمس طالعة ؟ فقال : أبحث عن رجل ، وأنا بدورى قضيت أشهرا أبحث عن رجل ، عن رجل ذى قلب كبير وقد وجد أحمد زكى فى النهاية رجالا لا رجل ، ولهذا فانه ليس بمستغرب ما كان أحمد زكى يفعل بأسلوبه فى أحياء كثيرة حتى يصوغ منه حكما باقية على الزمان »

ولم تكن حكم أحمد زكى ينقصها المعنى السامى أو النبيل أو الجميل أو الدقيق أو غيره من ضروب المعانى التى تستاهل الحكم ، ولكن الدكتور زكى كان يريد لهذه المعانى التى عرضها أن تبقى فى

عبارات مصاغة على النحو الذى تصاغ فيه الحكم ، لهذا كان أحمد زكى حريصا فى أحيان كثيرة على هذه الصياغة •

ووسائل أحمد زكى فى صياغة عبارات الخلود متعددة ، منها أساليب القصر ، والحق أنى أحس أن أساليب القصر هذه كانت كثيرا ما تتعب ضمير أحمد زكى ، وهو العالم الذى يعلم أن لا وجود للحقائق المطلقة ، وكان ضميره كثيرا ما يحرك قلمه ليضع جملة اعتراضية عقب هذه الأساليب بل أحيانا فى وسطها ، فيذهب بالصياغة التقليدية للحكمة ، ولكن تبقى الحكمة أحكم مما كانت •

وأحمد زكى يحب الشعر وهو يقول فى ذلك « ولم أجد كالشعر مخرجاً من ضيق ، وكأسراً لقيد ، ومحطماً للأسوار ، ولم أر مثله جناحاً يحملك بعيداً عن بيئة لا تلذ ، ووجود لا يحمد ، والحققة المرة أو ما يترأى أنه الحقيقة المرة ، تطيب فيه وتحلو ، ذلك أن عبارة الخيال والخداع والكذاب ، وبها تجلس على عرش كسرى ، وتتزوج ابنة فرعون ويكون لك مال قارون ، أو هو يعزف بك عن هذا ويخيل لك فترى مائدة فى رغبة ، وموسيقى الدنيا فى صوت وترى النعيم أطيب النعيم فى فقر •

وأحمد زكى فى أسلوبه يبين عن تأثر واضح باللغات التى أجادها ، وتكراره للضمائر يعطيك مؤشرا قويا على التأثر بالأدب الانجليزى ، على حين تأخذ الانطباع بتأثره بالألمانية من تكرار حروف الجر مع كل مجرور ، ومغايرتها ، وتكرار المفاعيل والترتيب بينها وهذا ما يدركه المؤلف على سبيل الاجمال ، وإن كان يظن نفسه مشوقا الى إبراز دراسة موسعة فى هذا الموضوع بالذات فيما بعد •

وكان أحمد زكى يحب شو ، ويعجب به ، وكان سعيدا أن

عاصره فى انجلترا ، وفى مقدمة ترجمته لمسرحية جان دارك قال أحمد زكى عن شو « حضرته خطيبا وسمعه مجادلا ، وقضيت عقدا من الدهر فى بلده وبين قومه فلم أجد بينهم أسما فى عالم الأدب والسياسة ترفه له الأذان كاسمه ، ولا جدلا يهرع الناس لحضوره كجدله ، ولا لسانا ألقع فى النقاش والذع فى الجواب كلسانه ، ولا فكاهة تنم عن صاحبها كفكاهته . . . »

أما غلبة روح العلم على أسلوب الدكتور زكى فأمراً جلياً ، وروح العلم لا تغلب على روح أدب الدكتور زكى فحسب ، ولكنها تتجلى فى بناء المقال ، وسنفرده فقرات لهذه الناحية ، وتتجلى فى التدقيق والأخذ بالمحتزات ، وتتجلى فى التخريج استدلاليا كان أو استنباطيا ، وتتجلى قبل ذلك فى بدء الدكتور أحمد زكى بالتعريفات حتى فى ثنايا الموضوعات ، وعلى الرغم من أن الأمر فى ظاهره قد لا يحتاجه ، حتى « موسى » يتعرض الدكتور زكى لتعريفه فى قطعة « خواطر ٠٠ عند الحلاق » فيقول : « وهل تدري ما موسى ؟ انه ليس موسى الكليم ، وانه ليس بسكين وليس بساطور ، ولا هو بسيف ، انه شيء ذو شفرة تطأطأ لها أقرأ بالسابق شفرات السكاكين والسواطير والسيوف . جرة واحدة من يد الحلاق لا يتحرك لخفتها ونعومتها ونظافتها حتى الهواء ، يحركها فى هذه الرقبة التى أمسك بها بشماله ، وأعمل فيها موسى بيمينه . الخ) »

أما المقارنات التى تأتى على قلم الدكتور زكى فتذكرنا فى سرعة بمقارنات كتب العلوم سواء كانت فى جداول أو فى سطور ، وما دما فى ذكر موسى فلنذكر قول أحمد زكى يصف موسى لو أصاب رأس الإنسان فأدماها بدلا من أن يؤدى وظيفته المعهودة منه عند الحلاق ، هنا يفرق أحمد زكى بين الحالين بوصف الطريق الذى ساره موسى فى عبارة أقرب الى علم الطب الشرعى حين يقول « هذا السلاح الذى

خرج مرة عن عادته ، فجرى في الجلد قائما غائرا وقد عود الناس أن يجرى عليه زاحفا ، *

في أدب الدكتور زكي وقصصه بعض الظواهر التي تنتظمها ظاهرة اكبر يمكن لنا أن نسميها بالظاهرة الطبية . أما تلك الظواهر الجزئية فثلاثة : هي الصور واللوحات الطبية التي يتضمنها أدب الدكتور زكي على نحو رائع سواء في المقالات أو القصص ، وسواء في التشبيهات أو التجريدات وقد أشرنا الى كثير من هذه الصور واللوحات في موضعها . *

وثانية هذه الظواهر الجزئية : اهتمامه بأمر الأطباء وضرورة العناية بتعليمهم وتدريبهم ، وتصويره لأحوالهم ، وروايته للقصص على ألسنتهم ، وتكراره الأخذ من مجالهم . *

وثالثة هذه الظواهر : تلك الآداب من قصص ومقالات تتعلق بالطب وترتبط به وبالأطباء على النحو الذي سنسرده للقارئ بعد قليل . *

وقبل أن نحقق المسألة التقليدية هل كان يتمنى أن يكون طبيا أم لا ؟ يجدر بنا أن نشير الى الجانب المضيء في شخصية العالم الفحل الذي كان يحترم الطب ويؤمن بفوائده بل يحرص على أن يتناول الحديث كشوفه واختراعاته بقلمه وبقلمه هو في مجلة الهلال لعهد قصير ثم في مجلة العربي لزمن ممتد حتى اعتلت صحته عن القيام بهذا الواجب على النحو الرائع الذي داوم عليه . *

أكثر من هذا كان الدكتور زكي يتولى صياغة الاجابة عن أسئلة القراء واستشاراتهم في المجال الطبي والعلاجي والأمراض . *

وانظر معى الى أحمد زكى فى قصة « لابد لها من أنف جديد »
حين يروى فيقول : « وحذرهما الطبيب من أن الأنف المطلوب لا يخرج
دائما كما يوه صاحبه ، ويوه الجراح ، ولكنه طمانها مع هذا بأنه
عدل المثات من الأنوف ولم يقلت من يده غير أنف واحد ، ذلك لأن
تركيب عظامه كان بعد القطع غير ما قدر » وهنا يابى عطف أحمد
زكى على الطب وتقدمه الا أن يقلب الآية فيستطرد قائلا على لسان
الجراح : « ومع هذا فهذا الأنف الواحد خرج ، لا على الصورة التى
اعتزمها ، ولكن على صورة خير مما كان اعتزم » .

واذن لا محل هنا الآن لأن نبحث فى اجابة السؤال الذى اجلنا
الاجابة عليه الى حين اكتشفنا قبل أن ينتهى حينه أن الرجل كان
نبىلا فى مواقفه من الطب والاطباء .

ويعبر الدكتور أحمد زكى عن أن الطبيب كثير الاتصال
بالناس ، بل هو أمسهم بحياتهم وهو فى مقدمة قصة « خطاب ياليتة
وصل » يقول : « خطر لى أن اسائل نفسى : أى الرجال أكثر مسامنا
بالناس ، وأيهم أدور فى عمل يومه على وجوه الخلق وذكرى المعلم ،
وذكرى المحامى وصاحب القضاء ، وذكرى المهندس ورب الأعمال
فى بؤرة المدينة ، وهى تعج بالحياة ، فلم أجد من بين هؤلاء جميعا
رجلا كالطبيب الناجح تمر بين يديه طائفة من أرباب الحاجات
والعاهات وتستعمل عند سمعه وبصره ، وتأخذ من حديثه ويأخذ
من حديثها ما يكفى لاثبات صورهم فى صحيفة ذكراه » .

واذن فهل لنا أن نسرد الآن لأقارب بعض ملامح الظاهرة
الثالثة من الظواهر الطبية فى أدب الدكتور زكى متخذين من
مجموعة « بين المسموم والمقروء » عينة للبحث :

١ - فقصه « دينار » يرويها طبيب شيخ .

٢ - وقصة « قطعة من الفن رائعة » تحدث لطبيب ، وقطعة
الفن هدية تتعقبه .

٣ - وقصة « خشيته الأولى » تدور أحداثها وبطلها طبيب شاب
سأله أحمد زكى : « ومع هذا الاعتداد بالنفس ، ألا تأتيك الخشية
أبدا » ، فقال : أن الطبيب الذى لا يخشى أبدا ، ولا يخاف أبدا ،
ولا تأتية الريبة أحيانا فيما يصنع ، فالحذر فيما يصنع ، ليس من
الطب فى شيء . فقال أحمد زكى : حدثنى عن بعض ما جاءتك
الخشية فيه ، فمضى الطبيب يحكى له القصة التى عرضناها
ونقدناها فى « قصص المصادفات » .

٤ - وقصة « شعاع فى ظلام » ترينا كيف يكون علاج المعوقين
على نحو انساني رائع . وصحيح أن المعالجة لم تكن طبية ، ولكن
الجانب الانسانى فى العلاج يقرب القصة من ظامرتنا .

٥ - وقصته « خطاب ياليتة وصل » يرويها طبيب عن حادثة
وقعت تحت سمعه وبصره ، ولفتاة أجرى لها عملية وأشرف على
علاجها .

٦ - « القصاصة العمياء » لعماها قصة ، فقد كانت لها عين
واحدة تبصر بها ، فكانت حريصة عليها ، ثم احمرت فذهبت الى
الطبيب وكان ضعيف البصر ، فحذق فى عينيها ، ثم أخذ يتحسس
بيده على الرف يطلب زجاجة دواء ، وهو يقول لها : لا بد أن تحرصى
كل حرص على هذه العين ، وأنت مهمأ صذعت فلن تبلغى بالحرص
عليها الغاية ، وفتح الزجاجة ، وأخذ منها بالقطارة بعض ما فيها ،
وأمال رأسها الى الخلف وفتح العين وقطر فيها ، فكانما صب فيها
جمرات . . . لقد تحسس يطلب الزجاجة التى عليها اسم « ارجيرول »
فوقع على الزجاجة التى عليها اسم « ارجنت » وكان الأخير محلولا

مركزاً من أزوتات الفضة حارقاً • حرق عينها فتحرقت به ، وظلت
تتحرق به عشيرة أعوام انتهت بانطفاء نورها ، وزال ألم العين
بزوال نورها •

٧ - وقصة « تضحك والاحزان ملء جلدھا » تدور بعض
فصولها عند الأطباء الذين يكشفون على بطة القصّة ، فأولهما
يعالجها في المرة الأولى من السرطان ، ثم هو في المرة الثانية يخفي
عنها النقي لأنه عرف أنها على وشك الموت مما بها منه فلم يرد أن
يسود أيامها الباقية وأيام زوجها معها • أما الجراح الثاني الذي
تذهب اليه بعد أن شكت فيما طمأنها عليه الأول ، فيجم ساعة لما
وجده بها ، ولكنه ينكر ، ولا تزال به حتى يخبرها الأمر •

٨ - وقصة « من الناس والى الناس » هي قصة صيدلى في بلد
صغير ، كان له شأن كبير •

٩ - وقصة « تسعة تصيب ، وعاشرة تذيب » هي قصة طبيب
شاب ، ابتلى في زوجه ، فتوفيت وهو يجرى لها عملية جراحية •

١٠ - وبطلة قصة « لابد لها من أنف جديد » فتاة عانت من
كبر أنفها ، ثم درست التمريض ، وعملت ممرضة ، ثم طلبت يدها ،
فذهبت وأجرت عملية تجميل لأنفها على يد جراح من جراحى
التجميل •

١١ - وقصة « طمانينة » تحكى عن نوع من المرضى متعب
للأطباء ، أولئك الذين لا هم لهم الا ان يستشيروا أكبر عدد من
الأطباء في سبيل زيادة الاطمئنان على أنهم خلو من الأمراض ، وهم
في ذلك يرمقون الطبيب ويستغلون وقته ، ظانين ان هذا حق مكتسب
لهم بأموالهم •

١٢ - أما « نزل الستار » فقصة مريض أصابه العمى ، ثم عاد إليه البصر بعملية جراحية أصابتها نكسات بعدها ، وتزيد معركة الطب والاطباء اقرارا . أنها معجزة من معجزات الجراحة يجب الا تخيب ، لا من أجل الراحة فحسب ولكن من أجل الطب والاطباء .

١٣ - « انه قضاء الله » تدور الخاتمة في المستشفى حيث يكتشف الطبيب ان المريضة التي حملوها اليه للاسعاف مفارقة الحياة لاشك ، فينبىء النائب بذلك ليأخذ أقوالها قبل ذهاب الروح منها أما ماذا كانت هذه الاقوال فاقرأ عنها في الدراما .

من القصص السياسي

تعرضنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب للمناحية السياسية فى فكر الدكتور زكى وقد افضنا فيها القول على نحو من آراء الرجل ومواقفه وتعليقاته على المدى الطويل الذى كتب فيه فى أمور السياسية .

وليس من شأن هذا الباب أن يتناول هذه الأفكار ، قد يكون من شأنه أن يصف تناول أحمد زكى لهذه الأمور فيقول انه كان تناولا موضوعيا ذكيا يغلب الفكرة على الأسلوب ، والجوهر على القلب ، وهو قول وان كان من باب السسهل الممتنع الا انه فعلا لا يحتاج الى مزيد من التوضيح أو التعليق ، فقد كان أحمد زكى وقلمه هكذا .

انما يعنينا فى هذا الباب بصفة أساسية أن نعرض بشيء من التلخيص والتعليق لاثنتين من قصص الدكتور زكى فى مجموعة « بين المسموع والمقروء » أولاهما يهزأ فيها الدكتور زكى بديمقراطية الاجتماعات والشكليات على نحو يتبدى من تصويره لجلسة من جلسات الأمن وثانيتها يروى فيها أحمد زكى قصة الرأى الحر كيف يجر على صاحبه المتاعب فى حياته ، وعلى أنصاره بعده مماته ، وكيف تنتقض الارادات السياسية وكيف تنعقد .

فأما الجلسة الأولى فقد صور فيها جلسة مجلس الأمن الدولى لعام ١٩٥٧ ، وقد عطس مندوب روسسى فطلب الكلمة ، وطالب بإغلاق المنور الذى فوق المدخل الشرقى للمجلس لأنه يدخل منه تيار هواء بارد يناله فى ظهره .

ويمضى الدكتور زكى بأسلوب ساخر يعرض طبيعة المناقشات
البيزنطية التى تدور فى اجتماعات مجلس الأمن على أشياء
لا علاقة لها بالمصلحة العامة - بل الواقع ، تلك التى لا تستمد
وجودها من الحقائق السياسية ولكن من التحيزات السياسية ،
انما هى اجراءات شكلية ، والتعصب قبل ذلك بين الكتلتين الشرقية
والغربية واضح ظاهر للعيان فى الأمور ، وهذا رئيس المجلس يرد
على المندوب الروسى فيقول : انه لا مانع الا اذا كان هناك معارض *
فيرد مندوب الولايات المتحدة انه لا بد له من وقت يشاور فيه
حكومته ويرجع اليها فى هذا الأمر الذى لم يتح لها وقت كاف
لدراسته * واحتج على الطلب بأنه من جانب واحد ، وهذا لا يصح
عنده ، ويتمادى فى هذه الناحية فيرد على مندوب روسيا احساسه
ويقول : هل نقبل هذا القول لمجرد أن أحد الأعضاء قاله * انى
أقول عن نفسى انى لا أحس تيارا فى ظهري ولا فى وجهي *

ويتكلم مندوب بريطانيا معززا الرأى الأمريكى ويطلب
على عادة الانجليز تأجيل النظر فى الطلب الى يونيو أو يوليو
قلعه فى هذه الأثناء يكون الجو قد تحسن *

ويرد مندوب هولندا ، ويعلن باسم حكومته انه يحس مثلما
أحس مندوب روسيا !! ويستشهد على صحة كلامهما بقصاصة
من النيويورك تايمز *

وتكلم مندوب هولندا ، وكان من رجال البنوك ، فقرر
للاعضاء أن الحقوق التى تعطى على انها شخصية تناقض طبيعة
عمل البنوك ، ودستور هيئة الأمم *

ويؤكد مندوب هولندا أن الأمر ليس قريبا ، فيرد مندوب
استراليا مقترحا تأليف لجنة تحقيق تباشر أعمالها فى بحر
أسبوع *

هنا يعلن مندوب روسيا انسحابه من الجلسة ، وينتظر حتى
تترجم كلمته ثم يخرج ولا يلبث أن يعود ، ويقول انه أحس بتحسن
الجو ، ومن أجل هذا يسترد الطلب •

ولكن المندوب الأمريكى يعترض بأن الشيء الذى يدخل نطاق
أعمال المجلس لا بد أن يبقى قائما حتى يتصرف المجلس فيه ، ولهذا
فان محاولة الروس اخراج الموضوع من دائرة النقاش عمل من
جانب واحد •

ويمضى المندوب البريطانى ليؤكد المعنى الأمريكى ، وتمضى
المسألة فى نقاش على النحو الذى عليه فى المرة الأولى لا يحسمها
الا جرس دق ليروض أعضاء المجلس على ما يصنعون اذا ما شب
حريق فى المجلس وعند دق الجرس هرول الجميع الى الخروج ،
وبخروجهم انفض المجلس •

هكذا يختتم أحمد زكى حكايته الساخرة « العطسة التى هزت
العالم » التى يبدى بها من العناية ما جعله يضعها فى أول كتابه
« بين المسموع والمقروء » ثم يعقب دكتور زكى بعد النهاية على
حكايته - على عادة المذكرات الرسمية - « طبق الأصل • من
محضر مجلس الأمن » •

هذه الحكاية صاغها قلم أحمد زكى ولكنها ليست من الخيال
فى شيء كثير ، فهى تعبر أولا عن عقيدة أحمد زكى ، وتعتبر ثانيا
عن طبيعة البيزنطيات فى كثير من المجالس التى تزعم أو تعتقد
انها تسلك بهذا الأسلوب أسلوبا ديمقراطيا شكلا وموضوعا •

والواقع - كما قدمنا فى موضوع سابق - أن أحمد زكى
كان متبرما أشد التبرم من هذا الفهم وتلك الممارسة للديمقراطية
على النحو الذى بيناه من قبل فى الباب الخاص بفكره السياسى •

ومن ناحية أخرى كان هذا هو جوهر رأى أحمد زكى فى
طبيعة عمل واجتماعات مجلس الأمن الدولى .

ولهذا جاء تعبيرنا فى نقد الحكاية ، وترتيبنا لما هدفت اليه
على النحو الذى جعل التعبير عن عقيدة أحمد زكى السياسية
مهدفها الأول ، والتعبير عن طبيعة مناقشات مجلس الأمن ، هدفها
الثانى ، وقد تبين للقارئ بما لا يقبل الشك الى أى حد نجح
أحمد زكى فى الوصول به الى هدفه الأول ، ولعل أفضل الوسائل
التي ساعدته على ذلك هى تحقيقه للهدف الثانى من دقة التصوير ،
وروعة التعبير ، وسلامة الحوار واتساقه مع ما هو معروف من
مواقف هذه الدول والكتل وطبائع المناقشات السياسية على مثل
هذا المستوى .

ولعل نجاح عالمنا فى استخدام وسيلته الى هدفه الأول .
تلك الوسيلة التي هى فى الوقت نفسه الهدف الثانى ، يظهر للكثيرين
على نحو يتبين منه أن الهدف الثانى وهو وصف طبيعة المناقشات
كان هدفه الأوحد . ولكن الذى يدرس الفكر السياسى للرجل لاشك
يوافقنا تمام الموافقة الى ما ذهبنا اليه من أن المسألة كانت تهدف
فى المقام الأول الى بيان فكرة الرجل وموقفه وهو « السخرية من
هذه الديمقراطيات المريضة أو المزيفة » .

هذه هى الفكرة وجاء بعدها التعبير قمة ، فجلاها ، بما فيه
من روعة تعبيرية حتى ليكاد الناقد يظن الروعة نجاحا فى الوصف
والبيان فحسب ، وفى الواقع ان هذا ليس الا وسيلة الى المعنى
السياسى الكبير وأظن أن فهم هذا ليس بالصعب !

وأكرر هنا « ليس أعظم من أن تكون وسيلة المرء الى الغاية
النبيلة وسيلة عظيمة » .

أما القصة الثانية فتجمع بين الفهم السياسى والتاريخ ، ولكن التاريخ الذى فيها ليس الا عامل الزمن « والنمو الزمنى » الذى لا بد منه للقصة ، ولكنه من التاريخ ، وهنا تكتسب القصة شيئا يخرج بها الى نطاق التاريخ حين يكون لها به نصيب من الأحداث التى دخلت التاريخ .

قصة « منعه أن يدخلها دما ولحما فدخلها عظاما » تدور حول كاتب يدعى « توماس بين » وهو كاتب انجليزى حر ، نشأ في بلاده ، ثم هاجر الى أمريكا ، وأسهم في حركة تحريرها ، وصحب أقرانه الى النصر على أمته ، واستخدم قلمه في الثورة ، ثم قامت الثورة الفرنسية فنشر في نصرتها كتابا خشيت انجلترا أثره ، فخاصمت بسببه ابنها الذى ثار عليها من قبل مع الأمريكان ، وقبض عليه ، ولكنه هرب الى فرنسا الثائرة ، وولته من أمورها عظيما ، ثم جرى قلمه بالذى ساء فرنسا ، فلم يكن له مخلص الا الهرب ، ولكن الى أين ؟ الى أمريكا ولكنه كان يكتب ينتقد وشنجطن ففقد حب أمريكا ، فلما عاد اليها لم يحتفل به أحد ، ومات ودفن بالقرب من نيويورك .

وبعد عشر سنوات من موته سمع أحد الانجليز المعجبين به - وكان اسمه « كوبيت » أن الأمريكيين بدعوا يعبثون بالقبور فيرفعون أحجاره ، ويقتلعون أخشابها ، ويقطعون فروع شجره ، ويحتفظون بكل ذلك ذكرى للرجل الذى كسب غضب الأمم من بعد ما كسب عطفها وحباها .

هنا ثارت حمية « كوبيت » وهاله أن يجد انجليزيا حرا من بنى جلدته وأهل مذهبه يسوء الناس الى ذكراه كل هذه الاساءات ، ورأى ان كانت الحكومة الانجليزية قد أبت على الرجل العظيم

« بين » أن يدخل إنجلترا دما ولحما ، فهو والله لعامل على أن يدخلها عظاما .

وهكذا ذهب « كوبيت » الى نيوروشيل حيث دفن « بين » وقضى فيها بعض الايام حتى وضع خطته ، واستطاع أن يخرج بالتأبوت الذي دفن فيه « بين » الى نيويورك ثم عبر المحيط الى إنجلترا ، واستطاع أن يمر بجثة « بين » من جمر كليفربول ، وأن يصل الى بيته في قرية بالقرب من منشستر ، ثم دعا أصحابه الى حفل أقامه ، فلما انتهوا من الحفل ، قام فيهم خطيبا يخبرهم بما فعل ، ويطلب اليهم أن يساعدوه بالمال على إقامة ضريح لائق بالكاتب العظيم ، ولكنهم استنكروا عليه أن يفعل هذا أو أن يشاركوه ، فقد كان اسم « بين » يومها في إنجلترا اسما كريها يتصل بمعنى الخيانة لوطنه ، وهو عندهم متطرف في التحرر لم يرضه حتى الأحرار ، وفشلت كل محاولات « كوبيت » في اقناع الرجل الانجليزي برأيه ، وأغراه الناس بدفن العظام فابى ، وطلب اليه الأمريكان أن يعود بالعظام الى أمريكا وبقيت الجثة في حجرة نومه الى أن صار هو جثة ثانية ، وصارت الجثة الى ابنه الأكبر فنقلها الى مخزن من الخشب في ظاهر الدار إذ لم يكن لصحابها ما أكن والده .

وفي عام ١٨٣٦ أفلس هذا الولد الأكبر ، وبيع متاعه بالمزاد ، وزايد على الجثة أحد الناس فنالها ، وأعطاهما لعامل ليدفنها ، ولكنه لم يفعل ، وبقيت في بيت هذا العامل ثلاثة عشر عاما ، وجدت بعدها ، لغير ما سبب في مخزن لللاثاث القديمة ، بالدار رقم ١٣ بميدان بدفورد بلندن ، ثم اختفت بعد ذلك بأشهر ، وقيل بعدها ان الجثة اشتراها طالب طب ، ولكن لم يدر أحد على التحقيق مآلها .

الى هنا انتهت قصة جثة الكاتب الحر ، والهدف منها واضح أشد الوضوح حتى في اخراجها الصحف عندما نشرها أحمد زكي ،

ووضع اطارا بارزا كان كثيرا ما يضعه فى وسط مقالاته ، كتب فيه الهدف بصراحة ، فقال « من الكتاب من يكتب فيشقى بقلمه ، ومنهم من يطلب فسحة الأفق للناس ، فينتهى بأن تضيق به الأرض ، والناس » وسبحان الله فى أمر الحرية •

انما يهمنى كذلك أن ننبه هنا الى أن الدكتور زكى لم يورد عبارة الاطار هذه فى متن قصته ، وكانما أرادها خلوا من الموعظة المباشرة ، ثم انتابه الشك فى الا يفهم البعض المغزى ، أو كأنه أراد أن يعبر عن المغزى فى عبارات حكيمة محكمة (وهذا هو الأرجح) فوضع هذه العبارة فى هذا الاطار ، مع انها ليست من المتن على غير عادته التى جرت بأن تكون عبارة الاطار من ضمن المقال أو القصة •

ولكن ما هو مصدر هذا الشك الذى قد يكون ارتاب أحمد زكى من أن يحملوا القصة على مغزى آخر ، قد يكون مرجعه الى أن عنوانها « منعه أن يدخلها دما ولحما ، فدخلها عظاما » يعبر فى سرعة عن المغزى الظاهرى أو عن وجه الغرابة أو الحكاية فى القصة • انظر الى عبارات أحمد زكى فى تصوير حيرة رجال الجمارك فى ميناء ليقربول حين يقول : « وبلغت الجثة ليقربول فى نوفمبر عام ١٩١٨ ، وما عرف رجال الجمرى بالذى وقع فى ايديهم ، حتى حاروا فى أمرهم ، ان « بين » قد حرمت الأوامر الصادرة منذ سنين دخوله انجلترا حيا ، فهل هى لا تزال تحرم دخوله اياها ميتا ؟ » •

« وأغرى كوبيت رجال الجمرى ، فاقتنعوا بأن الميت غير الحى ، وأن اللسان الذى خشوه قد تآكل ، واليد التى خافوها قد تفتت ، وأن القلم الذى هابوه قد تهشم » •

وهذا هو المعنى الذى قصد اليه عنوان القصة .

بقى أن نشير الآن الى أن أحمد زكى لم يسرد القصة كما قصصناها هنا قص موضوع على ترتيب تاريخى ، وعرض جاف ، ولكنه صاغها ، بقدرته الأدبية ، على نحو الترتيب القصصى البديع المشوق بدءا بوصف قبر على قارعة الطريق ٠٠ مر عليه فلاح فى ليلة من ليالى اكتوبر الباردة عام ١٨١٩ ، فرأى أضواء صفراء تخرج منها ، وسمع صوتا كصوت الفئوس ، تضرب فى أرض جامدة ذات حصى ، « ومشى خفيفا على أنامله ، فزاد من المقبرة اقتربا ، انها عربة عند الباب يجرها حصانان ، وقفا يتفخان هواء الليل البليل نفخا ، ويضربان بالاعراف ، ودفعه الشوق الى أن يعرف فوق ما عرف ، فخطا نحو الموضع خطوات خفيفة جريئة أخرى ، ونظر فهاله ما رأى انهما رجلان قد حفرا القبر ٠٠ الخ » وجرى الى العمدة فأخبره وجرى العمدة يحاول أن يلحق بما خرج من قريته ، ولكن هيهات فان عظام « بين » كانت فى عرض البحر الى حيث لم تسترح .

أدب المصادفات

ليس مما يعيب أحمد زكى ولا أمثاله من الأدباء الكبار فى مرحلة النهضة أن تكون المصادفات من الصبغ الغالبة على أعمالهم القصصية التى يبدأون بها القصة فى الأدب العربى أو فى غيره من الآداب التى دخلت إليها القصة بعد نهضتها فى آداب أخرى .

إنما ينبغى على الناقد أن يمحس الدرجة التى فيها الصدفة الدور فى حل العقدة أو سلسلة الأحداث أو النمو الزمنى ، ومقدار ذلك كله من الفن والادراك الفنى السليم لمقومات العمل الفنى .

ومثل هذا التمحيص لا يتأتى للناقد أن يوصله الى قارئه الا بعد عرض القصة على النحو الذى لا يذهب بجمالها من أجل إبراز قدرة صاحبها ، بل أن هذه القسرة لن تتجلى بمعزل عن الجمال الفنى الذى هو أروع صور العمل الفنى .

سنستعرض هنا أربع قصص لأحمد زكى لعبت المصادفة فيها دورا كبيرا حتى غلب على القصة طابعها ، أولها قصة وفاء متبادل يريد أن يكمل فيذهب بما يريد أن يكمله ، ويحدث هذا على الجانبين بين الزوج والزوجة حبيبته ، وهذه قصة « تنافس الأحباب » أما قصة خشيته الأولى فقصة طبيب تزوج أول من عالجه من الانتحار ، وأما قصة « تسعة تصيب وعاشرة تخيب » فقصة طبيب آخر يذهب قدره فى العملية العاشرة بما أثبتته قدرته من نجاح فى التسعة السابقة ، وأما الرابعة فقصة هدية يابى المهدي إليه الاحتفاظ بها ، وتدور تهدي من صديق الى صديق حتى تذهب السوق فيشتريها المهدي الأول ليعود بها الى الطيبة وهو فرح أن أحضر ما يكمل الهدية زوجا من التماثيل ، وهذه هى قصة « قطعة من الفن رائعة » .

أما «تنفس الأحباب» فقصّة زوجين حبيبين ، وتقع أحداثها كلها فى ليلة العيد ، قامت الزوجة الى صندوق صغير ادخرت فيه ما استطاعت من نفقة طعام العام ، وأخذت تعد ما ادخرته لهذا اليوم الذى كانت تحلم به رمزا للمحبة ، وعنوانا للاعجاب ، فلم تجد الا مائة وعشرين قرشا كلها قروش وأنصاف قروش •

وداخلها الهم ، وصعد الدمع الى عينيها ، وقامت الى المرأة تنظر الى وجهها فيه ، لقد تغير وجهها ، وانما كانت تقصد الى شعرها ، وحلت شعرها ، ومشطته ، فانسدل على كتفيها انسدادا ، واستطال ، ورشته فلمع ثم جمعته وقصعته ، ووضعته حيث كان أول الأمر ، وفزلت مسرعة بعد تردد ، ووقفت عند دكان كتب عليه « مدام سمسون » عندها كل ما يصنع من شعر واستجمعت قواها ، ودخلت فعرضت على مدام سمسون شعرها ، وفحصته السيدة الخبيرة بالشعر ، وقالت : خمسة جنيهات ، فقالت الفتاة . اعطينيها وأسرعى ، وأخذت صاحبتنا الجنيهات الخمسة ، ومضت تبحث فى واجهات المحلات عن الهدية المناسبة التى تقدمها لزوجها فى العيد السعيد •

وما زالت فى حيرة بين هذا وذاك حتى استقر رأيها على أن تشتري له سوارا جميلا لساعة يده ، فقد كانت ساعة يد جميلة ، قيمة حقا ، ورثها عن أبيه ، ولكن حزامها وكان من جلد أسود بلى وكاد ينقطع ، ويضطر زوجها أحيانا الى النظر فى ساعته وهو فى الناس ، فيختلس اليها النظر اختلاسا « فسوار من بلاتين ، ولوقشرة ، لا بد واقع من نفسه أحسن موقع ، وعندها سوف يستطيع الزوج أن يبرز ساعته للملأ فى غير استحياء • • جمال فى الساعة العتيقة ، وجمال فى سوارها •

وعادت الزوجة ، الى البيت ، وأحمت مكواة شعرها ، ثم دارت على ما بقى من شعرها القليل تكويه خصلة قصيرة من بعد خصلة ، وأخذت تنتظر زوجها ، ودخل فاذا عيناه تتعلقان برأس صاحبتة ، وتعلقتا به طويلا ، وانتفضت الزوجة المسكينة من مكانها تريد أن تقرأ في وجهه ما خط فيه ، فلم تقرأ شيئا واضحا ، لم يكن ما قرأته فيه غضبا ، ولا دهمشة ، ولا فزعا ، ولا حتى عدم رضا ، لم تقرأ في وجهه شيئا توقعته قط فصاحت به : عزيزى ، لا تنظر الى هكذا ، لم تكن لى مندوحة من قص شعرى ، ولقد قصصته وبعته لأشترى لك هدية فقل لى كل عام وأنت بخير ، وابتسم لى ، ولنفرح معا . قال الزوج وهو فى ريبة مما سمع : أنت قصصت شعرى ، قالت الزوجة وهى فى ضيق : نعم قصصته أفكنت تحببى من أجل شعرى وحده . والزوج يقول وكأنه فى غيبوبة : - وبعته من بعد ذلك ، قالت الزوجة : نعم بعته من أجلك ، وإنى أحبك بعدد شعراته فقل لى : انى فعلت خيرا ، ولكن الشاب يخرج من ذهوله ويضم اليه زوجته ، ثم يخرج من جيبه شيئا ملفوفا يدفعه اليها وهو يقول : لا يا حبيبتى ليس شىء من شعر أو غير شعر ، يستطيع أن يؤثر فى حبى لك مثقال ذرة ، ولكن دونك هذه الرابطة ، وعندئذ تعلمين لأى شىء أذهلنى حديث الشعر أول وهلة . . . وفكت الزوجة الرابطة فى سرعة فما رأتها حتى اندفعت فى البكاء ، كانت صندوقا فيه تلك المجموعة الغالية من الأمشاط التى صنعت من سن القيل النادر ، وعلى جوانبها بريق الجواهر ، تلك المجموعة التى طالما رأتها فى نوافذ المخازن واشتاقتها وتمنتها . . . وضمت الأمشاط الى صدرها ، ونظرت الى زوجها من خلال الدموع ، وقالت : « انشعرى يا عزيزى ينمو سريعا ، فلا يهملك » .

وتذكرت هديتها اليه ، وبسّطت سوار الساعة على كفها ، ومدت يدها اليه تقول : هذا لساعتك الجميلة يا عزيزى . . هات

ساعتك هات لأرى كيف تكون على رسنك بهذا السوار قال الزوج الشاب وهو يقهقه استغراقا : وقد وضع يده اليسرى ، حيث اعتاد أن يحمل ساعتَه ، وراء ظهره دعينا من الهدايا وذكرها الآن يا عزيزتى • أو فاعلمى الآن ما أنت لا بد عالته ، انى بعت الساعة لأشترى لك هذه الأمشاط !!

لابد أن نشير هنا الى أن البطل والبطلة – وهما كل شخصيات القصة اللهم الا اذا أضفنا مدام سمسون – مثلاً رأتان فى التضحية ولكن يبدو أن أحمد زكى وهو نصير المرأة يأبى الا أن يجعل تضحية المرأة أعظم ، فهى تضحي بجزء منها ، بشعرها ، أحد أسباب أنوثتها ، وجمالها ولا محل للقول بأنها ضحت بما الى عودته سبيل حين ينمو فى حين ضحى الزوج بساعته الى الأبد ، ذلك أن العواطف تقاس بالعواطف ، ولا تقاس بالماديات •

وفى الغالب ان القارئ أحس بأننا فى عرضنا اختصرنا الجزء الأكبر من النصف الأول من القصة فى حين اختصرنا من نصفها الثانى جزأه الأقل ، انما أردنا بذلك تأجيل هذا الجزء الأول الى حيث نسبقه هنا بالإشارة الى أن عالمنا الجليل لم يجعل الامر عواطف مطلقة تتحكم فى أصحابها ، وانما أبرز الدوافع ، والدوافع المناقضة ، أنظر اليه فى تصويره للزوجة وقد عادت بالسوار الى البيت ، وقد صارت بلا شعر ، « وعادت الزوجة الى البيت ، وما كادت تدخله حتى أحست أن الوعى الذى كان فارقها بعضه ، وهى خارج المنزل قد بدأ يعود ، وعادت الرزانة تطل محل الخفة ، والنظر فى العواقب أخذ يشدد ، لهذا قامت توا الى مكواة شعرها ، فأحمتها ، ثم دارت على ما بقى من شعرها القليل تكويه خصلة قصيرة من بعد خصلة ، ولما فرغت تراءى رأسها كراس الفتى تموج شعره ، وظهر الخبث فى عينه » •

« ونظرت الى نفسها فى المرأة فهالها ما رأت ، وهالها ما يكون من أمر زوجها اذا هو رآها ، ولكن ماذا كانت تصنع غير ذلك . والصندوق ليس به الا عشرون ومائة قرش ، والعيد ليس بينها وبينه غير يوم » .

وأخيرا هذه اللوحة الصغيرة التى تعبر عن لحظة ترقب الحبيب للحبيب « ودقت الساعة السابعة مساء ، موعد حضور زوجها من عمله ، والشأى كان جاهزا ماؤه فوق النار وجزلتا اللحم كانتا حاضرتين تنتظران النضج والتحمير ، وبغنة تسمع وقع أقدامه على درجات السلم السفلى ، رويدا يقترب وقع الأقدام، واصفر وجهها بعض اصفرار ، ولكنها عادت فامتلكت قواها، وانفتح الباب ودخل الزوج . يا للمسكين ، ويا لمظهره ! لم يكن عدا بعد الثانية والعشرين من عمره ، ولكن ظهر عليه أنه يحمل هم الدنيا ! انه تنافس الأحباب .

أما القصة الثانية من أدب المصادفت «مصادفة سعيدة» كتبها أحمد زكى من ثلث قرن أو يزيد ، ولو كتبها اليوم لقلنا انها للسينما المصرية ، فهى مع شئ من المط البسيط تصلح فيلما جميلا .

هذا طبيب شاب يسأله أحمد زكى عن الخشية فى الطب ويتطرق الحديث الى خشية ذلك الطبيب الاولى ، فيروى له الطبيب أنه كان طبيبا بادئا يتخرب على العمل فى المستشفى ودق التليفون فى الرابعة صباحا ، فاذا سائق النقالة يطلب اليه أن ينزل على عجل الى حجرة الحوادث . ولم يشأ صاحبا أن يوقظ زميله الطبيب الآخر ، وأحس بالثقة فى نفسه ، وأخذت السيارة تنهب الشوارع نهبا حتى اذا كانوا فى الطريق وخلا الطبيب الى نفسه بعد الذكريات التى مرت بخاطره سأل سائق الاسعاف عن الحادث الذى هم ذاهبان اليه ، فأخبره انها فتاة انتحرت باطلاق غاز الاستصباح فى حجرتها ،

وعقب السائق بأنه على ما يظن حب خاب ، ونزل من السيارة فحدثته
الأعين ، وإذا بصوت رجل من رجال البوليس يقول اتبعنى
يا فكتور .

وبلغ الطبيب الحجرة فأمر بفتح النوافذ ، وصاح بمن فيها
أن يخرجوا ، وأختبر النبض فوجده سريعا مضطربا ، وتمتم بالذى
رأى ، وأخرج من حقيبته حقنة كورامين ، وحقنها فى الوريد ،
فتمسن نفسها ، وهبط نبضها الى مائة وأمر الشرطى أن ينزل فيأتى
بأسطوانة الأكسجين ٠٠ وجاء الأكسجين وأنشقتها آياه حتى افافت ،
وقتحت عينيها ونظر لها فكأنما نظر لأول مرة قرأت فتاة جميلة فى
العشرين من عمرها ، شعر كالذهب وشفة كالعناب ، وعين فاتنة ،
فقال لها أهلا ٠٠ وغمز لها بجانب عينيها مداعبا ، ثم طلب الى رجال
الشرطة اعطائها أكسجينا لمدة نصف ساعة تنقل بعدها للمستشفى
لتبقى زمنا تحت الرعاية ، وعاد صاحبنا الى المستشفى ، وقد نسى
الى الأبد ما كان من أمر القلق والخوف الذى ساوره فى طريقه الى
الصالة .

ولكن ماذا كان أمر الفتاة ؟ هكذا سأل أحمد زكى قال الطبيب:
كان من أمرها انى تزوجتها . انها أم ولدى !!

هل أدرك القارئ الآن لماذا كنا نحرص على الاختصار فى
سرد وصف الاجراءات الطبية ولكننا مع ذلك لم نصرح له بنتيجة
الصدفة .

ونستطيع أن نجزم مع القارئ بأن المصادفة فى هذه القصة
ليس لها علاقة بالفن القصصى من قريب أو من بعيد ، كل ما فى
الأمر أنها شيء طريف فى قصة طريفة وهكذا الجانب الوحيد المضىء
الباقى فى السينما المصرية !

ولهذا فأننا على الرغم من وضع هذه القصة فى أدب المصادفات
الا أننا سنتناول فيها جوانب أخرى أجدر بالتناول من حيث بذل فيها
أحمد زكى من قلمه وفكره فى اجادة تستحق لفت النظر اليها للتعلم
منها .

انظر معى الى هذه اللوحة التى يصور لنا فيها أحمد زكى
نفسية الطبيب حين كانت السيارة التى تقله فى الطريق لاسعاف
المريضة ، وهى لوحة تعبر لنا عن قدرة ادراك الاحاسيس النفسية
الدقيقة ، وهى اولى قدرات الأديب التصويرى على ما أظن .

« وأخذت السيارة تنهب الشوارع نهبا الى حيث ينتظر منى
الاسعاف ، فأحسست أنى بعد بضع سنوات قضيتها فى القلمذة
قد صرت فى تلك الساعة طبيبا كاملا ، فأنا وحدى ولا طبيب معى ،
يشرف على ويساعد وينفذ ، ويصحح الأخطاء ، فالصواب الآن
صوابى والخطأ خطئى » .

« كانوا فى مدرسة الطب يراقبوننا مراقبة الأم أطفالها ، حتى
لا نجرى سريعا فنقع كما تقع الأطفال ، فكان احساسنا واحدا
لا يختلف ، اذا ربطنا اصبعنا جريحا أو فككنا خيطا ، فمن فوق
أكتافنا كان يطل علينا دائما طبيب له سن وله حكمة ، يقول : نعم
هكذا . أو لا : ليس هكذا » .

« ان الذى يعتمد دائما على عكازه ، يقلقه أكبر القلق أن يعد
اليها يده ذات يوم فلا يجدها » .

« وقد أقلقنى خروجى الى هذا الحدث الأول ، وخروجى
بلا زميل ، أكبر القلق ولكن ما أسرع ما لبث الثقة الهاربة عندما
ناديتها من أعماق نفسى ، والهانى عما كان يعاودنى من خسوف

كسرنا كل قوانين المرور المعروفة فى الطرقات ، فالسيارة قد أطلقنا
لسرعتها العنان ، والضوء الأحمر الذى يسد الطريق لم نعبأ به ،
وذلك على مرأى السيارات جميعا ، وكانت كثيرة فى ذاك الصباح على
غير عادة ، وهى تتخلى فجأة كلما بلغناها لتخلى لنا السبيل ، »

يرفى موضع آخر يصف حالته بعد أن عرف طبيعة الحالة :

« وعندئذ قلت لنفسى : لا حاجة الى الهلع . وسألتها أن
تهدأ ، فليس هذا الصباح آخر صباح فى الدنيا ، وأخذت على برود
مصطنع استذكر تركيب هذا الغاز وأثره فى التنفس ، وفى الدورة
الدموية ، وكل هذا جاءنى على عجل وأخذت أنظر بعد ذلك فى
طريقة العلاج . فى الطريقة المثلى » .

ومن أدب المصادفات أيضا « قصة تسعة تصيب ، وعاشرة
تخيب ، وهى قصة طبيب قضى سنوات فى الكلية محمودا مقدرا
وتخرج ، ونال زمالة الجراحين بلندن ، ثم شاء القدر أن يعمل فى
عاصمة من عواصم الريف ، وعلى الرغم من أنه ساعد طيلة تلمذته
فى جراحات كبيرة ، إلا أنه لم يقم فى الريف بجراحة ذات بال
(تستأهل أن يباشرها زميل من كلية الجراحين بلندن) فكان من
ذلك أن نسي الجراحة على توالى السنين .

وأحب ، وتزوج ، وأحبته ، وكان أكبر إعجابها به ، فهو
مخلص وجميل وعالم وعاشا سعداء ، ولا فائدة فى أن نطيل فى
وصف سعادتهما ، إنما يهمنا الحادث الذى تتطور عنده القصة ،
والمسألة بسيطة ، جاءت الزائدة الدودية - بسيطة ، لا بد من
جراحة ، ويختار الزوج الجراح ، ولكنها تأبى إلا أن يقوم هو
بالجراحة « زوجها العبقري هو وحده القمين بها ، وهى لن تثق

بأحد سواء ، ثم ما فائدة المهارة والعلم والفن اذا لم يبذلها الرجل
لزوجته أول بانل . »

ويصور لنا أحمد زكى فى عبارات بليغة العوامل التى تنازعت
نفس الشيطان حتى جعلته يقتنع بأن يقوم هو بالعملية « وعقد
أطراؤها اياه لسانه فلم يقل لها ان مجرد فكرة اجرائه العملية
تصيب رأسه بدوار ، وقلبه بخور ، ومعدته بالغثيان ، وذهب تملقها
اياها بالبقية الباقية فيه من بصيرة ، فاعتزم أن يقوم بها ، وزاد فى
دفعه ما قد يثيره اجرائها فى البلدة من اثر محمود ، فلا شك ان
الناس سيقولون هذا هو جراح ماهر وثق كل الثقة بنفسه ، فلم
يتردد فى اجرائها حتى على زوجته ، وعدا هذا ، فمساعده فى
اجرائها سيكون زميله طبيب البلدة ، ولا شك أنه سيزداد به إعجابا
عندما يراه يقلب أحدث ما عرف الطب من أداة للجراحة فى خفة
ولباقة أصعب ، ثم ثقة زوجته به لا بد أن يحتفظ بها ، وإيمانها
بمهارته لا بد أن يحققه ، ونسى أن هذه أول عملية « كبرى » جاءت
فى حياته الريفية . »

من أين جاءت خيبة العاشرة إذن ، وليس فى عملية الزائدة
هذا الخطر الكبير . . » ولكن ما بلغ من الجرح غوره حتى ظهر
له ما لم يكن فى الحسبان ، ظهرت له أنسجة ملتحمة مختلطة
لا يبين بعضها من بعض ، ولم يكن قرأ عن شيء كهذا أبدا انها
الحالة العاشرة ، الحالة المعقدة هى التى تراءت له الساعة على
غير انتظار فأخذه القلق ، ثم أخذه الخوف « وهكذا كانت المصادفة
السيئة التى ذهبت بروح الزوجة الحبيبة على يد زوجها زميل كلية
الجراحين الملكية بلندن فى مأساة ميلودرامية . »

وقد يكون هذا مبررا لأن نذهب بهذه القصة الى موضع آخر
يتناول الدراما فى أدب أحمد زكى . ولكنى أعتقد أن العبرة فى

الدراما أو في الفانتازيا أو غير الفانتازيا حين نصف القصص بالتوظيف ، والدراما هنا صدفه درامية وليست بالدراما الفانتازية .

كانت القصة الاولى من أدب المصادفات مصادفة مؤلة ، وكانت الثانية سعيدة وكانت الثالثة ميلودرامية والرابعة اذن على هذا الترتيب التبادلي فيها فرح ومرح ، ولكن أى فرح وأى مرح .

فهذا صبى قد ذهب الى الطبيب بقطعة رائعة من الفن ، هدية من والديه الى الطبيب صاحب الفضل فى انقاذ حياته ، والصبى ووالدته فقيران ، ولم يكن أمامها من سبيل لرد جميل الطبيب الا هذه القطعة من البرونز التى خلفها أبو الصبى ، « كان شمعدانا ، حمل الشمع فيه فتاتان ، سترتا جسميهما بمثل ما سترت أمنا حواء ، كانتا عاريتين عرى الوليد ، وابتسمتا للنظر ابتسامة الخبث ، (استمتع معى هنا بالوصف لتوفر الوقت فى اعادة لغت النظر اليه عند التعليق) والحمد لله أن كان من واجبهما حمل الشمعة فاستقامتا ، اذ لولا ذلك لانتثنا ، فخل الواصف عند الوصف فلم يصف » .

وهنا كانت العقدة فقد استحق الطبيب أن يحتفظ بمثل هذا (الشيء) فى عيادته لأنه ليس بالشيء الذى تسيغه التقاليد وقبش له الآداب « لأن الشيطان نفسه ما كان يستطيع أن يبدع شيئا ألعن من هذا » .

وارتاع الصبى من رأى الطبيب فى الفن ، وأخذ يقنعه فيصف ما فى التمثال من فن ولكن الطبيب لا يجيبه الا بقوله : « اعلم هذا يا بنى ، ولكنى رجل مقزوج ، ولى أطفال يروحون فى البيت ويجيدون ، ومرضى بينهم نساء كثيرات ، ولا يزال الفتى يلح على

الطبيب فى الافئدة ، ويتأسف له من أنه لم يحضر له لهذا الشمعدان
أخا ، لأن العادة أن تجرى الشمعدانات اثنين ، وما زال الصبى
على هذا الحال من الافئدة ، حتى أيقن الطبيب أن مثل هذا الصبى
لا ينفذ معه الجدل ، فأخذ التمثال منه ، وشكره على هديته ، وطلب
إليه أن يبلغ والدته هى الأخرى شكره .

هل انتهت القصة هنا ، لا ولكنها بدأت وهذا ما يجعل منها
قصة جيدة الحكمة الى الحد الذى يبلغ بحبكة القصة حد الجودة .

وأخذ الدكتور يتأمل التمثال وهو يحك رأسه ويقول لنفسه
« أما الجمال فلا شك فيه ، حرام أن أرمى به أو أن أدقه
فأفنيه ، ولكنى كذلك لا يمكننى أن أبقيه » .

وأخيرا خطر له أن يهديه الى محاميه ، وكان صديقا له ، وهو
الى ذلك مدين له بخدمات قدمها له على سبيل الصداقة ، وكان
هذا المحامى أعزب ، مفراحا عرف الدنيا ، لما وصل اليه بالتمثال
ليهديه له ، أخذ المحامى بروعة التمثال ، وأخذ يصف جماله . .
ولكنه ما أتم قوله حتى اعتذر عن قوله وطلب الى صديقه الطبيب
أن يأخذه معه ، فدمش الطبيب من تصرف صاحبه وسأله عن سر
ذلك فقال المحامى « لأن أرمى تزورنى هنا ، وعندى زبائن ، اذا
اكتشفوا مثل هذا عندى يحتقرونى ، وأنهن . . » . وهنا سارع
الطبيب يحرص محاميه حتى يقبل الهدية .

وما خرج الطبيب حتى أخذ المحامى يتفحص التمثال عن قرب
ويقول : تمثال جميل حقا . . وحرام أن أرمى به ، ومحال أن أحتفظ
به ، ولكن لا . . فلأتخلص منه باهدائه الى الممثل الكوميدي فلان
صديقى . ان هذا المهدار هو أولى الناس بالاحتفاظ بمثل هذا
التمثال .

وما عثم المساء حتى كان المحامى قد بلغ دار التمثيل ، وذهب الى حجرة الممثل فى الدار ، وأهداه اياه ، وأخذت الحجرة طول المساء ترن بالذى ينطلق فيها من ضحك الرجال ، فما دخل رجل ورأى التمثال حتى انضم الى زمرة الضاحكين . وتأتى الممثلة بعد الممثلة الى باب الحجرة فتدقه ، فيصبح بها الممثل الفكه : لا لا لا تدخلنى بالله عليك ، فانى عار لم البس بعد ثيابى .

وما انصرف الرجال حتى أخذ الممثل ينظر الى التمثال ويتساءل ، ماذا يصنع به ؟ وتأتى الاجابة هنا مختلفة عن النتيجة التى توصل اليها صاحباها من قبل ، (والا كانت صدفا مكررة ، ومنطوية مملّة) . وقال : صاحب الماكياج : تبببعه ، والاجابة هنا جاءت على لسان البيكادير وكأنما اختاره أحمد زكى من بين رجال المسرح بالذات ليضع على لسانه الاجابة التى هى أنسب ما تأتى اذا ما أتت من الرجل الذى لا يفتأ يغير .

واتبع الممثل نصيحة صاحبه ، وباع التمثال . فماذا حدث بعد ذلك ؟ هل انتهت القصة بخروج التحفة من أيديهم الى سوق الفن ، لا لأن النهاية عندئذ لا تكون رائعة بروعة نهايات أحمد زكى .

وانما « فى صبيحة اليوم التالى كان الطبيب فى حجرة الدواء يمزج شيئا منه ، وإذا بالباب يفتح فى عنف ، وإذا بالصبي فزع مهتاج لا يكاد يأخذ أنفاسه وفى يده شيء ملفف فى ورق قال :

« يا دكتور أتدرى ماذا صنعت ! افرح ! افرح معى ومع أمى ، فقد وجدنا للتمثال آخا هو هذا . » وأخذ يسرد ما قاله من قبل فى فضل الدكتور عليه وهو وحيد أمه . وذهب بالتمثال فوضعه على المنضدة ، وفتح الطبيب عينيه وسمعهما ، وفتح قاه ، كانه أراد أن يقول شيئا ، ولكنه لم ينطق بكلمة . »

الدراما فى قصص الدكتور زكى

الدراما فى أدب الدكتور أحمد زكى القصصى ، دراما حب ، حب لا ينال نهايته التى يريجوها ، أو حب لا ينتظر المصير الذى كان يعلقه على الاحداث لكى تجلب له السعادة التى يبتغيها .

وهذا الباب يعرض لنا أربعة من هاتيك القصص ، أولها قصة « خطاب يا ليتة وصل » ولو وصل ذلك الخطاب لأنقذ البطلة من أقسى النهايات الدرامية وهى الموت . والقصة الثانية تحمل أيضا كلمة التمنى ليت فى عنوانها « يا ليتة درى » ولو درى البطل حقيقة ما فعله حين انتحر ما أقبل على الانتحار الذى ظن فيه مكسبا لعائلته التى أحبها وأراد به أن يبرهن على حبه لها .

أما القصة الثالثة فقصة زوجة لا تدرى هل تزوجت عن حب أم لا ، ولكنها تدرى أنها أحببت من تزوجت وعملت بالحب على اسعاد من أنجبت على الزغم من ذهاب كل المقومات التى تدفع الى هذا الحب أو بعضه ، ولا يزال بها الأمر على هذا حتى يذهب هذا الحب بحياتها على يد زوجها فتأبى وهى تلفظ أنفاسها أن يؤخذ بجريرة ما فعله بها وتقول « انه قضاء الله » وهذا هو عنوان القصة .

أما القصة الرابعة فقصة فتاة « غنت فى أسمالها » فلم يغنها الغناء ولا أغناها ، ولكنه ذهب بها من فاقة الى فاقة ، ومن أسمال الى أسمال ، حتى ذهبت الى الآخرة قبل أن تغنى ، وذهبت وهى لا تزال فى الأسمال .

أما القصة الأولى فيرويها أحمد زكى عن طبيب شيخ ، أخذ يذكر له ما يذكر من الذكريات ٠٠٠ كانت امرأة فانت العشرين من عمرها ، قليلة الجسم ، رقيقة البنية ، جميلة ، ناعمة البشرة ، مستطيلة الوجه ، عيناها زرقاوتين ، وقمها صغير حساس ، لكن فيه قوة العزم واضحة ، هادئة النفس ، بطيئة الخطى .

وجاءت الفتاة صاحبنا الدكتور فى وقت مخصص لزيارة المرضى ، ولم يكن معها خطاب من طبييها (على عادة النظام الانجليزى) يوصى بها ، واعتذرت عن ذلك بأنه ليس لها طبيب وانها جاءت الى لندن من أقصى شمال انجلترا توا ، وقالت انها تعلم ما بها ، وانها تود أن يجرى لها الطبيب الجراحة . وفحصها الطبيب ، وأخبرها أنها جراحة خطيرة ، وقد لا تكون حاسمة ، ولكنها ان نجحت كان لها البرء الكامل فلم تتردد ، لقد انعقد عزمها على أن تتحدى الداء ، وكفى ، وسأل عن أبويها فقالت انها يتيمة الأم والأب ولا اقارب لها ولا أصدقاء ٠٠٠ ولم يزل الطبيب بها يلح عليها فى أن يحضر عملياتها رجل أو امرأة « يعرف عنك ويعنى بك » ، بل يشترط عليها ذلك ، حتى وافقت أخيرا على أن تأتى بامرأة عجوز ذات قرابة بعيدة بها .

وأخذ الطبيب ينظر الى هيئة الفتاة ، وقد جلست على هيئة لا تنم عن حالها ، وهو يتأمل هذا المنزق الذى أبدته ويبحث عن سببه ، أياس ؟ « وكل الذى بان لى فى حيرة هذا الخفاء انها كانت ترفع يدها الى صدرها تمس فيه من حين الى حين دبوسا من ماس ، كأنما تستمد منه الصبر والايمان » .

« وأجريت الجراحة فنجحت على غير كبير انتظار ، ونجحت نجاحا تاما ، ولم يعقبها ارتفاع فى حرارة ، ولا تعقيد كأننا ما كان.

وأخذ الجرح يلتئم التئاما سهلا ، ولكن برغم هذا أخذت حالة المريضة تسوء يوما بعد يوم ، فقد جاءها قلق نفساني شديد ، وذهبت عنها الرغبة في الحياة وصممت فلم تجب عن أى سؤال بغير نعم أو لا .
ورضيت كل أنواع العلاج ، ولكن في غير مبالاة » .

وتتبع الدكتور سبب قلق مريضته ، فعلم أنها في انتظار شيء ، تطلبه فلايجيء ، كان خطابا أخذت تنتظره دون جدوى ، فكانت تنظر الى الباب ، والى خطوة على السلم . . . وهل رأى خطابا في بهو الدار ؟ وكم مرة يأتى البريد في اليوم ؟ وهل هو يأتى دائما في ميعاده ؟ وهل حدث حادث للقطار ؟ وهل يجوز على الخطابات أن تضيع في الطريق ؟ » .

وأخذ الدكتور يسأل الممرضات ، فلم يعرف أحد عن هذا الخطاب شيئا . ثم سأل : هل كتبت هي كتابا لأحد ؟ فكان الجواب : لا ، الا خطابا كتبته قبل اجراء الجراحة مباشرة « وحرصت على أن تضعه في الصندوق بيدها ، فلم يدر أحد الى من كتبت » .

والح عليها الترقب ، وثقل عليها اليأس حتى صار داء ، فلم تعد تنام الا بالمورفين ، وجاءها بطبيب نفساني لعله يعين ، فما اعان شيئا .

وهكذا حتى جاءتھا النهاية ، انظر الى الصورة المعبرة التي يصف بها أحمد زكي النهاية على لسان الطبيب : « وزادت الحالة سوءا ، وظهر أنها أخذت سبيلها الى الفناء ، فلقمها ذاب ، وعيناها تفوران ، واشداقها تعظمت ، والدبوس الذي لحظتها تمسه حين جاءتني اول مرة رشقته في الوسادة ، ولم ترض أن يزيحه أحد عنها ، وظلت تلبس هذا الدبوس من حين لحين كلما استطاعت لئلا رفعها » .

« وأخيرا جاءها الموت وأنا في حضرتها » .

« ففي ذلك اليوم دخلت الحجرة على عادتي ، فنظرت الى على عادتها ، وعيناها تسألان عن هذا الخطاب وشفتاها تهياتا على جفاهما ونضوبهما لأن تتحركان للسؤال عن هذا الخطاب ، ولم يكن لي حاجة الى الجواب ، فقد كان في وجهي الجواب » (هنا قد يظن القارئ - الخبير بالأفلام العربية - أن النهاية ستكون كنهايات هذه الأفلام ولكن « وعندئذ جاءت قوة لا أدري من أين فقد تحركت لتشيج وجهها عنى كأنما تريد أن تكون وحدها ، وبصوت لم أحسب أنها تستطيعه ، وهى فى هذه الحال ، صرخت صرخة مدوية هتفت فيها باسم رجل ، كانت صرخة عتاب ، وما صرختها حتى استرخت أعضاؤها ، وفارقت الحياة » .

ليس من تعليق على هذه القصة الا سؤالان ، أولهما : لماذا كانت النهاية حزينة هكذا . وهذا سؤال كان أحرى بنا أن نسأله للطبيب الذى روى القصة لأحمد زكى أنذنا لقال لنا أن للحياة نهايات أقسى وأن على الأسرة البيضاء ما هو أشد .

والسؤال الثانى لماذا أخفى أحمد زكى السبب الذى أضنى الفتاة ؟ هل هى مهارة قصصية ؟ أم هو شىء آخر ؟ على أنه ليس من شك فى أنها مهارة أن تعظم المستور فيبدو الموقف وكأنك ستقرت عظيما .

٢

أما قصة «يا ليته درى» فقصة حزينة ، والحزن تأملى ، تأمل معى هذه السيدة التى ذهب عنها زوجها منتحرا فى ساعة من ساعات الضيق بالفقر الذى آل اليه من بعد غنى كانت معه زوجته التى

تشاركه السراء والضراء ، والتقى لم تعرف الفقر قبل معرفتها به .
ولا فى اثناء حياتها الاولى معه ، على حين كان فى الأصل فى
شبابه فقيرا يعرف معنى الفقر بعدما عاناه .

• والام تأخذ تفكر فيما ورث الوالد المنتحر اولاده ، فتجد
انه ورثهم فيما ورثهم الكفر بالحياة والريية فى أمر أنفسهم . .
والابنة المسكينة تخرج الى المكتبة تطلب قصة ، وتسأل عن ختامها ،
فيقول أمين المكتبة او أمينتها انها قصة غرام تنتهى بهناء ، فترد
عليه الابنة قائلة : رد عنى هذا السخف ، وأعطنى شيئا يتفق مع
الحياة ، شيئا ينتهى كما تنتهى الأشياء بمأساة ، والولد تدخل
عليه كرها مفارح الحياة فيغبط قليلا ، وتدخل عليه مفارحها
فى غير استئذان ، فينقبض كثيرا ، ويشدد عليه انقباضه يحسبه
المزاج الذى قضى على والده بدأ يلعب دوره بالوراثة فيه . . الخ ،
وهكذا يطيل مفكرنا فى وصف مظاهر المأساة التى يمضى احمد
زكى يعبر لنا عنها على نحو دقيق لا يتأتى الا لذوى البيان
العالى .

ثم يحدثنا الدكتور زكى عن الفقر كيف دفع بالرجل الى الانتحار ،
فقد عاد اليه خوفه القديم ، خوف الفقر ، وخوف الحياة ، وعملت
الزوجة ما استطاعت ليفى المورد الضئيل بالحاجات المتضائلة ،
ونظرت الى الفقر على انه شئ طارئ الى زوال ، بينما كبت الزوج
الأمر فى نفسه ، وفكر فى أقساط التأمين وشبها « انه لابد أن
يقى بأقساط لا سبيل الى الوفاء بها ، وانه على الموت سينال اهله
التأمين كاملا ، وفعل فعلته ، واكسب اهله قدرا من المال وافيا » .

ومذا هو جوهر المأساة فى هذه القصة . . وفيه العقدة او
فيه الحل او فيه الحل ثم العقدة ، ولست أستطيع القول ان احمد

زكى هو صاحبه الاول فقد قرأت هذه الفكرة من قبل فى قصتين احدهما فى الأدب العربى والاخرى فى الادب الانجليزى وليس فى استطاعتى الآن أن أحقق أى الثلاثة كتب أولا ؟ ولهذا فسننتقل الى الوجه الآخر فى حل العقدة ، وهو النظر فى فلسفة أحمد زكى التى نظر بها الى هذا الحل ، وموقف أحمد زكى فى فلسفته يجريه على لسان الزوجة اذ قالت لنفسها : « كيف ساغ عنده أن وفاء حاجة الجسم غناء عن حاجة النفس ، وهو لو عاش لكافحنا سويا وكان لنا فى الكفاح على الاخلاص لذة ؟ » .

وليس هذا الا صدى لايمان أحمد زكى العالم المؤمن بأن حاجة النفس فوق حاجة الجسم ، وهو أمر لا يحتاج الى تعليق الناقد أو الى لفته نظر القارئ اليه .

ولكن هل هذه الفلسفة تحظى بالقبول عند الناس ، وفى مجتمعات البشر ؟ يقرر لنا أحمد زكى هنا أنه : لا .

وهو هنا يقرر الأمر فى صورة قصصية فيجعل قلم المؤلف يعقب على فكرة الزوجة التى تساءلت بها فيقول : « ولكن لمن تقول ؟ والأذن التى تريد أن نسمعها ملؤها التراب » وسواء أكان ملؤها التراب لأنها ميتة ، أو كانت من طين وعجين وهى حية ، فهذه هى الحقيقة المؤلة التى بنى عليها أحمد زكى مأساته فى هذه القصة القصيرة ، ولكن هل هى قصيرة حقا ؟

٣

« انه قضاء الله » قصة ميلودرامية أخرى ليس فيها أحداث كثيرة ، ولكنها قصة طباع والطبع يعبر عنه بالموقف أو الموقفين ، وليس فى حاجة الى تنمية للشخصية من خلال مواقف متتالية

تأتى به فصول قصة طويلة ، انما هو طبع وخلق ، فى اشخاص ، فى اوقات حتى صار ظاهرة • وابطل هذه القصة ثلاثة : أب وزوجة وابنته ، والأب سكير ، والبنت ضعيفة الجسم لا تقوى على العمل ، ولهذا تقوم الأم بكل الجهد فى تسهيل الكسب الذى يقوم بالحياة لهذه الأسرة ، هكذا كان قدرها ، انه قضاء الله ، ولكنه لم يكن قضاء الله الذى انتهت اليه قصتنا •

ذلك أن الزوج ، كان يفتصب أجرا فينفقه فى شراب ليلة واحدة ، زائطا صارخا معربدا بين بطانة السوء ، وهو الأجر الذى عملت بأبرتها فى تحصيله خمس عشرة ساعة قضت أكثرها فى المشغل وأقلها فى البيت ، « وهو اذ يفتصبه منها كان لا يفتزعه الا بضرب وركل يسود عينها ، أو يجرح جلدها ، وكان يؤتية هواه فى ضربها وركلها فيشفى هواه من ذلك فى الليل أو النهار ، « ومن الغريب انه حين كان يفعل بها ما يفعل من الأذى كان يقف دائما عند الحد الذى تعجز عن العمل اذا ما زاد عليه ، فكانما كان فى صحوه أو على سكرته يدرك هذا الحد الذى ان تخطاه فقد بتخطيه الثمن الذى كان يدفعه فى الشراب ، فامراته وحدها كانت مصدر ما كان يمكن أن يأتية من مال •

الى هنا صار الأمر فى هذه القصة واضحا ، فهو يؤذنها ، ولكن بقدر ، ليؤذنها ثانية ، وتكرر المواقف ••••• ولكن أحمد زكى سرعان ما يأتى بالحدث الذى يجعل فى الأمر قصة ، ويكسر دائرة التكرار ، ويضع للأمر خاتمة ، وان كانت مأساوية ، فالسيدة تعمل على ضوء مصباح ، ويأتيها زوجها فى يوم ، وهو سكير كعادته ، فيطلب اليها أن تشتري له هو الآخر مصباحا ، ولم يكن الزوج يقرأ ، ولا كان فى حاجة الى مصباح •

واشتدت له المصباح فى اليوم التالى ، وزينته بحيث يحوز
أعظم قدر من رضا الزوج ، وعاد صاحبنا فوجد البيت مضيئاً
جميلاً ، فراحه ذلك الجمال ، وافتعل المشاجرة مع زوجته وقذفها
بالمصباح فأشعل النار فى ثيابها ، ثم ناولها المصباح الثانى من
الناحية الثانية فأحاطتها النيران من كل جانب ، وحاولت ابنتها
أن تنقذ الموقف فلم تستطع ، وجاء الجيران ، وحملوا الزوجة
المسكينة ملفوفة بكل ما وجدوه ، ومسرعين بقدر ما أمكنتهم الى
المستشفى هناك أدرك الطبيب أنها مفارقة الحياة عن قرب ، فجاء
بالنائب (نائب النيابة لا نائب الطبيب) لياخذ أقوالها قبل أن تذهب
عنها الروح ، وأومأ النائب الى الطبيب أن يخبرها أنها مفارقة
الحياة ، فأومأت بما ينبى عن ادراكها لذلك ، وعندئذ سألها النائب
من فعل بك هذا ؟ وما فرغ من سؤاله حتى اقتربت الأذان تلتقف
ما قد يخرج من فمها من كلمات ، وبعد جهد خرج من فمها فى
بطء شديد ما يلى : لم يفعل بى ذلك أحد • انه قضاء الله •

هنا انتهت القصة ، ولكن أحمد زكى لم ينهها هاهنا ، وإنما
عقب بقوله : ثم غابت عن وعيها ، ثم فاضت روحها ، وارتفع صوت
من الجميع يقول : انها كذبة قد تجوز على قضاة ، ولكنها لن تجوز
أبداً على قاضى السماء • اه • أحمد زكى •

وكأنما اراد أحمد زكى بهذه العبارة ان يضع العبرة ، ولا
يتترك الامور هكذا تذهب النفس فى حزنها الى الكفر بالعدالة فى
الانسانية ، مهما أمنت بهذه الصورة التى بذلت الزوجة فى حياتها
وفى مماتها ! وخاصة أنها مثال لزوجات كثيرات •

ليس من شأن الناقد هنا أن يعبر عن اهتمام أحمد زكى بأمر
المرأة المظلومة المضحية ، العظيمة فى كل ذلك • وإن كان لا يستطيع

ان يعبر الى الجانب البياني من دون ان يشير الى هذه الناحية ،
والى الوجهة الاجتماعية الاصلاحية فى القصة على العموم .

انما يجب ان يعنى الناقد الذى يحاول ان يلفت النظر الى
المهارات ان يشير الى العبارات التى صور فيها احمد زكى المرأة ،
وقد اصابها الحريق فى كل جسمها ، وقد وضعت على سرير
المستشفى « فوجدوا امرأة قد ضاعت معالمها او كادت ، فملابسها
قلزت وقصبت ، ومن الرماد الذى تخلف من هذه الملابس عند
صدورها برزت ابرتان كانت لا شك رشقتما عند موضع ثديها
ساعة توقفت فى عملها ووجهها تبدل فانكشف عن عيني
مغمضتين لا رمش لها ولا حاجب الا خطوطا رقيقة سوداء ، وشفتاها
تضخمتا فكانتا كالكرة انتفاخا ، وخداها تضخمتا لولا بقعات برقت
كما يبرق الدهن على الشواء » صورة ادبية رائعة البيان ، وهى
مع ذلك اقرب الصور الى الصواب (دقة وشمولا) اذا طلبت
الصورة الاكاديمية لحريق من طالب طب فى امتحان السنة الرابعة !

٤

اما القصة الرابعة « فى اسمائها تغنى » فهى قصة فتاة
يقيمة ، ولدت فى أحد الأزقة وقام بتوليد أمها الباغت قابلتان . .
رجل من رجال البوليس ، وامرأة عابرة ، فقد كانت الولادة فى
الفجر ، ولم يكن فى الطريق غير هؤلاء ، ولما بلغت من عمرها
الشهرين تركتها والدتها ، فكفلها أبوها الى سن الخامسة عشرة ،
وكان بهلوانا جوالا فذهب بها مع جماعته فى كل أرض .

وحين بلغت الثالثة عشرة أدرك أبوها لأول مرة أن لابنته
صوتها حسنا ، فكان يريدها على الغناء فى المقاهى فى كل بلد حل

به ، وفى هذه المقامى تتلمذت ، وفيها تدرّبت على الغناء ، ودلّ لها
الناس ، فأحيت تدليلهم ، ولكنه لم يفسدها ، وعملت جاهدة فى
كسب رزقها الحلال .

فلما بلغت عامها الخامس عشر ، قصدت الى المدينة الكبيرة ،
وصدحت فى شوارعها بغنائها عاما كاملا على غير جدوى ، وكانت
تقف فى الطريق تغنى ، والناس ينقدونها قطع الفضة فتتنظر اليهم
نظرات قاسية ، ولكن وراءها رجل يسعى فيأخذ هذه النقود التى
تترامى اليها من النوافذ والأدوار العالية ، (هنا لا يذكر أحمد زكى
أن هذا الرجل هو أبوها) .

وساقت اليها الاقدار رجلا من أرباب النوادى الليلية ، فأبدى
اعجابه بأغانيها وعرض عليها أن تغنى فى ناديه الفخم ، وبهرها
النادى ووافقت على الغناء فيها فى أسمالها هذه .

ولم تبتسم للناس ، ولكنها هزت لهم رأسها بالتحية هزة قليلة ،
ووضعت يديها وراء ظهرها واستندت الى عمود المسرح وأخذت
تغنى .

وخرج الصوت قويا عارما ، فيه روح وفيه حرارة تماما كما
تصدق به فى الشارع .

وأعجب الناس بها ، وصاحوا بها أعيدى أعيدى وظلت على
حالتها هذا بضعة أعوام . وأخذت تسير الى الشهرة فى نفس
الطريق الذى سارت فيه من قبلها كبريات المطربات ولكن الاقدار
التي أحسنت اليها بما جمعت بينها وبين هذا الرجل عادت بعد
سنة أشهر تسمى اليها من أجل هذا الرجل .

ذهبت صـباح يوم الى داره لتراجع معه بعض الاغانى ،
فوجدته مقتولا فأخرجها البوليس من أجل ذلك ، وانتهزت الصحف
فنسجت من هذا الحادث رواية غرامية شائعة اسمتها « ابنة
السبيل والرجل الذى عشقها » واهتدى البوليس اخيرا الى اللصين
اللذين قتلاه ، ولكن الجرائد كانت قد هلهلت من أمرها ما هلهلت
فلم تغنها براءتها من القتل شيئا .

وأصابتها الحيرة بعد أن ذهب عنها صديقها الوحيد فى
دنيا لم تلقها أبدا بغير القسوة وهذه هى تعود لتناصبها العداء
مرة أخرى . ولم تدر ما تصنع . وهمت أن تعود الى الشارع ،
ولكن سرعان ما جاءها خطاب من مسرح كبير يعرض عليها الظهور
فيه ، فوافقت ، وظهرت على المسرح فاستقبلها الناس بالصفيـر
والصخب ، وكان أمامها خطتان أيسرهما صعب : اما أن تهرب
كالقطيطة التى جرت ، فوجب عليها أن تركن ناحية لتلتحق جروحها ،
واما أن تقاـتل كقتال الهرة التى ضيقوا عليها الخناق . فلم يعد
لها بد الا أن تدفع بالمخالب والناـب فاختارت الثانية ، وكسبت
دورها الاول باسكات الصائحين ورد المشاغبين ثم أطلقت حنجرتها
تندفع بكل ما فى صدرها من قوة ، فلما سكنت انطلقت الأيدى
تصفق حتى كادت تدمى .

وخرجت من المسرح فى تلك الليلة ، وقد آمنت بأن الله أودع
فى كيانها شـعلة لا يمكن أن تنطفئ ، لأن الله موقدها . وأخذت
تعتمد الى المؤلفين ليكتبوا لها الاغانى الجديدة فكان لهذه الاغانى
الجديدة عمل السحر فى تخطى ما كره الناس منها ، وكانت تحرص
عند غنائها على ذكر اسم مؤلف الأغنية اشـهـارا له ، وتنبئـهـا
عليه .

« ورتبوا لها حفلا تبلغ فيه الذروة ، واجتمع الناس وامتلا بهم المكان ، ولم يبق فى المدينة نابه الا حضر ، كلهم حضروا الا واحدة هى صاحبتنا ، اصابها ، وقد شاب النهار ، تخاف فى الساقين لم تحفل به وقامت تتزين فأحسست بثقل فى الساقين ثم أرادت أن تمشى فعجزت ، وبينما كان مكان الحفل يصطخب بمن فيه ، كانت هى على سريرها بالمستشفى وحيدة الا من صاحب وصاحبة ، وانتبهت بفكرها نحو ذلك الجمع الحاشد ثم الى السماء ، ولم تدر فى ذهولها ماذا تقول وقد علمت انه الشلل .

وأخذ الشلل يزحف فى جسدها زحفا ، فلما عرفت أنها الغاية المحتومة والأمل المقطوع قالت : أى ربى ، ضربت لى موعدا ، وضربوا موعدا ، وموعد الرب لا بد فيه من وفاء .

وبلغ الداء الصدر ، فأرادت أن تصدح بالغناء ، بالذى بقى من هواء ، قبل أن تفوت الفرصة ، فكانت شهقة واحدة انطلقت بها بقية من حياة كما تنطفئ شمعة .

وهكذا انتهت هذه « المأساة القصيرة » التى روى فيها الدكتور زكى ما كان من شأن هذه المطربة الصغيرة .

ولكن أى عبرة أرادها أحمد زكى من قصته هذه ، هل فى ذلك الموعد الربانى الذى قضاه الله فلا بد من قضائه قبل الموعد الذى ضرب الناس ، ولو كان فى هذا الموعد البشرى المجد البشرى كله ؟

هل هو الحظ السيئ يلاحق الفتاة فى حياتها منذ ولدت فى الشارع وحين قضت حياتها بلا مأوى حتى قضت حياتها وهى أحوج ما تكون إليها ؟ هل هى قسوة القدر ؟

قد لا يكون أيا من الأمرين هو غاية أحمد زكى من قصته ولو أخذناها على أنها حكاية يحكيها أديبنا مما قرأه أو سمعه كما يشير عنوان الكتاب الذى وضعها فيه (بين المسموع والمقروء) • ولو كان الامر هكذا - والاحتمال قائم ولكنه احتمال ضعيف - لكان علينا أن ننظر لننأمل الى أى حد كانت ريشة الفنان المعبرة عن الصورة أو المعبرة فى الصورة ولهذا أرجو أن تقرأ معنى وصف أحمد زكى لفتاتنا وقد أخذت تسير الى الشهرة :

« وحفظت على المسرح كثيرا مما ظهرت به عليه أول مرة • فهى تحتقر الزينة » وتلبس البسيط من الثياب ، وينشق الستار فتراها واقفة وحدها على المسرح الهائل كالكلب المقلوب المضروب يتحدى سيده ، وتقف وقفة المعاند كأنما تتحدى سعة المسرح وتتحدى السامعين ، ورجلاها الطويلتان قد تسمرت بالذى وقف عليه • وشعرها قد تدلى على جبهتها الحالية ، وقد تهيا لينقذف الى الوراء عندما يحين موضع النغم وقت انقذافه ويداهما اللتان كانت تربطهما وراء ظهرها ، تحررتا لتقوم بدور هام فى غنائها • فهى تحركهما أفصاحا وتعبيرا حتى تكادا تنطقان • فيفهم الراى منها ما يفهم من الكلام • • فحينما تجرى بهما أصابع على أوتار عود لا وجود له الا فى خيالها • وحينما تطويها كفين يخرج من بينهما الصوت المنغوم خافتا كأنما تسريه الى اذن بعيدة محاكاة وتمثيلا • »

هذا وصف علمى تشريحى كالعادة الغالبة على أوصاف أحمد زكى • تلحظ فيها اثر عقلية العالم الذى يصف على نحو مرتب وقد لا يهمه أن يبدأ بأبرز الأمور أو بما يراه أبرزها أو أشدها تأثيرا على السامع و القارئ ، وقد لا يهمه أن يبدى شيئا

واحدا ويسلط عليه الأضواء ويتعمق فيه ، ولكنه قبل ذلك معنى بالصورة الكلية التى تتكون من الاجزاء موصوفة جزءا جزءا ، فهذا الملبس ، وهذه الوقفة ، وهاتان الرجلان ، والشعر ، واليدان ، وحركتهما •

وهذه فقرة ثانية يحدثنا أحمد زكى فيها عن أغاني بطلة القصة ويطلب فيقول : « وتختار من الاغاني القوى الحار • ومن أغانيها الشهيرة أغنية فى الزواج الفاشل وهى أغنية تمثل امرأة قتلت زوجها لأنه خانها ، وفى دار البوليس تستمع الى اجراس عرسها القديم الذى كان ، وتتخيل حياة السعادة الأولى • ثم الى الريبة التى جاءت من بعد ذلك • ثم الشقاء آخر الأمر » ما الغرض من الحديث عن هذه الاغنية ؟ والى أى مدى يتلون ابحاؤها فى قصة صاحبتنا •

بل ما بال الأغنية الثانية التى سميتها « رجل يتبعنى فى الطريق » ، وهى أغنية تغنيها عاهر تصف فيها من تلقى من رجال • وكيف يضيق صدرها بهم ، وما يصيبها منهم من ميعة نفس يكاد يتبعها قىء • »

لا يستطيع الناقد الصادق مع نفسه ازاء وصف هاتين الأغنيتين الا أن يقول لقلمه أن يتصرف فى « البنائية » الحكمة للقصة بحيث يخرج منها ما لا تقتضيه دواعيها •

هذا اذا كان عليه أن يمضى فى البناء القصصى المسلك التقليدى ولكنه لم يمض فى هذا البناء الى غايته ، بل منذ البداية انظر الى هذا التناقض الزمنى فيما يتعلق بالمدة التى قضتها تغنى فى ملهاها الاول هل هى مدة سنوات أم ستة شهور كما عبر أحمد زكى فى موضعين مختلفين من قصته ؟؟

ليس في القصة عقدة ، وإنما اعتمد أديبنا في التشويق مذهبا
من مذاهب التدوير ، لا يبدأ بالخاتمة ، وإنما يبدأ بحدث من أحداث
القصة في وسط حياة الفتاة يوم وقفت في الشارع فراها رائد الملهى
فأعجبه صوتها فأخذها الى حيث أبرز من فنها ما نال الاعجاب .

على أن قصة أحمد زكى مع كل هذا تنال من الاعجاب الانساني
الحد الذي لا تبلغه عند النقاد المتزمتين .

القصة التأملية

ليس هناك فى تعبيرات النقد ما يقول بأدب تأملى أو قصة تأملية ، وإن كان من الممكن اطلاق هذا الوصف على أجزاء أو فقرات معينة من العمل الأدبى .

ولكن الحال مع أحمد زكى فى قصة « دينار » يختلف فيتسع بالتأمل ليجعله المحور الكبير الذى تدور حوله « قصة دينار » وهى إحدى قصص « بين المسموع والقروء » ، وفيها يحكى الدكتور أحمد زكى قصة جراح متقدم فى السن جلس ذات يوم يتأمل فيما احتواه مكتبه من متاع ، ويتذكر من خلال هذه المحتويات أيامه الخوالى .

وفجأة يقع نظره على علبة صغيرة ، ويفتحها فإذا به يجد فيها دينارا ذهبيا يتوسط بطانة من حرير أزرق .

ويأخذ صاحبنا يتذكر قصة هذا الدينار . . نعم لقد كان هذا من سنوات بعيدة جاءه به بحار عجوز جاء المستشفى يطلب الشفاء من داء ألم به فى رحلته الأخيرة ، وكان يحسب فى الجراحة التى تجرى له نهاية أجله ، وأجرى له صاحبنا الجراح العملية ، ونجحت وقام من سريريه بعد أسابيع معافى ، ولكنه عاد الى الجراح فى منزله بعد ثلاثة أسابيع ، فحسب انه يطلب احسانه ، وأخذ يشكر له ما فعله من أجله ، ثم أخرج من جيبه دينار الذهب ووضعه على المنضدة حيث يجلس الجراح وقال : أرجو منك يا سيدى أن تقبل منى هذا . انى أعلم أنه شىء قليل لا يزيدك ولا ينقصك ، وأعلم انه من سوء الأدب أن أتقدم به اليك عوضا عما أسديته الى ، وإنما

أرجو منك قبوله على انه تذكّار لما أنلتنى من صحة . انى تركت بيتى من بلادى منذ سنوات ثلاث ، وعند وداعى زوجتى أعطتنى هذا الدينار ، ولم تعطه يدا بيد ، وانما خاطلته فى كم سترتى ، وجعلتنى أعدما الا أفك عنه هذا الخيط الا اذا أخذت أحس الموت جوعا . ان حياة البحار منا يا سيدى حياة غير آمنة فهو قديم مرض فى غربته ، وهو قد يتعطل طويلا ، وقد قام هذا الدينار بينى وبين الموت ثلاثة أعوام وقد أردت فى المستشفى أن أهديه اليك اذا أنا قمت فى عافية ، وهأنذا فى عافية ، فأرجو منك يا سيدى أن تتقبله .

ويصور لنا الدكتور أحمد زكى موقف الطبيب حينذاك فى لقطة دقيقة للحظة دقيقة من لحظات الحياة التى تضطرب فيها نفس الانسان بين جلال المشاعر السامية فلا يدري ايها اسمى ، ويحترق فيها الانسان بين الصواب والصواب ، ايهما يأخذ وايهما يدع ، يصور لنا أحمد زكى هذا الموقف فى عباراته التالية من دون أن يشير الى ما أشرت اليه هنا من وصف للموقف ، ولكنه يعطينا مباشرة فى عباراته الاحساس الذى لا بد للذواقة منه اذا أراد أن يدرك أى لحظة أراد الدكتور زكى تسجيلها فى قصته القصيرة ، قال الدكتور زكى « سمع الطبيب ما سمع فاهتز له ، وحار فى الذى يصنع ، لقد كان تهيأ لأن يعطى ، فاذا اليه يساق العطاء ، وأخيرا جمع عزمه وشكر للرجل جميله وشكر عاطفته ولكنه أبى أن يأخذ الدينار ورجا منه أن يعود به الى بلاده فيهديه الى زوجته ، وعندها اغتم الرجل غما كبيرا وتجهم وجهه ، ومضى بأصابعه الى الدينار يدفعه على سطح المنضدة قريبا من حيث جلس الطبيب ، وأخذ يقول : أرجو منك يا سيدى أن تقبله ، لأعلى قيمته النقدية التى هى له ولكن على قيمته التى كانها لى طوال هذه الأعوام الثلاثة ، انى منذ تركت المستشفى لم أجد عملا ،

ومنذ تركت سريري فيه لم أجد سريرالقى عليه هذا الجسد المتعب لأنام ، ولم يكن بينى وبين الموت جوعا غير ساعات ، ولكنى وفقت اليوم الى سقينة أعمل فيها فشكرا لله على هذا التوفيق وشكرا لله أعظم على أن أعطاني القوة التى أصبر بها مع الجوع على الإبقاء على هذا الدينار . فتقبله يا سيدى منى بالذات كأنه لى . فلم يسع الطبيب الا أن يتقبله ، ويمضى أحمد زكى بعد ذلك يحدثنا عما دار بخلد الطبيب بعد ما تذكر قصة هذا الدينار الذى وجدته لساعته فيروى أن الطبيب أخرج ورقة وكتب فيها وصف الحادث فقال : لقد قبلت فى حياتى الطويلة كثيرا من الهدايا الثمينة أهداها الى قوم كرام وان لم يكن فى تلك الهدايا هدية اثنى من ذلك الدينار الصغير القليل ، ورفعته باصابعى عن المنضدة وأنا أحس كم كلف هذا الدينار - هذا الرجل البحار الساذج الغريب من آلام ، وتخيلته وهو يطوف الميناء يبحث عن عمل فلا يجد ، وما لقى فى أثناء ذلك من جوع ، وتصورت مالا بد قد افترشه من الأرض . كل هذا والدينار فى جيبه يستطيع أن يشتري به القوت والفراش ، وهو يأبى أن يضعه ليهديه الى وفاء لجميل زعم أنى صنعته فأى هدية تقول هذا ؟ وأى وفاء ، ولو مخدوعا يعدل هذا الوفاء ، وأى قلب فى قلوب الناس فى أى طبقة من طبقات الأرض يكبر هذا القلب الشديد ، ولم ينل من الأوسمة اعترافا بهذا المجهود الا أنه يجوع أحيانا .

وختم الدكتور أحمد زكى عبارته بعلامة التعجب . هل اراد الدكتور أحمد زكى أن يحدثنا فى عطف واستعطاف عن حياة البحارين وما يلاقونه ، فجعل ذلك فى صورة الحديث على لسان الطبيب الذى تذكر ما حدث ، لواحد من هؤلاء اصابه المرضى ، والاشراف على الموت ، والجوع والاشراف على الهلاك ، والبعد عن الوطن . والتعطل ، والاشراف على الضياع ؟

هل اراد ان يعبر لنا عن هذه العاطفة النبيلة في قلب البحار
كيف كانت والى اى مدى يكون نبل العواطف ؟

ام اراد ان يحدثنا عن عاطفه اخرى لاتقل نبلا هى عاطفة
ذلك الجراح الذى قدر عاطفة البحار ونيل خلقه حين اهداه ما كان
اعز عليه من كل شىء عند غيره ، مهما كان هذا الشىء لا مع
قيمة الشىء فى ذاته ، ولكن فيما يمثله هذا الشىء عند باذله .
وهو المعنى الذى عبر عنه احمد زكى بعبارات بلغت ذروة البيان
الرفيع فى قوله : « ارجو منك ياسيدى ان تقبله ، لا على قيمته
التي هى له ، ولكن على قيمته التي كانها لى » .

اغلب المظن انه اراد هذه المعانى الأربعة مجتمعة والقصة
على لسان الجراح ، وهى تأتية من باب الاسترجاع ، وهو
استرجاع ذاتى ، يعود فيه الى ذاكرته (Flash back)
وليس فى الامر اعتماد على مصادفات ، انما هو رأى شيئا فتذكر
فيه القصة ، فلما تذكرها ومرت بذهنه معانيها الخالدات اخرج
الورقة وسجل فيها ما سجل من رؤيته لهذه المواقف .

وقد استبقنا التعليق بينا كنا نسرد القصة فاشرنا الى ان
احمد زكى كان يصور الموقف اللحظى فى تأملات دقيقة جدا ،
ونذكرنا لذلك مثلا بالحوار الذى اداراه عالمنا بين جراحه وبحاره ،
ولكن لا بأس ان نشير هنا الى تلك العبارات التى يصف بها احمد
زكى حديث البحار الى الطبيب فى بدايه لقائه به عندما ذهب يقدم
اليه الدينار : « وتحدث فى بساطة وفى تودة » ، وفى حرارة ، ووثوق
اعوزه الطلاء فتأثر الطبيب من هذا اللسان الخام تأثرا كبيرا
وهو الذى استمع لمئات من كلمات الحمد والعد العديد ، من خطب
الثناء مزوقة مطرزة » .

لابد لنا أن نقف هنا أمام الصفات الأربعة التى وصف أحمد زكى فيها حديث البحار فى بساطة وفى تودة ، وفى شوق اعوزه هل جاءت هذه الصفات المثالية من قلم أحمد دزكى كما تجيء المترادفات على اقلام كتابنا تتوالى تترى وراء بعضها تأكيدا للمعنى المراد أو زيادة فى ايضاح الصورة ، كلا وانما جاءت كما تجيء عبارات عالم الكيمياء يصف المادة التى امامه فيذكر شكلها وحجمها ولونها ووزنها وكثافتها وحالتها من الصلابه والسيولة . الخ (وهذا هو الفرق الحقيقى) والفرق الدقيق ، والفرق الاول بين كتابة العالم متأثرا بعلمه ، وكتابة غير العالم أو العالم غير متأثر بعلمه ، هذا معنى التفاوت بين القلم المتدفق يعطف ليتناول الجوانب والاعطاف المختلفة للشئ الواحد لأنه يريد ان يصل الى الحقيقة من زوايا عديدة ، وبين القلم المتدفق الواحد بالكلمة ذاتها وباخواتها الشقيقات وغير الشقيقات .

ولو انك غيرت أو بدلت فى عبارة احمد زكى بالحذف فحذفت التودة أو البساطة أو الحرارة أو التدفق لما وصلت الى المعنى الذى ادته العبارة مكتملة .

ولكنك تستطيع أن تحذف فقرات وسطورا بأكملها من مقالات فلا يهتز المعنى المراد ولا شعرة واحدة ، ولست انت الذى تستطيع ان تحذف من مقالاتهم ولكنهم هم أيضا يستطيعون بل هم أول من يفعلون .

ليس بعد ذلك من قول الا الثناء على التوفيق فى اختيار عنوان القصة التأملية (الذى لا اظنه يكون الا هكذا كلمة واحدة نكرة) واطلاقه هكذا نكرة ، ولكن من باب التنكير للتعظيم ! وما كان اعظمه من دينار ، ديناراً وقصة !

التصوير البياني في قصص الدكتور أحمد زكى

يركز هذا الباب بصورة ما على جلاء الناحية التصويرية فى ادب احمد زكى على نحو لا يستقصى ، ولكنه يضرب الامثلة ، ويؤمن المؤلف بالقول القائل ان خير ما فى الصورة هو الصورة نفسها ، ولهذا فانه سيتعرض فى هذا الباب لأبرز الصور فى قصتين من قصص الدكتور زكى هى « شعاع فى الظلام » « ونزل الستار فحجب النور ثم ، ارتفع » ، وسنقدم لكل بفكرة عن القصة عامة ونُبذة عن موضع الصورة بخالصة ، ونحن فى هذا أشبه بالمرشد السياحى اكثر منا بالنقاد ، ولكن مرجع هذا بلاشك هو الى الصورة نفسها التى هى ابلغ ما فى الصورة .

١

فلما قصة « شعاع فى الظلام » فقصة فتاة عمياء ، قامت على تعليمها فى تبصر وتجلد سيدة عظيمة من اولئك الذين منحهم الله القدرة على العطاء ، فعوضها عن هذا البصر المفقود خير تعويض . . هذه هى القصة فى اختصار شديد ، يسمح لنا ان ندلف مباشرة الى الجوانب التصويرية التى اعطت لهذه القصة ابعادها البيانية : -

١ - ففقد البصر عند الطفلة ليس بالامر الهين على حسب ما عبرت عنه عبارة احمد زكى فى بلاغة رقيقة فى اول القصة حين يقول : « ما أشق على الرجل ان يفقد بصره وأشق من هذا ان تفقد امرأة ، وقد نراه فى طفل فنأسى له ، ولكننا نأسى اكثر اذا نحن رأيناه فى طفلة ، وفاقد البصر يحرم من كثير من خيرات هذه

الدنيا ويحرم أشد حرمان من ثمرات العقول اذا لم تتح له فرصة التعليم ، وهى قل ان تتاح لأعمى »

٢ - يصور لنا احمد زكى على لسان الفتاة اول شعاع من نور رآته الفتاة العمياء على يد مدرستها فيقول : « .. ونزلت في بيتنا ، وجاء اليوم التالى ، فأخذتنى الى حجرتها ، واعطتنى عروسا من قطن فى ثوب حرير ، ولعبت بالعروس ساعة وبيننا انا فى اثنائها ، فتحت مدرستى يدي ، وكتبت فى كفى « عروس » لعبة جديدة تلهو فيها الأصابع ، تابعتها حتى حذقتها ، فملأنى حذقى اياما فرحا ، وثقة واعجابا ، وجريت الى امى ارسم لها هذا الرسم الجديد باصبعى فى كفى ، ولم أكن ادري عندئذ انى اتهمى كلمة بل لم يكن يخطر فى بالى ان للكلمات وجودا ، وفى الايام التالية تعلمت بهذه الطريقة كتابة كلمات كثيرة ، مثل قلم وساعة وباب ، ومن الافعال : قعد وجلس وشرب وجاع ، ومضت اسابيع كثيرة قبل ان أعمى ان هذه كتابة ، وأن للاشياء الفاظا مرقومة .

٣ - يمضى بنا احمد زكى الى تفصيلات هامة وطريفة ، فى طريقة تعليم المكفوفين على هذا النحو ، فيذكر على لسان الفتاة « واختلطت على ذات يوم كلمتان كلمة « ك و ب » وكلمة « م ا ء » والح الاختلاط على الفتاة رغم ما حاولته مدرستى من ابانة ، عندها أخذت بيدي وخرجت الى الحديقة ، ووضعت يدي تحت صنبور ماء ، فأحسست السائل البارد يغمر يدي ، وهى تكتب فى يدي الاخرى « م ا ء » وتركز فكرى كل التركيز على يسراى ويمناى ، عندئذ انحلت عقدة فى نفسى فرحت لها فرحا شديدا ، فى تلك الساعة تكشف لى معنى اللغة لأول مرة ، وعدت الى الدار مغتبطة أحس كل شىء فى طريقى ، واحسست كأن كل شىء يتحرك

عند مسمى ، لانه اخذ عندى ينبض بالحياة ، لكل شىء اسم ، ولكل اسم كلمة ، وفى كل كلمة فكرة ، ومن مجموع هذه الاسماء والكلمات والافكار تتألف لغة الكلام والكتابة شىء عظيم ، وتعلمت معنى الام والاب ، والاخ والاخت والمعلمة ، معان تشع بالنور الابيض فى حياة كل ما فيها سواد » .

٤ - وهذه لوحة رابعة رائعة يصور فيها أحمد زكى الفتاة . وقد تقدم بها التعليم الى المرحلة التى صاغت فيها الجمل وادركت فيها اختلاف الفصول والمطر والشجر والطير والارانب وتفتحت لها أروقة الدنيا ، ودرست الطبيعة ثم المعنويات . وهذه هى اللوحة التى يصور لنا فيها أحمد زكى هذا الانتقال الى مرحلة المعنويات على لسان الفتاة اذ يقول : سألته يوما « ما معنى الحب ؟ وكنت جئت لها بزهرات بنفسيج جميعها ذلك الصباح من الجنينة ، فوضعت ذراعها حول خاصرتى وقبلتنى ، ثم كتبت بأصبعها فى كفى : « انى احبك » . قلت : ما الحب ؟ ، قالت : انه هنا ، وأشارت الى مكان قلبى من صدرى ، كأنما احسست بضربات قلبى لأول مرة .

ولكن حيرنى ما تقول ، لانى لم اتعود ان افهم الاشياء الا عند مسها . وشجعت البنفسج ، ثم سألته فى شىء من الكلام على اشارة اريج البنفسج هذا هو الحب أو هو بعضه ؟ قالت : لا ، عندئذ احسست دفء الشمس تقع على ، فقلت : أهذا هو الحب ؟ . قالت : لا فأحسست بالخيبة ان مدرستى لاتستطيع ان ترينى الحب . وذات يوم كنت انظم عقدا ولامر ما اخطأت فى ترتيب حباته ، وأخذت اطلب الطريقة الى تصحيحه ، عندئذ كتبت مدرستى على جبينى « فكرى » فعرفت من ذلك ان الذى يدور فى رأسى هو معنى الفكر . فكان هذا اول اطلاعى على معنى مجرد ، وقد كنت اعرف معانى الاشياء محسوسة .

عندئذ خطر لى ان اعود فى ضوء هذا المعنى الجديد ، فاسأل
عن معنى الحب ، وكانت الشمس قد غابت .

قالت « ان هذا الغمام فى السماء لاتمسه يدك ، ولكنك تحسينه
فى المطر اذا نزل فى يوم صائف وعندئذ تغتبطين له ، وتغبط معك
زهور الحديقة لنزوله ، فكذلك هو الحب ، لا تستطعين مسه ،
ولكنك تحسينه فى قلبك وتحسه الاشياء ، فلولو الحب يتخلل الاشياء
والناس ، ما كانت سعادة ، ولولو الحب ما كنت تسرعين الى
الحقل وتلعبين » .

كلام استعصى على فى تلك السن فهمه ، ولكنى احسست انه
على انبهامه ، مد لى خيوطا تربطنى بالحياة وبالوجود .

٣

والقصة الثانية « نزل الستار فحجب النور ، ثم ارتفع » تدور
فى نفس الظروف مع فارق الترتيب والزمن ، فهى قصة رجل اصابه
العمى ، ثم ذهب عنه العمى ، واحمد زكى يحكى لنا فيها تجربة
العمى من ناحيتين ، الناحية الطبية المادية ، والناحية النفسية ،
لهذا فان « نزل الستار » من الادب التصويرى فى المقام الاول ،
قبل ان تكون قصة رجل ذهب عنه العمى رويدا رويدا ، ثم اتاه
البصر دفعة واحدة ، فرأى ، فعلم أن الصحة تاج على رؤوس
الاصحاء لا يراه الا المرضى .

ولهذا فلن نطيل فى استخلاص العبر من القصة الا بالقدر
الذى عبر احمد زكى فى آخر مقاله حيث قال : « فلنحمد الله على
نعم لا ندرکها الا عند افتقادها »

وقبل ان نذهب في استعراض الصور البيانية التى اتحفنا بها
الدكتور زكى ينبغى لنا ان نقف عند نقطتين *

اولاهما الاشارة الى سبب ما أحسه القارئ من ان هذا
الباب الذى يدرس التصوير البيانى فى أدب الدكتور زكى قد جمع
قصتين تدوران حول فقد البصر ، وليس من شك فى أنه لاغربة
فى ذلك ، فالبصر هو أول الحواس واقدرها على التصوير وادراك
التصوير ، وليس من مجال ارووع ولا ابداع لبيان القدرة البيانية
على التصوير من هذا المجال الذى يتصل بتصوير ادق
الاحساسات والمشاعر *

وثانيهما المقارنة بين طبيعة القصة فى الحالتين ، وكيف
استطاع احمد زكى من خلال الصور ان يعبر عن الحالتين
المتشابهتين مبينا اثر وجوه الاختلاف من دون ان يشير الى انها
وجوه اختلاف ، وانما تستبين هذه للقارئ الذى يقرأ القصتين
أو الذى يقرأ هذا الفصل فيدرك الدرجة الرقيقة من التمييز
والتفريق التى حبا بها الله احمد زكى *

ونعود الى الصور البيانية فى قصة « نزل الستار ، فحجب
النور ، ثم ارتفع » :

١ - فاحمد زكى يشرح نظرية التعويض من غير تصريح
باسمها ، فيقول : « واذا عمى الانسان وحجب نوره ، استيقظت
فيه الاحاسيس الاخرى استيقاظا غير منظور ، فهو يسمع اكثر
مما يسمع ، ويشم اكثر مما يشم ، والخشب والمعدن يقتربان منه ،
فيدرك اقترابهما بفروق خفيفة من حرارة وبرودة ، والقطن والصوف
وقد كان مسهما أطول المس ، يمسهما الآن ، فيجد من مسها شيئا

جديدا ، والكلب والنقط والناس يصبح لهم الى جانب الشم
هالة ، كأنها هالة من مغناطيسية كهربية »

٢ - يصور أحمد زكى مراحل العمى فيقول : « وجاءه العمى
على مهل ، فأخذ منه شمع الحياة واحدة بعد الأخرى : فالرياضة
والألعاب ذهبت وأول ما ذهب لعب التنس ثم الكرة ، ثم السيارة ،
أخذ سيرها في يديه يتباطأ حتى صارت ابطلا من حمار ، ثم الكتب
عزت قراءتها ، ثم امتنعت ، وكذلك الصحف لم يعد يقرأ منها
الا عنوانها ثم ذهبت هذه » .

٣ - صورة أخرى للرجل وقد عاد اليه بصره فهو ينظر
الى رجل امامه ويسأل من هذا الرجل ، وللرجل صورة ولده الأكبر
« انه لا يعرفه » موقف غريب . يلذ ويؤلم . ويسأل الابن اياه :
« الا تعرفنى ؟ فيقول الأب في نفسه : « الحق انى لا أعرفك يا بنى
ووجهه أزرق كسائر الرجوه ، ولكن من تكون ؟ أنت ؟ ابنى ؟
لا يمكن هذا ان ابنى طفل او شاب ، اما اذت فكهل » .

ويعود الابن يسأل : « الا تعرفنى يا ابنى ؟ فيقول فى نفسه « نعم
انه صوت الولد . ولكنه ليس الآن بولد . كبير خلسة ...
ويتعارفان » .

فهرس الاعلام

(١)

- ابراهيم باشا : ٣٤٠
الدكتور ابراهيم بيومي مذكور : ٥٦
الدكتور ابراهيم رجب فهمي : ٥٥
ابراهيم عبد القادر المازني : ٥٨
ابن الهيثم : ٢١٦
ابن خلدون : ٢١٦
ابن رشد : ١٢٨
ابن زهر : ٩٠
ابن سينا : ٩٠ ، ١٢٨
ابو العلاء المعري : ٦٣
ابو تمام : ٧٣
أرسطو : ١٢٨ ، ١٨٣
أحمد أمين : ٢٤ ، ٥٦ ، ٧٣ ، ٣٢٠
أحمد حسن الزيات : ٦٨ ، ٩٨ ، ٣٢٠
أحمد زكي باشا : ١٢
أحمد شوقي : ٩٩
أحمد عبد السلام الكرواني : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥
أحمد قحري : ٦٢
أحمد لطفي السيد : ١٢ ، ٣٨ ، ٩٧ ، ٩٨
أحمد نجيب الهلالي : ٢٤
أرسطو : ١٢٨ ، ١٨٣

اسماعيل حقي : ٧٩

- أسمهان : ٩٩
آل زيدان : ٥٧
البحري : ٧٣
الجاحظ : ٧٣
الرازي : ٩٠
السيد البدوي : ١٢٨
الفارابي : ١٢٨
الكرداسي (شارع) : ٩٣
الكندي : ٢١٦
المتنبي : ٧٣ ، ١٤٨ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨
اليس (الفتاة اليس في بلاد
العجائب) : ١٨٦
أم كلثوم : ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠
اميل سمعان : ١٧
امينة السعيد : ٥٨
أوجيني كلارك : ٦٨
أوسكار مقري : ٥١
أينشتين : ٦٨

(ب)

- بالى : ٢٦
بريجل : ٢٨
د. بنت الشاطيء : ٥٨
بول دي كريف : ٦٨
بومدين : ١١٨
بين (توماس) : ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤

(ت)

توفيق الحكيم : ٩٧

تونج (ماوتسى) : ١٢٧

(ج)

جافى (برنارد) : ٦٨

جمال عبد الناصر : ٣٧ ، ٤٦ ، ٤٧

جنيد : ٢١

جونسون : ١١٦

(ح)

حاكم (الفنان) : ٤٩

د. حامد جوهر : ١٧ ، ٣٠ ، ٨٥ ،

٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٢

حسن افلاطون (باشا) : ٢٩

د. حسن صادق : ٥٥

اللواء حسن عاكف : ١٧ ، ٢١

الشيخ حسنين مخلوف : ٤١ ، ٦٥

حسين سرى (باشا) : ٣٢ ، ٣٤ ،

٩٣

د. حسين فوزى : ١٧ ، ٩٥

حلمى بهجت بدوى : ٨٨

حنيفة عاكف : ٢١

(د)

دارك (جان) : ٧١ ، ٣٢٠

الدكتور درى : ٦١

دريد بن الصمة : ٢٠٤

(ر)

د. رشاد مصطفى : ٦١ ، ٦٣

روبرت روبنسون : ٢٧

روسو (جان جاك) : ١٤٥

رولان (مدام) : ١٥٤

(ز)

زكى المهندس : ٥٦

زكى طليمات : ٩٨

د. سامح خميس : ١٧

سامح كريم : ٧٦

سعد الله مدور : ٢٢

سعد زشلول : ٢٢

سقراط : ٩٠

سلامة حجازى : ٩٩

سليمان عزمى : ٥٨

سليم زبال : ٥١

(ش)

شو (جورج برنارد) : ٣٤٩

(ص)

صالح بن عبد القدوس : ١٤٩

صباح الاحمد الصباح : ٤٥

صلاح جلال : ١٧

(ط)

طاهر الطناحى : ٦٤ ، ٧٤

طه حسين : ٢٩ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٣١٧

(ع)

عابس عمار : ٨٨

عباس محمود العقاد : ٥٨ ، ٧٥ ،

٩٨ ، ٣١٧

عبد الجليل الجوادى : ١٨٧

عبد الحليم منتصر : ٧٥

عبد الحميد الحديدى : ٩٨

عبد الحميد العبادى : ٢٢

عبد الرحمن الرافعى : ٥٨

عبد الرحمن خضير : ٢١

عبد الرزاق السنهورى : ٣٣ ، ٥٥

عبد الستار مصطفى : ٣

عبد العزيز أحمد : ٢٨

عبد العزيز جاويش : ٩٢

عبد اللطيف البغدادي (الرحالة) :
٢١٦

عبد المجيد عبد الحق : ٨٥

عبد المنعم أبو العزم : ١٧ ، ٣٠ ، ٨٥ ، ٩٤

عبد الوهاب خلاف : ٥٦

عبد الوهاب عزام : ٥٦

عبد الحميد الحامولي : ٩٩

علي البطرأوي : ٢

علي حسن : ٥٥

علي محمود طه : ٥٥

د. علي مصطفى مشرفة (باشا) :
٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٩

٢١ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٥٥ ، ٣١٥

(غ)

غادة الكامليا : ٧١ ، ٣٢٠
غاندي : ٩٠

(ف)

فكري أباطة : ٥٨ ، ٨٥

(ك)

كامل الكيلاني : ٩٨

كامل منصور : ١٧ ، ٥٥

كامل يعقوب : ٥٨

كونانت (جيمس) : ٦٨

كوبيت : ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣

(ل)

لبية أحمد زكي : ٦٢ ، ١٠١

لك : ١٦٠

لنكولن : ٩١

(م)

ماركس (كارل) : ١٦١

محمد (صلعم) : ٢١٢

محمد أبو زهرة : ٧٣

د. محمد أحمد الغراوي : ٢٣ ، ٥٥

محمد أمين عاكف : ٢١

محمد أنور السادات : ٤٧

محمد بدران : ٢٢

محمد توفيق دياب : ٥٨

د. محمد خليل عبد الخالق : ٥٥

د. محمد رضا مدور : ٥٥

محمد رفعت (الشيخ) : ٩٩

د. محمد شرف : ٥٦

د. محمد شفيق غريال : ٢٢

محمد طنطاوي : ١٧ ، ٥١

د. محمد عبد اللطيف إبراهيم : ٥ ، ٩

محمد عبد المنعم أبو زهرة : ٢٣

محمد عبد الوهاب (الفنان) :
٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠

محمد عبده (الشيخ : ٢١

محمد علي (الوالي) : ١٢ ، ٢٤٠

محمد علي علوبه (باشا) : ٥٨

د. محمد عوض محمد : ٤٢ ، ٤٤

محمد فريد أبو حديد : ٢٢ ، ٥٦ ، ٩٣

د. محمد كامل حسين : ٢١ ، ٤٤ ، ٩٥ ، ٣١٩

محمد كامل سليم : ٢٣

د. محمد محمد الجواد : ٩٠ ، ٦٠٥

د. محمد مهدي علام : ٥٧

الرئيس محمد نجيب : ٣٥ ، ٣٦ ، ٢٧ ، ٤٣

د. محمود حافظ : ١٧

محمود سامي البارودي : ٤٠٢

ميكافيللى : ٩١ ، ١٤٣

(ن)

نقشة : ١٧٠

نهر : ٩١

نكسون : ١١٦

(هـ)

هبز : ٦٠

هوشى نمه : ١٢٣

(و)

ويلز : ٣٤٠

(ى)

يوسف بك الجندى : ٩٣

يوسف زعلوى : ٥١

يوسف وهبى : ٢٣

يونس سالم ثابت : ٥٥

محمود سليمان غنام : ٩٩

الشيخ محمود شلتوت : ٥٦ ، ٩٧ ، ٩٨

محمود عوض : ٧٠

محمود فهمى النقراشى (باشا) :

مصطفى امين : ١٧

الشيخ مصطفى عبد الرازق (باشا)

٢٤ ، ٢٥ ، ٦٥ ، ٩٢

مصطفى كامل (باشا) : ٩١

مصطفى نظيف (بك) : ٥٦

مكرم عبيد (باشا) : ٢٩

الدكتور منصور فهمى : ٢٤ ،

٩٢ ، ٩٨

منير نصيف : ١٧ ، ٥١

منتسكيو : ١٦١

مهيار : ٦٣

المحتويات

٣		اهـءاء
٥		تقءيم بقلم الاسءاءء الءكءور مءمء عبء اللطيف ابراهيم
١١		مءءمة المؤلف
٢١		الءءء الاول ٠٠ ءياة الءكءور أءمء زكى
١٠٢		الءءء الءانى : فلسفة أءمء زكى
١٠٥		الباب الاول : الفكر السياسى
١٤٤		الباب الءانى : الءرية فى تفكير أءمء زكى
١٦٤		الباب الءالى : نظراء فلسفية
١٦٨		الباب الرابع : فلسفة الءياة
١٦٥		الباب الءامس : أءمء زكى والوءءة العربية
٢٠٨		الباب السادس : الاسلام والعصر الءءىء
٢٢٢		الباب السابع : نظرية البناء الاجءماعى
٢٥٦		الباب الءامى : نظرة فى الاصلاء الاجءماعى
٢٦٤		الباب الءاسع : المرأة
٢٧٤		الباب العاشر : ءنظيم الاسرة
٢٨٨		الباب الءاءى عشر : آراء فى ءءلیم الجامعى
٣٠٠		الباب الءانى عشر : مفاهيم اعلامية وءقافية

٣١٣		الجزء الثالث : أدب أحمد زكى
٣١٥		- أدب أحمد زكى
٣٥٧		- من القصص السياسى
٣٦٥		- أدب المصادفات
٣٧٧		- الدراما فى قصص الدكتور زكى
٣٩٣		- القصة التأملية
٣٩٩		- التصوير البيانى فى قصص الدكتور أحمد زكى
٤٠٥		- فهرس الإعلام
٤٠٩		- المحتويات
		- الملخص الانجليزى

رقم الايداع ٨٤/٤٣٨٧

الترقيم الدولى ٠ - ٠٤٣١ - ٠١ - ٩٧٧

ABSTRACT

Dr. Ahmed Zaki was one of the most prominent Arabic scientists in the first half of the 20th. Century To his efforts we attribute the foundation of our national school of organic chemistry as the first Egyptian among the staff of chemistry in the Faculty of Science in the first Egyptian University as well as the first Egyptian chemist to obtain D.Sc. in chemistry from London University (1928).

Before his mission to Europe (1921 — 1928) he worked as a teacher in different Cairo secondary schools after being graduated in the high school of teachers (1914).

Dr. Zaki was born in Suez on the Suez Canal (1894) where he spent his first years of life before depature to Cairo (1900).

As Dr. Zaki had the chance to be one of the staff of Faculty of Science, he did his best for creation of junior Egyptian Chemists as well as for the encouragement of youth scientific and social activities.

Thereafter, Dr. Zaki was chosen to be the first National Director of Chemistry Organization of Egypt where he also could achieve an outstanding success.

As soon as his calling for the establishment of National Scientific Research Centre took place in 1946, he was appointed as the first director where he did a lot of hard creative work for a long time till he was able to introduce to his country this great effective and active organization. At very short periods of time Dr. Zaki was the «Minister of Social Affairs» (1952), Director of Cairo University (1953), Director of Chemistry Organization (1945) and chief editor of El-helal, the oldest Arabic cultural magazine (1947 — 1950).

After his retirement, Prof. Zaki was invited to establish in Kuwait a newly monthly illustrated review named «El-Arabi». The magazine which Prof. Zaki gave his vast experience and full time up to the last minute of his life (1975). Dr. Zaki wrote a lot about his point of view regarding the political and social affairs as much as about science, medicine and inventions in simplified way. Besides, Dr. Zaki was Former President of Egyptian Academy for Science, and Egyptian Academy for Advancement of Science and a member of Arabic Language Academy (1946).

This book deals with the life of that great arabic thinker and scientist in the first chapter. The second one is dedicated to the presentation and criticism of his philosophy in many fields whereas the third chapter introduces & discusses the Literature of Dr. Zaki which was fortunately of high quality and great quantity.

A complete bibliography for the works of Dr. Zaki has been prepared by the author who he hopes that it will have the chance to see the light.

*Dr. M. Gawady
P.O. Box 177 Orman*

AHMED ZAKI

HIS LIFE, PHILOSOPHY & LITERATURE

Dr. MOHAMED EL GAWADY



General Egyptian Book Organization